قصيدة الإنسان - الإله / ماريا فالتورتا

Il Poema Dell' Uomo-Dio / Maria Valtorta

The Poem Of The Man-God

بالفرنسية: (الإنجيل كما أوحي به إليّ)

L'Évangile tel qu'il m'a été révélé

الجزء الأول

{الحياة الخفيّة}

ترجمه إلى اللغة العربية : فيكتور مصلح

آخر تحديث : 00.00.18

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

(فهرس الجزء الأول)

لمحة عن سيرة حياة المترجِم.
المَدخَل.
الإهداء.
بُشرى خَلاص (الإنجيل في قصيدة).
المقدمة.
التهيئة.
الجزء الأول – 1 (يمكن تَسمية مريم ثانية بِكْر الآب)
الجزء الأول – 2 (يواكيم وحنّة يَنذُران للربّ)
الجزء الأول – 3 (حنّة تصلي في الهيكل والله يستجيب لصلاتها)
الجزء الأول – 4 (يواكيم كان قد تزوّج حكمة الله المحتواة في قلب المرأة البارّة)
الجزء الأول – 5 (حنّة تُعلِن أُمومتها بنشيد)
الجزء الأول – 6 (الخالية مِن كلّ عيب لم تغب أبداً عن ذاكرة الله)
الجزء الأول – 7 (وِلادة مريم العذراء)
الجزء الأول – 8 (تبدو نفسها جميلة ولا عيب فيها كما كانت في فِكر الله)
الجزء الأول – 9 (بعد ثلاث سنوات ستكونين هنا، يا زنبقتي)
الجزء الأول – 10 (ها هي الطفلة الكاملة ذات قلب الحمامة)

الجزء الأول – 11 (يا فرحي، كيف تَعلَمين هذه الأمور المقدَّسة؟ مَن قالها لكِ؟)
الجزء الأول – 12 (ألم يضع الابن حكمته ذاتها على شَفَتيّ والدته؟)
الجزء الأول – 13 (تقدمة مريم للهيكل)
الجزء الأول – 14 (العذراء الأبديّة لا تفكّر إلّا بأمر واحد: أن توجّه قلبها إلى الله)
الجزء الأول – 15 (موت يواكيم وحنّة)
الجزء الأول – 16 (يُفترض فيكِ أن تكوني أُمّ المسيح)
الجزء الأول – 17 (كانت ترى مجدّداً كلّ ما كانت روحها قد رأته في الله)
الجزء الأول – 18 (سيمنحكِ الله عروسكِ وسيكون قدّيساً لأنكِ وثقتِ بالله. وستبوحين له بنذركِ)
الجزء الأول – 19 (يوسف المُختار عروساً للعذراء)
الجزء الأول – 20 (زواج العذراء ويوسف)
الجزء الأول – 21 (وَضْع يوسف مِثل "خاتم على خاتم" مِثل رئيس الملائكة على عتبة الفردوس)
الجزء الأول – 22 (العروسان يَصِلان إلى الناصرة)
الجزء الأول – 23 (البِشـــــــارة)
الجزء الأول – 24 (مَعصية حواء الأولى)
الجزء الأول – 25 (حواء الجديدة مارَسَت الطاعة في كلّ المناسبات)
الجزء الأول – 26 (كلمة أخرى حول شرح الخطيئة الأصلية)
الجزء الأول – 27 (إعلام يوسف بخبر حَبَل أليصابات)

الجزء الأول – 28 (دَعي لي أمر تبرئة ساحتكِ أمام عروسكِ)
الجزء الأول – 29 (مريم ويوسف يَمضِيان إلى أورشليم)
الجزء الأول – 30 (مِن أورشليم إلى بيت زكريا)
الجزء الأول – 31 (لا تتخلوا أبداً عن حماية الصلاة)
الجزء الأول – 32 (وصول مريم إلى بيت زكريّا)
الجزء الأول – 33 (مريم تَبوح بالاسم لأليصابات)
الجزء الأول – 34 (مريم تتحدث عن ابنها)
الجزء الأول – 35 (يجب أن تجعلنا عطية الله أفضل على الدوام)
الجزء الأول – 36 (وِلادة المعمدان)
الجزء الأول – 37 (يتفتح الأمل مِثل زهرة لِمَن يتكئ برأسه على صدري الوالدي)
الجزء الأول – 38 (خِتـان المعمـــدان)
الجزء الأول – 39 (هيِّئوا أنفسكم لاستقبال النور)
الجزء الأول – 40 (تقدمة المعمدان إلى الهيكل)
الجزء الأول – 41 (لو كان يوسف أقلّ قداسة لما مَنَحَهُ الله نوره)
الجزء الأول – 42 (مريم الناصريّة تتفاهم مع يوسف)
الجزء الأول – 43 (اتركوا للربّ مهمّة الإعلان لكم عن خُدَّامه)
الجزء الأول – 44 (مَنشور الإحصاء)

الجزء الأول – 45 (أن نحبّ يعني إرضاء مَن نحبّ بما يتجاوز الإحساس والمنفعة)
الجزء الأول – 46 (السـفر إلى بيت لحم)
الجزء الأول – 47 (ميلاد يسـوع ربّنـا)
الجزء الأول – 48 (أنا، مريم، قد افتديتُ المرأة بأمومتي الإلهيّة)
الجزء الأول – 49 (عِبـادة الـرُّعاة)
الجزء الأول – 50 (عند الرُّعاة توجد كلّ الصفات اللازمة ليكونوا عابِدي الكلمة)
الجزء الأول – 51 (زيارة زكريّا)
الجزء الأول – 52 (يوسف يحمي كذلك النفوس المكرَّسة)
الجزء الأول – 53 (تقدمة يسوع إلى الهيكل)
الجزء الأول – 54 (العِبَر التي تنبثق مِن المشهد السابق)
الجزء الأول – 55 (هَدهَدة العذراء)
الجزء الأول – 56 (سُجود المجوس الثلاثة)
الجزء الأول – 57 (تأمُّلات في إيمان المجوس)
الجزء الأول – 58 (الهـروب إلـى مصـر)
الجزء الأول – 59 (كان الألم رفيقنا الأمين، وقد اتَّخَذَ مختلف الأشكال وكلّ الأسماء)
الجزء الأول – 60 (العائلة المقدَّسة في مصر)
الجزء الأول – 61 (في هذا البيت يُراعَى النظام)

الجزء الأول – 62 (الدرس الأول في العمل ليسوع)
الجزء الأول – 63 (لم أشأ التخلّص مِن قواعد النموّ بِصَخَب)
الجزء الأول – 64 (مريم معلّمة يسوع ويوضاس ويعقوب)
الجزء الأول – 65 (تحضير ثياب سنّ الرّشد ليسوع)
الجزء الأول – 66 (الانطلاق مِن الناصرة للاحتفال ببلوغ يسوع سنّ الرّشد)
الجزء الأول – 67 (امتحان رشد يسوع في الهيكل)
الجزء الأول – 68 (نِقاش يسوع مع علماء الهيكل)
الجزء الأول – 69 (ألم مريم لدى اختفاء يسوع)
الجزء الأول – 70 (وفاة القدّيس يوسف)
الجزء الأول – 71 (بوفاة يوسف، اختبَرَت مريم ألماً حاداً)
الجزء الأول – 72 (خُلاصة الحياة الخفية)

--- نهاية فهرس الجزء الأول ---

--------------- (عودة إلى بداية الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

(لمحة عن سيرة حياة المترجِم)

هو فيكتور ابن الخوري إبراهيم مصلح، مِن مواليد 1952 (دمشق – سوريا).

أمضى المرحلة الابتدائية في مدرسة الآباء اللعازريين (دمشق – سوريا).

أمضى المرحلة الإعدادية كإكليريكي في إكليريكية دير المُخلّص (صيدا – لبنان) وأنهى بعدها سنة الابتداء (الاستعداد للنذور الرهبانية) في الدير ذاته.

أمضى المرحلة الثانوية في مدرسة العِناية (دمشق – سوريا).

تعلّمَ اللغة الفرنسية على أيدي أساتذة فرنسيين.

شاركَ بتأسيس مركز التعليم المسيحي لطلاّب المرحلة الثانوية بصفة عضو مؤسِّس.

كان عضواً فاعلاً في الأخوية المَريمية بدمشق.

ساهَمَ بإعطاءِ دروس التعليم المسيحي في المراكز الكنَسية المُهتَّمة بطُلاّب المرحلة الابتدائية.

عضو في أخويات عائلات مريم.

شغلَ مناصب عدّة في جمعية القدّيس منصور الخيرية بدمشق.

شَرَع بترجمة كتاب قصيدة الإنسان–الإله (الإنجيل كما أوحي به إليّ) لماريا فالتورتا مِن اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية في عام 2000 بعد أن نَصَحَه بقراءته الأب ميشيل زمّار الذي كان وقتها في زيارة إلى سوريا قادماً مِن الولايات المتحدة الأمريكية.

حَصَلَ على النسخة الفرنسية التي يعكف على ترجمتها عن طريق شقيقه الأب أنطون مصلح الذي كان مقيماً آنذاك في روما إيطاليا للتخصّص في الحق الكنسي.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

(مَدخَل)

في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله.

كان منذ البدء لدى الله، به كان كلّ شيء، وبغيره ما كان شيء.

هو الحياة لكلّ موجود والحياة نور الناس، والنور يُشرِق في الظلمات ولا تَغشاه الظلمات.

ظَهَرَ رسول مِن لدن الله اسمه يوحنّا.

جاء شاهداً ليشهد للنور فيؤمن على يده جميع الناس. لم يكن هو النور بل شاهداً للنور.

الكلمة هو النور الحقّ الذي ينير كلّ إنسان.

كان قادماً إلى العالم. وكان في العالم، وبه كان العالم، ولم يعرفه العالم.

جاء إلى بيته فما قَبِله أهل بيته. أمّا الذين قَبِلوه فقد أولاهم أن يصيروا أبناء الله، هم الذين آمنوا باسمه.

وهو ليس مِن دم ولا مِن رغبة ذي لحم ولا مِن رغبة رجل، بل الله وَلَده.

والكلمة صار بشراً فسكن بيننا فرأينا مجده، مجد الابن الواحد الذي أتى مِن لدن الآب ملؤه النعمة والحقّ.

شَهد له يوحنا فهتف: «هذا الذي قلتُ فيه إنّ الذي يأتي بعدي قد تقدّمني لأنّه كان قبلي.»

ومِن مِلئه نلنا بأجمعنا نعمةً على نعمة.

لأنّ الشريعة أتتنا على يد موسى، وأمّا النعمة والحقّ، قد بَلَغا إلينا على يد يسوع المسيح.

ما مِن أحد رأى الله، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه.

(يوحنا 1 / 1 – 18)

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

(الإهداء)

إلى مَن كانت النور في عينيّ قلبي لأرى طريق الربّ والحبّ وأتبعها...

روح أُمّي

إلى مَن كان السياج الذي وَفَّر لي الحماية والهِداية في مخاطر حياتي...

روح أبي

إلى ملهمتي التي احتَمَلَتني عمراً وكانت لي البديل عن الأم والأب، وهي الحبيب والصديق والأخ والرفيق، وقد نَزَعَت أشواك جراحات درب عمري بما يفيض به قلبها المُفعَم...

زوجتي

إلى جناحيّ اللذين أحلّق بهما في سماء الله.. إلى فرحي الكبير في ظلمة هذا الدهر.. إلى مرآة نفسي...

ولديّ

أخيراً إلى كلّ مَن له أذنان ويرغب أن يسمع بهما كلمة الله، وكل مَن له عينان مفعمتان بالرجاء في أن يرى مجد الله...

أهدي هذا الكتاب بأجزائه العشرة

فيكتور مصلح

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

(بُشرى خَلاص أو الإنجيل في قصيدة)

يا نجمة الصبح أنت الشـمـس ساطعة .... أنـــت الإشـــارة أنّ الله قد ســـعـــدا
يـــا نجمـــة الصبح إنّ البـرّ مطلعـه .... فخـــر البتـــول رمز الطـهر أن تلـدا
ربّ الســـماء من أحشـــائها بشـــراً .... رمـز الفـــداء يـــروم يصبـــح الولـــدا
حـــواء قـــالت لـــربّي: هـا أنا أمـة .... روح العــــليّ بجـــود ظلّـــل الجسدا
عطـر الكلام قبـول الأمــر طـائعـة .... عهدَ الخلاص مـلاكُ الـربّ قد شـهـدا
بــرَّ الأنـام رضيتِ درب جلـجلـــة .... ســـيفاً يجوز وهل مـن يرتضي جلَدا؟
حــلّ الزمـــان، وفي الإسطبل مسكنه .... وهـو الإله يظـلّ الواحـد الصمـدا
عتم المغـــارة أضحى الشمس مشـرقة .... ركن البهــائم أضحى العـرش والمهـــدا
جنـد العليّ بليـل الوعـد قد حضـروا .... مجـداً لـربّي لهيـبُ الحـــبّ ما خمـدا
إكليـلَ مجـد لهـام الأرض كنتَ لنـــا .... عهداً جديداً، ووجه الطفل نور هـــدى
إشـراق نجم مجـوسَ الشـرق قـادهم .... طهر العيون وتوق النفـس ما جهـــدا
مـرّاً، لبـــاناً، بـريق التبر مـــا وهبوا .... عادوا خلافاً لمـا أوصى الذي حقـــدا
راحيـل تبـكي عـلى أبنـائهـــا ألمـــاً .... وابن العـــليّ إلى منفـــاه قد قصدا
صـــار الصبيّ الذي في الاثنتي عشـرة .... "لحن النشـيد فكان الطـائر الغـردا"
حـــار الكتـــاب وحـــار العـالم الهـرم .... حار الزمان فأضحى الشيخ مذ ولـــدا
ابن الجـلــيل وبيت الـطهـر منبتـــه .... أمّ رؤوم، وأب بالطيبـــة انفـــردا

شغل النجارة علمٌ جود صنعته ... صنع اليدين وفكر صائن عُدَدا

فيه التقت ضوعة الشغل والبركة ... فيه السما باركت في عامل أبدا

عزماً خلوصاً ومجدَ الربّ إذ رغب ... نسلُ الملوك يسعى يحفظ العُهُدا

عهدُ البتول لأجل حفظ زوجته ... عذراءَ، ماداً لها قلباً له ويدا

حتّى الوفاة قبيل رحلة الولد ... زوجاً عفيفاً وروحاً مفعماً رُشُدا

إنّ الذي كان في الأردن قد سبق ... صوتاً ينادي سبيلُ الربّ دربُ فدا

الفأس صار على الأغصان والجذع ... زهر الثمار بغير الجود ما صمدا

زار المسيح مقام السابق الألق ... صوت السماء يذيع الشأن معتقدا

قال النبيّ مياه النهر تضطرب ... سير الحذاء فلا أحلله لو عقدا

ربّ الجلال إلى من دونه التجأ ... إنّي المدين لأن ترضى وأعتمدا

روحاً يفيض إلى البريّة انطلق ... صوماً، صلاة، إلى أعماقه خلدا

آن الأوان جذور الكرمة انغرست ... في تربة المجد لا تيهاً ولا حسدا

بل رغبةٌ تُضرم الأكباد كي تجد ... مجدَ النفوس بحبّ الآب متّحدا

أغصان كرم على الإيمان أنشأهم ... بشرى الخلاص لأمس، اليوم، ثمّ غدا

برصٌ تعافوا وموتى عاد رشدهم ... عرجٌ تخلّوا عن عكّازهم منذ بدا

حبّاً رحيماً وللأخطاء مغفرةٌ ... برءَ السقام، غنى للنفس، صوتَ ندا

طوبى وطوبى لمن في الصعب مسلكه ... أجر السماء عظيم، هكذا وعدا

تــوبوا وقد أقبــل وقت الخلاص على .... أرض الفنــاء تنالــوا جنّــة رغـدا

كونـوا لزهـر الصلاحات عبير شـذا .... نوراً عظيمـاً لدرب القــلب متّقـدا

من كان فيكم عظيمــاً يتّخــذ مثلاً .... حبَّ القريب وبذل الذات رجع صدى

لا يحملـنّ لـدرب الخـير زاد قـرى .... مالاً ولا عصـاً ولا خبـزاً ولا مـددا

فقْدُ الحيـاة لأجلي كنـزُ فـاقدهـا .... ما نفـع كسـب الدنى لو نفسه فقدا؟

مـاذا جنـاه الذي قد بـاع سـيّده .... كالعبـد حين كبـا للفضّــة سـَجَدا؟

إن كان ينـوي بلثـم الخـدّ يسـلمه .... للصـلب والمـوت حين أرشـد الجندا

قـادوا المسـيح إلى الديـوان واجتمعوا .... حضّـوا الجمـوع على إعدامـه عمدا

حــرٌّ برابـا وصــلب للـذي رضـي .... تـرك السـماء فصـار المرء مذ رقـدا

طَلَقَ القيــود وشـوك الموت منكسـر .... قـام المسـيح وداس المـوت ثمّ شدا

روح الحيـاة من العليـاء أرسـلـه .... ثمّ تجـلّى، إلى أمجـاده صعـدا

فيكتور مصلح

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

(المقدمة)

وُلِدَت **ماريا فالتورتا** في **كازرته** (إيطاليا) في 14 آذار (مارس) 1897. كانت الابنة الوحيدة لنائب قائد كتيبة فرسان، هو **جوزيف فالتورتا** المولود في **مانتوفا** عام 1862، ولِمُدرّسة لغة فرنسية هي **إيزيس فيورافانزي** المولودة في **كريمونا** عام 1861.

لم تكن قد تجاوزت شهرها الثامن عشر عندما اضطرّ والداها للإقامة مع ابنتهما في شمالي إيطاليا. استقرّا أوّلاً في **فايِنزا**، وبعد عدة سنوات انتقلا إلى **ميلانو** حيث أدخلاها دار حضانة عند **راهبات الأورسولين**. وهنا بدت عليها أولى علائم الدعوة: أرادت أن تكرّس نفسها للسيد المسيح بالألم الذي اختارته برضاها بدافع المحبّة.

في السابعة مِن عمرها، وكانت ما تزال في **ميلانو**، دخلت المدرسة الابتدائيّة عند **الراهبات المرسيليّات**، حيث نالت نعمة التثبيت المقدّس عام 1905 على يد الكردينال **أندريه فراري**. وتابعت بعدها دراستها في مدرسة **فوغيرا** العامّة حيث استقرّت العائلة في عام 1907. وفي **كاستيجيو** احتفلت بمناولتها الأولى عام 1908.

في عام 1909 وبضغط مِن والدتها الصارمة جدّاً انتسبت إلى معهد **بيانكوني دي مونزا**، حيث تميّزت بذكائها المتوقّد جدّاً وشخصيّتها الصلبة جدّاً. ولقد كانت جدّ موهوبة في المواد الأدبيّة، بينما لم تُفلح في مادة الرياضيّات. وبعد جهد جهيد ومثابرة مضنية استطاعت الحصول على الدبلوم بالعلوم التقنيّة، التي فَرَضَت عليها والدتها دراستها. وعلى الرغم مِن ذلك كانت مرتاحة إلى المعهد، ولكن والدتها أرادت بعد أربع سنوات إخراجها منه. هنا توجّهت ماريّا بصلاة حارّة إلى الباري تعالى الذي أنار مرّة أخرى بصيرتها بشأن مستقبلها.

في هذه الأثناء، تقاعد والدها لأسباب صحيّة، وذهبت العائلة الصغيرة لتحيى في **فلورنسا** حيث خُطبت ماريّا لشاب خَلوق، اضطرّت فيما بعد لفكّ خطوبتها منه بسبب طِباع والدتها

السيّئة. وبعد فترة مِن الأزمة الحادّة، وهبها الربّ عام 1916 إشارة كاشفة أخرى، وفي عام 1917 انخرطت في صفوف الممرّضات **السامريّات** حيث مَنَحَت الجنود في **مشفى فلورنسا العسكريّ** كلّ اهتمامها وبسخاء، خلال ثمّانية عشر شهراً.

في 17 آذار (مارس) 1920، وبينما هي سائرة بصحبة والدتها في الشارع، ضربها أحد المتطرّفين على ظهرها بقضيب حديديّ ضربة تركت على جسدها أولى علائم عاهتها المستقبليّة.

بعد أن لازمت الفراش مدة ثلاثة أشهر، مضت في تشرين الأول (ديسمبر) مِن نفس العام، مع والديها، إلى **ريجيو دي كالابريا**، حيث أقامت حوالي السنتين عند أقرباء لها مِن أمّها مِن عائلة **بلفانتي**، يملكون شبكة مِن الفنادق. كانت هذه الفترة الطويلة التي قضتها في هذه المدينة الساحليّة الجميلة في جنوب إيطاليا، غنيّة بالتجارب التي أَثْرَت روحها، ولكنّها في الوقت نفسه تميّزت بالنفور مِن والدتها التي كانت تعارض عروض زواج جديدة. عادت بعدها ماريا إلى فلورنسا – وكان ذلك عام 1922– وأقامت فيها عامَين آخَرين حافِلَين بذكريات مؤلمة.

في عام 1924 كان الانتقال النهائيّ إلى **فياريجيو** الذي شكَّل بداية حياة جديدة تتوق إلى صعود متواصل نحو الله. والتزمت سرّاً، بسبب رفض والدتها، بجميع الممارسات الروحيّة، وبذلك نَجَحَت في الانخراط في العمل الكاثوليكيّ. وبحماسها الدائم ورغبتها العارمة في بذل الذات، فقد وَهَبَت نفسها للمحبّة الرحيمة في عام 1925، وفي عام 1931، وبعد إعلانها نذورها، أرادت بِنيّة ثابتة أن تَهِب نفسها أيضاً للعدالة الإلهيّة.

بسبب تفاقُم مرضها، اضطرّت لملازمة الفراش بشكل نهائيّ اعتباراً مِن أوّل نيسان (أبريل) 1934، وها هي منذ الآن آلة طيّعة بين يدي الربّ. وفي السنة التالية وصلت إليها **ماريا ديشيوتي** التي بقيت مُرافِقتها الأمينة، والتي لم تتركها طوال حياتها. وفي هذه الأثناء تلقّت ماريا صفعة ألم مبرّحة بوفاة والدها الذي كانت تحبّه وتعتبره الأفضل بين الرجال.

في عام 1942 زارها كاهن وَرِع وتقيّ، وكان مِن المرسَلين، هو الأب **روموالد. م. ميغليوريني** مِن رهبنة خدّام مريم، الذي اتّخذته مرشدها الروحيّ مدة أربع سنوات. وفي عام 1943 في السنة ذاتها التي توفّيت خلالها والدتها، بدأت ماريا فالتورتا رسالتها ككاتبة.

انتقلت ماريا مِن كتابة سيرتها الذاتية التي كَتَبَتها حسب إمكانيّاتها بطلب مِن الأب **ميغليوريني** إلى "الإملاءات" و "الرؤى" التي صَرَّحَت بتلقّيها عن طريق الوحي. على الرغم مِن آلامها المبرّحة وملازمتها الفراش، كانت تكتب بيدها، ومِن المحاولة الأولى، دون مراجعة، دون اكتراث بالوقت حتّى ولو كان ليلاً، ودون الإحساس إطلاقاً بالانزعاج مِن مقاطعات عَرَضيّة، مع محافظتها الدائمة على مظهرها الطبيعيّ. ولم تكن ترجع إلاّ إلى الكتاب المقدس وكتاب التعليم المسيحي للبابا **بيوس العاشر** للتحقّق.

ومنذ العام 1943 حتّى العام 1947 كانت فورة عطائها التي بدأت تخبو بعدها تدريجياً حتّى عام 1953 حيث أتمّت ماريا كتابة 15000 خمسة عشر ألف صفحة دفتر كانت عبارة عن تعليقات حول الكتاب المقدّس ودراسات عقائديّة، روايات عن المسيحيّين الأوائل والشهداء. مؤلَّفات عن التقوى، عدا عدد مِن صفحات الصحيفة الروحيّة. إلاّ أنّ ثلثي نتاج **ماريا فالتورتا** الأدبيّ تقريباً كان مكرّساً لعمل هائل هو سيرة حياة السيد المسيح.

بعد أن وَهَبَت كلّ شيء لله، حتّى ذكاءها الشخصيّ، بدأت ماريا بالانطواء تدريجيّاً خلال عدّة سنوات بشكل مِن أشكال العزلة النفسيّة حتّى اليوم الذي انطفأت فيه جذوتها، وكأنّها تطيع قول الكاهن الذي دُعِيَ عند نزاعها الأخير، فصلّى بهذه العبارة: "اذهبي أيّتها الروح المسيحيّة مِن هذا العالم." وكان ذلك يوم 21 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1961، وكانت قد تَرَكَت للذكرى الجملة التالية: «لقد تخلّصتُ مِن الآلام ولكنّني سأستمرّ في الحبّ.»

جرت مراسم الجنازة في رعية **سان بولين** يوم 14 تشرين الأوّل (أكتوبر) صباحاً وببساطة شديدة حسب رغبتها، وبعدها مباشرة جرى دفن جثمانها في مقبرة **فياريجيو**. ولكن في 2 تموز

(يوليو) 1973 جرى نقل رفاتها إلى المدفن الخاص في **فلورنسا** في الكنيسة التابعة لدير **سانتيسيما أنونزياتا** الكبير.

إنّ أهمّ أعمالها حول حياة السيد المسيح كُتِبَت بدءاً مِن العام 1944 وحتّى 1947 باستثناء بعض الفصول دُوّنت في السنوات التالية. وقد نُشِرَت في إيطاليا عام 1956 تحت عنوان: "قصيدة الإنسان الإله" "IL POEMA DELL UOMO DIO". وقد ظَهَرَت في أربعة أجزاء كبيرة، ثمّ تلتها طبعة جديدة منقّحة في عشرة أجزاء مع تعليقات لاهوتيّة ومذهبيّة للأب **كونراد. م. برتي**، مِن رهبنة خدّام مريم، وقد أعيد طبعه باستمرار، وكان يُوزَّع دون أيّة دعاية، ومع ذلك فقد انتشر بشكل واسع في إيطاليا وفي كلّ العالم.

وفي عام 1971، قرأ مدرّس فرنسيّ، السيد **فليكس سوفاج** FELIX SAUVAGE كتاب: "IL POEMA DELL` UOMO DIO"، وأحسّ باندفاع لترجمته إلى لغته الأمّ. ومِن **بون أودمير** حيث كان يَقطن، كان يُعلِمنا باستمرار عن تطوّرات عمله، ويلتمس بإلحاح أن نتّخذ قرارنا بالنشر، ذلك أنّه كان طاعناً بالسنّ. لم يكن يحدّثنا عن نفسه إلّا حينما يطمئننا عن إمكانيّاته مُعلِماً إيّانا أنّه أنهى دراسة الفلسفة واللاهوت وأمضى حياته كلّها في التدريس.

في كانون الأوّل (ديسمبر) 1976، قصدنا **النورماندي** لتَسلُّم الترجمة الفرنسيّة للأجزاء العشرة التي كتبها السيد **سوفاج** بخطّ يده. ولم نبدأ بتفحُّصها إلاّ بعد حين. وقد لاحظنا ضرورة مراجعتها. إنّ هذه الترجمة، رغم الإسهاب في إصلاحها، فهي جديرة بالاهتمام لأنّ رجلاً مسنّاً قد أنجزها بدافع مِن إيمان كان يُجدّد فيه شبابه.

بكلّ أسف، لم يتمكّن **فيليكس سوفاج** مِن رؤية العمل المترجم وقد نُشِر، إذ قد توفّي في 16 أيلول (سبتمبر) 1978 عن عمر يناهز 87 عاماً. ولقد احترمنا رغبته الأكيدة بعدم إضافة

أيّة ملاحظات تفسيريّة وتعليقات على نص **ماريا فالتورتا**، وإبراز طبيعة العمل مِن خلال عنوانه ذاته.

وإنّنا لنُعلِم قرّاءنا أنّه بشأن كلّ شرح واستقصاء، فإنّ ملاحظات الطبعة الإيطاليّة تبقى هي المعتَمَدَة. أمّا فيما يخصّ طبيعة العمل، فإنّنا على قناعة تامّة بأنّه واحد مِن أعظم الإيحاءات الخاصّة، ومع ذلك فقد حظيت هذه الإيحاءات بموافقة اللّاهوت الكاثوليكيّ، كونها ظهورات ممكنة، مُلحَقة بالوحي العامّ، جديرة بالإيمان الإنسانيّ، ويمنحها الله لأشخاص معيّنين للمنفعة الروحيّة لكلّ الناس.

نسأل قرّاءنا المعذرة لبعض الهنات في الطبعة الفرنسيّة الأولى هذه.

ISOLA DEL LIRI (ITALIE) 12 OCTOBRE 1979

إميليو بيزاني

EMILIO PISANI

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

(التهيئة)

«الرب قناني في أول طريقه مِن قَبل أعماله منذ البدء» (أمثال 8 / 22).

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

الجزء الأول

1- (يمكن تَسمية مريم ثانية بِكْر الآب)

22 / 08 / 1944

يأمرني يسوع:

«خُذي دفتراً جديداً، اكتبي على الورقة الأولى: إملاء السادس عشر مِن آب (أغسطس 1944، ففي هذا الكِتاب سنتكلّم عنها.»

يقول يسوع:

«اكتبي هذا فقط: القيمة الكبيرة للطهارة هي التي أتاحت لأحشاء إنسانة أن تتّسع لمن لا يوسع، ذلك لأنّ طهارتها مطلقة، هي أعظم طهارة يمكن لخليقة الله أن تملكها.

لقد انحدر الثالوث الأقدس بكلّ كماله وسكن فيها بأقانيمه الثلاثة، واتّسع، وهو اللامتناهي، في مساحة صغيرة -لم تعد ضيّقة، ذلك أنّ محبّة العذراء والإرادة الإلهيّة وسّعا هذه المساحة حتّى أصبَحَت سماء.- وتجلّى بمميّزاته:

الآب، مع كونه الخالق، جدّد عمل اليوم السادس لاقتناء "فتاة" حقيقيّة، جديرة به، لكمال التشابه. فإنّ ملامح الله كانت مطبوعة في مريم بوضوح ونقاء لم يَفُقْه إلاّ ما كان لبِكْر الآب. يمكننا تسمية مريم ثانية بِكْر الآب للكمال الذي مُنِحَته وعَرفَت كيف تُحافِظ عليه، بجدارتها لأن تكون عروس وأُمّ الله، وملكة السماء، إنّها في المرتبة الثانية بعد ابن الآب، وفي المقام الثاني في فِكره الأبديّ، لأنّه، أبديّاً، يفرح بها.

الابن، كونه أيضاً "ابناً" لها، فقد لقّنَها، بسرّ النعمة، حقيقته وحكمته عندما كان ما يزال بذرة تنمو في أحشائها.

الروح القدس، بظهوره بين الناس في عنصرة سابقة لأوانها، في عنصرة مستديمة: مَحبَّة في "التي" أحَبَّها، عزاء للناس، مِن أجل ثمّرة أحشائها، تقديساً بأمومة القدّوس.

كي يتجلّى للعالم بالهيئة الجديدة والكاملة التي افتَتَحَت زمن الفداء، لم يختر الله نجماً مِن السماء عرشاً له، ولا قصر ملك جبّار لإقامته، كما لم يرغب في أجنحة الملائكة لتطأها قدماه، لقد أراد أحشاء بلا عيب.

حواء أيضاً كانت قد خُلِقَت بلا عيب، ولكنّها أرادت تلقائيّاً أن تُفسِد نفسها في الوقت الذي كانت موجودة في عالم نقيّ، بينما عاشت مريم في عالم فاسِد، لا يتردّد في جرح طهارته بأدنى فكرة موجّهة نحو الخطيئة. لقد كانت تَعلَم بوجود الخطيئة، وشاهَدَت منها أشكالاً وألواناً، والأكثر فظاعة، رأتها كلّها حتّى الأبشع والأفظع: قتل الله. ولكنّها عَرفَتها لتُكفّر عنها، ولتكون على مدى الدهور تلك التي ترأف بالخطأة وتصلّي مِن أجل فدائهم.

«سوف تكون هذه الفكرة المدخل لحقائق أخرى مقدّسة أُطلِعكِ عليها لأشدّد عزيمتكِ، أنتِ وآخرين كثيرين.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

2- (يواكيم وحنّة يَنذُران للربّ)

22 / 08 / 1944

أرى منزلاً مِن الداخل، وامرأة في سن متقدّمة نوعاً ما جالسة أمام نول. لدى رؤيتها، بشعرها الذي كان حالك السواد يوماً وأصبح الآن رمادياً، وبوجهها الخالي مِن التجاعيد، إنّما تجلّله رصانة مكتسَبة عبر السنين تجعلني أخمّن عمرها بين الخمسين والخامسة والخمسين، ليس أكثر.

أراها تحيك. الغرفة مضاءة بنور يَلِج مِن الباب المُطلّ على مبقلة واسعة، ومع ذلك هي أملاك صغيرة لأنّها تمتدّ بتموّجات تنتهي إلى منحدر أخضر. إنّها جميلة، تلك المرأة، بملامحها العبرانيّة الخالصة، فعيناها سوداوان عميقتان، لستُ أدري لماذا تذكّراني بعينيّ المعمدان. أمّا نظرتها فنظرة نبيلة كالتي لملكة ومفعمة حناناً، كما لو أنّ وشاحاً لازوردياً ينتشر على بريق نظرة نسر. نظرة وديعة تشوبها مسحة حزن خفيفة كما لو كانت تفكّر بأشياء فُقِدَت منها. لون بشرتها يميل إلى السُّمرة. الفم عريض قليلاً ولكنّه مرسوم بإتقان، له تعبير صارم ولكن دون قسوة. الأنف طويل دقيق ومنعكف قليلاً عند القاعدة، أنف معقوف ومتناغم بشكل جيّد مع العينين. إنّها ممتلئة ولكنّها ليست بدينة، كبيرة الحجم ولكنّها متناسقة جيّداً، هذا ما يمكن تخمينه وهي جالسة.

يخيّل إليّ أنّها تحيك سجّادة أو ستاراً، والمكوكات المتعدّدة الألوان تنزلق بسرعة عبر لحمة كستنائيّة غامقة، يُظهِر الجزء المنتهي منها تداخلاً متماوجاً مِن الرسوم والزخارف بشكل الورود، يتقاطع فيها الأخضر والأصفر والأحمر وكذلك اللازورد بانعكاسات النحاس، وتتمازج بشكل فسيفسائيّ.

ترتدي المرأة ثوباً بسيطاً للغاية وغامقاً. إنّه بنفسجيّ يميل إلى الحُمرة، ويبدو أنّ ألوانه مستعارة مِن زهور "البانسيه". (زهرة الثالوث أو بنفسج الثالوث)

تَسمَع طرقاً على الباب فتَنهَض. قامتها بالفعل كبيرة. تفتح. تسألها امرأة: «حنّة، هلاّ أعطيتني جرّتكِ لأملأها لكِ؟»

تجلب المرأة معها طفلاً في الخامسة مِن عمره، يتمسّك برداء حنّة مباشرة، فتداعبه وهي ماضية إلى غرفة أخرى لتجلب منها جرّة نحاسيّة جميلة. تعطيها للزائرة وهي تقول لها: «إنّكِ طيّبة دائماً مع حنّة العجوز، كافأكِ الله بصغيرك هذا وبأولادكِ الذين لكِ الآن والذين سيكونون، مغبوطة أنتِ!» وتتنهّد حنّة.

تنظر المرأة إليها، غير عالمة بما تقول بعد ذلك التنهّد. ولكي تخفّف مِن الألم الذي خمّنَتهُ تقول: «سأترك لكِ حلفا إذا لم يكن هذا يزعجكِ؛ هكذا سأنتهي بسرعة أكبر مِن ملء عدّة جرار وأباريق لكِ.»

اغتبَطَ حلفا كثيراً لبقائه، وقد عُرِف السبب. فحالما تذهب والدته تلفّ حنّة ذراعها حول عنقه، وتحمله إلى الجنينة وترفعه ليطال دالية عنب حبّاته سمراء كالزبرجد وتقول له: «كُل، كُل، إنّه لذيذ.» وتعود لتطبع قبلاتها على كامل وجهه الصغير الملطّخ بعصير العنب الذي يَفرط حباته بنَهَم. ثمّ تضحك وتضحك وتبدو فجأة أكثر شباباً بصفّي اللؤلؤ اللذين يزيّنان فمها بالفرح المشعّ على وجهها ماسحاً أثر السنين، وذلك عندما يقول لها الطفل: «والآن ماذا ستعطيني؟» ويَنظر إليها مُحملقاً بعينيه الرماديّتين بلون اللازورد القاتم.

تضحك مازحة وتنحني طاوية ركبتيها وتقول: «ماذا ستعطيني إذا أعطيتكَ... إذا أعطيتكَ... احزر ماذا؟»

تضجّ أسارير الطفل بضحكة وتصفيق وهو يقول: «قُبلات... قُبلات... أعطيكِ قُبلات يا حنّة الجميلة، حنّة الطيّبة، حنّة أُمّي!...»

وعندما تَسمَعه يقول: «حنّة أُمّي» تصرخ صرخة فرح وحنان، وتضمّه إلى صدرها قائلة: «أيّها الفرح الثمّين، الثمّين، الثمّين!» وبعد كلّ كلمة ثمّين تطبع قُبلة على وجنتيه الحمراوين. ثمّ يتّجهان إلى أحد الرفوف حيث يُخرِجان طبقاً مِن الحلوى بالعسل «لقد صَنَعتُها لكَ يا بهاء حنّة المسكينة، لكَ يا مَن تحبّني كثيراً! ولكن قل لي كم تحبّني؟»

ويفكّر الطفل بما يثير اهتمامه أكثر ثمّ يجيب: «مثل هيكل الربّ». تعود حنّة فتقبّل عينيه اللتين تضجّان بالحياة وشفتيه الورديتين، والطفل يتمسّح بها كقطّة صغيرة. وأُمّه تروح وترجع بالجرّة ممتلئة، وتضحك دون أن تقول كلمة. وتدعهما في فيض مشاعرهما.

يَصِل إلى الجنينة رجل طاعن بالسنّ، أصغر حجماً قليلاً مِن حنّة، يغطّي رأسَه شعر أبيض، ويحدّ وجهه المشرق إطار مِن لحية مربّعة وعينان لازورديّتان كالفيروز بين رمشين كستناويّين فاتحين يميلان إلى اللون الأشقر، وثوبه بنيّ داكن.

لم تره حنّة لأنّ ظهرها كان باتّجاه المدخل، فيمسكها مِن كتفيها قائلاً: «ولا شيء لي؟» تدور حنّة قائلة: «يواكيم، أأنهيتَ عملكَ؟» وفي الوقت ذاته يمسكه الطفل مِن ركبتيه ويشدّهما قائلاً: «لكَ أيضاً، لكَ أيضاً.» وعندما ينحني الرجل المسنّ ويُقبّله، يلفّ الطفل ذراعيه حول عنقه ويداعب لحيته بيديه الصغيرتين ويعانقه.

يحصل يواكيم أيضاً على هديّته. وها هو يأخذ مِن خلف ظهره بيده اليسرى تفاحة ملمعة كفاكهة خزفية ويقول للطفل الذي يمدّ له يديه بلهفة: «انتظر حتّى أقطّعها لكَ، فلن تستطيع أكلّها هكذا. إنّها أكبر منكَ.» وبسكّين يحملها في نطاقه، سكّين بستانيّ، يُقطّعها له شرائح

ولُقَم. يبدو وكأنّه يُعطي نقدات لعصفور في العشّ، لطالما يضع القطع بعناية في الفم الصغير الذي لا يتوقّف عن المضغ.

«انظر يواكيم، يا لهاتين العينين، أليستا كقطعتين مِن بحر الجليل عندما يُسدِل نسيم الليل وشاحاً مِن الغمام على السماء؟» تتكلّم حنّة وهي تشدّ بيدها على كتف زوجها وتتّكئ عليه بلطف: حركة توحي بحبّ زوجة عميق، حبّ لا تشوبه شائبة بعد سنوات عديدة مِن الزواج.

وينظر يواكيم إليها بحبّ، ويعبّر عن مشاعره قائلاً: «إنّهما جميلتان جدّاً! وهذا الشعر المجعّد؟ أليس بلون القمح اليانِع؟ انظري داخله إلى هذا المزيج مِن الذهب والنحاس.»

«آه! لو كان لدينا ابن لكنتُ أردتُه هكذا، بهاتين العينين وهذا الشعر...» وتنحني حنّة حتّى تجثو، وتُقبّل هاتين العينين الرماديّتين اللازورديّتين بتنهّد.

يتنهّد يواكيم أيضاً ولكنّه يريد مواساتها. يضع يده على شعر حنّة المجعّد والأبيض، ويقول لها: «يجب ألاّ نفقد الأمل. لا شيء غير مستطاع لدى الله، وطالما نحن أحياء فإنّ فرصة المعجزة قائمة، خاصّة عندما نحبّ الله ونحبّ بعضنا.» ويشدّد يواكيم على الكلمات الأخيرة هذه.

أمّا حنّة فتصمت بتواضع وتُطأطئ رأسها لتُخفي دمعتين، وحده حلفا الصغير يلحظهما. كانت مفاجأة مؤلمة أن يرى صديقته الكبيرة تبكي كما يحصل له أحياناً. فيرفع يده الصغيرة ويمسح دمعتيها.

«لا تبكي يا حنّة! إنّنا مع ذلك سعداء، أنا على الأقلّ، لأنّكِ أنتِ لي.»

«وأنا أيضاً سعيدة بكَ، ولكنّني لم أُنجب لكَ الطفل... أظنّني أسأتُ إلى الله لذلك جعَلَ أحشائي غير خصيبة.»

«يا زوجتي! كيف تسيئين إلى الله وأنتِ كلّيّة القداسة؟ فلنذهب، مِن أجل ذلك، مرّة أخرى إلى الهيكل، ليس فقط مِن أجل عيد المظالّ. ولنصلّ صلاة طويلة... وقد يحصل لكِ كما حصل لسارة... ولحنّة زوجة ألقانة اللتين انتظرتا طويلاً حتّى ظنّتا نفسيهما مغضوباً عليهما بسبب العقم. بينما على العكس، فقد كان يتهيّأ لهما في سماء الله ابن قدّيس. ابتسمي أيّتها الزوجة العزيزة. إنّ همّكِ يؤلمني أكثر بكثير مِن كوني دون خَلَف... وسوف نأخذ حلفا معنا ونجعله يصلّي، فهو بريء وسيسمع الله صلاته وصلاتنا ويستجيب لدعواتنا.»

«نعم، ولننذر للرب أن يكون وَلَدنا له إذا ما وَهَبَنا إيّاه... آه لو أسمع مَن يناديني "ماما"!»

أمّا حلفا المُشاهِد المندهش والبريء فيقول: «أنا أناديكِ هكذا.»

«نعم يا فرحي، يا حبيبي... ولكنّ لكَ أُمّاً أنتَ، أمّا أنا فلا وَلَد لي...»

وتتوقّف الرؤيا.

أيقنتُ أن بهذه الرؤيا تبدأ دورة ولادة مريم. أنا مبتهجة، وكم كنتُ راغبة بها.

قبل أن أبدأ الكتابة سمعتُ الأمّ تقول لي: «ابنتي! اكتبي عنّي إذاً. سيكون هذا عزاء لكلّ محنتكِ.» وبينما كانت تقولها وَضَعَت يدها على رأسي بمداعبة لطيفة. بعدئذ بدأت الرؤيا. إنّما في البدء، وإلى أن وصلتُ إلى المرحلة التي لم أعد أسمع فيها اسم الرجل المسنّ، لم أكن أستطيع إدراك أنّني أمام والدة الأُمّ، وأنّها كانت بخصوص نعمة ولادتها.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

3- (حنّة تصلي في الهيكل والله يستجيب لصلاتها)

23 / 08 / 1944

قبل أن أُتابع سأُبدي ملاحظة.

يبدو لي أنّ البيت ليس بيت الناصرة الذي أعرفه جيّداً. الغرفة، على الأقلّ، مختلفة كثيراً. المبقلة ذاتها أكبر، وأكثر مِن ذلك، تُرى حقول ليست كثيرة، إنّما يوجد البعض منها. وفيما بعد، بعد زواج مريم، لم يعد هناك سوى الحديقة، كبيرة إنّما بدون أيّة إضافة. وهذه الغرفة التي رأيتُها، لم أرها قطّ في الرؤى الأخرى. لم أكن أدري إذا ما كان مِن المفروض أن أُفكّر أنّ أهل مريم، لأسباب ماليّة، قد تخلّصوا مِن جزءٍ مِن أملاكهم، أو إذا كانت مريم، بعد مغادرتها الهيكل، قد أتت إلى منزل آخر، مِن الممكن أن يكون يوسف قد قدَّمَه لها. لم أعد أذكر إذا ما كان في الرؤى السابقة أو في التعليمات التي تلقّيتُها قد وردت إشارة مؤكدة إلى أنّ بيت الناصرة كان البيت الوالديّ ذاته. إنّ رأسي تَعِب جدّاً، بشكل خاصّ بسبب ما قيل لي، إنّي أنسى الكلّمات بسرعة، على الرغم مِن أنّ الأوامر المعطاة لي كانت تلحّ وفي نفسي يبقى النور. أمّا التفاصيل فتُمحى مباشرة. وإذا ما اضطررتُ بعد ساعة أو ساعتين إلى ترديد ما سمعتُه، لا أعود أذكر سوى جملة أو جملتين الأكثر أهميّة، بينما تبقى الرؤى حيّة في نفسي لأنّني أكون قد رأيتُها بكلّ كياني. الإملاءات أتلقّاها بينما الرؤى يجب أن أُدركها، لذا تبقى حيّة في فكري الذي يجهد في تسجيلها بشكل دائم.

كنتُ آمُل تلقّي تفسير عن رؤيا الأمس. في الحقيقة لاشيء.. إنّي أبدأ أرى وأكتب.

خارج أسوار أورشليم، على الروابي وسط الزيتون يوجد حشد كبير. تحسبها سوقاً كبيراً، إنّما بلا بسطات ولا محلاّت، فلا أصوات سماسرة وبائعين هناك، كما ليست هناك ألعاب. بل هناك مجموعة مِن الخيام المصنوعة مِن الصوف الخام، ولكنّها بالتأكيد غير نفوذة. إنّها مبسوطة على أوتاد مثبتة في الأرض، ومربوطة إلى أوتاد مِن الأغصان الخضراء تشكّل زينة غضّة. فضلاً عن

ذلك هناك خيام أخرى مؤلّفة مِن أغصان مثبتة في الأرض، فتبدو وكأنّها معارض خضراء صغيرة، تحت كلّ منها أناس مِن كلّ الأعمار والظروف يتكلّمون بهدوء في خلوة لا يعكّر صفوها سوى صرخات طفل.

هَبَطَ المساء، وأنوار مصابيح الزيت الصغيرة أضحت تعكس هنا وهناك أشعّتها على هذا المخيّم الغريب. حول الأنوار هناك عائلات تتناول طعامها جالسة على الأرض، والأمّهات يُرضِعن صغارهنّ. أطفال كثيرون تَعِبون تأخذهم سنّة النوم وهم لا يزالون يمسكون بكسرة خبز بين أصابعهم الصغيرة الورديّة، ويتركون رؤوسهم لتتدلّى على صدور أمّهاتهم كما الفراخ تحت جناحي الأُمّ الدجاجة، وتُكمِل الأمّهات التهام الطعام، حسب استطاعتهنّ، باليد الباقية حرّة، بينما تشدّ كلّ منهنّ باليد الأخرى طفلها إلى صدرها.

وبالمقابل، هناك عائلات لم تبدأ عشاءها بعد، ويتجاذب أفرادها أطراف الحديث في "شبه العتمة" هذا مِن الغَسَق، بانتظار تجهيز الطعام. نار تشتعل هنا، ونار هناك، تنهمك حولها النساء. هزّازة بطيئة كأنّها أغنية حزينة تهزّ لطفل تأخّر في نومه.

في الأعالي سماء جميلة صافية تأخذ شيئاً فشيئاً صبغة لازورد قاتمة، وقد أصبَحَت وكأنّها وشاح كبير مِن المخمل الحريريّ الأسود اللازورديّ، يثبِّت عليها بهدوء كلّ مِن الفنانين وصانعي الديكور غير المرئيّين جواهر مشعّة، بعضها منفرد والبعض الآخر ضمن مجموعات تشكّل أشكالاً هندسيّة غريبة يسطع مِن بينها الدبّ الأصغر في شكل يشبه العربة التي يبقى زمامها مرتبطاً بالأرض، بعد أن تتحرّر مِن نير الثيران. أمّا النجمة القطبيّة فقد أَضرَمَت كلّ نيرانها.

أدركتُ أنّه تشرين الأول (أكتوبر)، لأنّ صوت رجل غليظاً قد قالها: «تشرين جميل، نادراً ما رأينا مثله!»

هي ذي حنّة قادمة مِن أحد المخيّمات ويداها مليئتان بأشياء ممدودة على رغيف كبير ومنبسط كإحدى شطائرنا ويقوم مقام الصينيّة، وقد أمسَكَ حلفا بتنّورتها وهو يُسمِعها صوته الطفوليّ. يواكيم على عتبة كوخ مِن أوراق الشجر، يتكلّم مع رجل في الثلاثين مِن عمره، يحيّيه حلفا مِن بعيد بصوته الحادّ: «بابا». وعندما يَرى يواكيم حنّة قادمة، يُسرع في إنارة أحد المصابيح.

تمرّ حنّة مثل ملكة وسط صفوف الأكواخ. هيئة ملكيّة ولكنّها مع ذلك متواضعة. إنّها لا تتعالى أو تتفاخر على أحد. ها هي تُنهِض طفل إحدى الفقيرات المعدَمات وقد تعثَّرَ بمشية خاطئة ووقع تماماً عند قدمي حنّة. لقد كان وجهه الصغير معفّراً بالتراب وكان يتذمّر. فمسَحَته له وواسته وأعادته إلى أُمّه التي هَرَعَت إليه، فبادَرَتها حنّة: «آه! لا شيء! إنّني مسرورة لأنّ هذا لم يؤذه. إنّه طفل جميل! كم عمره؟»

«ثلاث سنوات. إنّه قبل الأخير، وخلال فترة قريبة سوف ألد طفلاً جديداً. لي ستّة أولاد. الآن أرغب بطفلة... كثير على أُمّ طفلة واحدة...»

«لقد منحكِ العليّ عزاء كبيراً.» وتتنهّد حنّة.

وقالت الأخرى: «نعم أنا فقيرة، ولكن أولادنا هم سرورنا، والأكبر سنّاً منهم يساعدوننا الآن في العمل، أمّا أنتِ يا سيدتي (وكانت قد لاحَظَت أنّ كلّ شيء يشير إلى أنّ ظروف حنّة أفضل مِن ظروفها كثيراً) فكم مِن الأولاد لديكِ؟»

«لا أولاد.»

«ليس لديكِ أولاد؟ وهذا أليس ابنكِ؟»

«لا، إنّه ابن جارة طيّبة، إنّه عزائي.»

«هل مات أولادكِ؟ أَمْ...»

«لم أُرزَق بطفل.»

«آه!» وتنظر إليها الفقيرة بإشفاق.

تحيّيها حنّة وتتنهّد ثمّ تعود إلى كوخها.

«لقد جعلتكَ تنتظر، يا يواكيم. لقد التقيتُ سيّدة فقيرة، أُمّاً لستّة أولاد، ودردشتُ معها، تصوّر! عمّا قليل سوف يولد لها طفل آخر.»

يتنهّد يواكيم.

والد حلفا ينادي صغيره فيردّ عليه قائلاً: «إنّني باق مع حنّة لمساعدتها.» فيشرع الجميع بالضحك.

«دعه، إنّه لا يُزعج أحداً. فهو لم يصبح بعد تحت وصاية الشريعة. إنْ هنا أو هناك فهو ليس سوى عصفور صغير يأكل.» تقولها حنّة وتَجلس حاضنة الطفل، ثمّ تعطيه فطيرة، يبدو لي أنّها سمك مقليّ. أراها منهمكة في عمل ما قبل أن تعطيه إيّاها، ربما تنزع الحسك، ثمّ أعطَت زوجها وأكلَت هي في النهاية.

لقد أضحت نجوم الليل كالنمل، وازدادت الأنوار في المخيّم. ثمّ انطفأت أنوار كثيرة تدريجيّاً؛ لقد كانت تلك مصابيح أولئك الذين أَكَلوا أوّلاً، وها هم ينصرفون الآن إلى النوم. وكذلك الأصوات، فقد خفتت تدريجيّاً. سكتت صرخات الأطفال ما عدا صوت طفل لم يُفطَم بعد، فما زال يُسمَع مثل نعجة تبحث عن حليب أُمّها. وتَهبّ أنفاس الليل على الأشياء والأشخاص منوِّمة الأشجان والذكريات، الآمال والأحقاد، وقد يحدث العكس، حيث تفيق كلّها بالقَدر الذي يحمل لهم النوم والحلم مِن الهدوء.

تقول حنّة لزوجها بينما هي تهزّ حلفا الذي بدأ يغفو بين ذراعيها: «حلمتُ هذه الليلة أنّني سآتي إلى المدينة المقدّسة في العام المُقبِل مِن أجل عيدين بدل عيد واحد. وسيكون أحدهما تقديم ولدي للهيكل. آه! يا يواكيم!...»

«الرجاء، الرجاء يا حنّة! ألم تعلمي شيئاً آخر؟ ألم يكلّم الربّ قلبكِ سرّاً؟»

«كلّا، لا شيء، مجرّد حلم.»

«غداً هو اليوم الأخير للابتهال. ها إنّ التقادم كلّها قُدِّمَت، ولكنّنا سنجدّدها غداً أيضاً، ونحتفل بها، **وسنغلب الله بأمانة حبّنا**. أعتقد أنّه سيحدث لكِ تماماً كالذي حصل لحنّة التي لألقانة.»

«لتكن تلك إرادة الربّ... ولأتمكّن بسرعة مِن سماع صوت يقول لي: "اذهبي بسلام. إله إسرائيل قد وهبكِ النعمة التي كنتِ تطلبينها منه".»

«إذا حصلَت النعمة فسينبئكِ بها طفلكِ أثناء العودة، ولأوّل مرة في أحشائكِ. سيكون صوت البراءة، وبالتالي صوت الله!»

صَمَتَ كلّ شيء الآن في ليل المخيّم. وأخذَت حنّة حلفا إلى الكوخ المجاور، ووضعَته على فراش القشّ حيث ينام أخوته الصغار، ثمّ عادت لتنام قرب يواكيم وقد انطفأ سراجهم الصغير أيضاً، الذي كان واحداً مِن نجوم الأرض الأواخر. ولم يبق سوى نجوم قبّة السماء، وكانت في أبهى حلّة، لتسهر على النائمين.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

4- (يواكيم كان قد تزوّج حكمة الله المحتواة في قلب المرأة البارّة)

23 / 08 / 1944

يقول لي يسوع:

«الأبرار هم دائماً حكماء: إنّهم أصدقاء الله، يحيون بصحبته، وهو يُعلّمهم، هو، الحكمة اللامتناهية. أجدادي كانوا أبراراً، إذاً كانوا يملكون الحكمة. في الحقيقة كانوا يستطيعون التعبير عمّا يقوله الكِتاب عندما يتغنّى بمجد الحكمة في السفر الذي يحمل اسمها: "أحببتُها وبحثتُ عنها منذ نعومة أظفاري، وعزمتُ على اتّخاذها عروسة لي."

كانت حنّة ابنة هارون هي المرأة الشُّجاعة التي تكلّم عنها أجدادنا. ويواكيم المتحدّر مِن سلالة الملك داود لم يكن ليبحث عن الغنى والرفاه بقدر بحثه عن الفضيلة. وحنّة كانت تتحلّى بمزيّة عظمى، فيها تجتمع كلّ المزايا في باقة عَطِرة لتشكّل حقيقة وحيدة، أجمل الحقائق: ***الفضيلة***. فضيلة حقيقيّة جديرة بأن تَظهَر أمام عرش الله. إذاً فيواكيم قد تزوّج الحكمة مرّتين، "بحُبّها أكثر مِن أيّة امرأة أخرى": حكمة الله المحتواة في قلب المرأة البارّة. حنّة بنت هارون لم تطلب سوى أن تقرن حياتها بحياة رجل مستقيم، موقِنة ومتأكِّدة بأنّ الاستقامة هي مسرّة العائلة. ولكي تكون رمز المرأة الشُّجاعة، لم يكن ينقصها سوى تاج الأطفال، مجد العروس، مقوِّم الزواج الذي تكلّم عنه سليمان. ولاكتمال سعادتها لم يكن ينقصها سوى البنين، زهرات الشجرة المتّحدة بالشجرة القريبة حيث تنتج وفرة ثمّار جديدة فتنصهر فيها شيمتان في واحدة، ذلك أن الزوج لم يراوده الشعور بخيبة الأمل ولو لمرّة واحدة.

حنّة التي تقدَّمَت في السنّ، زوجة يواكيم منذ أمد بعيد، كانت باستمرار وعلى الدوام "زوجة شبابه وفرحه، النعجة المحبوبة والغزالة الطيّبة"، التي ظلّ تودّدها محافظاً على نداوته كما في ليلة

العرس، ومضفياً المتعة على حنانها مع المحافظة عليه نضراً كوردة بلّلها الندى ومتأجّجة مثل نار تتغذّى باستمرار. كذلك كانا في محنتهما بعدم الإنجاب يتبادلان "كلّمات المواساة في همومهما وحزنهما". وعليهما قامت الحكمة الأزليّة: عندما حانت الساعة بعد أن تمّت تهيئتهما مدى حياتهما، أنارهما في أحلام الليل جرس القصيدة الممجَّدة التي ستولد منهما، والتي هي مريم الكلّية القداسة، أُمّي.

إذا كانا في تواضعهما لم يقفا عند هذا الحلم، فقد كان قلباهما رغم ذلك يخفقان بالأمل عند سماعهما أوّل صوت نطق بوعد الله. ها هو التأكيد في كلمات يواكيم: "الرجاء، الرجاء، سنغلب الله بوفاء حبّنا".

كانا يحلمان بوَلَد، فنالا أُمّ الله. يبدو أنّ كلمات سفر الحكمة قد كتبَت عنهما: "سأبلغ بها المجد أمام الشعب... بها سأحصل على الخلود وسأترك ذِكراً لي أبديّاً للّذين سيأتون بعدي". ولكن للحصول على كلّ هذا كان لا بد لهما مِن بلوغ رفعة فضيلة حقيقيّة، غير قابلة للتبدّل، حيث لا تطالها أيّة نائبة. فضيلة الإيمان، فضيلة المحبّة، فضيلة الرجاء، وفضيلة العفاف.

عفّة الزوجين! كانا يملكانها، إذ مِن غير الضروري البقاء في حالة العزوبيّة لبلوغ العفّة. فالأزواج العفيفون تحرسهم الملائكة، ومنهم يأتي النسل الصالح، الأبناء الذين يتّخذون مِن فضيلة ذويهم قاعدة حياتهم.

ولكن أين هم الآن؟ في هذا الوقت، لم تعد ترَى مَن يريد أطفالاً، والأنكى مِن ذلك لم يعودوا يتقبّلون العفّة؛ إذاً أستطيع القول بأنّ الحبّ قد انتُهك ودُنِّس.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

5- (حنّة تُعلِن أُمومتها بنشيد)

24 / 08 / 1944

أرى بيت يواكيم وحنّة مِن جديد. لا تغيير مِن الداخل سوى مجموعة أغصان مقطوفة مِن شجر الحديقة، تكسوها الزهور، موضوعة هنا وهناك في آنية. سحابة باقات تتدرّج ألوانها مِن بياض الثلج حتّى احمرار المرجان.

عمل حنّة أيضاً قد اختلف قليلاً، فالنول أصغر مِن السابق، وهي تحيك أنسجة جميلة مِن الكتّان، وتغنّي وهي تحرّك قدمها حسب إيقاع الأغنية. تغنّي وتبتسم لمن؟ لنفسها، لرؤى في داخلها. الأغنية بطيئة، ولكنّها مع ذلك فَرِحَة. لقد كتبتُها على حدة لأحصل عليها كاملة، ذلك أنّها تُردّدها عدّة مرّات، لأنّها تجد فيها غبطة عارمة. وهي في كلّ مرّة تؤدّيها بقوّة أكبر وثقة أكثر، كما لو أنّها وَجَدَت إيقاعها في قلبها. في البدء كانت تتمتمها بصوت خافت، ثمّ، وبثقة أكثر أصبحَت ترتّلها بصوت أعلى وسرعة أكبر. كتبتُها لأنّها جميلة جدّاً رغم بساطتها:

"المجد للربّ القادر على كلّ شيء، الذي أحبّ نسل داود. المجد للربّ.
أعظم نعمة منذ تكوين السماء قد زارتني.
الغرسة العتيقة أنبتت غصناً جديداً، فأنا مغبوطة.
مِن أجل عيد الأنوار نَثَرَ الرجاء بذوره؛
الجوّ العابق في شهر نيسان (أبريل) رآها تنتش.
جسدي في الربيع كشجرة اللوز المزهرة.
يشعر في خريف العمر أنّه يحمل ثمّاره،
على هذا الغصن وردة، هي الثمّرة الأكثر حلاوة.

نجمة تتلألأ، حياة جديدة بريئة.

إنّها سرور البيت، سرور العروس والعروسة.

التسبيح لله، للربّ الذي ترأّف بي.

نوره أعلَنَ لي: نجمة تأتي إليكِ.

المجد، المجد! لكِ ستكون ثمّرة الغرسة.

الثمّرة الأولى والأخيرة، القدّيسة والنقيّة، وهي عطيّة مِن عند الربّ.

لكِ ستكون، وبها سيحلّ الفرح والسلام في الأرض.

طر أيها المكّوك، فخيطكَ سيحبك نسيج الطفل.

سيولَد! وستصعد أغنية قلبي نحو الله بابتهاج.

يَدخل يواكيم عندما تهمّ بإعادة الأغنية للمرة الرابعة. «هل أنتِ سعيدة يا حنّة؟ تبدين لي كعصفور يغرّد في الربيع. ما هذه الأغنية؟ لم أسمع أحداً يردّدها قطّ. مِن أين مصدرها؟»

«مِن قلبي يا يواكيم». ونَهَضَت حنّة متّجهة صوب زوجها ضاحكة. إنّها تبدو أكثر شباباً وأكثر جمالاً وإشراقاً.

«لم أعهدكِ شاعرة.» قالها زوجها وهو يَنظر إليها بدهشة عارمة. لا يمكن التخمين بأنّهما عروسان مُسنّان. في نظراتهما حنان عروسين شابّين. «لقد أتيتُ مِن آخر الحديقة لدى سماعي إيّاكِ تغنّين. منذ سنوات لم أسمع صوتكِ كيمامة عاشقة. فهل تعيدين إنشادها مِن أجلي؟»

«كنتُ سأعيدها لكَ حتّى ولو لم تطلب أنتَ ذلك. إنّ أبناء إسرائيل كانوا دائماً يضمّنون أناشيدهم الهتافات الحقيقيّة لرجائهم، لأفراحهم، ولشدائدهم. وقد ضَمَّنتُ هذا النشيد العناية بالتعبير عن فرح كبير لنفسي ولكَ. نعم، حتّى بإعادته لنفسي، إنّ الأمر لَعَظيم لدرجة أنّني رغم تأكّدي يبدو لي وكأنّه لا يُصدَّق.» وتعيد النشيد، ولكن ما أن تصل إلى المقطع القائل: "على

هذا الغصن زهرة، هي الثمّرة الأكثر حلاوة، إنّها نجمة..." حتّى يرتجف صوتها الرّنان (Contralto) بداية ثمّ يتكّسر. وبدموع الفرح في عينيها تنظر إلى يواكيم وترفع يديها وتصرخ: «أنا أُمّ يا حبيبي!» وتهرع ملتجئة إلى صدره بين ذراعيه اللذين يبسطهما ليحيط بهما زوجته السعيدة.

إنّه أطهر وأسعد عناق رأيتُه في حياتي. إنّه طاهر ومتأجّج في طهارته. ثمّ العتاب الرقيق ويده تتخلّل شعر حنّة الرمادي: «ولِمَ تقولي لي هذا؟»

«هذا لأنّني أردتُ التأكّد أوّلاً. عجوز مثلي... وأعرف أنّني أصبحتُ أُمّاً... بالحقيقة لم أكن أستطيع التصديق... لذلك لم أشأ أن أسبّب لكَ خيبة أمل أَمَرّ مِن كلّ سابقاتها. هذا أنّني منذ نهاية كانون الأوّل (ديسمبر) وأنا أشعر أنّ أحشائي تتجدّد، وأنّ غصناً جديداً ينبت. أمّا الآن فعلى هذا الغصن ثمّرة. هذا أكيد... أرأيتَ، إنّه نسيج للقادم القريب.»

«أليس هذا الكتّان هو الذي اشتريتِه مِن أورشليم في تشرين الأول (أكتوبر)؟»

«نعم، وقد غزلتُه أثناء الانتظار والرجاء... كنتُ أرجو: ففي اليوم الأخير، عندما كنّا نصلّي في المعبد، في أقرب مكان لبيت الله يُسمَح لامرأة أن تقف فيه، وقد كان الوقت متأخّراً... هل تذكر أنّني كنتُ أقول: "مهلاً، مهلاً قليلاً". ذلك لأنّني لم أكن أستطيع انتزاع نفسي مِن ذلك المكان قبل حصولي على النعمة. وهكذا، في الظلمة التي كانت قد خيَّمَت داخل المكان المقدّس، حيث كنتُ أشعر بميل شديد مِن كلّ نفسي لانتزاع كلمة "نعم" مِن الله الذي كان حاضراً هناك، رأيتُ نوراً، بل وميض نور رائع يمرّ، مُشرقاً وناعماً كضوء القمر، ومع ذلك كان يحمل معه بريق كلّ لآلئ الأرض وجواهرها. كان يبدو لي أنّه نجمة ثمّينة مِن الوشاح المقدّس، مِن النجوم التي تحت أقدام الشاروبيم، وقد أفلتت واتّخذت روعة الضوء فائق الطبيعة... كان يبدو لي أنّها أبعد مِن الوشاح المقدّس، مِن المجد نفسه، شعلة نار سريعة أتت باتّجاهي وقالت بصوت سماويّ وهي تخترق

الهواء: "ما طلبتِه ستنالينه". لهذا أنا أُنشِد: "نجمة ستأتي إليكِ". أيّ ابن سيكون ابننا؟ هذا الذي يتجلّى مثل نور نجمة في الهيكل وهو يقول: "ها أنذا" في عيد الأنوار؟ وأظنّكَ قد أصبتَ الرؤية عندما نظرتَ إليّ وكأنّني حنّة زوجة ألقانا جديدة. تُرى ماذا سنسمّي مولودنا الذي أشعر به في أحشائي ناعماً كوشوشة جدول، الذي يكلّمني بخفقات قلبه الصغير مثل يمامة أُمسِكها بعناية في كفّي؟»

«إذا كان صبياً سنسميه صموئيل، أمّا إذا كانت بنتاً فنسمّيها نجمة، الكلمة التي أنهيتِ بها نشيدكِ لتمنحيني سرور معرفتي أنّني أصبحتُ أباً، والشكل الذي اتَّخَذَته لتتجلّى في ظُلمة الهيكل المقدّسة.»

«نجمة، نجمتنا. نعم، لستُ أدري، أظنّ، أظنّها ستكون بنتاً. يبدو لي أنّ ملاطفات ناعمة مثل هذه لا يمكن أن تتأتّى إلاّ مِن طفلة ناعمة جدّاً. بالفعل، لستُ أشعر بالحَمْل، لستُ أعاني منه. إنّها هي التي تحملني على درب مِن اللازورد والزهور كما لو كنتُ الأخت الصغيرة للملائكة القدّيسين، وكما لو أنّ الأرض قد أصبحَت بعيدة... غالباً ما كنتُ أسمَع ما يُقال للنساء عن ألم الحمل بالأطفال. إلاّ أنّني، على العكس مِن ذلك، لم أختبر ألماً. أشعر بأنّني قويّة، شابّة نَضِرة أكثر مِن اليوم الذي وهبتكَ فيه عذريتي، في فترة الشباب البعيدة. ابنة الله –ذلك أنّها مِن الله أكثر مما هي منّا، هذه الزهرة المتفتّحة على جذع جاف.– فهي لا تُسبّب ألماً لأُمّها، لا تحمل لها سوى السلام والبركة: ثمّار الله أبيها الحقيقيّ.»

«إذاً سوف نسمّيها مريم. نجمة بحرنا، لؤلؤة، سعادة. إنّه اسم أوّل أعظم امرأة لإسرائيل. فهي لن تسيء أبداً للربّ، وله وحده ستُنشِد قصيدة حياتها، إذ إنّها قد وُهِبَت له "قرباناً" قبل أن تولد.»

«إنها تقدمتنا له، نعم. صبيّاً كان أم بنتاً، عندما ستكون قد مَنَحَتنا الفرح طيلة سنوات ثلاث، سنهب مولودنا للربّ ونحن أيضاً معه قرابين لمجد الله.»

لم أَعُد أرى أو أسمع شيئاً.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

6- (الخالية مِن كلّ عيب لم تغب أبداً عن ذاكرة الله)

24 / 08 / 1944

يقول يسوع:

«بعد أن أنارتهُما الحكمة في أحلام الليل، نَزلت، هي نفسها، "انبثاقاً مِن قدرة الله ومِن مجد الكلّي القُدرة"، وصارت وعداً للمدعوّة عاقراً. الذي كان يُرى آنذاك زمن الفداء قريباً جدّاً -أنا المسيح حفيد حنّة- اجترح المعجزات على العاقرات والمرضى، على المصابين ومَن تسكنهم الشياطين، على كلّ ويلات الأرض.

ولكن في تلك الأثناء، في غمرة فرح الحصول على أُمّ، تراني أهمس كلمة مخبّأة في عتمة الهيكل الذي حوى آمال إسرائيل، الهيكل الذي أصبح منذ الآن في حدود وجوده، لأنّ الهيكل الجديد الحقيقيّ الذي لم يعد يحوي آمال شعب وحسب، بل يقين الجنّة لأمم الأرض قاطبة عبر تعاقب الدهور، إلى نهاية العالم، قد أصبح على وشك تجلّيه على الأرض. هذا "الوعد" يجترح معجزة إعادة أحشاء العاقر خصيبة، يعطيني أُمّاً ليست ذات طبيعة كاملة فقط كما هو مفترض أن يكون بحكم ولادتها مِن أبوين قدّيسين، ليست ذات نفس صالحة فقط مثل كثيرين غيرها، مع تطوّر لصلاحها مستمرّ باستعدادات إرادتها الرائعة، وليست جسداً طاهراً فقط، ولكنّها وحدها بين المخلوقات جميعها كانت تتمتّع بنَفْس لا شائبة فيها.

لقد رأيتِ خلق الله المستمرّ للأرواح. والآن، فكري ما يمكن أن يكون جمال هذه الروح التي كانت ذات إيثار لدى الآب قبل أن يوجَد الزمن، هذه النّفْس التي كانت متعة الثالوث الأقدس الذي تَحرّق شوقاً ليزيّنها بمواهبه ليجعل منها هِبة لنفسه. أيّتها الكلّية القداسة التي خَلَقَها الله لنفسه، وثمّ لخلاص البشر! بحملكِ المخلّص أضحيتِ أصل الخلاص. أيّتها الجنّة الحيّة، بابتسامتكِ

بدأتِ تقديس الأرض. النّفْس التي خُلِقَت لتكون نَفْس أُمّ الله! عندما انبثقت شرارة الحياة هذه بارتعاشة الحبّ الثلاثيّ المضطرمة جدّاً، اختبَرَ الملائكة فرحاً غير عاديّ، إذ لم يكن الفردوس قد رأى نوراً أكثر توقّداً... كوريقات زهرة سماويّة، وريقات غير ماديّة وثمّينة بدت مثل جوهرة وشعلة، والتي كانت نفحة مِن الله نزلَت لتحيي جسداً بشكل مختلف عن الآخرين، التي نزلَت تتوهّج بشدّة لم تستطع معها الخطيئة أن تمسّها، فاجتازت المسافات واستقرّت في أحشاء مقدّسة.

أصبحَت للأرض زهرتها، دون علمها، الزهرة الحقيقيّة، الزهرة الوحيدة ذات التفتّح الأبديّ: زنبق وورد وبنفسج وياسمين ودوار شمس، جميعها منصهرة معاً، ومعها كلّ زهور الأرض، في زهرة واحدة، مريم، التي فيها تتّحد كلّ الفضائل وكلّ النِّعم. في نيسان (أبريل) بدت أرض فلسطين كبستان كبير حيث أضحت العطور والألوان هبة رائعة لقلوب البشر. ولكنّ الوردة الأجمل والأبهى كانت ما تزال مجهولة، كانت ما تزال تتفتّح لله في سرّ الأحشاء الوالديّ، فقد كان الحبّ يملأ قلب أُمّي منذ اللحظة الأولى للحَبَل بها. إنّها فقط اللحظة التي أعطت فيها الكرمة دمها ليُصنع منه الخمر، وعندما ملأ عصير العنب الحلو والقويّ الأجواء والأنوف ابتَسَمَت، لله أولاً، ثمّ للبشر، قائلة بهذه الابتسامة فائقة الوصف: "ها هي الكرمة التي سَتطرَح العنقود المعدّ للعصر ليصبح الدواء الأزليّ لآلامكم، ها هي ذي، إنّها بينكم".

لقد قُلتُ: "ملأ الحبّ قلب مريم منذ اللحظة الأولى للحَبَل بها". مَن ذا الذي يمنح النّفْس النور والمعرفة؟ إنّها النعمة. ومَن يجعلهما يختفيان؟ الخطيئة الأصليّة والخطيئة المميتة.

مريم الخالية مِن كلّ عيب لم تغب أبداً عن ذاكرة الله، عن جواره وحبّه ونوره وحكمته. لقد استطاعت إذن أن تُدرِك وتحبّ عندما لم تكن سوى جسد يتشكل حول روح طاهرة نزيهة استمرّت في الحبّ.

فيما بعد، سوف أجعلكِ تتأمّلين بالروح أغوار البتوليّة في مريم. ستختبرين في ذلك دُواراً سماويّاً، كما عندما جعلتُكِ تتأمّلين أزليّتنا. الآن لاحظي كيف أنّ حَمْل خليقة "خالية مِن كلّ

عيب يسبّب ابتعادها عن الله" في الأحشاء، يمكنه أن يمنح الأُمّ التي حَبلَت بها طبيعيّاً فقط وبشريّاً، ذكاءً فائقاً، وفعليّاً نبوّة. إنّها نبوّة ابنتها التي أعلنَتها "ابنة الله".

تخيّلي كيف كانت ستبقى حالة الأبوين الأوّلين النقيّين لو كان وُلِد لهما أبناء أنقياء حسب مشيئة الله. انظروا أيّها الناس الذين تدّعون الطموح إلى الكمال وأنتم برذائلكم تتوجّهون إلى الشيطان، هناك وسيلة قائمة للوصول إلى الكمال: معرفة الإفلات مِن سيطرة الشيطان المشؤومة لِتَدَعوا لله أمر تنظيم الحياة والمعرفة والخير دون الرغبة في شيء آخر غير الذي أعطاكموه الله – وكان هذا أقلّ قليلاً مِن اللانهاية– لتتمكّنوا مِن التوالد والنموّ باستمرار نحو الكمال، أبناء بشراً بالجسد وأولاد فطنة بالروح، يعني منتصرين وقادرين، يعني عمالقة في مواجهة الشيطان الذي كان سيبقى مسمّراً في الأرض آلاف القرون قبل الساعة التي سيصبح فيها هكذا، ومعه كلّ الشرّ الكامن فيه.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

7- (وِلادة مريم العذراء)

26 / 08 / 1944

أرى حنّة تخرج مِن المبقلة، تتّكئ على ذراع إحدى قريباتها بالتأكيد، فهي تشبهها. إنّها جسيمة وتبدو متعبة، قد يكون ذلك مِن تأثير الحرارة، كالتي تنهكني تماماً.

وإن تكن الحديقة مظلّلة، إلاّ أنّ الهواء حارق ومزعج، إنّه مثل حدّ السكين على عجينة طريّة وحارّة، إنّه ثقيل تحت سماء لازورديّة لدرجة أنّ الغبار المُعلّق في الهواء يُعتّم قليلاً. لا بدّ أنّه الجفاف منذ أمد، ذلك أنّ الأرض غير المرويّة قد تحوّلت فيها التربة تماماً إلى غبار شبه أبيض، بياض يميل إلى الزهر الملوّث، بينما هي في الأصل كستناويّة غامقة، إنّها بالفعل كذلك حول المزروعات المرويّة على طول الأرض المنبَسِطة حيث تنمو الخضار، وأيضاً حول الورود والياسمين والزهور الأخرى المنتشرة أمام وعلى جانبي العرائش الجميلة التي تقسم البستان حتّى بداية الحقول حيث الشوفان قد حُصِد، وحتّى العشب الذي يشير إلى حدود الملكيّة قد جَفّ وقُطِع، فلا تجد العشب المخضوضر والكثيف إلاّ على الحدود فقط حيث نبتت شجيرات سياج مِن الشوك البرّي، مزيّنة بفاكهتها التي تشبه الياقوت، وهناك توجد بعض العنزات مع راعيها الصغير، بحثاً عن المرعى والظلّ.

يواكيم حول مَساكِب الخضار والزيتون بصحبة رجلين يساعدانه. ورغم تقدّمه في السنّ فهو نشيط، يستمتع بالعمل. إنّهم في هذه الأثناء يفتحون مجاري مياه على طول حدود الحقل لإيصال الماء للمزروعات العطشى. والماء يأخذ طريقه، مُزبِداً عبر العشب والأرض العطشى مُشكّلاً حلقات تبدو للوهلة الأولى وكأنّها مِن الكريستال الأصفر، ثمّ لا تعدو أكثر مِن دوائر قاتمة مِن التراب الرطب حول جذوع الكروم والزيتون المثقلة بالحِمل.

عَبْر العريشة المظلّلة، حيث تطن نحلات ذهبيّة شرهة لعصير حبّات العنب الشقراء، تتوجه حنّة بتؤدة صوب يواكيم الذي ما أن يراها حتّى يهرع للقائها.

«أأتيتِ إلى هنا؟»

«المنزل حارّ كالفرن.»

«وتعانين منه؟»

«معاناتي الوحيدة هي مِن لحظات الحَمْل الأخيرة، إنّها معاناة جميع المخلوقات، بشراً وحيوانات. لا تُطِل مكوثكَ في هذا الجوّ الحارّ، يا يواكيم.»

«إنّ الماء الذي تمنّيناه منذ زمن بعيد والذي بدا وشيكاً منذ ثلاثة أيّام، لم يأت بعد، والقرية تشتعل. مِن حسن حظّنا أنّ لدينا نبعاً يتدفّق غزيراً. لقد فتحتُ أقنية للريّ: معالجة بسيطة للمزروعات التي جفّت أوراقها وغطّاها الغبار، ولكنّ هذا لا يعدو أكثر مِن حماية لها مِن الموت. ليتها تمطر!...» ويتفحّص يواكيم أعماق السماء يَعروه قلق جميع الفلاّحين، بينما حنّة تستخدم مروحة تبدو مصنوعة مِن أوراق النخيل الجافّة تتخلّلها خيوط ملونة تجعلها متماسكة.

تقول القريبة: «هناك عند حرمون الكبير تتراكض غيمات بسرعة. الريح قادمة مِن الشمال، سيبرد الجو، وقد يهطل المطر.»

«منذ ثلاثة أيّام والريح تهبّ ثمّ تسكن عند ظهور القمر. سيتكرّر المشهد نفسه.» لقد ثبطَت عزيمة يواكيم.

تقول حنّة: «لنعد للمنزل. هنا أيضاً نشعر بضيق في التنفّس، ثمّ أظنّ أنّه مِن الأفضل لنا أن نعود!...» وتبدو أكثر شحوباً بسبب اصفرار يجتاح وجهها.

«أتتألّمين؟»

«لا، بل إنّني أختبر السلام العظيم الذي اختبرتُه في الهيكل، عندما مُنِحتُ النعمة، والذي شعرتُ به أيضاً عندما عَلِمتُ أنّني سأصبح أُمّاً. إنّه مثل انخطاف الروح أو نشوتها. إنّه فقط نعاس جسديّ بسيط بينما تتهلّل النفس وتَسكن في سلام لا يمكن تشبيهه بأيّ شيء بشريّ. لقد أحببتكَ يا يواكيم، ويوم دخلتُ بيتكَ وقلتُ لنفسي: "إنّني زوجة رجل صالح"، انتابني شعور بالسلام، وكذلك في كلّ مرة كان حبّكَ المتبصّر يهتمّ بشؤون حنّة التي هي بكلّيتها لكَ. ولكنّ هذا السلام الذي أختبره الآن مختلف. انظُر: أعتقد أنّه سلام، كالذي على طريقة الزيت الذي ينتشر بلطف، كان مِن المفروض أنّه اجتاح نفس يعقوب أبينا بعد حلمِه بالملائكة، وبشكل حتّى أفضل، إنّه يشبه سلام حاملَي اسم طوبيا الممتع عندما ظَهَر لهما روفائيل. إنّه يتغلغل في أعماقي، وكلّما تذوّقتُه يكبر ويكبر باطّراد، وكأنّني محمولة في مجالات السماء اللازورديّة... ولستُ أدري لماذا، منذ اللحظة التي حصلتُ فيها على هذا الفرح الهادئ في القلب، وُلِدَت ترتيلة في قلبي: "ترتيلة طوبيا". تبدو لي أنّها كُتِبَت مِن أجل هذه الساعة... مِن أجل هذا الفرح... لأرض إسرائيل التي تستقبلها... لأورشليم الخاطئة التي حصلَت الآن على المغفرة... ولكن... -لا تسخر مِن هذيان أُمّ- فعندما أقول: "اشكر الربّ على كلّ الخير الذي منحكَ إيّاه، وباركِ الأزليّ لكي يعيد بناء هيكله فيكَ". أعتقد أنّ الذي سيعيد بناء هيكل الله الحقيقيّ في أورشليم هو هذا الابن الذي سيولَد... كما أعتقد أنّ القدر لم يتنبّأ عن المدينة المقدّسة، بل عن هذا الكائن الذي سيولد منّي في قول الترتيلة: "ستضيئين بنور لامع، كلّ شعوب الأرض ستنحني أمامكِ، والأمم ستأتي إليكِ حاملة الهدايا، سيعبدون فيكِ الربّ ويحفظون أرضكِ كأرض مقدّسة، لأنّ فيكِ سوف يستغيثون *بالاسم العظيم*. ستكونين مغبوطة بأبنائكِ لأنّهم سيكونون جميعاً مباركين، وسيجتمعون أمام الربّ. مغبوطون هم الذين سيحبّونكِ ويَسعَدون بسلامكِ!..." والأولى التي ستفرح هي أنا والدتها المغبوطة.

عند قولها هذه الكلّمات يتغيّر لون حنّة وتُشرِق مثل كائن انتقل مِن نور القمر إلى نار كبيرة أو العكس. وتنهمر دمعات ناعمة على طول خديها. لم تلحظها، وتبتسم لسعادتها، وأثناء كلامها تتّجه صوب المنزل بين زوجها وقريبتها اللذين يَسمَعانها بصمت وقد تأثّرا كثيراً.

يُسرعون لأنّ الغيوم المدفوعة برياح شديدة، ركضَت وتزاحمَت عبر السماء، وأظلَم السهل، واضطَّرَبَ مُعلِناً هبوب العاصفة. وعند وصولهم إلى عتبة المنزل يمزق السماء أوّل برق بسهمه الأزرق، وتعيد زمجرة ضربة الرعد الأولى للأذهان صوت الطبل الضخم وهو يختلط بأصوات أولى القطرات المنهمرة على الأوراق المحروقة.

يعود الجميع وتنسحب حنّة بينما يبقى يواكيم عند العتبة ليلتقي مساعديه ويتكلّم عن المياه المنتظرة، وهي بَرَكة للأرض العطشى. ولكنّ الفرح امتزج بالخوف مِن عاصفة رهيبة أن تهبّ مُرافِقة للبَرق والسُّحب المحمّلة بالبرَد. «إذا تمزقت الغيوم الكثيفة، سيُسحَق العنب والزيتون كما تحت حجر الرحى. الويل لنا.»

وينتاب يواكيم هَمّ آخر بعدئذ، هَمّ زوجته التي حان موعد وضعها. لقد زَفَّت إليه القريبة بشرى عدم تألّم حنّة نهائيّاً. ولكنّه مضطَّرِب. تَخرُج القريبة ونساء أُخريات، بينهنّ أُمّ حلفا، مِن غرفة حنّة لِيَعِدن بأوعية تحوي الماء الساخن وألبسة داخليّة مجفّفة على النار التي تهدر فرحاً وروعة في موقد وسط المطبخ الكبير، ويواكيم يسأل كلّ واحدة بدورها عن الأخبار، ولكنّه لا يطمئنّ لما يقلن. حتّى عدم صراخ حنّة يُقلقه: «أنا رجل، ولم أحضر وِلادة قط، ولكنّني أذكر جيّداً أنّني سمعتُ قولاً مفاده أنّ انعدام الألم علامة سيّئة.»

أقبَلَ الليل مسبوقاً بعاصفة هوجاء، غريبة الشكل: سيول، رياح وبرق، كلّها مجتمعة، ما عدا البَرَد الذي سقط بعيداً.

لاحَظَ أحد الغلمان هذه الشدّة فقال مُعلِناً: «يمكننا القول بأنّ إبليس قد خرج مِن جحيمه مع رهط شياطينه. انظر إلى هذه السُّحُب السوداء! كأنّ بها رائحة كبريت منتشرة في الجو، وهذا الصفير المشؤوم وكأنّه صراخ العويل واللعنة. نعم، إنّ هذا المساء لمخيف!»

يَضحَك الغلام الآخر ويجيبه: «فريسة أخرى قد أفلتَت منه، أو إنّ ميخائيل قد ضربه بصاعقة مِن عند الله شطرَت قرنه وذنَبه وأحرقتهما.»

وتمرّ امرأة مسرعة وهي تهتف: «يواكيم، سيولَد! لقد مرّ كلّ شيء بيسر وسعادة!» وتغيب وهي تحمل جرّة بين يديها.

وفجأة تهبّ العاصفة بعد ضربة صاعقة أخيرة، كانت شديدة لدرجة أنّها رمت الرجال الثلاثة فالتصقوا بالجدار؛ وقد ترَكَت على واجهة المنزل في أرض الحديقة ذكرى وأثراً: حفرة سوداء تُدخّن. في هذه الأثناء يتسلّل عبر باب غرفة حنّة صوت وليد وكأنّه صوت (ترغلّة) يمامة تُناغي لأوّل مرّة بدل الصياح. وبنفس الوقت يَبسط قوس قزح عظيم وشاحاً نصف دائري على امتداد السماء. يَخرُج أو بالأحرى يبدو وكأنّه يَخرُج مِن قمّة حرمون التي قَبَّلَتها الشمس فبدت بلون مرمر أبيض بياض وردة مِن أروع الورود. ويرتفع إلى سماء أيلول (سبتمبر) الصافية جدّاً، مروراً بأجواء منقّاة مِن كلّ شائبة، ليحوم فوق هضاب الجليل والسهل الذي يَظهَر جهة الجنوب بين شجرتي تين وجبل آخر أيضاً، وتبدو نهايته وكأنّها تستقرّ في طرف الأفق حيث سلسلة جبال منحدرة تضع حدّاً لمجال الرؤية.

«يا له مِن مشهد لم نَرَ مثله قط»

«انظروا، انظروا!»

«يبدو الآن وكأنه يحيط بكلّ أرض إسرائيل، ولكن انظروا، ها هي نجمة ظهرَت، بينما الشمس لم تغب بعد. يا لها مِن نجمة! إنّها تلمع مثل ماسة عظيمة!...»

«والقمر، ها هو القمر. إنّه بدر التمام مع أنّ المفروض أنّه سيكتمل بعد ثلاثة أيّام. ولكن انظروا، يا لها مِن روعة!»

تُقبِل النساء فرحات يحملن رضيعاً ورديّ اللون في قُوَط بيضاء.

إنّها مريم، الأُمّ! مريم الصغيرة جدّاً بحيث تستطيع النوم بين ذراعي طفل. مريم ليست أطول مِن الذراع، رأسها صغير عاجيّ يميل قليلاً إلى اللون الورديّ، وشفتان قرمزيّتان لم تعودا تبكيان ولكنّهما شرعتا في عمليّة مصّ غريزيّ، إلاّ أنّهما صغيرتان لدرجة لا يمكن معها رؤية كيف ستستطيعان التقاط "الحلمة"، أنف صغير بين خدّين مدوّرين، وعندما تفتح عينيها تبدوان كقطعتي سماء، إنّهما نقطتان نقيّتان بلون اللازورد، تَنظُران ولا تَريان بين رمشيَن دقيقيَن وبلون أشقر يكاد يكون وردياً لكثرة شقرته. حتّى الشعرات الصغيرات على الرأس المدوَّر، فهي شقراء ورديّة، بلون بعض أنواع العسل الأبيض.

أمّا الأُذُنان فمحارتان ورديتان شفّافتان وكاملتان. وأمّا اليدان... ما هذان الشيئان الصغيران المتحرّكان في الهواء والمتوجّهان نحو الفم؟ إنّهما الآن مغلقتان كبرعمي ورد نديّين تفتّقَ كأساهما الخضراوان ليُظهِرا حريرهما الورديّ الباهت؛ أمّا وهما مفتوحتان فكأنّهما جوهرتان عاجيّتان أو مرمريّتان وتكادان تكونان ورديّتين، بأظافر مِن الأحجار الكريمة فاتحة. فكيف ستستطيعان مسح الدموع الكثيرة؟

والرِّجلان، أين هما؟ ليستا الآن سوى قدمين صغيرتين تختفيان في قماط كتّاني. ولكن ها هي القريبة تجلس وتكشفهما. آه! مِن هاتين القدمين الصغيرتين! أربعة سنتيمترات، وباطنهما محارتان بلون المرجان، وظاهرهما أيضاً محارة مثل ثلج مُعرّق باللازورد. والأصابع ولا أروع، إنّها كمنحوتات قَزَمَة مكلّلة أيضاً بحراشف كأحجار كريمة مضيئة. ولكن كيف ستجد رِجلا اللعبة هذه الأحذية الصغيرة عندما تمشي أولى خطواتهما؟ هاتان الرِّجلان الصغيرتان لدرجة تدعو

للتساؤل: ترى كيف ستساعدانها على الوقوف؟ وكيف ستسيران على الدرب القاسية وتتحمّلان آلاماً جمّة تحت الصليب؟

أمّا الآن فكلّ هذا في حكم المجهول، والكلّ يضحك ويبتسم لرؤية ساقين صغيرتين تتحرّكان وتتخبّطان، والفخذين المنمنميَن اللذين بربربتهما يشكلان مع البطن غمّازات وَثَنيات، أمّا العنق فينبثق عن صدر صغير كامل الأوصاف. وتحت الحرير الأبيض الناصع تُرى حركات التنفّس، وإذا ما أُسنِد الفم لتقبيلها كما فعل الأب الذي ملأه الحبور، تُسمَع ضربات القلب الصغير... قلب صغير ولكنّه أجمل ما حوت الأرض عبر العصور، القلب البشريّ الوحيد الذي لا عيب فيه.

أمّا الظّهر، فها هي الطفلة تُقلَب لتَظهر انحناءة الخاصرتين ثمّ الكتفين المربربيَن والرقبة الورديّة. وأمّا رأسها الصغير فإنّه ينتصب ليشكّل قوساً مع العمود الفقريّ، إنّه مثل رأس عصفور ينظر حوله إلى عالم جديد يكتشفه.

تصرخ بشكل بدا وكأنّه احتجاج على عرضها هكذا وهي الطاهرة العفيفة في نظر الكثيرين، هي التي لن تُرى عارية بعد الآن، العذراء القدّيسة المنزّهة عن كلّ عيب. غطّوا، غطّوا برعم الزنبق هذا الذي لن ينكشف أبداً على هذه الأرض، والذي سيُعطي زهرته الأجمل مع بقائه برعماً. ففي السماء فقط ستتفتح بتلات زنبقة الله الثالوث، فهناك في الأعالي، لاوجود لغبار الخطيئة الذي يمكنه انتهاك حُرمة هذه البراءة عن غير قصد، ولأنّ، هناك في الأعالي سوف يُستقبَل تحت نظر السماء كلّها مَن هو، مع كونه الآن مختبئاً لبضع سنوات في قلب نقيّ طاهر، سيسكن فيها فيما بعد: أباً وابناً وعروساً.

ها هي مِن جديد ضمن اللفائف، بين ذراعي أبيها الأرضيّ الذي تُشبِهه، إنّها لا تُشبِهه الآن لأنّها ما تزال مشروع كائن بشريّ، فأنا أريد القول بأنّها ستشبهه عندما تصبح امرأة. إنّها لم تأخذ شيئاً مِن صفات أُمّها الجسديّة، أمّا مِن أبيها فقد أَخَذَت الصبغة ولون العينين وكذلك الشعر الذي، رغم بياضه في الوقت الحاضر، إلاّ أنّه كان أشقراً في الماضي بالتأكيد كما يُستدَلّ

مِن الحاجبين، أَخَذَت منه الملامح التي تبدو عليها أكثر كمالاً وأكثر نقاء، لأنّها امرأة، وهذه المرأة بالذات! أَخَذَت منه الابتسامة والنظرة والحركات والقامة. وعندما أفكر بالسيد المسيح كما أراه، أجِد أنّ حنّة قد أورثَت حفيدها قامتها ولون بشرتها العاجيّ القاتم. لم تكن لمريم مهابة حنّة – النخلة الشامخة والمرنة– إنّما لُطف أبيها.

ما زالت النساء يتكلّمن عن العاصفة وأعجوبة القمر والنجمة وعن قوس قزح العملاق، بينما يَدخُلن مع يواكيم غرفة الأُمّ السعيدة، ويُعِدن لها المولودة الصغيرة.

تضحك حنّة في سرّها وتقول لنفسها: «إنّها النجمة، فعلامتها في السماء. مريم هي قوس قزح السلام! مريم نجمتي! مريم هي القمر اللامع! مريم هي جوهرتنا!»

«ستسمّينها مريم؟»

«نعم مريم، نجمة، جوهرة، نور، وسلام...»

«ولكنّ هذا الاسم يعني أيضاً مرارة... ألا تخشين أن يحمل لها الشقاء؟»

«الله معها. هي له قبل أن تُولَد، وسيقودها في طُرُقه، وكلّ مرارة سوف تتحوّل إلى عسل فردوسيّ. الآن أنتِ عند أُمّكِ... وبعد وقت قليل ستصبحين بكلّيتكِ لله...»

وانتهت الرؤيا عند أوّل غفوة لحنّة التي أصبحَت أُمّاً، ولمريم ابنتها.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

8- (تبدو نفسها جميلة ولا عيب فيها كما كانت في فِكر الله)

27 / 08 / 1944

يقول يسوع:

«انهضي بسرعة يا صديقتي الصغيرة. فإنّ بي رغبة متأجّجة لأحملكِ معي إلى سماء تأمّل بتوليّة مريم الفردوسيّة. سوف تخرجين منها بنفس نديّة كما لو كُنتِ خُلِقتِ مِن الآب للتو، حوّاء صغيرة ما زالت تجهل أمر الجسد. ستخرجين منها بنفس مشرقة لأنّكِ ستتعمّقين في رائعة الله. ستخرجين منها بكيان يفيض حبّاً لأنّكِ ستدركين كم يعرف الله أن يحبّ. الكلام عن الحَبَل بمريم المنزّهة عن كلّ عيب، هذا يعني الغوص في اللازورد، في النور، وفي الحبّ. تعالي واقرأي أمجادها في كتاب الأجداد.

"الرب قناني أول طريقه، مِن قَبل أعماله، منذ البدء، قبل الخليقة. لقد صنعَني في أصل الكائنات قبل أن تُخلَق الأرض. عندما لم تكن اللجج بعد قد صاغني. عندما لم تكن الينابيع الحيّة قد تدفّقت، والجبال لم تكن قد شمخَت بكتلتها الضخمة، ولم تكن التلال قد تعرّضت للشمس، وُلِدتُ. عندما لم يكن الله قد صنع الأرض والأنهار ومحور العالم، كنتُ أنا. لقد كنتُ حاضرة بينما كان يهيّئ السماء! عندما حَصَرَ اللجج تحت قبّة السماء بفعل قانون ثابت، وأكّد ثبات القبّة السماويّة في الأعالي، وصَنَعَ ينابيع المياه الحيّة، عندما كان يثبّت حدود البحار ويقرّر قوانين كُتَل مياهها، وعندما أَمَر المياه ألّا تتجاوز حدودها؛ وعندما كان يرمي أساسات الأرض كنتُ أنا معه لتنظيم كلّ الأمور، كنتُ ألعب وسط الكون بفرح لا متناه...".

لقد عزوتم هذا الكلام إلى الحكمة، بينما كان يعنيها هي: الأم كلّية البهاء، كلّية القداسة. العذراء أُمّ الحكمة التي هي أنا بالذات، أنا الذي أكلّمكِ. رَغِبتُ أن تكتبي أوّل بيت مِن هذا

النشيد في رأس الكتاب الذي يتكلّم عنها ليعرف الجميع ويعلموا أنّها سلوى الله وفرحه، هي سبب مسرّة الله الواحد والثالوث الثابتة والكاملة والحميميّة، الله الذي يسوسكم ويحبّكم في الوقت الذي كان الإنسان سبب حزنه. لقد كانت سبب تخليد الجنس البشري الذي استحقّ السحق عند أوّل تجربة. إنّها سبب حصولكم على الغفران.

امتلاك مريم للحصول منها على الحبّ. آه! إنّه لأمر يستحقّ عناء خَلْق الإنسان وجعله يَحيَ وتقرير مسامحته، كلّ هذا مِن أجل الحصول على العذراء الجميلة، العذراء القدّيسة، العذراء المنزّهة عن كلّ عيب، العذراء المقتناة بالحبّ، الابنة المحبوبة جدّاً، الأُمّ كلّية الطهارة، العروسة المحبوبة! لقد وَهَبَكم الله عطاياه، وهو على استعداد لأن يهبكم باستمرار ليمتلك الخليقة التي تصنع له بهجته، شمس شمسه، زهرة بستانه، ويستمرّ عطاؤه لكم عن طريقها، بناء على طلبها، لمسرّتها، ذلك أنّ مسرّتها ستذوب في مسرة الله وتُعظّمها بالومضات المتلألئة بالنور، نور الجنّة العظيم، وكلّ ومضة هي هبة للكون، للجنس البشريّ، للمغبوطين أنفسهم الذين يستجيبون بنداء متلألئ بالهلليلويا لكلّ معجزة مِن قِبَل الله يجترحها بسبب رغبة الله الثالوث رؤية ابتسامة مسرّة العذراء المُشرِقة.

لقد أراد الله أن يقيم مَلِكاً على العالم الذي خلقَه مِن العدم. مَلِكاً يكون بطبيعته المادّية الأوّل بين كلّ المخلوقات المنبثقة مِن المادّة وهي نفسها ماديّة. مَلِكاً يكون أقلّ مِن الإله قليلاً بطبيعته الروحيّة، متّحداً بالنعمة كما كانت براءته في يومه الأوّل. ولكن الفطنة الفائقة، التي تَعلَم كلّ الأحداث الأكثر بُعداً في أعماق الدهور، والتي تكتشف دائماً كلّ ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون –وبينما هي تتأمّل الماضي وتلاحظ الحاضر، تراها تتعمّق بنظرها في المستقبل البعيد جدّاً دون أن تغفل أو تجهل كيف ستكون ميتة الإنسان الأخير، كلّ ذلك دون اختلاط أو توقّف– لم تجهل أبداً أنّ المَلِك الذي توقّعَتهُ، الذي خُلِقَ ليكون شِبه إلهيّ إلى جانب الله في السماء، وارث الآب، الذي يصبح بالغاً في مملكته بعد أن يَحيَ في بيت والدته –الأرض التي

تَشَكَّل منها- لم تجهل أنّه طوال فترة طفولته كابن الأزليّ، أثناء إقامته الأرضيّة، كان سيرتكب ضدّ ذاته جريمة قتل النعمة في نفسه وسرقة التواري عن السماء.

لماذا إذن خَلَقَها؟ تساءَلَ الكثيرون بكلّ تأكيد. هل كنتم تفضّلون عدم وجودها؟ ألم تكن تُستَحَقّ لذاتها بالرغم مِن فقرها وعريها وشظف عيشها الذي سبّبه شرّكم، لأن تَحيَى هذا اليوم الأرضيّ للتعرّف والإعجاب بالجمال اللامتناهي الذي نَشَرَته يد الله في الكون؟

لمن صَنَعَ هذه النجوم والكواكب السيارة التي تنتقل كالأسهم مُخَطِّطة قُبَّة السماء، أو تتقدّم ببطء جليّ، ولكنّه مهيب في جري النيازك، واهبة إيّاكم أنواراً وفصولاً، وهي تهبكم بأزليّتها وثباتها، بالرغم من تغيّر شكلها المستمرّ، صفحة للقراءة عن اللازورد كلّ مساء وكلّ شهر وكلّ سنة؟ وكأنّها تريد أن تقول لكم: انسوا السجن، دعوا جانباً إعلاناتكم المليئة بأشياء قاتمة، عَفِنة، وَسِخة، سامة، كاذبة، مُجدِّفة، ومُفسِدة، واسْموا، أقلّه بالنظر، صوب حريّة تتجاوز حدود السماوات، اجعلوا أرواحكم سماويّة بالتطلّع إلى الكثير مِن السكينة، اخزنوا لكم مؤونة مِن النور لتحملوها إلى سجنكم المظلم، اقرأوا الكلمة التي نكتبها بينما نرتّل الترتيلة الفلكيّة، أكثر تناغماً مِن تلك التي ترافقها أراغن الكاتدرائيّة، الكلمة التي يكتبها تألّقنا، التي يكتبها حبّنا، لأنّه حاضر دائماً بالنسبة لنا ذلك الذي مَنَحَنا مسرّة الوجود، ونحن نحبّه لأنّه مَنَحَنا هذا الوجود، هذا التألّق، هذه الحركة، هذه الحريّة وهذا السناء وسط هذه السماء المليئة بالعذوبة التي نرى أبعد منها سماء أكثر رفعة وسناء: الجنّة. إنّه كياننا الذي يجعلنا نتمّم الجزء الثاني مِن وصيّة الحبّ، بحبّكم أنتم باعتباركم كوننا المستقبليّ، بحبّكم بالموهبة التي نعطيكموها بأن نؤمّن لكم التوجيه والنور، الحرارة والسناء. اقرأوا الكلمة التي نوجّهها إليكم، فهي التي تُلهِم نشيدنا وتألّقنا ومسرّتنا: "الله".

لمن تراه صَنَعَ هذا اللازورد السائل، مرآة السماء، الطريق إلى الأرض، بسمة المياه، صوت الأمواج، وأيضاً الكلمة التي، بشنشنة الحرير وضحكات الأطفال الوادعة، بتنهيدات المسنّين الذين يتذكّرون ويبكون، بصفعات العنف ونطحات القرون، بالخوارق والزمجرات، لا تتوقّف عن الكلام

وتقول دائماً: "الله"؟ البحر بالنسبة لكم كالسماوات والكواكب ومعه البحيرات والأنهار والجداول والغدران والينابيع المشرقة، كلّ ما يصلح لنقلكم وتغذيتكم، ليشفي غليلكم ويطهّركم، والتي تخدمكم بينما هي تخدم الخالق، دون الخروج مِن مجاريها لتغمركم كما تستحقّون.

لمن تراه صَنَعَ هذا العدد الذي لا يحصى مِن أنواع الحيوانات التي هي زهور تطير وتغني، وهي بمثابة الخدّام تركض وتعمل لأجلكم، وتغذّيكم وتبهجكم أنتم ملوك الخليقة؟

لمن تراه صَنَعَ هذا العدد الذي لا يحصى مِن أنواع المزروعات والزهور التي تشبه الفراشات والجواهر، عصافير ثابتة، ثمّاراً تبدو كعقود أو مصاغاً مِن اللآلئ، سجادات لأرجلكم وراحة لرؤوسكم، استراحات ومنافع، مسرّة للروح والأعضاء والحواسّ: النظر والشمّ؟

لمن تراه صَنَعَ المعادن في أعماق الأرض، والأملاح المنحلّة في الينابيع التي تغلي منها أو الجامدة: الكبريت، اليود، البروم... إنْ لم يكن ليتمتّع بها أحد غير الله، هو ابن لله، وهو كائن فريد: الإنسان؟

لا يمكن لشيء أن يكون ضرورياً لا غنى عنه لمسرّة الله وحاجته، إنّه مكتفٍ بذاته. وتأمّله هو غبطته وغذاؤه وحياته وراحته. الخليقة قاطبة لم تستطع أن تضيف ذرّة واحدة إلى مسرّته اللامنتهية، لبهائه وحياته وقدرته. كلّ هذا قد صَنَعَهُ لخليقته، لذاك الذي أراد جعله مَلِك كلّ الأشياء المخلوقة، للإنسان.

لكي تروا هذا الكم مِن الأعمال الإلهيّة وتشكروه على القدرة التي منحكموها، فذلك يستحقّ أن تحيوا. ويجب أن تعترفوا بجميل مَنْحِكم الحياة. هذا ما يجب أن يكون حتّى ولو لم تكونوا قد افتُديتم إلّا في آخر الأزمان. بالفعل، على الرغم مِن أنّكم، يا مَن كنتم مِن الأوائل، وكنتم كلّ بمفرده مخلّاً بالأمانة، متكبّراً، فاجراً وقاتلاً، على الرغم مِن كلّ هذا، فقد مَنَحَكُم الله أن تستمتعوا بجمال الكون، وعامَلَكُم كما لو كنتم صالحين، أبناء بَرَرَة يُمنَحون ويُلقَّنون كلّ شيء

لتصبح حياتهم ألطف وأسلم. كلّ ما تعلمونه قد عرفتموه بواسطة نور الله. وكلّ ما تكتشفونه فبموجب إيعاز مِن الله، في *الخير*. وكلّ المعارف الأخرى التي تحمل شارة الشرّ فإنّها متأتّية مِن الشر الأعظم: *إبليس*.

الذكاء العظيم الذي لا يجهل شيئاً، وكان يعرف قبل وجود الإنسان أنّه سيكون بمحض إرادته سارقاً وقاتلاً. وبما أنّ الصلاح الأبديّ لا حدود لصلاحه، فقد فَكَّرتُ بوسيلة لتدمير الخطيئة قبل أن توجد الخطيئة. والوسيلة هذه هي: *أنا، الكلمة*. أمّا الأداة التي جَعَلَت مِن الوسيلة أداة فاعلة فهي: *مريم*. والعذراء قد خُلِقَت في فِكر الله السامي. وكلّ الأشياء خُلِقَت مِن أجلي وبواسطتي، أنا ابن الآب الحبيب.

أنا كمَلِك، كان مِن المفروض أن تُفرَش تحت قدميّ، قدمي المَلِك الإلهيّ، سجّادات وجواهر لم تُفرَش ولم توجد في أيّ قصر ملكيّ بعد، وأن تصدح أناشيد وأصوات، وأن يحيط بي، بوجودي، خدّام لم يكونوا لأيّ مَلِك غيري، ومِن الزهور والأحجار الكريمة كلّ ما هو الأكثر عظمة والأكثر روعة، كلّ ما هو لطيف وممتع، كلّ ما يمكن أن يُجنَى مِن فِكر الله. إنّما كان يجب أن أكون بالجسد وليس روحاً فقط... أن أكون بالجسد لأخلّص الجسد ولأسمو به برفعه إلى السماء قبل الأوان بقرون، ذلك أنّ الجسد الذي تسكنه الروح هو رائعة الله، ولأجله خُلِقَت السماوات.

ولكي ألبس جسداً كان لا بدّ لي مِن أُمّ. ولأكون الله كان لا بد لي من أب يكون هو الله. هذا هو السبب الذي جعل الله يخلق عروسه ويقول لها: "تعالي معي، إلى جانبي، وانظري كلّ ما أفعله لابننا. انظري وافرحي، أيّتها العذراء الأبديّة، الطفل الأبديّ، أمّا ابتسامتكِ فلتملأ السماء ولتعطي الملائكة النغمة الأصليّة ولتُعَلِّم الجنّة التناغم السماويّ. أنظر إليكِ وأراكِ كما ستكونين، أيّتها المرأة المنزّهة عن كلّ عيب، وأنتِ لستِ الآن سوى روح: الروح الذي أُسَرُّ به. أنظُر إليكِ وأمنح لازورد نظرتكِ للبحر وقبّة السماء، ولون شعركِ للبذرة المقدّسة، وبياضكِ للزنابق، واحمراركِ

للوردة الشبيهة ببشرتكِ الحريريّة، واللآلئ هي أسنانكِ الصغيرة. أصنع توت الأرض (الفريز) اللذيذ حينما أنظر إلى فمكِ، وأضع في حنجرة البلابل أنغام نشيدكِ وفي اليمامة أنينكِ. بقراءة أفكاركِ المستقبليّة وسماع ضربات قلبكِ أحصل على شكل ودليل الخليقة. تعالي يا فرحي، لأجلكِ ستكون العوالم كالتسالي إلى أن تصبحي في فكري النور المتراقص، ها هي العوالِم مِن أجل ابتسامتكِ، لأجلكِ هي أكاليل النجوم وأطواق الكواكب، القمر تحت قدميكِ العذبتين، فاصنعي لنفسكِ مِن نجوم درب التبّانة وشاحاً. النجوم والكواكب السيّارة لكِ. تعالي وتمتّعي برؤية الأزهار التي ستسلّي ولدكِ وتكون بمثابة الوسادة لابن أحشائكِ. تعالي وتأمّلي خَلْق القطعان والنّعاج، خَلْق النسور والحمام. كوني بقربي عندما أصنع أحواض البحار والأنهار، عندما أنصُب الجبال وأغطّيها بالثلج والغابات، عندما أبذُر القمح وأزرع الأشجار والكروم والزيتون لكِ يا سلامي. الكرمة لكِ يا غصني الذي سيحمل العنقود القربانيّ. اركضي، طيري، وابتهجي يا جميلتي، وهيئي الكون الذي يُخلَق مِن ساعة لساعة ليحبّني، أيّتها المحبّة، وليصبح اجمل بابتسامتكِ يا أُمّ ابني ومَلِكَة جنّتي، يا حبّ إلهكِ".

وأيضاً برؤية الخطأ، والإعجاب بالمنزهة عن الخطأ: "تعالي إليّ أنتِ يا مَن تُغيّبين مرارة المعصية البشريّة والفسق البشريّ مع إبليس والجحود الآدمي. معكِ سوف أنتقم مِن الشيطان".

الله، الأب الخالق، خَلَق الرجل والمرأة بشريعة حبّ كاملة لدرجة لا يمكنكم معها بأيّ شكل إدراك مدى كمالها. وسيضلّ بكم التفكير إذا ما حاولتم معرفة وضع الجنس البشريّ لو لم يخضع الإنسان لتوجيهات الشيطان.

تأمّلي النباتات بثمّارها وبذورها. هل تقوم بالزراعة والحصول على الثمّار نتيجة فسق أو بفعل تلقيح مِن مائة جماع؟ أبداً. بل يَخرُج غبار الطلع مِن الزهرة الذكر، وبتوجيه مِن مجموعة قوانين نيزكية ومغناطيسية يتّجه صوب مبيض الزهرة الأنثى التي تتفتح، تستقبله وتُنتِج. إنّها لا تقبل

النجاسة لترفضها فيما بعد كما تفعلون أنتم لتعودوا فتختبرون الإحساس ذاته في اليوم التالي، فهي إذ تُنتِج لا تعود تُزهِر حتّى الموسم التالي، وإن أزهرت فذلك بغرض التوالد.

تأمّلي الحيوانات، كلّ الحيوانات. هل رأيتِ قَطّ ذكراً وأنثى يتّجه الواحد صوب الآخر بهدف عناق عقيم وعلاقة نجسة؟ أبداً. لا مِن قريب ولا مِن بعيد، بالطيران كان أو بالزحف، بالقفز أو بالجري؛ بل إنّها تُنجِز طقوس الإلقاح دون تملّص منها بالوقوف عند حدود اللذّة، ولكنّها تُنجِزها حتّى النهاية الجادّة والمقدّسة لاستمرار الجنس، وهو الهدف الوحيد منها. أمّا الإنسان، شبه الإله بطبيعته الإلهيّة بالنعمة التي وَهَبتُها له كاملة، فقد كان مِن المفروض أن يَقبَل فقط لنفس الهدف الفعل الحيوانيّ الذي يفرض نفسه منذ هبطتم درجة في التصنيف الحيوانيّ.

إنّكم لا تتصرّفون مثل النباتات والحيوانات، لقد اتّخذتُم إبليس كمعلّم، وأردتموه معلّماً، وما زلتم تريدونه كذلك. والأفعال التي تقومون بها تليق بذاك المعلّم الذي أردتموه. بينما لو كنتم مُخلِصين لله، لكنتم نلتم مسرّة الحصول على الأطفال بشكل قدسيّ بدون ألم، دون أن تستسلموا لعلاقات فاحشة ومخزية، علاقات تجهلها الحيوانات ذاتها، الحيوانات التي لا تتمتع بنفس عاقلة وروحانيّة.

أراد الله أن يقابل الرجل والمرأة اللذين أفسدهما الشيطان، بالإنسان المولود مِن امرأة رَفَعَها الله بشكل فائق، لدرجة الحَبَل والولادة دون أن تعرف رَجُلاً، زهرة تلد زهرة دونما حاجة إلى تلقيح ماديّ، ولكنّها تصبح أُمّاً بفعل قبلة وحيدة مِن الشمس على كأس الزنبقة مريم الذي لم يُمَسّ.

انتقام الله!

انفث حقدكَ أيّها الشيطان بينما هي تُولَد. لقد غَلَبَتكَ هذه الطفلة الصغيرة! قبل أن تجعل مِن نفسكَ مُتمرّداً ومُراوغاً ومُفسِداً، كنتَ المقهور وهي المنتصرة. ألف جيش منظم في الحرب لا يستطيعون شيئاً في مواجهة قدرتكَ. فالأسلحة تسقط مِن أيدي الرجال عندما تُقابِل تروسكَ، أيّها المُفسِد الدائم، وليس هناك ريح قويّة كفاية لتبدّد نتانة نَفَسك. ومع ذلك فكعب قدم هذه

الطفلة، الورديّ مثل قلب زهرة الكاميليا الورديّة الناعمة والطريّة، لدرجة أنّ الحرير يبدو خشناً إذا ما قورن بها، الصغير جدّاً لدرجة أنّه يستطيع الدخول في كأس خزامى (Tulipe) وأن يَجعَل مِن هذا السندس النباتيّ حذاء، ها هو يسحقكَ دون خوف ويحبسكَ في كهفكَ. ها إنّ مجرّد صراخها وهي وليدة يجعلكَ تهرب، أنتَ الذي لا يهاب الجيوش، وها إنّ نَفَسها يطهّر رائحة نتانتكَ. فأنتَ مقهور. واسمها ونظرتها وطهارتها هُم: الرمح والحجر والصاعقة التي تخترقكَ وتسمّركَ في الأرض وتحبسكَ في جحركَ الجهنّميّ، أيّها الملعون الذي انتَزَعَ مِن الله فرحة كونه أباً لكلّ البشر المخلوقين.

باطلة هي محاولاتكَ إفساد الذين خُلِقوا في حالة البراءة، بحملهم على القران والحَبَل مِن خلال حيل فاسقة، مانعاً الله مِن أن يمنح خليقته المحبوبة أولاداً حسب قواعد، لو تمّ احترامها، لصانت في الأرض توازناً بين الجنس والنسل قادراً أن يمنع الحروب بين الأمم والشقاء في العائلات.

في الطاعة يعرفون الحبّ بالطبع، ويحصلون عليه، في الامتلاك الكامل والهادئ لهذا الانبثاق مِن الله الذي نَزل مِن فائق الطبيعة ليَختَبِر به الجسد أيضاً فرحاً مقدساً، وهو المتحد بالروح، وقد خَلَقَهُ مَن خَلَقَ الروح ذاته.

والآن، أيّها البشر، ما طبيعة حبّكم، بل ما طبيعة مجموع أنواع الحبّ عندكم؟ إنّه، مهما كان النوع الذي ينتمي إليه، إمّا فسق يأخذ شكل حبّ وإمّا خوف غير قابل للشفاء مِن فقدان حبّ القرين بسبب فسقه والآخرين. لم تعودوا متأكّدين مِن امتلاك قلب الزوج أو الزوجة أبداً، منذ أن اجتاح الفسق العالم. وترتجفون وتبكون وتصبحون مجانين بسبب الغيرة، بل قَتَلَة أحياناً بالانتقام، بسبب خيانة، وفي حالات أخرى يائسين ومصابين بفقدان الإرادة والخبل.

هذا ما فعلتَه أيّها الشيطان بأبناء الله. أولئك الذين خدعتَهم وكانوا سيعرفون فرح الحصول على أبناء بدون ألم، فرح بلوغ اليوم والموت بدون خوف. أمّا الآن فقد هَزَمَتكَ امرأة، بل المرأة التي سيعود منذ الساعة كلّ مَن يحبها ليصبح مِن الله، وينتصر على التجارب ليستطيع المحافظة على

طهارته دون عيب. أمّا النساء فسيحصلن على تشجيعها، وستصبح هي منذ الآن فصاعداً للأزواج دليلاً وللأموات أُمّاً. وبفضلها سيصبح لذيذاً الموت على هذا الصدر الذي يحميهم منكَ أيّها الملعون، ويُدافع عنهم عند صدورِ أحكام الله.

ماريا فالتورتا، يا صوت الله الهامس، لقد رأيتِ ولادة ابن العذراء وولادة أُمّه في السماء. لقد عاينتِ إذاً أنّ لا وجود لآلام الولادة والموت خارج الخطيئة. ولكن إذا كان كمال المواهب الإلهيّة قد صان الفائقة البراءة أُمّ الله، فقد كان سيمنح كلّ المتحدّرين مِن الأبوين الأوّلين، لو كانا بقيا بريئين وابني الله، نعمة التوالد دون ألم -كما كان مفترضاً لمعرفتهم التزاوج والحبل بلا فِسق- والموت دون قلق.

ثأر الله السامي مِن انتقام إبليس كان في حَمل كمال الخليقة المحبوبة إلى الكمال الفائق الذي، أقلّه في خليقة واحدة، قد أبطَلَ كلّ ذكرى للبشريّة قابلة لأن تعطي دفعاً لسمّ إبليس. وهكذا كان، أن جاء الابن إلى العالم، ليس على أثر علاقة بشريّة عفيفة، بل بعناق إلهيّ غيَّر وجه الروح في نشوة النار.

بتولية العذراء!

تعالي تأملي أعماق هذه البتولية، التي تجعل التأمل فيها يُحدِث دوار الهوة التي لا قرار لها! ماذا تكون بتولية امرأة أُرغِمَت عليها لأنّ رجلاً لم يتزوجها؟ أقلّ مِن لا شيء. ماذا تكون بتوليّة مَن أرادت أن تكون عذراء لتكون لله ولكنّها لا تعرف أن تكون كذلك إلّا بالجسد وليس بالروح، حيث إنّها تترك مجالاً لأفكار كثيرة غريبة تتسرّب إليها، كما تُداعِب وتتقبّل مداعبة الأفكار البشريّة؟ إنّها بداية كونها يرقة بتوليّة، ولكنّ ذلك ما يزال قليلاً جدّاً. وماذا تكون بتوليّة حبيسة، ناسكة لا تَحيَ إلا مِن الله؟ الكثير... ولكنّها لم تصل أبداً إلى البتوليّة الكاملة إذا ما قورنت ببتوليّة **أُمّي**.

تواطؤ لا شعوريّ موجود دائماً حتّى لدى أكثر الناس قداسة: إنّه متأصّل في الروح مع الخطيئة، وهو الذي تعمل المعموديّة على التحرير منه، إنّها تحرّرنا منه، فكما أنّ الأرملة المنفصلة عن زوجها بموته لا تكون في بتوليّة كاملة، كذلك المعموديّة لا تعيد للبشر البتوليّة الكاملة التي كانت للأبوين الأوّلين قبل الخطيئة. نُدبة دائمة مؤلمة لا تُنسى، وهي دوماً في وضع قابل لإعادة الجرح، مثلها في ذلك مثل أمراض كثيرة في ظروف معيّنة تعود الفيروسات فيها فاعلة نشيطة. ولكن لدى العذراء، لا أثر للتواطؤ مع الخطيئة. وتبدو نفسها جميلة ونقيّة كما كانت في فِكر الله، جامعة في ذاتها كلّ النِّعم. هذه هي العذراء الوحيدة، الكاملة، المكتَمِلة: فكما وَرَدَت في فِكر الله وكما حُبِل بها، كذلك ستبقى أبداً. هكذا كُلِّلت وستبقى مُكلَّلة للأبد. إنّها العذراء، عمق عدم المساس والطهارة والنّعمة، التي تتلاشى في هذا العمق الذي انبَثَقَت منه في الله، عدم مساس وطهارة ونعمة مُطلَقَة.

هذا هو انتقام الله الثالوث والواحد. بخلاف كلّ المخلوقات الممتَهَنة، أقام نجمة الكمال هذه في مقابل الفضول الفاسد، هذه الزرينة التي لا يُشفي غليلها سوى حبّ الله. في مقابل علوم الشرّ. فهذه الجاهلة السامية، لا تجهل الحبّ المنحطّ فقط، ولا الحبّ الذي وهبه الله للزوجين الآدميّين فقط، بل أكثر أيضاً. إنّها تجهل الحرارة المؤذية، إرث الخطيئة. ليس لديها سوى الحكمة المجمِّدة والمتوهِّجة معاً للحبّ الإلهيّ. النار التي تُجمِّد الجسد لتجعل منه مرآة كاملة للهيكل الذي يتزوّج فيه الله عذراء ولا يتنازل أبداً، لأنّ كماله يُغلِّف التي هي، كما يليق بعروسة أقلّ بدرجة فقط مِن العروس، خاضعة له كامرأة، ولكنّها شبيهة به بدون عيب.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

9– (بعد ثلاث سنوات ستكونين هنا، يا زنبقتي)

28 / 08 / 1944

إنّي أرى يواكيم وحنّة مع زكريّا وأليصابات يَخرجون مِن منزل في أورشليم، مِن المؤكّد أنّه منزل أصدقاء أو أقرباء. إنّهم يتوجّهون صوب الهيكل للمشاركة في طقوس التطهير.

الطفلة بين يدي حنّة مقمّطة بشكل جيّد، يلفّها غطاء صوفيّ خفيف المفروض أنّه ناعم ودافئ. إنّها تحمل وليدتها الصغيرة بعناية بالغة وحبّ لا يوصف، وتراقبها وهي ترفع طرف الغطاء الناعم والدافئ بين آونة وأخرى لتَرى ما إذا كانت مريم تتنفّس بشكل جيّد، ثمّ تعود لتغطّيها فتحميها وتقيها مِن الهواء البارد في يوم جميل مِن أيّام الشتاء، ولكنّه يوم بارد!

كانت أليصابات تحمل رُزَماً بين يديها. ويواكيم يجرّ حَمَلين كبيرين ناصعي البياض مربوطين بحبل، إنّهما أكثر مِن حَمَلين، إنّهما بالأحرى خروفان. لم يكن زكريّا يحمل شيئاً. إنّه وسيم جدّاً في ثوبه الكتّاني الذي يَظهَر مِن خلال معطفه الصوفيّ الأبيض الثقيل. زكريّا أكثر شباباً ممّا كُنتُ قد رأيتهُ عند ولادة المعمدان، وهو بكامل قوّته. أليصابات أيضاً في سنّ ناضجة ولكنّها تبدو نَضِرَة. وفي كلّ مرة كانت حنّة تنظر إلى الطفلة، كانت تنحني بنشوة على الوجه الصغير النائم، وهي أيضاً كانت جميلة جدّاً بثوبها اللازورديّ المائل إلى البنفسجيّ القاتم، ووشاحها الذي يغطّي رأسها وينزل على كتفيها وعلى المعطف الأغمق لوناً مِن الثوب.

كان يواكيم وحنّة بشكل خاصّ مهيبين في ثياب العيد. على غير عادته، لم يكن يواكيم مرتدياً جلبابه الكستنائيّ الداكن، بل ثوباً طويلاً أحمر داكناً –كما يُطلَق عليه اليوم لون أحمر القديس يوسف– أمّا أهداب معطفه فجديدة وجميلة، وعلى رأسه نوع مِن الوشاح المستطيل المحاط بشريط دائريّ مِن الجلد. كلّ ثيابه كانت جديدة وناعمة.

حنّة! آه! لا تلبس ثوبها الداكن اليوم! بل هي ترتدي ثوباً أصفر فاتحاً جداً، يشبه لون عاج عتيق، تشدّه على الخصر وحول العنق والأكمام بشريطة تبدو مِن الذهب والفضة، كما تغطّي رأسها بوشاح رقيق جدّاً حتّى يبدو كأنّه مدمقس، ومثبَّت على جبهتها بشريحة نفيسة. وفي عنقها عقد مصاغ، وفي معصمها أساور. حتّى لَتَحسبها ملكة حقيقيّة لمهابتها وهي ترتدي الثوب، خاصّة المعطف الأصفر الفاتح بحاشيته الموشّاة برسومات بديعة. لوناً على لون.

تقول لها أليصابات: «يبدو لي وكأنّي أراكِ يوم زفافكِ، كنتِ يومئذ طفلة صغيرة، إلاّ أنّني أتذكّركِ جيّداً، كم كنتِ جميلة وسعيدة!»

«ولكنّني الآن أنا كذلك، بل أنا أكثر من ذلك، لقد أردتُ أن أظهَر بنفس ذاك المظهَر في هذا الاحتفال، لقد احتفظتُ به ليوم العيد هذا... وأنا لا أمل لي بارتداء ثيابي هذه في يوم كهذا بعد...»

تقول أليصابات بتنهّد: «لقد أحبّكِ الربّ كثيراً.»

«لأجل ذلك أُقَدِّم له أحَبّ ما لديّ، هذه الزهرة... زهرتي.»

«كيف ستستطيعين انتزاعها مِن صدركِ عندما تزفّ الساعة؟»

«أتذكّر أنّها لم تكن وأن الربّ أعطانيها. سأكون أكثر سعادة في تلك الساعة، عندما أعلَم أنّها في الهيكل، سأقول لنفسي: "إنّها تصلّي عند خيمة تابوت العهد، ستصلّي لإله إسرائيل مِن أجل والدتها أيضاً". سأشعر بالسلام، بل سأختبر سلاماً أعظم وأنا أقول لنفسي: "إنّها له بكاملها، وعندما لا يعود العجوزان اللذان تَلَقَّياها مِن السماء في الوجود يبقى، هو الأزليّ، أباها". ثقي بي، إنّني متأكّدة بأنّ هذه الطفلة ليست لنا، لسنا نملكها، فأنا لم أكن في وضع أستطيع معه

شيئاً... هو زَرَعَها في أحشائي، هبة إلهيّة، ليمسح دموعي ويثبّت رجاءنا وصلاتنا. إذاً هي له. أمّا نحن فلسنا سوى حرّاس سعداء... فليتمجّد اسمه!»

ها هُم وقد وصلوا أمام جدران الهيكل.

«عندما تمضون إلى البوّابة، سأذهب أنا لأخبر الكاهن، ثمّ أعود.» قالها زكريّا وغاب خلف قنطرة، هي مدخل إلى ساحة كبيرة محاطة بأروقة.

تابعَ الجَّمع التقدّم عبر شرفات متتالية –لستُ أدري ما إذا كنتُ قد تحدّثتُ عن ذلك سابقاً– إنّ سور الهيكل على مستويات مختلفة، ولكنّه يتوالى صعداً بمسطّحات متتالية أكثر ارتفاعاً الواحدة عن الأخرى. وكلّ شرفة يُرتقَى إليها بِدَرَجات، وهي محاطة بساحات وأروقة ومداخل رائعة مِن الرخام والبرونز والذهب.

قبل الوصول إلى مكان الالتقاء، توقّفوا ليُخرِجوا مِن الرُّزم الأشياء التي جُلبَت: فطائر كما يبدو لي، كبيرة ومنبَسِطة والسمن فيها وفير. طحين أبيض وحمامتان في قفص، وقطعتا فضّة كبيرتان: إنّه نوع مِن العملة الثقيلة، لدرجة أنّه كان مِن حسن الحظّ آنئذ أنّه لم يكن هناك جيوب، وإلاّ لكانت هذه العملة تثقبها باستمرار.

ها هي بوّابة نيكانور (Nicanore) الجميلة، إنّها رائعة، كُتلة مشغولة بالبرونز وملبّسة بالفضّة. وها هو زكريّا إلى جانب أحد الكَهَنَة، جليل بثوبه الكتّاني. تتلقّف حنّة رشة الماء، أظنّها مياه التطهير، ثمّ تمتثّل للأمر بالتقدّم باتّجاه هيكل الذبائح.

لم تعد الطفلة بين يدي والدتها، لقد أخَذَتها اليصابات وبَقِيَت خارجاً بينما دَخَلَ يواكيم خلف زوجته جارّاً بشكل عكسي حَمَلاً بائساً يثغو. أمّا أنا... ففعلتُ كما في تطهير مريم: أغمضتُ عينيّ لكي لا أرى تلك المذبحة.

الآن تطهَّرَت حنّة.

هَمَسَ زكريّا بكلمات لصديقه الذي سَمِعَها وابتَسَم. ثمّ لحق هذا الأخير الجَّمع الذي انتظَم مُهنِّئاً الأب والأُمّ بفرحتهما وإيمانهما بالوعود، وتَقبُّل الحَمَل الثاني والطحين والفطائر.

«هذه الفتاة إذن مكرَّسة للربّ؟ بركته سترافقها وترافقكم كذلك. ها هي حنّة أخرى تَصِل، ستكون واحدة مِن معلماتها، إنها حنّة التي لفانوئيل (Phanuel) مِن سبط عازر. تعالي أيّتها المرأة، فهذه الطفلة تُقدَّم للهيكل وسوف تصبحين معلّمتها، وستنمو تحت حراستكِ في القداسة كقربان تسبيح.»

حنّة التي لفانويل، المتسربلة الأبيض بشكل كامل، تداعب الطفلة التي استيقظَت وهي تنظر بعينيها البريئتين والمندهشتين إلى كلّ هذا البياض، إلى كلّ هذا الذهب الذي يلمع تحت الشمس.

المفروض أنّ الاحتفال انتهى، ومع ذلك لم أرَ طقوساً خاصّة لتقدمة مريم. قد يكون البوح بذلك للكاهن وبالأخصّ لله قرب الموضع المقدّس كافياً.

تقول حنّة: «أودّ لو أُقرِّب التقادم للهيكل، وأَذهَب هناك حيث رأيتُ النور العام الماضي.»

يذهب الجميع برفقة حنّة التي لفانوئيل. إلّا أنّهم لم يَلِجوا داخل الهيكل، وهذا أمر مفروغ منه بوجود نساء وطفلة. لم يذهبوا إلى المكان الذي قَدَّمت فيه مريم ابنها. إنّما قرب الباب المفتوح على مصراعيه ينظرون إلى الداخل شبه المظلم، حيث تنطلق أصداء حناجر شابّات في تراتيل عذبة، وحيث تضيء أنوار نفيسة تنشر نوراً مُذهَّباً على رؤوس رَتلَين بأوشحة بيضاء: رَتلَي زنبق حقيقيّين.

«بعد سنوات ثلاث ستكونين هنا أيضاً يا زنبقتي.» هذا هو الوعد الذي نَطَقَت به حنّة وكان موجّهاً لمريم التي تنظر إلى الداخل كالمسحورة، مشدوهة ومبتسمة للتراتيل المنبعثة ببطء.

تقول حنّة التي لفانوئيل: «يبدو لي أنّها فَهِمَت، إنّها طفلة رائعة، ستكون عزيزة على قلبي كما لو أنّها ابنتي الحقيقيّة. أعدكِ بذلك أيّتها الأُمّ، إذا ما كُتِب لي عُمر.»

يجيب زكريا: «ستكونين هنا يا امرأة، وستستقبلينها بين الفتيات المكرَّسات. وسأكون أنا أيضاً هنا، أريد أن أكون هنا في ذلك اليوم لأطلب منها أن تصلّي مِن أجلنا منذ دخولها...» ثمّ ينظر إلى زوجته التي تُدرِك قوله وتتنهّد.

ينتهي الاحتفال، وتنسحب حنّة التي لفانوئيل، بينما يخرج الباقون مِن الهيكل يتحدّثون فيما بينهم.

أَسمَع يواكيم يقول: «كنتُ على استعداد ليس فقط لتقديم أفضل حَمَلين عندي، بل لأن أقدّمها كلّها لأجل هذه الفرحة، ولتسبيح الربّ.»

لم أعد أرى شيئاً.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

10- (ها هي الطفلة الكاملة ذات قلب الحمامة)

28 / 08 / 1944

يقول يسوع:

«يتكلّم سليمان بالحكمة: "إذا ما كان أحد صغيراً جدّاً، فليأتِ إليّ." وفي الحقيقة مِن قلعته، مِن أسوار مدينته، كانت الحكمة الأزليّة تقول للطفل الأزليّ: "تعال إليّ" كان يتحرّق شوقاً للحصول عليه، فيما بعد، ابن الطفلة الكلّيّة الطهر يقول: "دعوا الأطفال يأتون إليّ فإنّ لهؤلاء ملكوت السماوات، ومَن لم يصبح شبيهاً بهم لا مكان له في ملكوتي".

تتلاقى الأصوات، وبينما ينادي صوت السماء مريم الصغيرة: "تعالي إليّ"، صوت **الإنسان** يقول، ويفكّر بأُمّه بقوله: "تعالوا إليّ إذا ما عرفتم أن تكونوا كالأطفال".

أعطيكم المثال في أُمّي.

هي ذي الطفلة الكاملة، ذات قلب الحمامة، البسيط والطاهر، تلك التي لم تُصِبها السنوات والاتّصال بالعالم ببربريّة فسادهم، بطرقهم الملتوية والكاذبة، فلقد لَفَظَت مريم هذا الاتصال. تعالوا إليّ وأنتم تنظرون إليها.

أنتَ يا مَن تَنظُر إليها، قُل لي: هل اختلفت نظرتها الطفوليّة عن التي رأيتَها فيها عند أقدام الصليب، أو في غبطة العنصرة، أو ساعة غَشَت جفونها عينيها، عيني الغزالة، في نومها الأخير؟ لا. هنا نظرة الطفل الحائر والمندَهِش، ثمّ نظرة الاندهاش والاحترام للبشارة، بعد ذلك النّظرة المغبوطة لأُمّ بيت لحم، ثمّ نظرة العبادة لتلميذتي الأولى السامية، ثمّ النظرة الممزِّقة لمعذَّبة الجلجلة، ثمّ النّظرة المشعّة في القيامة وفي العنصرة، وبعد ذلك النظرة المغشيّة للنومة المنتشية للرؤيا الأخيرة.

إنّما كذلك أن تُفتَح على الرؤيا الأولى حال انغلاقها مُنهَكَة على آخر شعاع نور، بعد رؤية الكثير مِن الأفراح والرعب، فالعين تصبح صافية، نقيّة، جزءاً ساكناً مِن السماء التي تسطع، مستوية دائماً، تحت جبهة مريم. فالغضب والكذب والدَّنَس والبغض والفضول لم يمسسها شيء منها بسُحُبها المدخِّنة.

هي العين التي تنظر إلى الله بحبّ، وسط البكاء أو الضحك (وسط الأحزان والأفراح)، والتي مِن أجل حبّ الله تُلاطِف وتُسامِح، وتحتمل كلّ شيء، وحبّ الله يجعلها منيعة ضدّ هجمات الشرّ، التي كثيراً ما استَخدَمت العين للولوج إلى القلب. العين النقيّة، الوديعة، المباركة التي يمتلكها الأطهار، القدّيسون، أولئك العاشقون لله.

لقد قلتُها: "العين سراج الجسد، ولكن لو كانت العين مريضة فجسدكَ كلّه يكون في الظلام." القديسون كانت لهم هذه العين التي هي نور للروح وخلاص للجسد لأنّهم، مِثل مريم، طوال حياتهم لم ينظروا إلاّ إلى الله وأكثر أيضاً: تذكّروا الله.

سأشرح لكِ، أيّتها الصوت الصغير، معنى هذه الكلمة الأخيرة التي قلتُها لكِ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

11- (يا فرحي، كيف تَعلَمين هذه الأمور المقدَّسة؟ مَن قالها لكِ؟)

29 / 08 / 1944

ما زلتُ أرى حنّة، منذ أمس مساء أراها هكذا، جالسة عند طرف عريشة مظلّلة، منهمكة في شغل خياطة. إنّها متّشحة بلون رماديّ. لباسها بسيط جدّاً وفضفاض، قد يكون هذا بسبب الحرارة الشديدة.

عند الطرف الآخر للعريشة، يُشاهَد حصّادون يحصدون الشعير. ولكنّه ليس في موسمه كالذي يُحصد للمرّة الأولى، ذلك أنّ العنب آخذ بالتلوّن بلون الذهب، وشجرة تفّاح كبيرة تكشف، مِن خلال أوراقها القاتمة، عن ثمّراتها الآخذة بالتلوّن ألواناً كاشفة كشمع أصفر وأحمر. ثمّ حقل القمح، هو الآخر لم يعد سوى قش يتموّج وسطه لهب الخشخاش المنثور بشكل خفيف، وتنتصب ثابتة وبلا حراك ترنجانات مخطّطة كنجمة، ولازورديّة كشمس الشرق.

مِن خلال ظلال العريشة تُقبِل مريم الصغيرة جدّاً، ولكنّها الآن مُفعَمة نشاطاً وثقة، مشيتها لا تعرف التردّد، وحذاؤها الأبيض لا يتعثّر وسط الحجارة. لقد بَدَأَت الآن تمشي مشية الحمام اللطيفة المتموّجة قليلاً. إنّها بيضاء بالكامل كزغلول حمام، تلبس ثوباً كتّانياً صغيراً يصل حتّى الكعب، فضفاضاً ومثبّتاً عند العنق بشريطة زرقاء سماويّة، وأكمامه صغيرة قصيرة تكشف عن زنديها الورديّين الربيلين (المربربين)، أمّا شعرها الحريريّ الكاشف بلون العسل، غير المجعّد كثيراً، إنّما المتماوج بشكل خفيف، وينتهي بعقدة، وأمّا عيناها فبلون السماء، وتبدو بوجهها اللطيف، الورديّ قليلاً والباسم وكأنّها ملاك صغير، حتّى النسمة المتغلغلة في الأكمام العريضة، والتي تنفخ ثوبها الكتّاني عند الأكتاف فهي تساهم في إضفاء هيئة الملاك الصغير عليها، بأجنحته نصف المفتوحة استعداداً للطيران. إنّها تحمل في يديها منثوراً وزهوراً أخرى ممّا يَنبت وسط القمح لا أعرف

أسماءها. تمشي، وعندما تصبح قريبة مِن والدتها تركض مسافة قصيرة، تصرخ صرخة فرح، ومثل يمامة صغيرة توقّف طيرانها عند ركبتي والدتها التي تُباعِدهما قليلاً لاستقبالها. عندها، تضع أُمّها الشُّغل جانباً لكيلا تصاب بوخز إبرة، وتمدّ ذراعيها لتحتضنها.

انتهت الرؤيا هنا ليلة أمس. أمّا هذا الصباح فقد عادت لتتواصل على الشكل التالي:

«ماما! ماما!» وترتمي اليمامة الصغيرة البيضاء في عشّ حضن أُمّها، رِجلاها الصغيرتان على العشب القصير ووجهها الصغير على صدر أُمّها. لم يعد يُرى منها سوى ذهب شعرها المنير على عنقها الصغير، وتنحني حنّة لتُقبّلها بحبّ. ثمّ ترفع اليمامة الصغيرة رأسها لتقدّم الزهور لأُمّها، إنّها جميعها لوالدتها، ومع كلّ زهرة تروي قصّة تخيَّلَتها.

هذه الزهرة الكبيرة بلون اللازورد هي نجمة هبطت مِن السماء لتحمل لوالدتها قبلة الربّ. وها هي تضمّ هذه الزهرة السماويّة الصغيرة إلى قلبها بقوّة، وتجد فيها طعم الله.

أمّا هذه الأخرى، ذات اللون اللازورديّ الأفتح كما لون عيني أبيها، فهي تحمل وريقات كُتِبَ عليها أنّ الربّ يحبّ أباها كثيراً بسبب صلاحه.

وهذه الصغيرة، الصغيرة جدّاً، فقد وَجَدَتها وحيدة، واسمها أذن الفأر **(نبات ذات أزهار كثيرة وصغيرة)** وقد صنعَها الربّ ليقول لمريم إنّه يحبّها كثيراً.

أمّا هذه الزهرات الحمراوات، فهل تعرف أُمّي ما هي؟ إنّها قِطَع مِن ثوب الملك داود مغمّسة بدم أعداء إسرائيل ومتناثرة على أرض المعركة والانتصار. لقد خُلِقَت مِن نِتَف الثوب الملوكي ذاته الممزَّق أثناء المعركة البطوليّة مِن أجل الربّ.

ولكنّ هذه الزهرة البيضاء اللطيفة، يبدو أنّها صُنِعَت مِن سبع قطع حريريّة تنظر إلى السماء ممتلئة عطوراً، وقد نبتَت هنا قرب النبع –كان والدها هو الذي قطفها لها مِن بين الأشواك– وهذه

قد صُنِعَت مِن ثوب المَلِك سليمان الذي لَبِسَه في الشهر ذاته الذي وُلِدَت فيه ابنة أخيه منذ سنوات كثيرة -آه! كم مِن السنوات! كم مِن السنوات!- سنوات كثيرة مضت، وقد سار آنئذ بروعة بياض ثوبه أمام جموع إسرائيل المحتشدة أمام تابوت العهد والخيمة، مغتبطاً للسحابة التي عادت لتحفّ بمجده وقد أنشَدَ ترتيلة وصلاة فرحه: «أريد أن أكون على الدوام مثل هذه الزهرة ومثل المَلِك الحكيم، أريد أن أُنشِد حياتي كلّها ترتيلة وصلاة قرب خيمة تابوت العهد.» هكذا تُنهي مريم كلامها بفمها الصغير.

«يا فرحي! كيف عرفتِ هذه الأمور المقدّسة؟ مَن قالها لكِ؟ أبوكِ؟»

«لا. لستُ أعرف مَن يكون. يبدو لي أنّي أعرفها منذ أمد بعيد جدّاً. ولكن قد يكون أحدهم يرويها لي وأنا لا أراه. قد يكون ملاكاً مُكَلَّفاً مِن قِبَل الله بأن يُكلِّم الناس الطيّبين. أُمّاه، هل تروين لي المزيد؟»

«آه! يا ابنتي! أيّة قصة تريدين معرفتها بعد؟»

تأخذ مريم تفكّر بجديّة وعمق. ولَكَمْ تمنّيتُ أن تُرسَم آنئذ لتخليد ذلك المشهد. كانت ظلال أفكارها تنعكس على تقاسيم وجهها الطفوليّ. ابتسامات وتنهّدات، وأشعّة شمس وظلال سُحُب، كلّها تجلّت أثناء تفكيرها بتاريخ إسرائيل. ثمّ تختار: «أودُّ أيضاً أن أعرف ما قاله جبرائيل لدانيال فجاء خلاله الوعد بالمسيح.»

وأَخَذَت تستمع بإمعان، عيناها مغمضتان، تُردّد ببطء الكلّمات التي تقولها والدتها وكأنّها تردّدها لتحفظها جيّداً. وعندما أنهَت حنّة كلامها سَأَلَتها: «كم مِن الوقت يلزم بعد للحصول على عمّانوئيل؟»

«حوالي ثلاثين عاماً تقريباً، يا حبيبتي.»

«يا له مِن زمن بعد! وسأكون في الهيكل... قولي لي: إذا كنتُ أصلي كثيراً، كثيراً، كثيراً، نهاراً وليلاً، وليلاً ونهاراً، لهذا الهدف، مع كوني أرغب ألاّ أكون، مدة حياتي كلّها، إلاّ مِن الله، فهل يمنّ عليّ الأزليّ بنعمة أن أعطي ماسيا لشعبه بشكل مسبق؟»

«لا أدري، يا محبوبتي. النبيّ قال: "سبعون عاماً" وأظنّ أنّ النبوءة لا تكذب، ولكنّ الربّ كلّي الصلاح.» ثمّ تُشاهِد رمش صغيرتها الذهبي تلمع فيه دمعة كالدُرّة، فتُبادِر مسرعة بالقول: «أعتقد أنّكِ إذا كنتِ تصلّين كثيراً، كثيراً، كثيراً فسيستجيب الربّ لصلاتكِ.»

تعود الابتسامة لتضيء الوجه الصغير الذي ارتَفَعَ بتؤدة صوب والدتها، وإشراقة الشمس التي مرّت بين غصنين رطبين جَعَلَت الدموع المتوقّفة تلمع كما قطرات الندى العالقة على القصبات الدقيقة.

«إذاً فسأصلّي وسأجعل نفسي عذراء دائمة لأجل هذا.»

«ولكن، هل تعرفين ماذا يعني هذا؟»

«أجل. هذا يعني ألّا أعرف حبّ رَجُل، بل حبّ الله فقط. يعني ألاّ أفكّر إلاّ بالربّ. هذا يعني البقاء طفلة بالجسد وملاكاً بالقلب. هذا يعني ألاّ أرى بعيني غير الله، وألاّ أسمع بأذني سواه، وألاّ أنطق بفمي بغير تسبحته، وألّا تكون يداي إلاّ لتقديم ذاتي له كقربان، وألاّ تكون رجلاي إلاّ لاتّباعه بسرعة، وألاّ تكون لي حياة أو يكون لي قلب إلاّ لتقديمهما له.»

«بورِكْتِ! ولكن لن يكون لكِ أطفال، وأنتِ التي تحبّين الصغار كثيراً، الحِملان وزغاليل الحمام... هل تعرفين ذلك؟ إنّ الطفل بالنسبة للمرأة كالحَمَل الصغير الأبيض ذي الصوف المجعّد، أو كزغلول الحمام ذي الريش الحريريّ والمنقار المرجانيّ، إنّه محبوب، مُشبَع بالقُبلات على الدوام، وهو الذي تطربين لسماعه يناديكِ: "ماما".»

«لا يهمّ. سأكون مِن الله. وفي الهيكل سأجهد في الصلاة. وقد أشاهِد يوماً عمّانوئيل. فالعذراء التي يفترض أن تكون أُمّه كما قال النبيّ العظيم، يجب أن تكون قد وُلِدَت وأن تكون الآن في الهيكل... سأصبح رفيقتها... بل خادمتها. آه! نعم، لو أنّني أستطيع التعرّف عليها، بواسطة النور الإلهيّ، أريد أن أخدم هذه المغبوطة! فتحمل لي ابنها فيما بعد، تأخذني إلى ابنها وأخدمه هو أيضاً. تصوّري يا أمّي!... أن أخدم الماسيا!...» إنّ حماس مريم يفوق الوصف، فهي متحمّسة لهذه الفكرة التي تسمو بها فتجعلها تتلاشى. بيديها المتصالبتين على صدرها ورأسها المنحني قليلاً إلى الأمام تبدو متأجّجة كلّياً وكأنّها إعادة طفوليّة لعذراء البشارة التي رأيتُها (في فلورنسا). ثمّ تتابع: «ولكن هل سيسمَح لي ملك إسرائيل، مسيح الله، أن أخدمه؟»

«بدون شكّ. ألم يقل سليمان المَلِك: "ستكون هناك ستون ملكة وثمّانون عروسة أخرى، وعدد لا يُحصى مِن الشابّات"؟ أرأيتِ، سيكون في قصر المَلِك عدد لا يحصى مِن العذارى يخدمن الربّ.»

«آه! أرأيتِ إذاً أنّه يجب أن أكون عذراء؟ يجب أن أكونها. إذا كان هو الذي أراد أن تكون أُمّه عذراء، فهذا يعني أنّه يحبّ البتوليّة أكثر مِن أيّ أمر آخر. أريد أن يحبّني، أنا خادمته، مِن أجل البتوليّة التي تجعلني شبيهة قليلاً بأُمّه المحبوبة جدّاً... نعم، هذا ما أبتغيه... كنتُ أريد أن أكون خاطئة، خاطئة كبيرة جدّاً، لو لم أكن أخاف مِن ارتكاب الخطيئة تجاه الربّ... قولي لي يا أُمّي، هل يمكنني أن أكون خاطئة مِن أجل حبّ الله؟»

«ولكن ما الذي تقولينه، يا كنزي؟ لستُ أفهم.»

«أريد القول: أن أرتكب الخطيئة بغية الحصول على محبّة الله الذي يصبح مُخَلِّصاً. الضالّ يخلص. أليس كذلك؟ أريد أن أخلص بواسطة المخلّص لأحظى بنظرة حبّه. مِن أجل هذا أريد ارتكاب الخطيئة. ولكن دونما الوقوع في الخطايا التي تثير اشمئزازه. فكيف سيستطيع تخليصي إذا لم أضلّ؟»

ذُهِلَت حنّة ولم تعد تعرف ما تقول.

يُقبِل يواكيم لنجدتها ماشياً على العشب، فيقترب دون صوت خلف صفٍّ مِن شتلات الكُروم ويقول لها: «لقد أحبّكِ مسبقاً لأنّه يعرف أنّكِ تحبّينه ولا تريدين محبّة أحد غيره. لهذا أنتِ الآن مُخلَّصة. وتستطيعين أن تكوني عذراء، كما تريدين.»

«أصحيح هذا يا أبي؟» والتصقَت مريم بركبتيه ونَظَرَت إليه بعينيها اللتين كنجمتين مشعّتين تشبهان لدرجة كبيرة عيني أبيها. وهي الآن تطير فرحاً لهذا الأمل الذي أحياه فيها.

«في الحقيقة، يا حبّي الصغير. انظري، لقد جلبتُ لكِ فرخ عصفور الدوري هذا الذي حاوَلَ الطيران لأوّل مرّة قرب النبع. كان بإمكاني أن أتركه يذهب. ولكن جناحيه الضعيفين، وساقيه النحيلتين جدّاً لم تكن قادرة على حَمله مِن جديد، ولا أن تجعله يتمالك نفسه على الحجارة الزَّلِقة عند فوهة الجبّ. كان سيقع في الماء. لم أنتظر وقوع هذه البليّة، فحملتُه، وها أنذا أعطيكِ إيّاه لتفعلي به ما تشائين. هو بالفعل قد أُنقِذ قبل أن يتعرّض للخطر. وهذا بالذات هو ما فَعَلَه الله معكِ. والآن قولي لي يا مريم: هل أكون قد أحببتُ فرخ الدوري عندما أنقذتُه قبل أن يقع، أم بالأحرى كنتُ سأحبّه أكثر لو سحبتُه مِن الخطر بعد الوقوع فيه؟»

«لقد أحببتَه الآن بشكل أفضل، وذلك بعدم السماح بأن يَهلَك في المياه الباردة.»

«إذاً! فالله قد أحبّكِ أكثر إذ خلّصكِ قبل ارتكاب الخطيئة.»

«سأحبّه إذاً بكلّ قواي. يا فرخ الدوري الصغير الجميل سأكون مثلكَ. الربّ قد أحبّنا بشكل متشابه عندما وهبَنا الخلاص هديّة... سأعتني بكَ الآن ثمّ أتركُكَ تذهب. وسترتّل أنتَ في الغابة، وأنا في الهيكل التسبيح لله. وسنقول: "أَرسِل، أَرسِل الذي وَعَدتَ به للذين ينتظرونه". آه! يا أبي، متى ستأخذني إلى الهيكل؟»

«قريباً يا لؤلؤتي، ولكن ألن يؤلمكِ ترك أبيكِ؟»

«كثيراً! ولكنّكَ ستأتي لزيارتي... ثمّ إذا لم يُسبِّب هذا الألم، فأيّ تضحية تكون؟»

«هل ستذكريننا؟»

«دائما. بعد الصلاة مِن أجل عمّانوئيل، سأصلّي مِن أجلكم. ليمنحكم الله الفرح والعمر المديد... إلى اليوم الذي سيصبح فيه هو المخلّص. ومِن ثمّ أطلب إليه أن يأخذكم ويقودكم إلى أورشليم السماء.»

وتتلاشى الرؤيا على صورة يواكيم يضمّ مريم بقوة بين ذراعيه.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

12- (ألم يضع الابن حكمته ذاتها على شَفَتيّ والدته؟)

29 / 08 / 1944

يقول يسوع:

«إني أسمع تعليقات أساتذة المماحكة: "كيف تستطيع طفلة لم تتجاوز عامها الثالث أن تتكلّم هكذا؟ إنّها مبالغة." لا يفكّر المرء أنّه يجعل منّي ظاهرة فريدة حين يَنسب إلى طفولتي سلوك البالغين.

لا يتأتّى الذكاء لجميع الناس بالطريقة ذاتها وفي العمر نفسه. لقد حدَّدَت الكنيسة سن السابعة لبداية تحمّل المسؤوليّة، لأنّه العمر الذي يستطيع فيه الطفل، حتّى ولو كان متخلّفاً، أن يميّز، أقلّه بشكل بدائيّ، بين الخير والشرّ. ولكنّ هناك أطفالاً يستطيعون التمييز قبل هذه السنّ بكثير، بل وفرض ذواتهم وإرادتهم بحجّة متطوّرة بما فيه الكفاية. فالأطفال: "إيميلدا لامبرتيني، وروز دي فيتيربِه، ونيللي أورغان، ونينوليتا" أكبر مثال لكم يا جهابذة التشدّد يقودكم إلى الاقتناع بأنّ أُمّي استطاعت أن تفكّر وتتكلّم بالطريقة إيّاها. لم أُورِد سوى أربعة أسماء لا على التعيين مِن بين ألوف الأطفال القدّيسين الذين يقطنون جنّتي بعد أن فكّروا كالبالغين على الأرض على مدى قليل أو كثير مِن السنوات.

ما تراه يكون الرشد؟ إنّه هبة مِن الله. يستطيع أن يمنحها بالمقدار الذي يشاء ولمن يشاء ومتى يشاء. فالرشد هو أيضاً مِن الأمور التي تجعلنا نتشبّه بالله أكثر: إنّه روح موهوب بالذكاء والرشد. فالرشد والذكاء هما مِن المواهب المجّانيّة الممنوحة للإنسان في الجنّة الأرضيّة، وكم كانت حيويّة النعمة غير المنقوصة والفاعلة حين كانت لا تزال حيّة في نفس الأبوين الأوّلين!

جاء في سفر يشوع بن سيراخ: "كلّ حكمة إنّما هي مِن لدن الربّ الإله، وقد كانت لديه على الدوام قبل كلّ الدهور". أيّة حكمة إذاً كان يملكها البشر لو ظلّوا أبناء الله؟

الثغرات الحاصلة في ذكائكم هي الثمّرة الطبيعيّة للسقطة التي ارتُكِبَت ضدّ النعمة والشرف. وبفقدان النعمة أُبعِدَت الحكمة عدّة قرون مثل نيزك يختبئ داخل ضبابيّة عملاقة، فلم تعد تصلكم بانعكاسات صافية، ولكن عبر قتامات تصبح أكثر كثافة دائماً بفعل إخلالكم المتكرّر بالأمانة.

ثمّ أتى المسيح وأعاد النعمة إليكم هبة عظمى مِن محبّة الله. ولكن هل تجيدون الحفاظ على هذه الجوهرة نقيّة طاهرة؟ أبداً. فعندما لا تحطموها بإرادتكم الشخصيّة بارتكاب الخطيئة، تُلطِّخونها بخطايا مستديمة، مع كونها أقلّ فداحة: إهمال، تعلّقات دَنِسة بميول، وإن لم تكن مرتبطة مباشرة بالرذائل الرئيسيّة السبع، فإنّها تُبهِت صفاء نور النعمة وفعاليّتها. وبعد ذلك، ولتعتيم الوضوح الرائع للذكاء الذي مَنَحه الله للأبوين الأوّلين، كانت قرون وقرون مِن الفساد قد فَعَلَت فِعلها في إضعاف القوى الجسديّة والقدرات العقليّة.

إلاّ أنّ مريم لم تكن فقط الطاهرة، حوّاء الجديدة التي خُلِقَت ثانية لمسرّة الله، بل كانت حوّاء الفائقة، رائعة الباري تعالى، كانت الممتلئة نعمة، إنّها أُمّ الكلمة في فكر الله.

يقول يشوع بن سيراخ: "نبع الحكمة هي الكلمة". ألم يضع الابن حكمته الذاتيّة على شفتي والدته؟

إذا كانت شفتا نبيّ مُكلَّف بقول كلمات يوحي بها إليه الكلمة، الذي هو الحكمة ذاتها، لينقلها للبشر، قد طُهّرتا بجمرة متأجّجة، فهل يَحجب الحبّ عن عروسته التي ما تزال طفلة، والتي يُفتَرَض أنّها ستحمل الكلمة في أحشائها، دقّة ورفعة اللغة؟ فالأمر لم يعد متعلّقاً بطفلة، وفيما بعد بامرأة، ولكنّه يتعلّق بخليقة سماويّة مُندَمِجة بحكمة الله ونوره العظيم.

ليست المعجزة قائمة في الذكاء الخارق الذي ظَهَرَ لدى مريم منذ الطفولة، كما كان فيما بعد فيَّ أنا؛ إنّما المعجزة هي في فعل احتواء الذكاء اللامتناهي الذي كان يكمن فيها دون أن يُبهِر الجموع أو يثير الانتباه الشيطانيّ.

سوف أتكلّم أيضاً عن هذا الموضوع الذي يدخل في تصنيف "الذكريات" التي يحتفظ بها القدّيسون عن الله.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

13- (تقدمة مريم للهيكل)

30 / 08 / 1944

أرى مريم بين أبيها وأُمّها يسيرون في شوارع أورشليم.

يتوقّف المارّة لمشاهدة الطفلة الجميلة باللباس الأبيض بياض الثلج، المتدثِّرة شالاً رقيقاً جدّاً، يبدو لي برسومه مِن أوراق وزهور وتكاثُف ألوان في أرضيّته أنّه نفسه الذي كانت حنّة ترتديه يوم تطهيرها. الفرق فقط هو أنّ حنّة حينما ارتدته لم يتجاوز نطاقها، بينما، وهو على مريم، يصل إلى الأرض، ويلفّها وشاح أبيض رقيق ومضيء بسحر نادر.

لون شعرها الأشقر المنسرح على كتفيها وعلى عنقها الرهيف يشفّ مِن خلال الأرضيّة الرقيقة للغاية، حيث لا رسوم على الوشاح المثبت عند الجبهة بشريطة بلون زُرقة السماء فاتحة جدّاً حيث كانت أُمّها قد طَرَّزَت عليها زنابق صغيرة فضيّة.

الثوب، كما سبق وقلنا، أبيض ناصع ويصل إلى الأرض، وعندما تسير، بالكاد يمكن رؤية قدميها الصغيرتين في حذائها الأبيض. أمّا يداها الصغيرتان فتبدوان كتويجي "مغنولية" تَخرُجان مِن كُمَّين طويلين. وهكذا، فما عدا الإطار الأزرق في الشريطة التي على جبهتها، لا لون سوى الأبيض، وكأنّ مريم تلبس الثلج.

أمّا يواكيم وحنّة، فيواكيم يرتدي ثوب يوم التطهير ذاته، وحنّة ترتدي البنفسجيّ الداكن جدّاً. حتّى المعطف الذي يغطّي رأسها فهو بلون بنفسجيّ داكن، وقد كان مُنسَدِلاً على عينيها، عيني أُمّ مسكينة، الحمراوين مِن كثرة البكاء، بينما هما لا تريدان البكاء، كما لا تريدان أن يَرَى أحد الدموع فيهما، ولكنّهما لم تستطيعا الإحجام عن البكاء تحت غطاء المعطف. والحَذَر هذا

كان مِن المارّة، وحتّى مِن يواكيم صاحب العين الصافية في العادة، والمُغرورقة اليوم والمعكرة بسبب الدموع التي انسكبَت منها وما زالت تسيل. وهو يسير منحنياً كثيراً تحت وشاح أُعِدّ كعمامة لها جناحان يتدلّيان على مدى وجهه. يبدو يواكيم الآن عجوزاً للغاية، حتّى ليظنّه مَن يراه جدّ أو حتّى جدّ والد الطفلة الصغيرة جدّاً التي يمسكها بيده. الحزن على فقدانها جَعَلَ مشية الأب المسكين مُتثاقِلة، والإعياء البادي على كلّ مظهره جَعَلَه يبدو وكأنّه كَبر عشرين سنة. أمّا وجهه المنهك والحزين فلا يجعله يبدو هَرِماً فقط، بل وكأنّه وجه مريض. والفم يرتعش قليلاً بين ثنيتي جِلد ظاهرتَين اليوم بجلاء على طرفي الأنف.

يُحاوِل الاثنان إخفاء دموعهما، ولكن حتّى ولو نجحا مع أغلب الناس، فإنّ ذلك كان مستحيلاً مع مريم، فإنّها، بسبب قامتها الصغيرة، تنظر مِن أسفل للأعلى، وبشكل متناوب إلى أبيها وإلى أُمّها. وهما يحاولان الابتسام بشفاه مرتعشة، ويشدّان أيديهما بقوّة أكثر على يدي مريم الصغيرتين كلّما نَظَرَت إليهما مبتسمة. كانت تلحّ عليهما فكرة «ها هي مرّة أخرى على الأقلّ نرى فيها هذه الابتسامة.»

يسيرون ببطء وتؤدة وكأنّهم يريدون إطالة مسافة الطريق قدر المستطاع، فكانوا يتذرّعون بأتفه الأسباب للتوقّف... ولكن لا بدّ لهذه المسافة مهما طالت أن تنتهي أخيراً! إنّها بحقّ على وشك أن تنتهي. ها هو حائط سور الهيكل في نهاية هذه الطريق الصاعدة؛ أجهَشَت حنّة وشدّت على يد مريم الصغيرة بقوّة.

مِن تحت قنطرة منخفضة عند تقاطع طرق يَصدُر صوت يقول: «حنّة، أيّتها المحبوبة، أنا معكِ!» فأليصابات التي كانت تنتظرها بالتأكيد تلاقيها وتضمّها إلى صدرها. وبما أن حنّة كانت تبكي فقد قالت لها: «تعالي، تعالي ندخل قليلاً إلى هذا المنزل، يا صديقتي، ومِن ثمّ نذهب معاً. زكريّا هنا.»

يَدخُلون جميعاً إلى غرفة منخفضة السقف ومظلمة، تلمع فيها نار كبيرة، فتنسحب المعلّمة، وهي بالتأكيد صديقة أليصابات، أمّا حنّة فلا تعرفها، تنسحب بأدب موفّرة للجماعة بعض الحريّة.

أَخَذَت حنّة تشرح موقفها مِن خلال دموعها: «لا تظنّي أنّني نادمة، أو أنّني أعطي الربّ كنزي بأسف... ولكنّه القلب... آه! قلبي! كم يَختَبِر مِن الآلام، قلبي هذا العجوز الذي سيعود الآن إلى عزلته ووحدته، عزلة الأُمّ التي لا وَلَد لها ووحدتها... لو كنتِ تشعرين بذلك...»

«إنّي أُدرِك ذلك تماماً، يا حنّتي... إلا أنكِ امرأة صالحة والربّ سيعزّيكِ في وحدتكِ. مريم ستصلّي لله كي يمنح السلام لوالدتها، أليس كذلك؟»

تُداعِب مريم يدي والدتها وتقبّلهما، ثمّ تمرّرهما على وجهها لتُداعِباه، أمّا حنّة فتشدّ على الوجه الصغير بيديها وتقبّله، تقبّله، إنّها لم تشبع منه تقبيلاً بعد.

يَدخُل زكريّا ويُلقي السلام: «سلام الربّ على الأبرار.» فيجيبه يواكيم: «نعم، اطلُب لنا السلام، فقلوبنا ترتعد مِن تقديمها. إنّها كتقدمة ابراهيم عندما كان يَصعَد الجبل، ولكنّنا لن نجد تقدمة أخرى نفتديها بها. ونحن طبعاً لا نريد ذلك لأنّنا أوفياء لله. ولكنّنا نتألّم، يا زكريا، يا كاهن الربّ، افهمنا ولا تستنكر ذلك.»

«أبداً؛ بل على العكس، فإنّ ألمكما الذي يعرف ألاّ يتعدّى الحدود المسموح بها، ولا يحملكما إلى الكُفر، يُعَلّمني حبّ الباري تعالى. ولكن اطمئنّا فإن المعلّمة حنّة ستهتمّ بزهرة داود وهارون هذه أيّما اهتمام. فالآن هي الزنبقة الوحيدة في الهيكل المتحدّرة مِن نسل داود المقدّس. سنهتمّ بها كما بجوهرة مَلَكيّة. فمع أنّه قد بَلَغَ ملء الزمان، ويفترض بالأمّهات المتحدّرات مِن نسل داود تكريس بناتهنّ للهيكل، لأنّه مِن عذراء مِن أصل داود سيخرج الماسيا، وبسبب قلّة الإيمان، فالأمكنة المخصّصة للعذارى قد أصبحَت خالية. هناك القليلات جدّاً في الهيكل، وليس

فيهنّ واحدة مِن أصل ملوكيّ منذ أن خَرَجَت سارة التي لأليشع لتتزوّج منذ ثلاث سنوات. صحيح أنّه يلزمنا ستّ "خمسيّات" (Lustres) بعد لنصل إلى العهد، إنّما... لا بأس. نأمل أن تكون مريم هي الأولى مِن بين عذارى كثيرات مِن نسل داود أمام الحجاب المقدس... ثمّ... مَن يدري؟...» لم يُضِف زكريّا شيئاً آخر، ولكنّه ينظر إلى مريم وهو مستغرق في التفكير، ثمّ يتابع: «وأنا أيضاً سأسهر عليها. أنا كاهن، ولي حقّ الدخول. سأستغلّ ذلك مِن أجل هذا الملاك. وكذلك أليصابات ستأتي كثيراً لرؤيتها...»

«آه! بكلّ تأكيد! أنا في حاجة ماسّة إلى الله، وسوف آتي لأطلب مِن هذه الطفلة أن تحمل طلباتي إلى الأزليّ.»

تتمالك حنّة نفسها، ولكي ترفع مِن معنويّاتها تُردِف أليصابات: «أليس هذا وشاح زواجكِ؟ أو أنّكِ قد خُطّتِ طرحة جديدة؟»

إنّه وشاحي، وسأكرّسه معها للربّ. لم أعد أرى جيّداً... ثمّ إنّ دَخْلَنا قد شَحَّ كثيراً بسبب الضرائب مِن جهة، ونوائب الدهر مِن الجهة الأخرى. لم أستطع زيادة المصاريف، فحَضَّرتُ لها فقط جهازاً فخماً لإقامتها في بيت الربّ، ولِما بعد ذلك... ذلك أنّني أعتقد بأنّي لن أُلبِسها أنا نفسي في احتفالات زفافها... بينما أريد أن تكون يد أمّها دائماً، حتّى وهي باردة وقاصرة، هي التي تزيّنها لعرسها، والتي تَنسج لها بياضات وثياب العرس.»

«آه! لماذا هذه الأفكار التعيسة؟»

«أنا عجوز يا نسيبتي. لم أشعر بعجزي يوماً كما أشعر به الآن تحت وطأة هذا الألم. آخر قوى حياتي قد وهبتُها لهذه الزهرة، للحَمْل بها وتغذيتها، والآن... الآن... ألم فقدانها يعصف بهذه القوى الأخيرة ويبدّدها.»

«يجب ألّا تقولي هذا أمام يواكيم.»

«إنّكِ على حقّ. سأفكّر أنّ أحيَى لزوجي.»

يتظاهَر يواكيم بأنّه لم يسمع شيئاً وأنّ انتباهه منصبّ على زكريّا، ولكنّه سَمِع وأطلَق زفرة عميقة واغرورقت عيناه بالدموع.

يقول زكريّا: «نحن الآن بالضبط بين الساعة الثالثة والسادسة، أظنّ أنّ وقت الذهاب قد حان.»

يَنهَضون لارتداء معاطفهم والانطلاق. إنّما قبل خروجهم تركع مريم عند العتبة وذراعاها مفتوحتان: شاروبيم صغير يتوسّل: «أبي! أُمّي! امنحاني بركتكما!»

لَم تَبكِ هذه الشُّجاعة الصغيرة، ولكنّ شفتيها ترتعشان، وصوتها، المتكسّر بنشيج مكتوم، يبدو عليه أكثر مِن أيّ وقت مضى أنين يمامة مرتعش. ويَشحب وجهها، أمّا عيناها فقد حَمَلَتا نظرة قلق سلَّمَته لله، وتتعاظم بقوّة لدرجة اللامعقول، ودونما معاناة في الأعماق، ذلك ما سوف أشاهده فيما بعد على الجلجلة وأمام القبر.

يُبارِكها الأبوان ويقبّلانها مرّة واثنتين، بل حتّى عشر مرات، ذلك أنّهما لم يكونا ليستطيعا أن يَشبَعا منها. تبكي أليصابات بصمت، وزكريّا الذي لم يكن يريد إظهار ذلك تأثّرَ تأثّراً عميقاً. يَخرُجون حسب الترتيب السابق، مريم بين أُمّها وأبيها، وأمامهم زكريّا وزوجته. وها هم داخل أسوار الهيكل.

«سأمضي إلى كبير الكَهَنة، أمّا أنتم فاصعَدوا إلى الشرفة الكبيرة.»

يَجتازون ثلاث ساحات وثلاثة أروقة، وها هم عند أسفل مكعّب كبير مِن المرمر المتوّج بالذهب. وكلّ قبّة محدّبة كنصف برتقالة ضخمة تسطع تحت الشمس التي هي الآن، عند الظهيرة،

تُسقِط أشعّتها مباشرة على باحة كبيرة مُحيطة ببناء مهيب، وتملأ أشعّتها السطح الكبير والسلّم الأثريّ الذي يؤدّي إلى الهيكل. فقط رواق الهيكل المقابل للسلّم الخارجيّ، على طول الواجهة، هو في الظلّ، وكذلك بوّابة البرونز والذهب العملاقة فهي أكثر عتمة ومهابة، ولكنّها تتباين مع أضواء كثيرة.

تَظهَر مريم كأكثر ما يكون بياض الثلج تحت هذه الشمس الكبيرة. ها هي عند أسفل السلّم بين أبيها وأُمّها. كم تراها تخفق قلوب الثلاثة! وأليصابات بجانب حنّة، ولكنّها متأخّرة عنها مقدار نصف خطوة.

صوت إعصار فضّي الرنّة، ثمّ يَدور الباب على مفصّلاته وكأنّه صوت إنذار مِن قيثارة، بينما الباب يَدور على كُرات برونزية. ويَظهَر القسم الداخليّ مِن الهيكل بمصابيحه، ويتقدّم موكب باتّجاه الباب، قادماً مِن العمق، موكب مهيب يرافقه عزف أبواق فضّية وغيوم مِن البخور والأنوار.

عند العتبة، في المقدّمة يَظهَر أحدهم، يُفتَرض أنّه كبير الكَهَنَة. عجوز جليل بلباس كتّاني ناعم جدّاً، وفوقه جلباب كتّاني أيضاً ولكنّه أقصر منه، وفوقهما أيضا حلّة (Chasuble). شيء وسط بين بدلة القدّاس ولباس الشمامسة مع تعدّد بالألوان: ذهب وأرجوان، بنفسجيّ وأبيض، تتداخل معاً وتلمع كأحجار كريمة تحت الشمس؛ وفوق كلّ هذا جوهرتان حقيقيّتان تلمعان أيضاً بحيويّة أكثر على مستوى الكتفين، قد تكونان عروتين مع فصّين ثمّينين. وعلى صدره لوحة متلألئة بالجواهر ومحمولة بسلسلة ذهبيّة. مناجد وتزيينات أخرى تلمع في أسفل الجلباب القصير، والذهب يبرق على الجبهة في القسم الأعلى لقلنسوة تذكرني بتلك التي يعتمرها الكَهَنَة الأورثوذكسيّون، ولكنّها مدوّرة بدل أن تكون مُروّسة كالتي للكَهَنَة الكاثوليكيّين.

ويتقدّم الشخص المهيب بمفرده إلى الأمام حتّى بداية السلّم الخارجيّ في نور الشمس المذهّبة التي تجعله أكثر روعة. ينتظر الآخرون بترتيب دائريّ خارج الباب، تحت الرواق المظلّل. إلى اليسار

هناك مجموعة مِن الفتيات باللباس الأبيض، مع المعلّمة حنّة ونساء أخريات مسنّات، وهنّ بالتأكيد معلّمات.

يَنظُر كبير الكَهَنَة إلى الصغيرة ويبتسم. كانت تبدو له صغيرة جدّاً عند أسفل هذا السلّم الخليق بهيكل مصريّ! يَرفَع يديه إلى السماء مصلّياً، فيحني الجميع رؤوسهم، متلاشين أمام جلالة الكهنوت المتّحدة بالجلالة الأزليّة. ثمّ يشير إلى مريم.

تنفَصِل عن والديها وتَصعَد، وكالمسحورة المفتونة ترتقي الدرجات. تبتسم. تبتسم لظلّ الهيكل حيث ينسدل الحجاب الثمّين... إنّها الآن في أعلى السلّم، عند قدمي كبير الكهنة الذي يضع يديه على رأسها. لقد قُبِلَت الذبيحة. هل حوى الهيكل قبلاً قرباناً أطهر منها؟

ثمّ يَلتَفِت واضعاً يده على كتفها، كما لو كان يبغي أن يقودها إلى المذبح، وهي الحَمَل الذي بغير عيب، يقودها إلى باب الهيكل، وقبل أن يُدخِلها يسألها: «يا مريم بنت داود هل هذه هي رغبتكِ؟»

تجيبه بـ نعم فضّية الرنّة. فيهتف: «ادخلي إذن وسيري بحضوري وكوني كاملة.»

تَدخُل مريم وتبتلعها الظُّلمة، ثمّ تتبعها مجموعة العذارى والمعلّمات تليهن جماعة اللاويّين فتحجبها أكثر، ثمّ تفصلها.

لم تعد هناك... يدور الآن الباب على مفصّلاته بصوت متناغم، وتضيق فتحته رويداً، رويداً، تاركة مجالاً لرؤية الموكب الذي يتّجه صوب الأقداس. لم يعد الآن هناك سوى شقّ يتلاشى، ثمّ لا شيء، وأخيراً لقد أصبحَت في الحرم.

ولدى آخر صوت للمفصّلات المجلجلة، يجيب صوت العجوزين الذي يجهش، وبصرخة واحدة: «مريم! ابنتي!» ثمّ بأنينين متقاطعين: «حنّة!» «يواكيم!» ويختتمان: «لنمجّد الربّ الذي قَبِلَها في بيته، ويقودها على طريقه.»

هكذا انتهى كلّ شيء.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

14- (العذراء الأبديّة لا تفكّر إلّا بأمر واحد: أن توجّه قلبها إلى الله)

30 / 08 / 1944

يقول يسوع:

«قال كبير الكَهَنَة: "سيري بحضوري وكوني كاملة". ولم يكن كبير الكَهَنَة يَعلَم أنّه يُكلِّم المرأة التي بكمالها لم تكن أدنى مِن أحد غير الله. إلاّ أنّه كان يتكلّم باسم الله، لهذا السبب كان الأمر الذي أعطاه مقدّساً. إنّه مقدّس على الدوام، وخاصّة بالنسبة للتي كانت ممتلئة حكمة.

لقد استَحَقَّت مريم أن "تُبادِرها الحكمة وتتجلّى لها أوّلاً" لأنّها "منذ البداية سَهرت على بابها، ورغبة منها في أن تتثقّف، للحبّ، أرادت أن تكون طاهرة للحصول على الحبّ الكامل، وتستحقّ أن تمتلك الحكمة كمعلِّمة لها."

بسبب تواضعها، لم تَعلَم أنّها امتَلَكَتها قبل أن تُولَد، وأن اتّحادها بالحكمة لم يكن يؤدّي سوى إلى استمرار دقّات قلبها الإلهيّة في الجنّة. لم تستطع تصوّر ذلك. وعندما قال الله لها كلمات رائعة في سكون قلبها، تواضَعَت لما جال في فِكرها، باعتباره خواطر كبرياء، وبرفعها قلباً نقيّاً نحو الله، قالت: "ارحم خادمتكَ، يا ربّ!"

آه! بالحقيقة إنّ الحكيمة بحقّ، العذراء الأبديّة، لم تكن تفكّر منذ مطلع يومها سوى "بتوجيه قلبها للربّ منذ فجر حياتها، والسَّهَر للربّ في الصلاة بحضوره تعالى" طالبة الغفران لضعف قلبها كما كانت تعتقد، بوحي مِن تواضعها، دون عِلمها بأنّها تستبِق طلبات الغفران للخطأة، وذلك هو ما فَعَلَتهُ فيما بعد، أمام الصليب، في الوقت ذاته مع ابنها الذي يموت.

"عندما يشاء الربّ العظيم، فيما بعد، ستمتلئ مِن روح الذكاء" وتُدرِك حينئذ رسالتها السامية. أمّا الآن فإنّها ليست سوى فتاة صغيرة في سلام الهيكل المقدّس تَعقد و"تعيد عَقد" أحاديثها ومودّتها وذكرياتها مع الله بشكل وثيق أكثر فأكثر.

هذا للجميع.

أما لكِ، يا ماريّتي الصغيرة، أليس لدى المعلّم ما يخصّكِ بقوله؟ "سيري بحضوري، وكوني لذلك كاملة". أُعَدِّل قليلاً الجملة المقدّسة، وأَجعَلُها أمراً لكِ. كاملة في الحبّ، كاملة في الجود وكاملة في العذاب.

انظري مرّة أخرى إلى الأُمّ. وتأمّلي بما يجهله الكثيرون أو يتعمّدون تجاهله، لأنّ الألم شيء مقيت لقصورهم ونفوسهم... فالألم قد رافَقَ مريم منذ الساعات الأولى لحياتها. أن تكوني كاملة كما كانت هي يعني أن يكون لكِ إحساس كامل. لذلك يجب أن يكون ألم التضحية أكثر فاعليّة، لأجل ذلك أيضاً كانت استحقاقاته أكثر. مَن يمتلك الطهارة يمتلك الحبّ، ومَن يمتلك الحبّ يمتلك الحكمة، ومَن يمتلك الحكمة يمتلك الجود والبطولة، لأنّه يَعلَم مِن أجل مَن يضحّي بنفسه.

ارفعي نفسكِ حتّى ولو حَنَى الصليب ظهركِ أو سحقكِ أو حتّى قتلكِ، فالله معكِ.»

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

15- (موت يواكيم وحنّة)

31 / 08 / 1944

يقول يسوع:

«مِثل غَسَق الشتاء السريع حيث الغيوم في السماء تتراكم بفعل الرياح الثلجيّة، كذلك أقبَلَ ليل حياة جدّيَّ سريعاً، منذ أن ثَبتَت شمسهم لتسطع أمام حجاب الهيكل المقدّس.

ولكن أما قيل: "الحكمة تنفخ الحياة في أبنائها، تحمي الذين يبحثون عنها... مَن يحبّها يحبّ الحياة، ومَن يسهر من أجلها ينعم بالسلام، ومَن يمتلكها يرث الحياة... مَن يخدمها يَطِع القدّوس، ومَن يحبّها يصبح محبوباً مِن الله... مَن يؤمن بها يرثها إرثاً ثابتاً ولنسله مِن بعده، فترافقه في التجربة. وتصبح أوّلاً موضوع اختيار الله، ثمّ يُرسِل الله له خوفاً وذعراً وتجارب، وسوط تأديبه ليُشكّله، إلى أن تختبره في أفكاره ويصبح أهلاً للوثوق به. ولكن، بعد ذلك تُرسخّه، تعود إليه بدروب مستقيمة وتُسعِده. تكشف له عن أسرارها، تضع فيه كنوز العلم والذكاء في صدر العدالة"؟

نعم، لقد قيل هذا كلّه. كُتُب الحكمة تُناسِب كلّ الذين يجدون فيها مِرآة تصرّفاتهم ودليلاً لهم، ولكن طوبى لمن يمكن التعرّف إليهم مِن بين العاشقِين الروحيّين للحكمة. لقد أُحِطتُ بالحكماء الآيلين للموت مِن أهلي. حنّة، يواكيم، يوسف، زكريّا وأيضاً أليصابات ومِن ثمّ المعمدان؛ أليسوا حكماء حقيقيّين؟ لستُ أتكلّم عن أُمّي حيث تجد الحكمة مقرّ إقامتها.

مِن المهد إلى اللحد، أوحَت الحكمة لأجدادي شكل حياة يرضي الله، مثل خيمة تحمي مِن سَورة العناصر الهائجة، لقد حمتهم مِن خطر الخطيئة. مخافة الله المقدّسة هي في جذور شجرة

الحكمة التي ترتفع بكلّ أغصانها لتُلاقي في قمّتها الحبّ الهادئ في سلامها، الحبّ الساكن في أمانها، الحبّ الواثق في إخلاصها، الحبّ المُخلِص في قوّتها، الحبّ الكامل الكريم المحرّك للقدّيسين.

جاء في سفر الجامعة (Ecclesiastique): "مَن يحبّ الحكمة يحبّ الحياة ويمتلكها بالوراثة". ولكن هذا يتعلّق بكلامي: "مَن يُهلِك حياته مِن أجل حبّي يخلّصها". هذا لأنّ المسألة ليست مسألة حياة تعيسة على هذه الأرض، ولكنّها مسألة حياة أبديّة، وليست مسرّات ساعة، بل إنّما هي مسرّات لا نهاية لها".

ضِمن هذا المعنى، أحَبَّها يواكيم وحنّة فكانت معهم في تجاربهم. كَم منكم، دون أن يكون كامل السوء، لا يتقبّل ما يبكيه أو ما يؤلمه! كَم مِن التجارب لا تجد في طريقها هؤلاء الصالحين الذين يستحقّون أن تكون مريم ابنتهم!

الاضطهاد السياسيّ الذي طَرَدَهُما مِن أرض داود وأفقَرَهُما دون قياس. الحزن المتأتّي مِن رؤية السنوات تمضي دون أن تقول لهما زهرة: "أنا استمرار لكما". وبعد ذلك، الخوف الحاصل لهما في سنّ متقدّمة كان تأكيداً على أنّهما لن يَرَيا تَفَتُّح المرأة فيها. ومِن ثمّ وجوب انتزاعها مِن قلبيهما لحملها إلى هيكل الله، وأيضاً العيش في سكون ثقيل، بينما كانا قد تَعَوَّدا على غناء يمامتهما الصغيرة، على صوت خطواتها القصيرة، على ضحكات وقبلات ابنتهم... ثمّ انتظار ساعة الله مع ذكرياتها، وأيضاً، وأيضاً أمراض ومصائب وأهوال الطقس ووقاحة المتنفّذين. كلّها إصابات قذائف كثيرة في القلعة الضعيفة لرخائهم المتواضع. ليس هذا كلّ شيء: فالذكرى المضنية لطفلتهما البعيدة، والتي بقيَت وحيدة ومسكينة، والتي رغم عنايتهما وتضحيتهما لم يبق لها سوى بقيّة خيرات أبويّة. وبأيّة حالة سوف تجدها إذا ما بَقيَت لسنوات أيضاً مُهمَلَة، مُغلَقَة ومُنتَظِرة عودتها؟ مخاوف، هَلَع، اختبارات وتجارب، وأمانة، أمانة، أمانة لله. التجربة الأقوى: احتجاب سلوى وجود ابنتهما إلى جانبهما عند أُفول حياتهما.

ولكنّ الأولاد ينتمون لله قبل انتمائهم لذويهم. وكلّ ابن يستطيع قول ما قُلتُه لوالدتي: "ألا تَعلَمين أنّه ينبغي لي أن أكون في ما هو لأبي السماويّ؟" ويجب على كلّ أب وكلّ أُمّ، لمعرفة السلوك الذي عليه أن يراعيه، أن ينظر إلى مريم ويوسف في الهيكل، وإلى يواكيم وحنّة في بيت الناصرة الذي يخيّم عليه الفراغ والحزن كلّ يوم أكثر مِن الذي سَبَقه، إلّا أنّ شيئاً واحداً فقط لا يَضعف أبداً، بل لا يتوقّف عن النموّ: قداسة قلبين، بل قداسة اتّحادهما.

ماذا بقي ليواكيم العجوز وحنّة المفجوعة لإنارة الليالي الطويلة الصامتة لعجوزين ينتظران الموت؟ الثياب الصغيرة، الأحذية الأولى، الألعاب البسيطة التي كانت كلّها لصغيرتهما البعيدة جدّاً، ومِن ثمّ الذكريات، الذكريات، ومعها سلام آت ليقول لهما: "أنا أتألّم ولكنّني أتممتُ واجبي، واجب الحبّ تجاه الله".

حينئذ يُشرِق فَرَح فائق الإدراك بنور سماويّ لم يعرفه بشر، ولا يخبو بفعل وقوعه على جفون ذابلة، على عينين أوشكتا أن تموتا. ولكنّه، في الساعة الأخيرة، يَسطَع أكثر، وينير حقائق كلّ زمن حياتهما المحفوظة في أعماق نفسيهما مُغلَقاً عليها كالفراشات في شرانقها، لا يَظهَر وجودها إلّا عبر حركات لطيفة ناجمة عن لمعان خفيف؛ إلّا أنّها الآن تفتح أجنحتها الشمسيّة وتُظهِر الكلمات التي تزيّنها. وتنطفئ الحياة في معرفة مستقبل سعيد لهما ولابنتهما، بينما تتفتّح على شفاههما مباركة أخيرة وتمجيد لله.

هكذا كانت وفاة جدّيّ كما استحقّتها حياتهما المقدّسة. بسبب قداستهما استحقّا أن يكونا أوّل حارسَين لمحبوبة الله. فقط حين أتت الشمس لتنير أُفول حياتهما، حَصَلا على الرؤية الكاملة للنعمة التي مَنَحَهُما إيّاها الله. بسبب قداستهما لم تختبر حنّة آلام الولادة، بل هي وَلَدَت المنزّهة عن كلّ عيب بنشوة بعد الحَمْل بها.

بالنسبة لكليهما، لم يذوقا سكرات الموت، إنّما خمول الحياة التي خَبَت كما تخبو نجمة عند قيام الشمس في الفجر. وإن لم يحصلا على عزاء امتلاكي، أنا الحكمة المتجسّدة، كما حَصَلَ

عليه يوسف، فقد كنتُ موجوداً إلى جانبهما بشكل غير مرئيّ، منحنياً على وسادتهما أهمس لهما كلمات رائعة لأنوّمهما في السلام بانتظار الظَّفَر.

قد يقول قائل: "لماذا لم يتألّما في الولادة والموت طالما هما مِن أبناء آدم؟" أجيب: "إذا كان المعمدان، ابن آدم، وهو الذي قد حُبِلَ به بالخطيئة الأصليّة، قد تقدّس لمجرّد اقترابه وأُمّه منّي، وأنا بعد في أحشاء أُمّي، قبل ولادته، أفلا تحصل الأُمّ القدّيسة على نعمة مِن كلّية القداسة التي لم يمسّها عيب، مِن التي كانت خاصّة الله، وقد كانت تحمل الله معها في روحها شبه الإلهيّة، وفي قلبها الذي ما زال جنينياً غير منفصل عن الله منذ اللحظة التي فَكَّر فيها الآب بها، والتي حُبِلَ بها في أحشاء عادت لتمتلك الله في ملء السماء لأبديّة سعيدة."؟

لهذا أجيب: "استقامة الضمير تؤمّن ميتة صافية، وصلوات القدّيسين تُحرِز لكم ميتة مُشابِهة".

لقد تَرَكَ يواكيم وحنّة خلفهما حياة مستقيمة بكاملها. انكشَفَت أمامهما في لحظة الموت بانوراما هادئة، كطريق توصِلهما إلى السماء. فقد كانت لهما القدّيسة في حالة صلاة أمام تابوت عهد الله. كانت تصلّي مِن أجل والدَيها البعيدَين عنها، واللذين يُعتَبَران بالنسبة لها في مرتبة مباشرة بعد الله، الخير الأعظم، إلاّ أنّهما محبوبان كما تريد الشريعة والقلب البشريّ، ولكنّه حبّ كامل بشكل فائق للطبيعة.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

16- (يُفترض فيكِ أن تكوني أُمّ المسيح)

1944 / 09 / 02

مساء أمس الجمعة فقط أُنيرت نفسي استعداداً للرؤيا. لم أر شيئاً آخر سوى:

مريم فتيّة، عمرها حوالي اثني عشر عاماً على الأكثر، لم تعد لوجهها الصغير سمة الطفولة الدائريّة، ولكن التطاوُل المُرتَسِم على وجهها يقود للتخمين بأنّها امرأة، وشعرها لم يعد منسرحاً على عنقها بتقصيبات خفيفة، ولكنّه جُمِعَ الآن في ضفيرتين كبيرتين مِن الذهب الفاتح -إنّه فاتح لدرجة أنّه يبدو ممزوجاً بالفضة- مشلوحتين على الكتفين وتَصِلان إلى الوركين. والوجه أكثر رزانة وأكثر نضجاً مع كونه وجه طفلة جميلة وطاهرة. إنّها ترتدي الأبيض بالكامل، وهي تخيط في غرفة صغيرة جدّاً وبيضاء. ومِن خلال النافذة المفتوحة يمكن رؤية بناء الهيكل المركزيّ الضخم، وكذلك أدراج الساحات الصغيرة المنحدرة والأروقة، وخلف حائط السور تُرى المدينة بشوارعها وبيوتها وحدائقها، وفي البعيد تلوح قمّة جبل الزيتون المحدَّبة.

إنّها تخيط وترتّل بصوت خافت. لا أدري إذا كانت ترتيلة مقدّسة. ها هي:

«كما على صفحة مياه مضيئة كالمرآة، هناك نجمة،
تتلألأ وتتجلّى في أعماق قلبي،
تسكنني دائماً منذ طفولتي،
وبكلّ عذوبة، تقودني بحبّ.
إنّها ترتيلة في أعماق قلبي،
ولكن مِن أين يمكن لها أن تأتي؟
أنت لا تعرفها أيّها الإنسان،

إنّها تأتي مِن حيث القدّوس يقيم.

وأنا أنظر إلى نجمتي المشرقة،

رافضة كلّ شيء سواها،

حتّى ولو كان الأكثر نعومة وثمّناً.

ليس لي سوى إشراقتها العذبة، فهي لي بكلّيتها.

لقد حَمَلَتني مِن أعالي السماء،

نجمة بأحشاءِ أُمّ.

أراكِ يا صورة الآب المجيدة،

تعيشين الآن في داخلي، إنّما وراء الحُجُب.

متى ستمنَحني، أيّها الآب القدّوس، الشرف،

لأكون خادمة المخلّص المتواضعة؟

أرسِل مِن السماء، أرسِل لنا المسيح.

وتَقَبَّل تقدمة مريم.»

وتصمت مريم وتبتسم وتتنهّد، ثمّ تجثو على ركبتيها للصلاة، ويصبح وجهها الصغير كتلة ضياء، ويرتفع نظرها صوب لازورد سماء صيف رائع، ويبدو أنّ أنوار السماء كلّها قد انسحبت إليها وتوهجّت بها. أو بالأصح، يبدو أنّ شمساً مختبئة في أعماقها تأجّجت بأنوارها وأنارت الثلج المائل قليلاً إلى الوردي في بشرة مريم، ومِن ثمّ تناثَرَت على كلّ الأشياء، وعلى الشمس التي تنير الأرض مع مباركتها ووعدها بكثير مِن الخير.

وبينما تهمّ مريم بالنهوض بعد صلاة الحبّ، تَثبُت على وجهها إشراقة الانخطاف. وفي هذه اللحظة تدخل العجوز حنّة التي لفانوئيل. وتقف متردّدة، أو على الأقلّ مندهشة مِن فِعل ومظهر

مريم ثمّ تناديها: «مريم». وتلتفت الشابّة بابتسامة مختلفة، ولكنّها دائماً جميلة جدّاً، وتُلقي التحيّة: «حنّة، السلام لكِ».

«أكنتِ تُصلّين؟ ألا تبلغين كفايتكِ أبداً في الصلاة؟»

«إنّ الصلاة تكفيني، ولكنّني أتكلّم مع الله. حنّة، لا يمكنكِ تصوّر كم أشعر به قريباً منّي، بل أكثر مِن قريب: في قلبي. ليغفر لي الله كبريائي هذا. إلّا أنّني أبداً لم أشعر بنفسي وحيدة. أترين؟ هنا، في هذا البيت الذي مِن ذهب وثلج، خلف الحجاب المزدوج، يوجد قدس الأقداس. ولا تستطيع عين، إن لم تكن عين كبير الكَهَنَة أن تتوقّف عند مذبح الاستغفار، حيث يقيم مجد الربّ. ولكنّني لستُ في حاجة إلى النظر إلى هذا الحجاب المزدوج المطرّز الذي تجلّه نفسي بكلّ احترام، والذي تهزّه موجات تراتيل العذارى واللاويّين، والذي يَنشُر تصاعد البخور الثمّين، كما لاختراق كثافته والسماح برؤية البيّنة. بكلّ تأكيد أنظر إليه! لا تخشي ألاّ أنظر إليه باحترام، كابنة إسرائيل. لا تخشي أن يعميني الكبرياء ويجعلني أفكّر بما أقوله لكِ الآن. إنّني أنظر إليه، وليس هناك خادم متواضع مِن شعب الله ينظر إلى بيت الربّ بأكثر تواضعاً منّي، أنا التي اقتنعتُ بأنّني أقلّ شأناً مِن الجميع. ولكنّني ماذا أرى؟ حجاباً. وماذا أتخيّل خلف الحجاب؟ تابوت العهد. وماذا في تابوت العهد؟... ولكنّي إذا وجّهتُ نظري إلى أعماق قلبي أرى الله الذي يتألّق بمجد حبّه يقول لي: "أنا أحبّكِ". وأنا أقول له: "أحبّكَ". وأذوب لأتجدّد مع كلّ خفقة مِن قلبي في هذه القُبلة المتبادَلَة...

أنا، فيما بينكنّ، أيّتها المعلّمات والزميلات العزيزات، ولكنّ دائرة نار تعزلني عنكنّ. ضمن هذه الدائرة: الله وأنا. إنّي أراكنّ مِن خلال نار الله، وهكذا أحبكنّ... ولكنّني لا أستطيع أن أحبكنّ بحسب الجسد، كما لا أستطيع أن أحبّ أحداً بحسب الجسد. إنّ حبّي الوحيد هو هذا الذي يحبّني وبحسب الروح. أعرف مصيري، الشريعة المتوارَثَة في إسرائيل تريد أن تجعل مِن كلّ عذراء عروسة، ومِن كلّ عروسة أُمّاً. ولكنّي، أنا التي تحت الشريعة أطيع الصوت الذي يقول لي:

"أريدكِ". عذراء أنا وسأبقى كذلك. أمّا كيف سأستطيع؟ فإنّ هذا الصوت، الوجود غير المرئيّ إلى جانبي، سيمدّني بالعون، لأنّه هو الذي يريد ذلك. وأنا لستُ خائفة.

لم يعد لي أب ولا أُمّ... وما مِن أحد، سوى الأزليّ، يعرف بأيّ نوع مِن الألم أضناني ما أصابني بشريّاً. كان ألماً فظيعاً، بل أكثر مِن فظيع. والآن ليس لي سوى الله، لذلك أطيعهُ طاعة عمياء... كنتُ سأفعل ذلك حتّى بغير رضى الأب أو الأُمّ، لأنّ الصوت يُعلِمني أنَّ مَن يريد اتّباعه، عليه تجاوز أوامر الأهل؛ دوريّات الحرس التي تدور بعشق حول الجدران التي تحمي ابنتهم التي يريدون أن يقودوها إلى السعادة بطريقتهم هُم. دون أن يَعلَموا أنّ هناك طرقاً أخرى تقود إلى السعادة اللامتناهية... كنتُ سأترك الثياب والمعطف لألحق بالصوت الذي يقول لي: "تعالي يا محبوبتي، يا عروستي". كنتُ سأترك كلّ شئ. ولآلئ دموعي، إذ إنّني كنتُ سأبكي لاضطراري مخالفة الأمر، لأنّي كنتُ سأتحدّى الموت لألحق بالصوت الذي يناديني. كانوا سيقولون لهم إنّ هناك ما هو أعظم مِن حبّ أب وأُمّ، بل وأعذب أيضاً، إنّه صوت الله. ولكن إرادته تُحرّرني الآن أيضاً مِن روابط العطف البنويّ، عدا عن ذلك، لم يكونا ليَحبِساني، فقد كان أبواي صالحين وكان الله يحدّثهما في أعماق قلبيهما كما يكلّمني. كانا سيتبعان طريق الحقّ والعدل. عندما أفكّر بهما، أراهما في الراحة الأبديّة إلى جانب الآباء، وأنا أتعجّل بتضحيتي قدوم الماسيا الذي سيَفتَح لهما أبواب السماء. على الأرض أنا واقفة، أو بالأحرى الله هو الذي يوجّه خادمته بالإيعاز بأوامره، وأنا أنفّذها، لأنّ سعادتي تكمن في تنفيذها. وحين تأتي الساعة سأبوح لعروسي بالسرّ... وهو سوف يتقبّله.»

«ولكن يا مريم... ما نوع الكلمات التي ستجدينها لإقناعه؟ فإنّكِ سوف تواجِهين حبّ رَجُل، وكذلك الشريعة والحياة.»

«سيكون الله معي... وهو الذي سيفتح قلب عروسي للنور... سوف تفقد الحياة شوكة الأحاسيس، وتصبح زهرة طاهرة تفوح منها عطور المحبّة. أمّا الشريعة... حنّة، لا تقولي عنّي

مُجدِّفة، ولكنّني أعتقد أنّ الشريعة ستتغيّر. ومَن يفعل ذلك إذا كانت إلهيّة؟ الذي وحده يمتلك القدرة على ذلك: الله. والزمن قريب أكثر مما تتصوّرين، أقولها لكِ. فعند قراءتي سفر دانيال شَعّ في داخلي نور عظيم آتٍ مِن مركز قلبي وروحي، وقد أُدرِك معنى كلماته السريّة. هل ستُختصر الأسابيع السبعون، أو يتغيّر عدد السنوات بسبب صلوات المستقيمين؟ لا. فالنبوءات لا تكذب. إنّما لن تكون الدورة الشمسيّة هي مقياس زمن النبوءة، بل الدورة القمرية. لذلك أقول لكِ: "قريبة هي الساعة التي يُسمَع فيها بكاء وليد العذراء."

آه! كم أرغب أن يخبرني هذا النور الذي يحبّني ويقول لي أشياء كثيرة أين هي العذراء المغبوطة التي ستلد ابن الله وماسيا شعبه! وأنا أسير إليها ولو حافية، وأقطع الأرض، فلا البرد ولا الثلج ولا الغبار ولا القيظ ولا الضواري ولا الجوع سيوقفني قبل الوصول إليها لأقول لها: "امنحي خادمتكِ وخادمة خدّام المسيح أن تحيى تحت سقف بيتكِ. سأدير الرحى والمعصرة، اجعليني أَمَة في المعصرة أو راعية لقطيعكِ، اجعليني أغسل أقمطة ابنكِ، أو في المطبخ أو حتّى في الفرن... حيثمّا تريدين ولكن فقط اقبليني". لو أني أراها! لو أني أَسمَع صوتها! لو أني أحظى بنظرة منها! وإذا لم تقبل بي فسأكون مستجدية على بابها أعيش مِن الحسنات، وأتحمّل السخريات دون سقف، وأُعرّض نفسي للقرّ والحرّ الشديد، فقط لكي أسمع صوت الماسيا الطفل وصدى ضحكاته، ومِن ثمّ رؤيته يَعبُر... قد أحصل منه يوماً على كسرة خبز على سبيل الحسنة... آه! حينئذ لو عَصَفَ الجوع بمعدتي وشَعَرتُ بخوار قوّتي بعد صوم طويل، فلن آكل تلك الكسرة مِن الخبز، بل سأضمّها بقوّة إلى قلبي مثل كنز وجواهر، وأُقبّلها لأشمّ عطر يد المسيح، ولن أشعر بجوع ولا برد، لأنّ هذا التلامُس سيمنحني النشوة والدفء، النشوة والغذاء...»

«المفروض أن تكوني أنتِ أُمّ المسيح، أنتِ يا مَن تحبّينه إلى هذه الدرجة. ألأجل هذا تريدين البقاء عذراء؟»

«آه! لا. أنا لستُ سوى بؤس وغبار. ولستُ أجرؤ على رفع نَظَري إلى المجد. ولأجل هذا أريد النَّظر إلى أعماق قلبي أكثر مِن نظري إلى الحجاب المزدوج، حيث أعلم أنّ يهوه غير المنظور موجود خلفه. فهناك إله سيناء الجبار؛ وهنا في داخلي أرى أبانا، وجهاً يتألّق بالحبّ، يبتسم لي ويباركني لأنّني صغيرة كفرخ عصفور يحمله الهواء دون أن يشعر بوزنه، وضعيفة كقصبة زنبق الوادي البرّي الذي لا يعرف سوى أن يُزهِر ويُعَطِّر، ولا يقابل الهواء بغير نعومة قوّته العَطِرة والطاهرة. يا الله، يا نسمة حبّي، لا، ليس لي هذا الطموح، أمّا الذي سيولد مِن الله ومِن عذراء، فلن يرضى هذا الكلّيّ قدسه إلاّ بالّتي اختارها في السماء أُمّاً له، والتي تحدّثه في الأرض عن أبيه السماويّ: الطهارة. فلو تأمّلتِ الشريعة في هذا، ولو كان المشرّعون الذين بالغوا في دقائق تعاليمهم، لو أداروا أرواحهم صوب آفاق أكثر سموّاً، وغاصوا في أعماق الفائق الطبيعة، تاركين جانباً البشريّ والنافع، ناسين الهدف العظيم مِن أبحاثهم، فقد كان يتوجّب توجيه تعاليمهم بشكل خاصّ صوب الطهارة كي يجدها مَلِك إسرائيل عند قدومه، مع شجرة زيتون محبّ السلام وسعف نخل المنتصِر؛ انشروا زنابق، وزنابق، وزنابق...

كَم مِن الدم يجب أن يُراق ليفتدينا المخلّص! كم! آلاف وآلاف مِن الجروح رآها اشعيا على جسد رجل الآلام، ها إنّ وابلاً مِن الدم يتساقط مثل قطرات إناء مسامي. ليت هذا الدم الإلهيّ لا يتساقط حيث الكُفر والتجديف، إنّما في كؤوس الطهارة العَطِرَة التي تتقبّله وتستقبله لتنشره على مرضى النفوس، على النفوس المجذومة، على كلّ الذين ماتوا في سبيل الله. قَدِّموا زنابق، قَدِّموا زنابق لمسح عرق ودموع المسيح، مع ثوب بتلات طاهرة أبيض! قَدِّموا زنابق، قَدِّموا الزنابق مِن أجل اضطرام حرارة شهادته! آه! أين ستكون الزنبقة التي تحملكَ؟ أو التي ستروي ظمأكَ؟ أين ستكون التي تتخضّب بدمكَ وتموت ألماً إذا رأتكَ تموت؟ أين التي ستبكي على جسدكَ الذي أريق دمه كلّه؟ آه! أيّها المسيح! آه! أيّها المسيح! واحسرتاه!...» وتصمت مريم ذائبة في البكاء منهارة.

تصمت حنّة بعض الوقت ثمّ تقول بصوتها المشرق، بصوت امرأة عجوز متأثّرة: «هل هناك أشياء أخرى تُعَلِّمينيها، يا مريم؟»

تعود مريم إلى يقظتها. وتظنّ في تواضعها أنّ معلّمتها تلومها، فتقول: «آه! أنا آسفة! أنتِ معلّمة وأنا مجرّد لا شيء، مسكينة، ولكن هذا الكلام قد فاض مِن قلبي. ولقد حرصتُ كثيراً على ألاّ أقوله. ولكنّه مثل نهر في عنفه المتزايد يحطّم السدود. لقد أُخِذتُ فتجاوزَت كلمتي الحدود. لا تُقيمي وزناً لكلامي، ولا تهتمّي لتخميني. كان مِن المفروض أن تبقى الكلمات السريّة في طيّ الكتمان ضمن القلب الذي بارَكَه الله بصلاحه. أنا أعرف ذلك، ولكنّ هذا الحضور غير المرئيّ يُسكِرني بعذوبته... حنّة اغفري لخادمتكِ الصغيرة!»

تضمّها حنّة بقوّة إلى صدرها ويرتعش وجه العجوز المجعّد بكلّيته ويلمع مع البكاء، فتتسلّل الدموع بين التجعّدات كما تفعل المياه على الأرض المتضارسة قبل أن تتحوّل إلى بحيرة ترتجف. ولكنّ المعلمة العجوز لا تُثير ضحكاً: ففي القريب العاجل، ستُبدي أعظم الإجلال.

مريم بين ذراعيها، وجهها الصغير على صدر المعلّمة العجوز... وهكذا ينتهي كلّ شيء.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

17- (كانت ترى مجدّداً كلّ ما كانت روحها قد رأته في الله)

1944 / 09 / 02

يقول يسوع:

«كانت مريم تتذكّر الله. كانت تحلم بالله. كانت تعتقد أنّها تحلم. بينما لم تكن تقوم سوى بإعادة رؤية كلّ ما كانت روحها قد رأته في تألُّق سماء الله، في اللحظة التي خُلِقَت فيها للاتّحاد بالجسد الذي حُبِلَ به على الأرض. كانت تقتسم مع الله صفة مِن صفاته، ولو بطريقة متفاوتة جدّاً، كما تقتضيه العدالة، صفة التذكّر، الرؤية والتوقّع بفضل ذكاء قادر وكامل، لأنّ الخطيئة لم تكن قد جَرَحَتها.

لقد خُلِقَ الإنسان على صورة الله كمثاله، وإحدى صفات التشبّه هذه تكمن في إمكانيّة الروح على التذكّر، على الرؤية وعلى التوقّع. هذا ما يفسّر إمكانيّة قراءة المستقبل، هذه القدرة التي تُمارَس بمشيئة الله، غالباً بطريقة مباشرة، وأحياناً بتذكّر يقوم كالشمس، في ذات صبح، منيراً نقطة محدّدة مِن أُفُق الدهور، محفوظة غالباً في قلب الله. إنّها أسرار أكثر سموّاً مِن أن تستطيعوا فهمها بالكامل.

ولكن تصوّروا، هذا الذكاء الخارق، هذا الفكر الذي يعرف كلّ شيء، وهذه العين التي ترى كلّ شيء، وهذا الذي خَلَقَكم بفعل إرادته، وبنفحة مِن حبّه اللامتناهي بجعلكم أبناءه بأصلكم، وكذلك أبناءه بمصيركم، فهل يستطيع إعطاءكم شيئاً مختلفاً عنه؟ إنّه يعطيكموه بجزء لا متناهٍ في الصغر، لأنّ الخليقة لا تستطيع أن تستوعب الخالق، ولكنّ هذه القسمة تامّة وكاملة رغم صغرها اللامتناهي.

يا للكنز، الذكاء الذي يمنحه الله للإنسان، لآدم! والخطيئة قد قلّصته، ولكنّ تضحيتي قد أعادته إلى ما كان عليه، وفَتَحَت روائع الذكاء، أنهُره، وعِلمه. آه! سناء النفس البشريّة المتّحدة بنعمة الله، مُقتسِمة معه سِعة معارفه!... النَّفْس البشريّة المتّحدة بالله بواسطة النعمة.

لا يوجد شكل آخر للمعرفة. فليتذكّر ذلك أولئك الذين يبحثون بفضول عن الأسرار التي تتجاوز القدرات البشريّة، إنّ كلّ معرفة مِن هذا النوع لا تأتي مِن نَفْس في حالة النعمة، لا يمكن أن تأتي إلاّ مِن الشيطان –وكلّ نفس تتصدّى لشريعة الله حيث الأوامر واضحة جدّاً ليست في حالة النعمة– ومِن الصعب أن تُماثِل الحقيقة في المقياس الذي تُنسَب فيه إلى البراهين الإنسانيّة، ولا تُماثِلها أبداً في المقياس الذي تُنسَب فيه إلى فائق البشر، لأنّ الشيطان هو أبو الكذب ويجرّ معه ما استطاع على درب الكذب. لا توجد طريقة أخرى لمعرفة الحقيقة غير تلك المتأتّية مِن عند الله. إنّه يكلّمنا، ويقول ويعيد إلى ذاكرتنا، كما الأب يعيد إلى ذهن ابنه ذكرى تتعلّق بالمنزل الأبويّ، ويقول لنا: "هل تذكر يوم فعلتَ الشيء الفلاني معي، رأيتَ هذا وسمعتَ ذاك؟ هل تذكر يوم قبّلتكَ عند رحيلكَ؟ هل تَذكُر يوم رأيتَ الشمس لأوّل مرّة تسطع مِن وجهي على روحكَ البِكر، المخلوقة حديثاً والطاهرة أيضاً لأنّها خارجة للتوّ منّي، والشوائب التي انتَقَصَت منكَ فيما بعد؟ هل تتذكّر يوم أدركتَ بخفقان حبّ مِن قلبكَ ما هو الحبّ؟ ما هو سرّ كياننا وتصرّفنا؟" وهنا حيث تتوقّف القدرة المحدودة للإنسان في حالة النعمة، هو ذا روح العلم الذي يُثقِّف يتحدّث.

ولكن لامتلاك الروح، لا بدّ مِن النعمة، ولامتلاك الحقيقة والعلم لا بدّ مِن النعمة، لوجود الأب مع الذات لا بد مِن النعمة. إنّها الخيمة التي يُقيم فيها الأقانيم الثلاثة سَكَنهم، مكان الاستغفار حيث يُقيم الأزليّ ويتكلّم، ليس مِن قلب سحابة، ولكن بالكشف عن وجهه إلى ابنه الوفي.

القدّيسون يعيدون استذكار الله، الكلمات المسموعة في الفكر الخلاّق، التي يحييها الصلاح في قلوبهم لترفعهم كالنسور في تأمّل الحقيقة وفي معرفة الزمن.

كانت مريم الممتلئة نعمة. كلّ النعمة، الواحدة والثالوث، كانت فيها. كلّ النعمة، الواحدة والثالوث كانت تهيّئها كعروسة لحفل العرس، كسرير الزفاف مِن أجل ذريتها، كإلهيّة مِن أجل أمومتها ورسالتها. وهي التي تَختَتِم دائرة البنوة في العهد القديم وتَفتَتِح دائرة "الناطقة باسم الله" في العهد الجديد.

تابوت العهد الحقيقيّ لكلمة الله، وهي تنظر إلى أحشائها التي لم يمسّها أحد منذ الأزل، كانت تكتشف كلمات العلم الأزليّ وقد خطتها يد الله على قلبها المنزّه عن كلّ عيب، وتتذكّر مثل كلّ القدّيسين أنّها سَمِعَتها عندما كوّنها الله الآب، الخالق كلّ ذي حياة، مع نفسها غير المائتة. وإذا لم تتذكّر كلّ شيء عن رسالتها المستقبليّة، فَلِسَبب هو أنّ الله يترك في كلّ كمال إنسانيّ ثغرات، مَرَدّها إلى الحكمة الإلهيّة، وهي بمثابة الصلاح لخليقته، لأنّها تُقدّم لها فُرَصاً للاستحقاق. كان على مريم، حوّاء الثانية، أن تكتسب حصّتها مِن الاستحقاق لتكون أُمّ المسيح بصدق نيّتها الأمينة، تلك النيّة الصادقة التي أرادها الله حتّى مِن قبل المسيح ليجعل منه فادياً.

روح مريم كانت في السماء. وأخلاقها وجسدها على الأرض، وكان عليها أن تطأ بقدميها الأرض والجسد لتصل إلى الروح الذي يوحّدها بالروح الأسمى في عناق خصيب.

ملاحظة شخصيّة: طوال يوم أمس، كنتُ أفكّر في رؤيا إعلان موت الأهل مِن قِبَل زكريّا، لستُ أدري لماذا. وكذلك كنتُ أفكّر، على طريقتي، كيف سيُعالِج يسوع نقطة «تذكّر الله مِن قِبَل القدّيسين». وهذا الصباح، عندما بَدَأَت الرؤيا، قلتُ لنفسي: «سيقال الآن إنّ مريم يتيمة». وكان قلبي يعتصر... كان حزن الأيّام الأخيرة هو نفسه الذي اختبرتُهُ وأحسستُ به. بالعكس، لم تكن الرؤيا كما ظننتُ أن أرى وأسمع، ولا حتّى بتلميح بسيط.

هذا كان عزائي، لأنّي قلتُ لنفسي: لا شيء في أعماقي أنتظره، ولا حتّى تخمين بسيط لنقطة معيّنة. كلّ شيء يأتي بالضبط مِن مُعين آخر. يتوقّف خوفي المستمرّ... حتّى المرّة القادمة. بالفعل، لن يتوقّف عن مرافقتي ذلك الخوف مِن أن أُضلّل نفسي وأُضلّل الآخرين.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

18- (سيمنحكِ الله عروسكِ وسيكون قدّيساً لأنكِ وثقتِ بالله. وستبوحين له بنذركِ)

03 / 09 / 1944

يا لها مِن ليلة جهنمية! يبدو أن الشياطين قد أخذوا حقاً فرصتهم على الأرض. قصف مَدافِع، رعود، برق، خطر، خوف، معاناة وجودي على سرير ليس لي، وفي وسط كلّ هذا، كان الوجود العذب لمريم كزهرة لطيفة بيضاء وسط النيران والمِحَن، ولكنها أكبر سناً قليلاً مما كنتُ قد رأيتُها عليه في رؤيا الأمس، بضفائرها الشقراء على كتفيها، ولباسها الأبيض وابتسامتها العذبة والمتأمِّلة. ابتسامة داخلية تميل صوب السر المجيد الذي قَبِلَتهُ في قلبها. أمضيتُ الليلة في مقارنة هذه الرؤيا بنشوتها، مع الوحشية المنتشرة في العالم، وبإعادة التفكير بكلّماتها التي قالَتها أمس صباحاً، ترتيلة محبة تُحيي في مقابل حقد يمزِّق...

وها أنا ذا هذا الصباح في صمت غرفتي الذي عدتُ إليه أرى هذا المشهد:

ما زالَت مريم في الهيكل، وفي هذه اللحظة تَخرُج مِن الهيكل مع العذارى الأخريات.

لا بدّ أنّ هناك احتفالاً، لأنّ رائحة البخور تنتشر في جو غَسَق جميل أحمر، وكأنّ الخريف قد سَبَّق مجيئه، فالسماء كئيبة نوعاً ما، كما في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، صافية تنحني على حدائق أورشليم، حيث اصفرار الأوراق التي ستقع قريباً تضع بصماتها الصفراء-الحمراء الفاتحة في أخضر الزيتون الفضي.

الثلّة، سرب الفتيات، روض عذارى تجتزن الباحة الصغيرة مِن الخلف، يصعدن المدرّجات ويمشين عبر رواق صغير ليَدخلن إلى باحة أخرى أقلّ روعة، مربّعة وليس لها سوى منفذ واحد قد دخلن منه، ويُفتَرَض أنّه المخصّص ليؤدّي إلى المساكن الصغيرة للعذارى العاملات في الهيكل، ذلك أنّ كلّ شابة تتوجّه إلى غرفتها كحَمَامة إلى عشّها، مثل حَمامات طائرة تتفرّق بعد أن كانت

مجتمعة. كثيرات منهنّ، بل يمكنني القول جميعهنّ، يتحدّثن إلى بعضهنّ قبل الافتراق بصوت خافت لكنّه مَرِح. أمّا مريم فهي صامتة، فقط قبل أن تفارق الأخريات تحيّيهن بمودّة، ثمّ تتوجّه إلى غرفتها الصغيرة الواقعة في إحدى الزوايا إلى اليمين.

وهناك وافتها معلّمة ليست بالعجوز مثل حنّة التي لفانوئيل، ولكنّها مع ذلك مسنّة: «مريم، كبير الكَهَنَة ينتظركِ.»

تنظر مريم إليها بشيء مِن الدهشة، ولكن مِن غير أن تطرح سؤالاً. تجيب فقط: «سأذهب إليه في الحال.»

تَدخُل غرفة كبيرة، لستُ أدري إذا ما كانت تنتمي إلى منزل الكاهن أم هي جزء مِن سكن النساء العاملات في المعبد، كلّ ما أعرفه هو أنّها واسعة، جيّدة الإنارة والترتيب، وأنّ زكريّا وحنّة التي لفانوئيل موجودان فيها مع كبير الكَهَنَة بلباسه الفاخر.

لدى وصولها إلى العتبة، تنحني مريم للأرض، ولا تتقدّم إلاّ حينما يقول لها كبير الكَهَنَة: «تقدّمي يا مريم، لا تخافي.» فتنتصب وتتقدّم ببطء، ليس لقلّة حماس منها، بل إنّما بالفطرة، بمهابة لستُ أعلم ما نوعها، تجعلها تبدو أكثر نضجاً كامرأة.

تبتسم لها حنّة لتشجّعها، أمّا زكريّا فيحيّيها: «السلام لكِ يا ابنة العم.»

ينظُر إليها الكاهن بإمعان، ثمّ يقول لزكريّا: «إنّ أصل داود وهارون واضح عليها.

أيّتها الفتاة، أنا أعرف صلاحكِ ولطفكِ. وأعرف أنّكِ تَنمين كلّ يوم بالعلم والنعمة في عيني الله والناس. كما أعرف أن صوت الله يهمس في قلبكِ أعذب الكلمات. أعرف أنّكِ زهرة هيكل الله، وأنّ شاروبيماً ثالثاً موجود أمام البيّنة منذ وجودكِ هنا. وأريد أن يستمرّ فوح عطر حياتكِ مع بخور كلّ يوم جديد. ولكن الشريعة لها كلام آخر. لم تعودي فتاة صغيرة، بل لقد

أصبحتِ امرأة، ويجب على كلّ امرأة في إسرائيل أن تتزوّج لتحمل ابنها للربّ. ستتّبِعين أوامر الشريعة. لا تخافي ولا يعلونّكِ احمرار. إنّ جذوركِ الملكيّة نُصب عينيّ. سوف تحميكِ الشريعة التي تأمُر بأن يعطى كلّ رجل امرأة مِن أصله ذاته. ولكن حتّى ولو لم تكن هذه العبارة موجودة، فقد كنتُ عازماً على العمل بها أنا لكي لا يُمَسّ نُبل دمكِ. ألا تعرفين رجلاً مِن أصلكِ نفسه يصلح لأن يكون زوجاً لكِ يا مريم؟»

ترفع مريم وجهاً علاه الاحمرار مِن الخجل، ولمعَت على رموشها أوّل ماسة، وبصوت مرتجف تجيب: «لا أعرف أحداً.»

فيقول زكريّا: «لا يمكن أن تعرف أحداً، طالما أنّها أتت إلى هنا صغيرة جدّاً، كما أنّ نسل داود قد اضطُهدوا كثيراً، وتشتّتوا، ولم تتمكّن أفرعه المختلفة مِن الاجتماع والاتّحاد لتورِق النخلة الملكيّة.»

«إذاً سوف نترك الخيار لله.»

وتَفلُت دموعها المحبوسة حتّى الآن، وتنسَكِب حتّى تصل إلى فمها المرتعش، وتنظر مريم إلى معلّمتها نظرة توسّل.

وتُسارع حنّة لتقديم العون لها بقولها: «لقد عَزَمَت مريم على أن تقف نفسها للربّ، لمجده وخلاص إسرائيل منذ نعومة أظفارها. أمّا الآن فقد ارتبطَت بنذر...»

«دموعكِ إذن لهذا السبب هي؟ وليست لمخالفة الشريعة؟»

«أجل، لهذا السبب... وليست لأمر آخر. فأنا أطيعكَ يا كاهن الله».

«إنّ هذا ليؤكّد كلّ ما قيل لي عنكِ. منذ كم مِن السنوات نذرتِ نفسكِ للبتوليّة؟»

«منذ سنوات طويلة جدّاً، على ما أظن. قبل أن آتي إلى الهيكل كنتُ موهوبة للربّ.»

«ولكن، ألستِ أنتِ الطفلة الصغيرة التي أتت إلي منذ اثني عشر شتاء لتطلب منّي الدخول إلى الهيكل؟»

«أنا هي.»

«فكيف يمكنكِ القول إذن إنّكِ حينذاك كنتِ مِلكاً لله؟»

«إذا نظرتُ إلى الوراء، أجد نفسي منذورة لله... فأنا لا أتذكّر لحظة وُلِدتُ ولا كيف بدأتُ أحبّ أُمّي وأقول لأبي: "يا أبي أنا ابنتكَ"... ولكنّني أذكر، دون أن أدري متى بدأ هذا، أنّني وهبتُ قلبي لله. يمكن أن يكون هذا مع أوّل قبلة عرفتُ إعطاءها، أو أوّل كلمة عرفتُ نطقها، أو مع أوّل خطوة عرفتُ القيام بها... نعم، فمثلاً: أعتقد أنّ أوّل تذكار حبّ لي أجده في أوّل خطوة واثقة خطوتُها... أمّا منزلي، فقد كانت له حديقة مليئة بالزهور، ومُلحَق به بستان وحقول... وفي نهاية هذا كلّه، كان هناك نبع في أسفل الأكمة، وكان يتدفّق مِن صخرة على شكل مغارة... وقد كانت مليئة بالعشب الطويل والناعم الذي يتدلى مِن كلّ الجوانب كشلالات خضراء تبدو وكأنّها تبكي. بالفعل فإن الوريقات الخفيفة، الأوراق التي تُشبِه التطريز، كلّها كانت تحمل قطيرات ماء كانت بدورها تُصدِر عند تساقطها أصوات أجراس صغيرة. وكان النبع يغنّي. وكانت العصافير مقيمة على أشجار الزيتون والتفاح المتواجدة على المنحدر فوق النبع، وحَمامات بيضاوات كانت تأتي لتغتسل في مرآة النبع الصافية. لم أكن لأتذكّر كلّ شيء لأنّني وضعتُ قلبي كلّه في الله، وما عدا أُمّي وأبي، أثناء حياتهما وبعد وفاتهما، لم يتعلّق قلبي بأيّ شيء أرضيّ... ولكنّكَ الآن جعلتَني أفكّر بكلّ هذه الأمور، أيّها الكاهن... فقد كان متوجِّباً عليَّ البحث عن "متى" وهبتُ نفسي لله... وهذه هي ذكريات السنوات الأولى التي تعود إلى ذهني.

كنتُ أُحِبّ تلك المغارة، لأنّني منها كنتُ أسمَع صوتاً أعذب مِن غناء الماء والعصافير يقول لي: "تعالي يا محبوبتي". كنتُ أُحِبّ النقاط الماسيّة البهيّة لأنّني كنتُ أرى فيها إشارة الربّ. وكنتُ أتلاشى حين أقول لنفسي: "يا روحي، هل ترين كم هو عظيم إلهكِ؟ فالذي جَعَلَ أرز لبنان لريح الشمال، جَعَلَ هذه الوريقات التي تنثني تحت ثقل ذبابة لفرح عينيكِ وسجّادة لقدمكِ الصغيرة". كنتُ أحبّ صمت الأشياء الطاهرة هذا: النسمة الخفيفة، والمياه بانعكاساتها الفضّية، ونظافة طيور الحَمام... كنتُ أُحِبّ السلام الذي يَسهَر على تلك المغارة وكأنّه ينهمر مِن أشجار التفّاح والزيتون، تارّة على شكل زهر، وطوراً محمّلاً بالفاكهة الثمّينة... ولستُ أدري، يبدو أنّ الصوت كان يقول لي، نعم كان يقول لي أنا: "تعالي، أنتِ يا شجرة الزيتون الرائعة؛ تعالي أنتِ يا يمامتي"... عذب هو حبّ الأب والأُمّ... وعذب هو صوتهما الذي كان يناديني... ولكنّ هذا الصوت! هذا الصوت! آه! أعتقد أنّ تلك (حواء) التي ارتكَبَت الإثمّ كانت تسمعه هكذا في الفردوس الأرضيّ، ولستُ أدري كيف استطاعَت تفضيل صوت الفحيح على صوت الحبّ هذا، كيف يمكنها أن ترغب بمعرفة ليست الله... وبشفتيَّ اللتين لم تكونا تعرفان بعد سوى حليب أُمّي، بقلبي الذي كان قد سَكِر بالعسل السماويّ، قلتُ آنئذ: "ها أنا ذا آتي، إنّي لكَ. ولن يمتلك جسدي معلّمٌ سواكَ، أنتَ ربّي، كما لن يكون لروحي حبّ آخر"... وحينما قُلتُها، كان يبدو لي أنّني أردّد أشياء قيلت سابقاً، وأمارس شعائر قد مُورِسَت سابقاً، لم يكن العروس الذي اخترتُه غريباً لأنّني كنتُ أعرف حرارة حبّه، وكان نَظَري قد تمرّس على نوره، كما أنّ قدرتي على الحبّ كانت قد نمت بين ذراعيه. متى؟... لستُ أدري. حتماً خارج الحياة الحاضرة. أقول هذا لأنّ إحساساً كان يخامرني بأنّني كنتُ أمتلكه على الدوام، وأنّه كذلك كان يمتلكني، وأنّني ما وُجِدتُ إلّا لأنّه هو نفسه أراد ذلك لفرح روحه وروحي...

الآن، أنا رهن الطاعة أيّها الكاهن. ولكن قل لي كيف يجب أن أتصرّف... لم يعد لي أب ولا أُمّ، فكن أنتَ مُرشِدي».

«سوف يمنحكِ الله العروس، عروساً قدّيساً لأنّكِ وثقتِ به، وسوف تبوحين له بنذركِ».

«هل سيوافق؟»

«أتمنّى ذلك. صلّي أيّتها الفتاة لكي يستطيع تفهّم قلبكِ. اذهبي الآن وليرافقكِ الله على الدوام.»

وتنسحب مريم مع حنّة، ويبقى زكريّا مع الكاهن.

وهكذا تنتهي الرؤيا.

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

19- (يوسف المُختار عروساً للعذراء)

04 / 09 / 1944

أرى غرفة فاخرة مزيّنة جيّداً بستائر وسجّاد وموبيليا مُطعَّمة. يُفتَرَض أن تكون جزءاً مِن الهيكل، فإنّ كَهَنَة متواجدون فيها، ومِن ضمنهم زكريّا وكثير مِن الرجال بأعمار تتراوح بين العشرين والخمسين سنة تقريباً.

إنّهم يتكلّمون بهدوء فيما بينهم، ولكنّ المناقشة مُحتَدِمة. يبدو عليهم القلق لأمر أجهله. كان الجميع بثياب العيد، ثياب جديدة أو أقلّه مجدّدة، كما لو أنّهم أتوا مِن أجل عيد. كثيرون منهم نَزَعوا العمامات التي تغطّي رؤوسهم، وآخرون تركوها على رؤوسهم، خاصّة كبار السنّ منهم، في الوقت الذي تَظهَر رؤوس الشباب عارية يكسو بعضها شعر أشقر داكن، والبعض الآخر شعر بنّي، والبعض الآخر شعر أسود، بينما واحد فقط شعره أحمر نحاسيّ. شعر الأغلبيّة قصير، إلّا أنّ هناك البعض قد أرخوا شعورهم حتّى الأكتاف. يبدو أنّ الجميع لا يعرفون بعضهم بعضاً، إذ إنّهم ينظرون إلى بعضهم بفضول. ولكنّهم يبدون أقرباء لأنّ أمراً واحداً يشغلهم جميعاً.

في إحدى الزوايا أرى يوسف يتحدّث إلى عجوز إنّما يتمتّع بصحّة جيّدة، يوسف يقارب الثلاثين مِن عمره، وهو وسيم ذو شعر قصير وكثيف، يميل لونه إلى البنّي-الكستنائيّ، كذلك اللحية والشاربان التي تغطّي ذقناً جميلاً وخدّين بلون بنّي يميل إلى الاحمرار، وليس كالآخرين ذوي اللون البنّي المائل إلى الزيتوني. وعيناه داكنتان جميلتان وغائرتان، جادّتان جدّاً حتّى يمكن القول إنّهما حزينتان قليلاً، ومع ذلك فحين يبتسم، كما يفعل الآن، فإنّهما تُعبّران عن الفرح والشباب. وهو يرتدي ثوباً كستنائيّاً فاتحاً. إنّ مظهره بسيط ولكنّه لائق جدّاً.

يَدخُل رهط مِن الشباب اللاويّين ويأخذون أماكنهم بترتيب بين الباب ومنضدة طويلة وضيّقة جانب الجدار الذي يوجد في وسطه باب مفتوح على الدوام، إنّما تغطّيه فقط ستارة تعلو عن الأرض مسافة عشرين سنتيمتراً وتغطّي المدخل.

يَحتَدِم فضول الجميع بشكل خاصّ حينما تزيح الستارة يَد لتفسح الطريق للاويّ يحمل بين يديه حزمة مِن الأغصان الجافة وقد وُضِعَ فوقها بشكل لطيف غصن مُزهِر. نُدَف خفيفة لبتلات بيضاء بالكاد تتلوّن بالزهر الذي يتوهّج اعتباراً مِن الوسط بأكثر فأكثر نعومة حتّى طرف البتلات الخفيفة. يضع اللاويّ حزمة الأغصان على الطاولة بحذر ونعومة، لكي لا يخرب هذا الغصن المزهر بشكل عجائبي وسط أغصان كثيرة جافّة.

ينتَشِر صوت في القاعة، وتتطاول الرقاب وتتركّز النظرات ليروا أفضل. زكريّا نفسه مع الكَهَنَة الأقرب إلى الطاولة يحاول أن يَرَى، ولكنّه لا يرى شيئاً. أمّا يوسف فبالكاد يُلقِي نظرة مِن زاويته إلى حزمة الأغصان، وعندما يقول له مُحَدِّثه شيئاً، يقوم بحركة تعني: «غير معقول!» ويبتسم.

يعلو صوت بوق خلف الستار. ويخيّم صمت مطبق، ويأخذ الجميع مواقعهم بترتيب جميل، الوجه صوب الفتحة التي تنكشف جيّداً، فقد أزيح الستار ودَخَلَ كبير الكَهَنَة محاطاً بآخرين كبار. ينحني الجميع انحناءة كبيرة، ويذهب الكاهن إلى جانب الطاولة ويتكلّم وهو ما يزال منتصباً: «أيّها الرجال المتحدّرون مِن أصل داود، يا مَن لبّيتم ندائي وأتيتم... أَنصِتوا. لقد تكلّم الربّ له التسبيح، ومِن مجده سقط شعاع كشمس الربيع وأعطى الحياة لغصن جافّ، وقد أزهر بشكل عجائبيّ، بينما لم يُزهِر عود على الأرض في مثل هذا الوقت، اليوم الأخير مِن العنصرة، بينما الثلج المتساقط على قمم جبل يهوذا لم يذب بعد. هذا هو البياض الوحيد بين صهيون وبيت عنيا. لقد تكلَّمَ الله جاعلاً نفسه أباً وسنداً لعذراء داود التي لا حماية لها إلاّه. الطفلة المقدّسة، مجد الهيكل ومجد أصلها، استحقّت أن تكون كلمة الله هي الدالّة على اسم الزوج المرضيّ عنه لدى الأزليّ. بالحقيقة، إنّ هذا البارّ هو مختار الله، ليكون سند العذراء الغالية جدّاً إلى قلبه! كذلك حزننا على

فقدانها تخفّ وطأته، فإنّ مصيرها كزوجة لم يعد يشغل بالنا. فإلى الذي اختاره الله نعهد بكلّ أمان بالعذراء التي حلَّت عليها بركة الله وبركتنا. واسم هذا العروس هو يوسف بن يعقوب مِن بيت لحم مِن سبط داود، نجّار في الناصرة التابعة للجليل. تقدم يا يوسف، فكبير الكَهَنَة هو الذي يأمركَ.»

أصوات كثيرة، رؤوس تتلفّت، أيد وعيون تُشير، خيبات أمل ورضى. وهناك خاصّة بين مَن هم الأكبر سنّاً مَن عليهم أن يفرحوا لعدم وقوع هذا المصير عليهم.

يعتري يوسف احمرار وإحراج ويتقدّم. ثمّ يدنو مِن الطاولة في مواجهة الكاهن الذي يحيّيه باحترام.

«تعالوا جميعاً وانظروا الاسم المكتوب على الغصن، وليأخذ كلّ منكم غصنه ليتأكّد مِن عدم وجود أيّ تلاعُب.»

يطيع الرجال وينظرون إلى الغصن الذي يمسكه كبير الكَهَنَة بكلّ لُطف. ثمّ يأخذ كلّ غصنه. البعض يكسره والبعض الآخر يحتفظ به. وينظر الجميع إلى يوسف، منهم مَن ينظر بصمت، ومنهم مَن يهنّئه. أمّا العجوز صغير القدّ الذي كان يحادثه في بداية الجلسة فيقول له: «لقد قلتُ لكَ يا يوسف، إنّ مَن لديه الشعور بأنّه الأقلّ تأكّداً هو الذي يكسب الشوط.» أمّا الآن فلقد خرج الجميع.

يعطي كبير الكَهَنَة الغصن المزهر ليوسف، ثمّ يربت على كتفه وهو يقول: «العروسة التي أعطاكَها الله ليست غنيّة ماديّاً، وأنتَ تعرف ذلك. إلاّ أنّها مَسكَن كلّ الفضائل. كُن أهلاً لها على الدوام. فليس في إسرائيل زهرة أجمل منها وأطهر... اخرجوا الآن جميعكم، وابق أنتَ يا يوسف. أمّا أنتَ يا زكريّا، فبما أنّكَ قريب العروسة فاذهب وهاتها.»

يَخرُج الجميع ما عدا كبير الكَهَنَة ويوسف. ثمّ يُسدَل الستار ثانية على الباب.

يقف يوسف بتواضع أمام الكاهن الجليل. تمرّ لحظة صمت، ثمّ يقول له: «ينبغي لمريم أن تبوح لكَ بالنذر الذي قطعَتهُ على نفسها. كن عوناً لها في حياتها. كن طيباً معها فهي جدّ طيّبة.»

«سوف أضع كلّ إمكانيّاتي في خدمتها، ولن تصعب عليّ تضحية مِن أجلها. كن على يقين مِن ذلك.»

تَدخُل مريم مع زكريّا وحنّة التي لفانوئيل.

يقول الكاهن: «تعالي يا مريم، فهذا هو العروس الذي اختاره الله لكِ. إنّه يوسف الناصريّ. ستعودين إذاً إلى مدينتكِ. أترككما الآن. فليبارككما الله، وليحفظكما الربّ، وليُظهِر لكما وجهه وليرحمكما دائماً. ليلتفت إليكما وليمنحكما السلام.»

يَخرُج زكريّا ليرافق الكاهن بينما حنّة تهنئ العروس وتَخرج أيضاً.

يقف الخطيبان في مواجهة بعضهما. يعتري مريم احمرار ورأسها مُنحن. وكذلك يوسف يعتريه القليل مِن الاحمرار، ينظر إليها ويبحث عن كلمات يقولها ليبدأ الحديث. أخيراً يَجدها ويُشرِق وجهه بابتسامة. يقول: «سلام لكِ يا مريم. رأيتُكِ في السابق صغيرة جدّاً، كان عمركِ لا يتجاوز أيّاماً... كنتُ صديق أبيكِ، وحفيد أخي حلفا كان يحبّ أُمّكِ كثيراً. لقد كان صديقها الصغير، فعمره الآن لا يتجاوز الثمّاني عشرة سنة، وعندما لم تكوني قد وُلِدتِ بعد، كان هو لا يزال صغيراً جدّاً، ولكنّه كان يُثلِج صدر أُمّكِ الحزينة التي كانت تحبّه بكلّ جوارحها. أنتِ لا تعرفيننا لأنّكِ أتيتِ إلى هنا صغيرة جدّاً. ولكن في الناصرة يحبّكِ الجميع كثيراً، ويتحدّثون عن مريم الصغيرة التي جاءت ولادتها معجزة مِن الربّ أعادت أحشاء العاقر مُزهِرة... وأنا أتذكّر عشيّة ولادتكِ... الجميع يذكرها بسبب أعجوبة المطر القويّ الذي أنقَذَ المحصول، والعاصفة القويّة حيث لم تَكسِر ضربات الصاعقة ولا قصبة خلنج برّي واحدة، وقد انتهت بقوس قزح لم نر في حياتنا أعظم منه ولا أجمل. ثمّ... مَن لا يتذكّر فرحة يواكيم؟ كان يؤرجحكِ وهو يُريكِ للجيران... كما

لو كنتِ زهرة قادمة مِن السماء، كان معجباً بكِ ويريد أن يُطلِع الجميع على هذا الإعجاب. أب عجوز وسعيد، مات وهو يتحدّث عن مريم الجميلة جدّاً والطيّبة جدّاً والتي كانت كلماتها مُفعَمَة نِعمة وحِكمة... لقد كان محقّاً بإعجابه بكِ وبقوله إنّه لا يوجد مَن هي أجمل منكِ! أمّا أُمّكِ؟ فقد كانت تملأ الركن حيث كان بيتكِ بالأناشيد. وعندما كانت تحملكِ، كنّا نحسبها قُبّرة في الربيع، وكذلك حينما كانت تُرضِعكِ. وأنا مَن صَنَعَ لكِ المهد، سريراً صغيراً مزيّناً بورود محفورة، تماماً كما أرادتهُ أُمّكِ. قد يكون ما يزال في بيتكم المغلَق... أنا كبير السنّ يا مريم. عندما وُلِدتِ أنتِ، كنتُ أنا أتعلم مهنة. لقد كنتُ أعمل آنئذ... مَن كان يحسب أنّني سأصبح لكِ عروساً؟ قد تكون وفاة أبويكِ الآن أكثر سعادة لأنّنا كنّا أصدقاء. لقد دَفَنتُ أباكِ بيديّ، وبكيتُهُ بقلب مخلص لأنّه كان معلّماً صالحاً لحياتي.»

ترفع مريم وجهها ببطء وتؤدة وهي مطمئنة أكثر فأكثر لسماع يوسف يكلّمها هكذا. فعندما كلّمَها عن السرير ابتسمَت، وعندما كلّمَها عن أبيها مدَّت له يدها وقالت: «شكراً يا يوسف.» كلمة شكر خجولة ومفعمة لطفاً.

يأخذ يوسف بين يديه، يدي النجار القصيرتين والقويّتين، يد ياسمينة صغيرة، ويداعبها بحنان دون الكف عن محاولة طمأنتها. ربما كان ينتظر كلمات أخرى، ولكنّ مريم تصمت مِن جديد. فيتابع هو: «البيت، أنتِ تعرفينه، سليم كلّه، ما عدا القسم الذي هُدِمَ بأمر الحاكم لاستبدال الدرب بشارع مِن أجل العربات الرومانيّة. أمّا الحقول، فما تبقّى لكِ منها مُهمَل قليلاً. أقول ما تبقّى، لأنّ مرض أبيكِ، كما تعرفين، جَعَلَهُ يبيع قسماً كبيراً مِن الأملاك. لقد مضى أكثر مِن ثلاث سنوات لم ترَ فيها الكروم ولا الأشجار مقصّ بستانيّ، وكذلك الأرض صلبة وغير محروثة. ولكنّ الأشجار التي رأتكِ صغيرة جدّاً لم تزل في مكانها، وإذا سمحتِ فسأهتمّ أنا بها مِن الآن فصاعداً.»

«شكراً لكَ، يا يوسف، ولكنّكَ مشغول بعملكَ.»

«سوف أعمل في حديقتكِ في الساعات الأولى والأخيرة مِن النهار. في هذا الوقت يطول النهار. أريد أن أرتّب كلّ شيء قبل الربيع إرضاء لكِ. انظري، إنّه غصن مِن شجرة اللوز الملامسة للمنزل. أردتُ قطفه... -يمكن الدخول مِن كلّ الجهات مِن السياج الذي خُرِقَ، ولكنّي سأصلحه وأجعله صلباً متيناً- كنتُ أريد قطف هذا الغصن في حال كان الاختيار سيقع عليّ -لم يكن لي أمل في ذلك لأنّني ناصريّ، وقد لبّيتُ الدعوة فقط لأنّها صادرة عن الكاهن، وليس رغبة في الزواج.- قطفتُهُ إذاً، كما قلتُ، اعتقاداً منّي أنّكِ ستُسرّين لحصولكِ على زهرة مِن حديقتكِ. ها هو يا مريم. أقدّم لكِ معه قلبي الذي لم يزهر حتّى الآن إلّا للربّ، وها هو يزهر الآن لكِ يا عروستي.»

تأخذ مريم الغصن. إنّها متأثرة، وتنظر إلى يوسف بطمأنينة وإشراقة سعادة. لقد شَعَرَت بالأمان عندما قال لها: «أنا ناصريّ.» فأصبح وجهها أكثر إشراقاً وتَشَجَّعَت: «أنا أيضاً وهبتُ نفسي بالكامل لله يا يوسف. لستُ أدري ما إذا كان كبير الكَهَنَة قد أخبَرَكَ بذلك...»

«لقد قال لي فقط إنّكِ طيّبة وطاهرة وإنكِ ستبوحين لي بنذركِ الذي قطعتِهِ على نفسكِ، وأن أكون طيّباً معكِ. تكلّمي يا مريم. فيوسف الذي أصبَحَ لكِ يريد أن يسعدكِ في كلّ رغباتكِ. أنا لستُ أحبّكِ بحسب الجسد. بل أحبّكِ بحسب روحي، أيّتها الطفلة القدّيسة التي منحنيها الله! اعتبريني الأب والأخ وليس فقط الزوج. ثقي بي كما بأبيكِ، اطمئنّي لي كما لأخيكِ.»

«منذ كنتُ طفلة صغيرة كرّستُ نفسي للربّ. أنا أعلم أنّ هذا الأمر غير وارد في إسرائيل، ولكنّني سمعتُ صوتاً يطلب منّي بتوليّتي بتضحية حبّ مِن أجل قدوم الماسيا الذي تنتظره إسرائيل منذ أمد بعيد... فليس كثيراً لأجل ذلك أن أضحّي بفرح الأمومة!...»

يَنظر يوسف إليها مليّاً، كما لو كان يريد قراءة أعماق قلبها، ثمّ يقول لها وهو يمسك يديها الصغيرتين اللتين ما زالتا تمسكان بين أصابعهما الغصن المزهر: «أنا أيضاً، سأضمّ تضحيتي إلى تضحيتكِ، وبعفّتنا معاً سَنُعَبِّر للأزليّ عن حبّ جمّ، حبّ كبير لمعطي المخلّص قريباً لكلّ الأرض،

مانحاً إيّانا رؤية نوره يضيء العالم. تعالي يا مريم، ولنذهب أمام بيته ولنقسم بأن نحبّ بعضنا كما يتحابّ الملائكة فيما بينهم. ثمّ سأذهب إلى الناصرة أهيّئ كلّ شيء لكِ، في بيتكِ إن كنتِ تفضّلين ذلك، أو في أي مكان آخر، لو أردتِ.»

«في منزلي... كانت هناك مغارة في العمق... هل ما زالت هناك؟»

«ما زالت إلاّ أنّها لم تعد لكِ... ولكنّني سأبني لكِ واحدة أخرى هادئة ومنعشة، تستطيعين اللجوء إليها في الساعات الأكثر حرارة مِن النهار. سأجعلها بحجم تلك. ثمّ قولي لي: مَن التي تريدينها مُرافِقة لكِ؟»

«لا أحد. فأنا لا أخاف. أُمّ حلفا التي تزورني على الدوام ترافقني قليلاً أثناء النهار. أمّا في الليل، فأفضّل البقاء وحيدة، لن يلحق بي أي أذى.»

«ثمّ أنا موجود الآن هناك... متى تريدين أن أَحضُر لآخذكِ؟»

«متى شئتَ يا يوسف.»

«إذاً، سوف أحضُر حالما يصبح البيت مرتّباً. لن أغيّر من ترتيبه شيئاً. أريدكِ أن تجديه كما تَرَكَتهُ أُمّكِ. ولكنّني أودُّ أن تملأه الشمس، كما أريده نظيفاً جدّاً ليستقبلكِ دون حزن. تعالي يا مريم. فلنذهب لنقول له تعالى إنّنا نحمده.»

لم أعد أرى شيئاً، ولكن الشعور بالأمان الذي اختَبَرَته مريم بقي أثره في قلبي...

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

20– (زواج العذراء ويوسف)

05 / 09 / 1944

يا لجمال مريم بثياب العرس بين زميلاتها ومعلّماتها اللواتي يحتفلن بها! وقد كانت أليصابات بينهنّ.

لباسها بأكمله كان مِن الكتّان الناصع البياض، الحريريّ الناعم، حتّى لكأنّه مِن الحرير النفيس. والنطاق مِن الذهب والفضّة المشغولين بالمُنَقَّش؛ صُنِعَ بأكمله مِن ميداليات متّصلة ببعضها بحلقات صغيرة، وكلّ ميدالية هي عبارة عن زخرفة مِن خيوط الذهب على دخيلة فضّية، أصبَحَت بُنّية بفعل الزمن. إنّها طويلة، وهي ما تزال شابّة صغيرة، وقد كان النطاق يشدّ خصرها النحيل فتتدلّى مِن الأمام الميداليات الثلاث الأخيرات. تغوص بين ثنيات الثوب الفضفاض جدّاً ذي الرفل (الذيل) القصير، بقدر ما هي طويلة... وفي قدميها الصغيرتين حذاء مِن الجلد الأبيض الناصع تزيّنه حلقات فضّية.

عند العنق، يُحصَر الثوب بسلسال مِن الوُرَيدات الذهبيّة ذات الزخارف السلكيّة الفضيّة، تتَّخِذ صيغة وروح النطاق، إنّما بشكل مصغّر، ويمرّ عبر التخريمات الواسعة في حفرة العنق الواسعة ليجمع الثنيات فتشكّل نوعاً من الكشكش. عنق مريم يظهر مِن خلال بياض الثنيات مع كياسة ساق القَبّة المغلفة بنسيج شفاف ثمّين، ويبدو أكثر نعومة وبياضاً: ساق زنبق يتفتّح بوجه زنبقيّ أكثر شحوباً مِن التأثّر وأكثر طهراً. وجه ذبيحة قربان طاهرة جدّاً.

لم يعد شعرها على كتفيها. لقد صُفِّف بدقّة بجدائل نصف معقودة بمشابك ثمّينة مِن الفضّة الضاربة إلى اللون البنّي، والمشغولة بتزيينات سلكيّة تُثَبّتها ابتداء مِن القمّة. وشاح أُمّها موضوع على هذه الجدائل، ويعود ليتدلّى مُشكّلاً ثنيات حلوة تحت شريطة القصب النفيسة التي تشدّ

الجبهة الناصعة البياض وينزل حتّى الوركين، ويتجاوزهما لأنّ مريم لم تكن بطول أُمّها؛ بينما كان على حنّة يتوقف عند النطاق. لم تضع شيئاً في يديها، أمّا في معصميها فأساور والدتها التي تكاد تقع أرضاً لو حرّكتهما نتيجة نعومة قبضتيها مِن جهة، ووزن الأساور التي انزلقَت حتّى أعلى اليدين، مِن الجهة الأخرى.

تَنظُر رفيقاتها إليها مِن كافّة الاتّجاهات بإعجاب، أصواتهنّ مثل زقزقة العصافير المرحة بطلباتهنّ وهتافات الإعجاب.

«هل كان هذا لأُمّكِ؟»

«قديم حقيقيّ؟»

«كم هو جميل هذا النطاق، سارة!»

«وهذا الوشاح يا سوسن؟ انظري إلى هذه الدقّة وهذه الزنابق المطرّزة على الحبكة!»

«أريني الأساور يا مريم! هل كانت لوالدتكِ؟»

«أُمّي، كانت تَلبَسها. إنّما هي في الأصل لأُمّ أبي يواكيم.»

«آه! انظري. فيها خاتم سليمان متشابك مع سعف نخل صغيرة وأغصان زيتون، تتخلّلها زنابق وزهور. آه! مَن أنجَزَ هذا العمل العظيم والدقيق لهذه الدرجة؟»

فتقول مريم مُفَسِّرة: «إنّها مِن بيت داود. تتناقل النساء هذه الحليّ مِن جيل لجيل، تلبسها عند الزواج، ثمّ تنتقل بالإرث.»

«حقّاً! إنّكِ فتاة وارثة...»

«هل جَلَبَ لكِ كلّ شيء مِن الناصرة؟»

«كلّا. عندما ماتت أُمّي، حَمَلَت نسيبتي هذا الجهاز إلى بيتها لتحفظه مِن التَّلَف. وقد جلبَتهُ لي الآن.»

«أين هو؟ أين هو؟ أريه لصديقاتكِ.»

لم تعرف مريم كيف تتصرّف... أرادت أن تكون مُجامِلة، ولكنّها أرادت كذلك ألّا تُخَرِّب ترتيب كلّ أغراضها المرتّبة في صناديق ثلاثة ثقيلة. تتدخّل المعلّمات لمساعدتها: «العروس على وشك الوصول. فالوقت ليس وقت بعثرة. اتركنها، إنكنّ تتعبنها، اذهبن وهيّئن أنفسكنّ.»

يبتعد سرب المثرثرات بقليل مِن الاستياء. وأصبَحَ باستطاعة مريم أن تفرح بهدوء مع معلّماتها اللواتي يمدحنها ويباركنها.

تدنو أيضاً أليصابات. تتأثّر مريم وتبكي عندما تناديها حنّة التي لفانوئيل: «ابنتي» وتُقَبِّلها بإحساس الوالدة الحقيقيّ. وتقول لها أليصابات: «يا مريم، إنّ أمّكِ ليسَت هنا، ومع ذلك فهي موجودة. روحها تتهلّل فرحاً قرب روحكِ. انظري: إنّ ما تلبسينه مِن آثارها يعيد لكِ مداعبتها، وتجدين فيه أيضاً طعم قبلاتها... منذ زمن، في اليوم ذاته الذي أتيتِ فيه إلى الهيكل، قالت لي: "لقد هيّأتُ لها ثياب وجهاز عرسها. أريد أن أكون أنا مَن يَنسج لها الكتان ويخيط أثواب العروس، كي لا أكون غائبة يوم فَرَحها." وهل تدرين؟ في أواخر أيّامها، عندما كنتُ أعتني بها، كانت تودُّ مداعبة أثوابكِ الأولى كلّ مساء، وكذلك الأثواب التي تلبسين الآن. كانت تقول: "أشمّ فيها رائحة ياسمين صغيرتي، وأريد أن تحسّ فيها قبلة أُمّها." كَم مِن القبلات في هذا الوشاح الذي يظلّل جبهتكِ! إنّها أكثر مِن الخيوط!... وعندما ستلبسين الثياب التي خاطتها، فكّري أنّ نصيب الصنعة فيها أقلّ مِن نصيب حبّ أُمّكِ. وهذه العقود... قد أنقَذَها والدكِ أثناء ساعات النكبة ذاتها مِن أجل حبّكِ، لتجمّلكِ كما يليق بأميرة مِن نسل داود، في ساعة كهذه. كوني سعيدة يا مريم. لستِ يتيمة لأنّ أهلكِ معكِ. وَلديكِ عروس هو لكِ الأب والأُمّ، كم هو عظيم!...»

«آه! نعم! بالحقيقة! إنّ ممّا لا شكّ فيه، هو أنّني لا أستطيع التشكّي منه. ففي أقلّ مِن شهرين جاء مرّتين إلى هنا، واليوم يأتي للمرّة الثالثة متحدّياً المطر والرياح ليسألني عن أوامري... تصوّري: أوامري! أنا المرأة المسكينة، وكم أنا أصغر منه! ومع ذلك لم يرفض لي طلباً. حتّى إنّه لا ينتظر أن أَطلُب. يبدو أنّ ملاكاً ينقل إليه رغباتي، فيحدّثني عنها حتّى قبل أن أفتح فمي. ففي المرّة الأخيرة قال لي: "مريم، أظنّكِ تفضّلين الإقامة في منزلكِ الوالديّ. بما أنّكِ الوريثة، يمكنكِ ذلك لو أردتِ. وسآتي أنا إلى منزلكِ، إنّما فقط للحفاظ على العرف والتقاليد، ستمضين أسبوعاً في بيت حلفا، أخي. إنّ مريم تحبّكِ كثيراً. وعشيّة العرس ينطلق الموكب مِن هناك ليوصلكِ إلى المنزل." أليس هذا لطفاً منه؟ لا يهمّه أبداً أن يقول الناس إنّ بيته لا يعجبني... بينما أنا فقد كان بيته يعجبني على الدوام بسببه هو، فهو طيّب جدّاً. ولكنّني، بكلّ تأكيد... أُفَضِّل منزلي... بسبب الذكريات... آه! إنّ يوسف لطيّب!»

«ماذا قال عن نذركِ؟ لم تُعلِميني بعد عن ذلك.»

«لم يُبد أي اعتراض. ولكنّه عندما عرف الأسباب قال: "سأضمّ تضحيتي إلى تضحيتكِ".»

فقالت حنّة التي لفانوئيل: «حقّاً إنّه شابّ قدّيس.»

في هذه اللحظة يَدخُل "الشابّ القدّيس" بصحبة زكريّا. إنّه رائع حقّاً. باللباس الكامل الأصفر الذهبيّ، الذي يبدو فيه كَمَلِك شرقيّ. نِطاق خلّاب يحمل محفظة نقوده وخنجره، الأولى مِن الجلد بتوشيات ذهبيّة، والآخر أيضاً في غمد جلدي بخطوط ذهبيّة. على رأسه عمامة، كسوة رأس منسوجة كقبّعة، تشبه تلك التي ما تزال تلبسها بعض شعوب أفريقيا، البدو مثلاً، مثبّتة في مكانها بحلقة ذهبيّة دقيقة ترتبط بها طاقات مِن الآس. ويلبس معطفاً جديداً بأهداب يتدثّر به بجلال. عيناه تطفحان سروراً. وبين يديه باقات مِن الآس المزهر.

يُلقي التحيّة: «السلام لكِ يا عروستي! السلام للجميع!» وبعد أن يردّوا عليه التحيّة، يتابع: «رأيتُ فرحكِ يوم حملتُ لكِ الغصن مِن حديقتكِ. وفكّرتُ أن أحمل لكِ الآس الذي ينبت قرب المغارة التي تحبّين. كنتُ أريد أن أحمل إليكِ زهوراً بدأَت تتفتّح قرب البيت، ولكنّ الزهور لا تدوم طوال أيّام السفر... لم تكن لتصل إليكِ سوى أشواك، بينما لا أريد أن أقدّم لكِ يا محبوبتي سوى الزهور، وأريد أن أفرش لكِ الطريق زهوراً ناعمة وعَطِرة لكي تستطيعي وضع أرجلكِ عليها دون أيّة قذارة أو مضايقة.»

«آه! الشكر لكَ، كم أنتَ طيّب! إنّما كيف استطعتَ إيصالها وهي نديّة هكذا؟»

«لقد رَبَطتُ مزهريّة إلى السرج ووضعتُ داخلها الأغصان التي ما زال الزهر فيها بعد على شكل براعم. وقد تفتَّحَت طوال الطريق. ها هي يا مريم، ولتتزيّن جبهتكِ بإكليل الزهر رمز الطهارة ورمز الزوجة، ولكنّ طهارته أدنى كثيراً مِن طهارة قلبكِ.»

تزيّن أليصابات مع المعلّمات مريم بإكليل الزهور. تشكّلنه بتثبيته على الحلقة النفيسة التي تُمنطِق جبهتها بالتناوب، طاقة آس بيضاء ثمّ وردة بيضاء أُخِذَت مِن مزهرية موجودة على صندوق... وهكذا. أصبحَت مريم الآن جاهزة لارتداء معطفها الفضفاض لوضعه على أكتافها، إلاّ أنّ عروسها يتحرّك ويساعدها على تثبيت المعطف في أعلى الكتفين بدبّوسين فضّيين. وتُرتّب المعلّمات الثنيات برعاية وحبّ.

أصبَحَ كلّ شيء جاهزاً. أثناء انتظار لستُ أدري ماذا، يقول يوسف بعد أن يتنحّى مع مريم قليلاً: «لقد فكّرتُ بنذركِ طوال هذا الوقت، ولقد قلتُ لكِ إنّني أشاركِكِ به، ولكنّني كلّما فكّرتُ به أُدرِك أنّ النذر المؤقّت لا يكفي حتّى ولو تجدّد عدّة مرّات. لقد فهمتكِ يا مريم. لستُ أستحقّ بعد كلمة النور، إلّا أن همساً أتاني. وهذا ما جعلَني أقرأ سرّكِ، أقلّه في خطوطه الأكثر قوّة. أنا جاهل مسكين، يا مريم. أنا عامل مسكين. لا أعرف الحروف ولا أملك الكنز. إلّا أنّني أضع كنزي عند قدميكِ للأبد: عفّتي المُطلَقَة؛ لأكون أهلاً للبقاء بقربكِ، يا عذراء الله، "الأخت

عروستي، الحديقة المغلقة، الينبوع المختوم"، كما قال أحد الأجداد الذي يمكن أن يكون قد كَتَبَ النشيد وهو ينظر إليكِ أنتِ... وسأكون البستانيّ في بستان العطور هذا، حيث توجَد الثمّار الأكثر قيمة، ومِن حيث يتدفّق نبع ماء الحياة باندفاع عذب: وداعتكِ يا عروستي، التي اجتاحت روحي ببراءتكِ، أيّتها الجميلة. الجميلة أكثر مِن الفجر، الشمس المشعّة، ذلك أنّ قلبكِ هو الذي يشعّ، أنتِ يا مَن بمجملكِ حُبّ لإلهكِ وللعالم الذي تريدين أن تعطيه المخلّص بتضحيتكِ كامرأة. تعالي يا محبوبتي.» يُمسك بيدها بلطف ويقودها إلى الباب. يتبعهما الجميع، وفي الخارج تُقبِل رفيقاتها لينضممن إلى الاحتفال، بلباس أبيض بالكامل، وكذلك بالوشاح.

يَمضون عبر الساحات والأروقة وسط الجموع التي تراقبهم، إلى مكان ليس بالهيكل، ولكنّه يبدو أنّه غرفة مكرّسة للعبادة. بالفعل، هناك مصابيح وقرطاس كما في المجامع. يتقدّم العروسان حتّى يَصِلا إلى مَقرأ مرتفع، نوع مِن المنابر، وينتظران. ويصطفّ الآخرون خلفهما. كَهَنَة آخرون وبعض الفضوليّين في الداخل.

ويَدخُل كبير الكَهَنَة بشكل احتفاليّ.

ويدور الهمس بين الفضوليّين: «أهو الذي سيزوّجهما؟»

«نعم، فهي مِن أصل مَلَكيّ وكَهَنوتيّ، زهرة داود وهارون. العروسة هي إحدى عذارى الهيكل. وعروسها مِن نسل داود.»

يضع الكاهن يد العروسة اليمنى في يد عروسها ويباركهما بمهابة: «فليكن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب معكما، ليوحّدكما ويحقّق بكما بركته بإعطائكما سلامه وخَلَفاً كثيراً وحياة طويلة وميتة صالحة في أحضان إبراهيم.» ثمّ ينسحب بشكل احتفاليّ كما دَخَل.

يتبادلان الوعود، فمريم هي الآن زوجة يوسف.

يَخرُج الجميع بشكل منتظم ويذهبون إلى غرفة يُكتَب فيها عقد الزواج ويُعلَن أنّ مريم وريثة يواكيم بن داود وحنّة بنت هارون قد دَفَعَت "دوطة" لزوجها بيتها مع ملحقاته وجهازها الخاص وأشياء أخرى ورِثَتها عن أبيها.

وينتهي كلّ شيء.

يَخرُج العروسان إلى الباحة، ثمّ يتوجّهان إلى المخرج، جانب مقرّ النساء العاملات في الهيكل. عربة ثقيلة مرتّبة جيّداً كانت في انتظارهما. إنّها مغطّاة بنسيج؛ وصناديق مريم الثقيلة هي الآن داخلها.

وداع وقبلات ودموع، مباركات ونصائح وتوصيات، ثمّ تَصعَد مريم مع أليصابات، وتَجلسان داخل العربة، بينما يجلس يوسف وزكريّا على المقعد الأماميّ. لقد خلعوا معاطف الاحتفال وتدثّروا جميعاً عباءات داكنة. تمضي العربة، يجرها حصان كبير داكن اللون بمشيته الثقيلة. تبتعد جدران الهيكل، ثمّ أسوار المدينة، وها هي القرية المجدّدة النديّة والمزهرة بأوائل شمس الربيع، القمح المرتفع شبراً على الأقل، وهو يبدو بلون الزمرّد بأوراقه الفتيّة التي تتماوج بفعل نسمة خفيفة تحمل عِطر زهر الدرّاق والتفّاح والمشمش الهنديّ والنعناع البريّ.

تبكي مريم بهدوء خلف الستار الذي كانت تزيحه مِن وقت لآخر لتنظر إلى الهيكل الذي أضحى بعيداً، والمدينة التي تَرَكَتها.

وهكذا تنتهي الرؤيا.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

21- (وَضْع يوسف مِثل "خاتم على خاتم" مِثل رئيس الملائكة على عتبة الفردوس)

05 / 09 / 1944

يقول يسوع:

«ماذا جاء في سفر الحكمة عندما أنشَدَ مدائحها؟ "في الحكمة يوجد بالفعل روح الذكاء، مقدّساً، وحيداً، متعدِّداً، وثاقباً". ويستمرّ في تعداد صفاتها، ويختَتم بهذه العبارات: "...تستطيع كلّ شيء وتتوقّع كلّ شيء وتستوعب كلّ النفوس، ذكيّة، طاهرة، وثاقبة الفكر. الحكمة تَلِج كلّ شيء بطهرها، إنّها فيض (نفحة) مِن روح الله... إذ ليس فيها ما هو غير طاهر... إنّها صورة عن الصلاح الإلهيّ. مع كونها وحيدة، فإن وحدتها تستطيع كلّ شيء؛ ومع كونها غير قابلة للتبدّل، فهي تُجدِّد كلّ الأشياء. إنّها تتّحد بأرواح القدّيسين وتُشكّل أصدقاء الله والأنبياء."

رأيتِ كيف أنّ يوسف، ليس بثقافته البشريّة، بل إنّما بمعرفته فائقة الطبيعة، عرف القراءة في الكتاب المختوم للعذراء المنزّهة عن كلّ عيب، وكيف يلامس برؤيته الحقائق النبويّة برؤية سرّ فائق البشر، حيث لا يَرَى الآخرون سوى فضيلة كبرى. مُشرَّباً بهذه الحكمة التي تنبعث مِن فضيلة الله، والتي هي انبثاق مِن القُدرة الكلّية، يتوجّه بروح مطمئنّ وواثق في بحر سرّ النعمة هذا الذي هو مريم، يلتقي بها في مبادلة روحيّة، حيث لم تتكلّم الشفاه، بل كانا نفسين يتبادلان الحديث في صمت الأرواح المقدّس، حيث لا يَسمَعان سوى صوت الله الذي لا يستقبله سوى المرضيّين لدى الله، لأنّهم يخدمونه بإخلاص وهم ممتلئون منه.

حكمة البارّ التي تنمو بالاتّحاد وبحضور كلّية النعمة، تهيئه للولوج في أسرار الله الأكثر سموّاً ليستطيع حمايتها والدفاع عنها ضدّ الشِّراك البشريّة أو الشيطانيّة. وقد كان كلّ هذا فرصة له للتجدّد. لقد جَعَلَت مِن البارّ قدّيساً، ومِن القدّيس حارساً لعروسة الله وابنه.

دون رفع خاتم الله، وهو العفيف الذي يحمل الآن عفّته إلى البطولة الملائكيّة، استطاع قراءة الكلمة الناريّة المكتوبة على الماسة البتوليّة بإصبع الله، وقرأ عليها ما لم يُفصَح عنه لفطنته، إلاّ أنّه أعظم كثيراً مما قرأه موسى على الألواح الحجريّة. ولكي لا تَبتَذِل عين دنيويّة السرّ، وَضَعَ نفسه خاتماً على الخاتم، رئيس ملائكة على عتبة الفردوس الذي يجد فيه الأزليّ متعته "متمشّياً مع نسمة المساء"، ومتّحدثاً إلى التي هي حُبّه، غابة الزنبق المُزهِر، النسمة المعطّرة بالأريج، النسمة الصباحيّة النديّة، النجمة البهيّة، متعة الله. حوّاء الجديدة موجودة هنا أمامه، هي ليست عظماً مِن عظامه، ولا لحماً مِن لحمه، ولكنّها شريكة حياته، تابوت عهد الله الحيّ الذي تولّى الوصاية عليه، والذي يتوجّب عليه إعادته إلى الله فيما بعد طاهراً كما استَلَمَه.

"عروسة الله". هكذا كان مكتوباً في هذا الكتاب السرّيّ في الصفحات غير المدنَّسَة... وعندما عَصَفَ له الشكّ بالاختبار بآلامه المبرّحة، كرجل، وكخادم لله، تألّم كإنسان في العالم، لانتهاك القدسيّات بالشكّ. إنّما هذا كان اختبار المستقبل. أمّا في الوقت الحاضر، في زمن النعمة، فإنّه يَرى ويضع نفسه في الخدمة الحقيقيّة لله. إنّما بعدئذ ستأتي عاصفة الاختبار، كما لكلّ القدّيسين، ليجتازوا الامتحان ويُصبِحوا معاوني الله.

ماذا جاء في سفر الأحبار؟ "مُرْ هارون أخاكَ بأن لا يَدخُل القُدس في كلّ وقت، إلى داخل الحجاب، إلى أمام الغشاء الذي يغطّي تابوت العهد، لكيلا يموت، لأنّي متجلٍّ في الغمام فوق الغشاء، قُل له ألّا يدخل قبل أن يقوم بهذه الأفعال: يُقدِّم عجلاً مِن البقر كذبيحة عن الخطايا، وكبشاً للمحرقة، ويعود ليلبس قميصاً مِن الكتّان، وبالسراويل الكتّانية سيستر عريه."

بالحقيقة، يَدخُل يوسف، عندما يريد الله، وبالقدر الذي يريده، إلى قدس أقداس الله، وراء الحجاب الذي يغطّي تابوت العهد الذي يرفرف فوقه روح الله، ويُقدّم نفسه، وسيُقدّم الحمل محرقة عن خطيئة العالم وكفّارة عن هذه الخطيئة. ويقوم بهذا وهو يرتدي الكتّان على جسده الذي أماته بنذره ليُبطِل الغرائز التي انتصرت يوماً في بداية الزمان، مُخلّة بأوامر الله للإنسان، وستُداس الآن في

الابن وفي الأُمّ وفي الأب الوهميّ، ليعيد الناس إلى النعمة، وليعود لله حقّه على الإنسان. لقد فَعَلَ ذلك بعفّته الدائمة.

ألم يكن يوسف في الجلجلة؟ أيبدو لكم أنّه لم يكن بين المشاركين في عمليّة الفداء؟ الحقّ أقول لكم إنّه كان أوّل الموجودين، لذلك فهو عظيم في عينيّ الله. عظيم بالتضحية والصبر والثبات والإيمان. وأيّ إيمان أعظم مِن إيمان الذي آمَنَ دون أن يرى معجزات ماسيا؟

كلّ التقريظ (الثناء) لأبي الوهميّ، المَثَل الأعلى لكم لما ينقصكم على الأغلب: الطهارة والإخلاص، والحبّ الكامل. للذي قَرَأَ بشكل رائع الكتاب المختوم، مُتثقِّفاً بالحكمة ليعرف كيفيّة إدراك أسرار النعمة. ذاك الذي اختاره الله ليحمي خلاص العالم ضدّ مكائد كلّ الأعداء.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

22- (العروسان يَصِلان إلى الناصرة)

06 / 09 / 1944

تمتدّ سماء شهر شباط (فبراير) الدافئ والأكثر زُرقة على روابي الجليل. الروابي اللطيفة التي لم أرها أبداً في مرحلة طفولة العذراء بدت وكأنّ المشهد كان مألوفاً بالنسبة لي، كما لو كنتُ قد وُلِدتُ فيها.

الطريق الرئيسيّة المبلّلة بفعل أمطار سبق هطولها، ربّما تكون قد هطلت في الليلة السابقة، ليست موحلة ولا مغبرّة. إنّها منتظمة ونظيفة كما لو كانت شارعاً في مدينة، وهي تمتدّ بين سياجين مِن الزعرور المُزهِر. إنّها مثل سطح ثلجيّ يضوع منها عطر المرّ والخشب، مُقطّعة بحسب مجموعات كبيرة مِن الصبّار ذات الأوراق الضخمة والمسطّحة، بأشواكها المنتَصِبة، ومزيّنة بمجموعة كبيرة مِن الثمّار غير المألوفة التي نبتت بشكل عشوائيّ على أطراف الأوراق. شكلها ولونها يوحيان إليّ بأعماق البحار بكلّ ما فيها مِن مدخات (شِعاب مرجانية) وقناديل بحر وحيوانات أخرى مِن الأعماق المائيّة.

فيما بعد الأسيجة -التي تقوم مقام الحدود للمُلكيّات، والتي تمتدّ في كلّ الاتّجاهات، مُشكّلة رسوماً هندسيّة غريبة، منحنيات وزوايا، متوازيات أضلاع ومعيّنات ومربعات وأنصاف دوائر ومثلّثات حادّة أو منفرجة الزاوية غير معقولة، إنّه رسم موشّى كلّه بالأبيض كشريطة متبدّلة مُدّت هكذا، للمتعة، على طول الحقول، وعليها يطير مئات العصافير مِن كلّ نوع، وتزقزق وتَصدح بفرح الحبّ وبناء الأعشاش- وبعد الأسيجة تأتي الحقول مع القمح والعشب، وهو الآن أطول مِن القمح في جبل يهوذا والمروج المُزهِرة، وعليها -بالتجاوب مع غيوم السماء الخفيفة التي يضفي

عليها الغَسَق صبغات مِن الزهر والليلك الفاتح، والبنفسج والدفلة، وعين الهرّ اللازورديّ والمرجان البرتقاليّ– مئات ومئات مِن سُحُب الأشجار المثمّرة: بيضاء وحمراء مع كلّ الدرجات البَينيّة.

مع نسيم المساء الخفيف، ترفرف وتقع طلائع بتلات الأشجار المُزهِرة، وكأنّها أسراب مِن الفراشات أثناء البحث عن غبار الطلع على أزهار القرية. ومِن شجرة إلى أخرى ضفائر كرمة عارية إلاّ مِن قِمَمها حيث تلفح الشمس أكثر، إنّه التفتّح البريء، المندهش، الخافق للوريقات الأولى.

تنام الشمس مطمئنّة في السماء العذبة بزرقتها التي يجعلها النور أكثر إشراقاً، كما يجعل ثلج حرمون والقمم البعيدة الأخرى تلمع مِن البعيد.

عربة تسير على الطريق. إنّها هي التي تحمل يوسف ومريم مع الأنسباء. انتهت الرحلة.

تنظر مريم نظرة متلهّفة تَروم بها معرفة، بل التحقّق مِن كلّ ما تراه ولا تتذكّره، وتبتسم عندما تعود إحدى الذكريات غير المحددة وتتوقّف عند هذه أو تلك مِن الأشياء، عند نقطة معيّنة، أليصابات ومعها زكريّا ويوسف يساعدونها على التذكّر بتحديد هذه القمّة أو تلك، هذه الدار أو تلك. مِن هنا تبدأ البيوت، فالناصرة تَظهَر الآن ممتدّة على سفح الرابية.

المدينة التي لَفَحَتها شمس المغيب مِن جهة اليسار، تَظهَر بيوتها الصغيرة البيضاء واسعة ومنخفضة، تعلوها سطوح ملوّنة بالورديّ. بعضها، التي تلفحها الشمس بالكامل، تبدو مضاءة وكأنّه الحريق، وذلك لاحمرار الواجهة بسبب الشمس التي تجعل المياه تلمع، مياه القنوات والآبار المنخفضة غير المسوّرة، والتي تَخرُج منها الدِّلاء للمنازل والمِرشّات للمَبقَلة.

يقف الأطفال والنساء على قارعة الطريق، يَنظرون إلى العربة ويحيّون يوسف الذي يعرفه الجميع. ولكنّهم يبقون بعدها في نوع مِن الخشوع والرهبة أمام الثلاثة الآخرين.

لدى دخولهم فعليّاً إلى المدينة، لم تعد هناك حيرة ولا خوف. كثيرون مِن كلّ الأعمار يتواجدون عند أوّل البلدة تحت قوس ريفيّ مِن الزهور والأوراق، ولم تَكَد العربة تَظهَر مِن خلف منعطف آخر منزل ريفيّ شذَّ عن الصف، حتّى عَلَت كرة مِن الهتاف الحادّ؛ الناس يهزّون السعف والباقات. إنّهم نساء وشابّات وأطفال الناصرة يحيّون العروسة. أمّا الرجال فيقفون برزانة أكثر خلف السياج المهتزّ والضاجّ، ويحيّون برصانة ووقار.

تُكشَف العربة قبل الوصول إلى البلدة، فالشمس لم تعد مزعجة، وهكذا يتاح لمريم أن ترى جيّداً مسقط رأسها. تبدو مريم جميلة مثل زهرة، بيضاء وشقراء مثل ملاك، تبتسم بطيبة للأطفال الذين يرشقونها بالزهور ويُرسِلون لها القبلات، وللفتيات مِن عمرها اللواتي ينادينها باسمها، كذلك للعروسات والأُمّهات والعجائز اللواتي يباركنها بأصواتهنّ المُنشِدة. ثمّ تنحني أمام الرجال، خاصّة أمام أحدهم الذي ربّما كان الحاخام أو الشخصيّة الرئيسيّة في البلدة.

تتقدّم العربة بتمهّل على الطريق الرئيسيّة، يتبعها قسم كبير مِن الحشد الذين اعتبَروا هذا القدوم بالنسبة لهم حَدَثاً.

«ها هو منزلكِ يا مريم» يقولها يوسف مشيراً بالسوط إلى منزل صغير موجود تماماً في أسفل سفح هضبة، وله مِن الخلف حديقة جميلة واسعة، مليئة بالزهور، وتنتهي بشجرة زيتون صغيرة. وأبعد مِن ذلك قليلاً السياج المعتاد مِن الزعرور والدفل الذي يُعَيّن حدود الملكية.

يقول زكريا: «الحقول التي كانت يوماً ليواكيم أكبر مِن ذلك، وقد بقي لكِ منها القليل فقط لأنّ مرض والدكِ كان طويلاً ومُكلفاً، وكذلك مصاريف الإصلاحات كثيرة التكاليف، وآخرها ما أُتلِفَ مِن قِبَل روما. أرأيتِ الطريق وقد طُمِسَت معالم الملحقات الثلاث الأساسيّات، وكذلك المنزل وقد صَغر؟ ولتوسيعه دون تحمّل تكاليف باهظة استخدمنا جزءاً مِن الهضبة، حُفِرَت كمغارة كان يواكيم يحفظ فيها مؤونته، وحنّة تضع فيها مصنوعاتها. أمّا أنتِ فستتصرّفين حسب ما ترينه مناسباً.»

«آه! وإن يكن صغيراً، لا يهمّ! هذا يكفيني دائماً. سوف أعمل...»

يُجيب يوسف: «لا يا مريم، فأنا مَن سيعمل، أمّا أنتِ فلن تقومي سوى بأعمال البيت مِن غسيل وخياطة. إنّني شاب وقويّ، وأنا زوجكِ. فلا تذلّيني بعملكِ.»

«سأفعل ما تريد.»

«نعم، في هذا الموضوع، هذه هي إرادتي. أمّا في باقي الأمور فرغباتكِ ستكون قانوناً، ولكن ليس في هذا الأمر بالذات.»

يَصِلُون، تتوقّف العربة.

كان رجلان وامرأتان بكلّ وقار، وهما بين الأربعين والخمسين مِن العمر، قُرب الباب مع عدد كبير مِن الأطفال والشباب.

«ليمنحكِ الله السلام يا مريم» يقولها الرجل الأكبر سنّاً، وتدنو امرأة مِن مريم تعانقها وتقبّلها.

يقول يوسف: «هذا أخي حلفا، وهذه مريم زوجته، وهؤلاء أولادهما، وقد جاءوا خصّيصاً للاحتفال بكِ، وليقولوا لكِ إنّ منزلهم هو منزلكِ لو أردتِ.»

تقول مريم زوجة حلفا: «نعم، تعالي يا مريم، إذا كان العيش وحيدة يضنيكِ. الريف جميل في الربيع، ومنزلنا وسط الحقول المُزهِرة. وستكونين أنتِ فيه أجمل زهرة.»

«أشكركِ يا مريم. سوف آتي بكلّ سرور بين الحين والحين، دون الإساءة لعرف الزواج. ولكنّني أرغب كثيراً رؤية واستكشاف منزلي. كنتُ صغيرة جدّاً عندما غادرتُه، وقد نسيتُ ملامحه... أمّا الآن وقد وجدتُه... فيبدو لي أنّي ألاقي أُمّي التي أضعتُها، وأبي المحبوب، أُلاقي

صدى كلماتهما... وعطر آخر تنهيدة لهما. يبدو أنّي لم أعد يتيمة، لأنّني أمتلك حولي عناق الجدران... افهميني يا مريم.» وهنا يَفضَح صوت مريم تأثّرها، وتتلألأ الدموع على أهدابها.

تُجيب مريم التي لحلفا: «كما تريدين يا حبيبتي. ولكنّي أريدكِ أن تحسّي بي كأخت لكِ وصديقة وكأمّ لكِ إلى حد ما، فأنا أكبر منكِ سنّاً.»

تقترب المرأة الأخرى: «أحيّيكِ يا مريم. أنا سارة صديقة أُمّكِ، ولقد حَضَرتُ ساعة ولادتكِ. وهذا هو حلفا، ابني الصغير حلفا، وهو الصديق الأكبر لأمّكِ. وما كنتُ أفعله لأُمّكِ سأفعله لكِ لو أردتِ. أترين؟ إنّ بيتي هو الأقرب إلى بيتكِ، وحقولكِ هي الآن لنا. ولكن لو أردتِ المجيء فتستطيعين ذلك في أيّة ساعة تشائين، وسنجعل لذلك ممراً في السياج فنكون معاً مع بقائنا كلّ في بيته. وهذا هو زوجي.»

«أشكركم جميعاً وعلى كلّ شيء، مِن أجل كلّ صنيع أردتم أن تُسدوه لأهلي وتريدون أن تُسدوه لي. فليبارككم الله الكلّي القدرة.»

أُنزِلَت الصناديق الثقيلة وأُدخِلَت إلى البيت. يَدخُلون، وأتعرَّف على بيت الناصرة الصغير كما هو فيما بعد أثناء حياة يسوع.

يأخذ يوسف مريم مِن يدها –حركة طبيعيّة واعتياديّة– ويَدخُلان هكذا. وعند العتبة يقول لها: «والآن، على هذه العتبة أريد منكِ وعداً: أيّ شيء يعترضكِ أو يحصل لكِ فلا يكن لكِ صديق آخر أو مُساعِد تلتجئين إليه إلّا يوسف. وكذلك ألّا تُخفي ألمكِ لأيّ سبب مِن الأسباب. أنا بِكُلّيتي تحت تصرّفكِ، تذكّري هذا، وهنا سيكمن فرحي في أن أجعل دربكِ سعادة، وبما أنّ السعادة ليست دائماً في متناول يدنا، فعلى الأقلّ أن أجعلها لكِ هادئة وأمينة.»

«أعدكَ بذلك يا يوسف.»

وتُفتَح الأبواب والنوافذ لتدخل الشمس المائلة للغروب بفضول.

تَخلَع مريم الآن المعطف والوشاح، ذلك أنّها ما تزال بثوب العرس ماعدا زهور الآس. ثمّ تَخرُج إلى الحديقة المُزهِرة. تنظر وتبتسم، ويدها ما تزال في يد يوسف، تدور حول الحديقة. تبدو وكأنّها استعادت ملكيّة مكان فَقَدَتهُ سابقاً.

يدلّها يوسف على أعماله: «أترين؟ هنا حَفَرتُ هذه الحفرة لتجميع مياه المطر، لأنّ الكروم عطشى دائماً. أمّا شجرة الزيتون هذه، فقد قصصتُ أغصانها القديمة لتنتعش. وزَرَعتُ أشجار التفّاح هذه لأنّ اثنتين كانتا قد ماتتا، وهنا زَرَعتُ أشجار التين، فهذه عندما ستنمو سوف تحمي المنزل مِن حرقة الشمس ومِن النظرات الفضوليّة. هنا العريشة القديمة، وقد بدّلتُ فقط الحوامل المهترئة، كما أَعمَلتُ المقصّ في الكروم، سوف تعطي الكثير مِن العنب، هذا ما أتمنّاه. وهنا، انظري» ويقودها مفتخراً إلى المنحدر خلف المنزل، وهو حدود الحديقة، «وهنا حَفَرتُ مغارة صغيرة ودَعَّمتُها، وعندما ينمو هذه الزرع الصغير، ستصبح بحجم تلك التي كانت لكِ سابقاً تقريباً. إلاّ أنه لم يعد هناك نبع... ولكنّي سأعمل على جلب سلسال ماء. وسأعمل في ليالي الصيف الطويلة عندما سآتي لرؤيتكِ.»

فيقول حلفا: «ولكن كيف؟ ألن تتزوجا هذا الصيف؟»

«لا، فمريم ترغب في إخاطة الأغطية الصوفيّة، الشيء الوحيد الذي يفتقده الجهاز. وأنا سعيد. فمريم ما تزال شابّة، ولا يهمّ إن انتظرتُ سنة أو أكثر. وأثناء ذلك ستتعوّد على المنزل...»

«آه! كنتَ دائماً مختلفاً عن الآخرين، وما زلتَ إلى الآن. أتساءل إذا ما كان هناك مَن هو على غير عَجَل لتصبح زهرة مثل مريم زوجة له، وأنتَ تنتظر أشهراً!...»

فيجيب يوسف بابتسامة عذبة: «كلّما طال انتظار الفرحة جاء طعمها أحلى وألذ.»

يرفع الأخ كتفيه ويسأل: «متى تفكّر بالزفاف؟»

«عندما تبلغ مريم السادسة عشرة. بعد عيد المظالّ. وستكون أمسيات الشتاء أعذب بالنسبة لعروسين جديدين!...»

ويبتسم ثانية وهو ينظر إلى مريم نظرة انتظار سرّي مليئة عذوبة وعفّة أخويّة لطيفة. ثمّ يتابع: «ها هنا الغرفة، داخل الأَكَمَة. إذا رغبتِ فسأجعلها مَشغَلي عندما آتي، فهي متّصلة بالمنزل، ولكنّها ليست داخله، وهكذا لن يكون هناك ضجّة ولا فوضى. أمّا إذا كنتِ مع ذلك تريدين غير هذا...»

«لا يا يوسف، هكذا سيكون جيّداً جدّاً.»

يَدخُلان إلى المنزل ويُنيران المصابيح.

يقول يوسف: «مريم تَعِبة، فلندعها ترتاح مع الأنسباء.»

يحيّي الجميع وينصرفون. يبقى يوسف لبضع دقائق أخرى، يتحدّث إلى زكريّا بصوت منخفض.

«سوف يدع نسيبكِ أليصابات عندكِ لبعض الوقت، أمسرورة أنتِ؟ أنا مسرور لأنّها ستعينكِ كي... تصبحي ربّة منزل عظيمة. معها سوف تنظّمين كلّ شيء حسب ذوقكِ وترتبين الموبيليا، وسوف آتي كلّ مساء لمساعدتكِ. معها ستستطيعين تأمين الصوف وكلّ ما يلزم، وأنا مَن سيتولّى أمر المصاريف. تذكّري أنكِ وعدتِ أن تلتجئي إليّ في كلّ شيء. إلى اللقاء يا مريم. نامي أوّل ليلة كامرأة في هذا البيت الذي هو بيتكِ، وليجعله لكِ ملاك الله هادئاً. وليكن الرب معكِ على الدوام.»

«إلى اللقاء يا يوسف، فلتكن أنتَ أيضاً تحت جناح ملاك الله. شكراً يا يوسف على كلّ شيء. بقدر استطاعتي، سوف أجعل حبّي متجاوباً مع حبّكَ.»

يحيّي يوسف الأنسباء ويَخرُج. وفي الوقت ذاته تنتهي الرؤيا.

يقول يسوع:

انتهت الدورة (فترة ما قبل البِشارة)، وقد حملكِ يسوعكِ بهدوء وبكلّ العذوبة والطلاوة خارج صخب هذه الأيّام. وكطفل صغير يلبس الصوف الناعم وهو موضوع على وسادات وثيرة، غصتِ في هذه الرؤى السعيدة كي لا تشعري وأنتِ مروَّعة بوحشيّة الناس الذين يتباغضون بدل أن يتحابّوا. لم تكوني لتستطيعي تحمّل أشياء كثيرة، ولا أريد أن تموتي لأنّني أهتم بـ «الناطقة بلساني». سوف يزول مِن العالم السبب الذي مِن أجله تتعذب الضحايا بكلّ اليأس. وبالنسبة لكِ أيضاً، يا ماريا، سينتهي زمن الألم المُريع. لأسباب كثيرة تنتهك أحاسيسكِ الشخصية. لن تتوقّفي عن الألم: أنتِ ضحيّة. ولكنّ جزءاً مِن آلمكِ سيتوقّف. وبعدها سيأتي اليوم الذي أقول فيه كما قلتُ لمريم المجدليّة ساعة موتها: "استريحي، حان وقت استراحتكِ. أعطني أشواككِ. لقد حان وقت الورود. استريحي وانتظري. أباركِكِ يا مباركة."

قلتُ لكِ ذلك، وكان وعداً مني، ولم تدركيه عندما حان الوقت الذي تغوصين فيه، تتدحرجين، مكبّلة، مغطّاة بالأشواك في أعمق الظُّلُمات... أكرّر لكِ ذلك الآن بفرح لا يختبره إلاّ الحبّ الذي هو أنا عندما أريد أن أوقف الألم عن المحبوبة. هذا ما أقوله لكِ الآن: زمن التضحية انتهى. وأنا الذي أعرف أقول لكِ مِن أجل العالم الذي لا يعرف، لأجل إيطاليا وفياريجيو، لأجل هذه البلدة الصغيرة التي جَلَبتِ لي فيها -تأمّلي معنى هذه الكلّمات- الشكر المخصّص للمحرقات مِن أجل تضحياتهم. عندما أريتكِ سيسيليا الزوجة البتول قلتُ لكِ إنّها مشرّبة بعطوري التي جَذَبَت بروائحها الزوج والصهر والخدّام والأهل والأصدقاء. وأنتِ قد فعلتِ ذلك دون أن تعلمي، ولكنّني أقول لكِ، أنا الذي أعرف، عن دور سيسيليا في هذا العالم الذي أصبَحَ مجنوناً. أنتِ ممتلئة مني، مِن كلمتي؛ لقد حملتِ رغباتي وسط الناس، والأفضل منهم أدركوا، وبعدكِ، أيّتها الضحيّة، كثيرون، كثيرون خرَجوا، وإذا لم يُدمَّر

وطنكِ بأكمله، والأمكنة المفضّلة والمحبوبة لديكِ، فذلك لأن كثيراً مِن القرابين قُدِّمَت بعد مَثَلكِ ونشاطكِ. شكراً أيّتها المُبارَكة. إنّما استمرّي أيضاً. فأنا في أمسّ الحاجة لأنقذ الأرض، لأفتديها. وأنتنّ أيتها الضحايا، ثمّن هذا الافتداء.

الحكمة التي تُثقّف القدّيسين وتُثقّفكِ بتعليم مباشر، ترفعكِ دائماً أكثر إلى مستوى إدراك عِلم الحياة وممارستها. فانصبي أنتِ أيضاً خيمتكِ قرب بيت الرب. اغرسي أوتاد خيمتكِ في مقر الحكمة وابقي فيها ولا تَخرُجي. سترتاحين تحت حماية الرب الذي يحبكِ كعصفور وسط الأغصان المُزهِرة، وسيجعلكِ في مأمن مِن كلّ سوء الأحوال الروحية، وستكونين في نور مجد الله مِن حيث ستهبط إليكِ كلمات السلام والحقيقة. اذهبي بسلام. أباركِكِ يا مباركة.»

وبعد ذلك مباشرة تقول مريم:

«إلى ماري هديّة الأُمّ في عيدها. سلسلة هدايا. وإن كان بينها بعض الأشواك، لا تتذمّري مِن الربّ الذي أحبّكِ كما أَحَبَّ القليلين جدّاً. قلتُ لكِ في البداية: "اكتبي عني. وكلّ ألم سيلقى سَلواه." ووجدتِ أن هذا حقيقي. هذه الهدية كانت محفوظة لكِ لزمن الاضطرابات هذا. فنحن لا نهتم فقط بالروح، ولكننا نعرف أن نعير اهتماماً للمادة التي ليست أبداً مالِكة، بل خادمة مفيدة للروح لتتيح له انجاز رسالته. كوني عارفة لجميل الباري تعالى، الذي هو بالنسبة لكِ بالحقيقة أب حقّ بالمعنى البشريّ الوَدود، والذي يهدهدكِ بانخطافات عذبة، ليزيل عنكِ ما سوف يُروّعكِ. أحبّيني دائماً أكثر، لقد حملتكِ معي في سرّ سنواتي الأولى. الآن تعرفين كلّ شيء عن الـ "ماما". أحِبّيني كابنة وكأخت لكِ في مصيركِ كضحيّة. وأحِبّي الله الآب، الله الابن، والله الروح القدس في كمال الحب. ولتمر عبر يديّ بركة الآب والابن والروح القدس، ولتأخذ عطر حبي لكِ، حب الأمّ، ولتنزل وتستقر عليكِ. كوني سعيدة بشكل فائق الطبيعة.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

23- (البِشـــــارة)

1944 / 03 / 08

هذا ما أراه: مريم شابّة صغيرة مُراهِقة –مظهرها يدلّ على أنّها لم تتجاوز الخامسة عشرة– في غرفة صغيرة مستطيلة، غرفة مناسبة بحقّ لصبيّة.

إلى جانب الجدار الأطول يوجد السرير: مَرقَد منخفض دون جوانب، مغطّى بحُصُر أو سجّاد، وكأنّها ممدودة على طاولة أو حصيرة قَصَب. إنّها بالحقيقة متصلّبة ولا تُشكّل انحناءات كما يحصل على أسِرّتنا. وعلى الجدار الآخر رفّ، عليه مصباح زيت ولفافات رقّ وأعمال خياطة مطويّة بعناية وكأنّها تطريز. وإلى الجانب، مِن جهة الباب المفتوح على الحديقة والمغطّى بستار يحرّكه هواء خفيف، تجلس العذراء على كرسيّ صغير.

إنّها تَغزل كتّاناً ناصع البياض وناعماً كالحرير. ويداها الصغيرتان الأقلّ بياضاً قليلاً مِن الكتّان تُديران المِغزَل برشاقة. والوجه الصغير الفتي جميل جدّاً، بهيّ بانحناءته الخفيفة وابتسامته الرقيقة كما لو كانت تُداعِب أو تتبع فكرة عذبة.

صمت عميق في البيت الصغير والحديقة. سلام عميق على وجه مريم كما في محيطها. سلام وترتيب. كلّ شيء نظيف ومرتّب والجوّ العامّ متواضع في مَظهَره وفي الأثاث، تماماً كما في صومعة، مع شيء مِن التقشّف، ولكنّه بنفس الوقت ملوكيّ بسبب الصفاء والعناية التي بها رُتِّبت الأقمشة على السرير، واللفافات والمصباح وإناء النحاس الصغير قرب المصباح، والحاوي حُزمة مِن الأغصان المُزهِرة، أغصان درّاق أَمْ إجاص، لستُ أدري، ولكنّها بالتأكيد أغصان أشجار مثمّرة ذات أزهار تميل قليلاً إلى اللون الزهريّ.

مريم تُنشِد بصوت منخفض، ثمّ تَرفَع الصوت قليلاً. ليس ذاك الإنشاد العظيم، ولكنّه صوت يتردّد في الغرفة الصغيرة حيث يحسّ المرء وكأنّ نَفْسها ترتعش. لا أفهم الكلام، فهو بالتأكيد كلام عبريّ. ولكن بما أنّها تُردّد كثيراً «يهوه» أدركتُ أنّه ربما مِن التراتيل المقدّسة أو قد يكون مزموراً. وقد تكون مريم تتذكّر تراتيل الهيكل، وقد تكون الذكرى عذبة، ذلك أنّها تضع يديها اللتين تحمل بهما الخيط والمِغزَل على صدرها وترفع رأسها وتسنده مِن الخلف إلى الجدار؛ وجهها يشعّ بألوان حيّة، وعيناها تائهتان مع فكرة عذبة لستُ أدري ما هي، وقد أصبَحَتا أكثر إشعاعاً ببكاء مكبوت، لكنّه يجعلهما تبدوان أكبر. ومع ذلك، فعيناها تضحكان وتبتسمان لفكرة تتبعها فتعزلها عن محيطها. يَبرز وجه مريم مِن الثوب الأبيض البسيط جدّاً والمورّد، وقد خِيط بضفائر كأنّها التاج حول رأسها، حتّى لتحسبها زهرة جميلة.

تستَبدِل النشيد بصلاة: «أيّها الربّ السامي، لا تتأخّر في إرسال خادمكَ يحمل السلام إلى الأرض. أَوجِد الزمن المناسب والعذراء الطاهرة والمخصبة لمجيء مسيحكَ. أيّها الآب القدّوس، هَب خادمتكَ أن تَهِب حياتها لهذا الهدف. هبني ألّا أموت قبل أن أرى نوركَ وعدلكَ على الأرض، وأن أرى الفداء محقّقاً. أيّها الآب القدّوس أَرسِل إلى الأرض مَن جَعَلَ الأنبياء يتأوّهون، أَرسِل إلى خادمتكَ الفادي. هَب لي ساعة انتهاء يومي أن يُفتَح لي مكان إقامتكَ، فإنّ أبوابه ستكون قد فُتِحَت بواسطة مسيحكَ لكلّ الذين يرجونكَ. تعال، تعال يا روح الربّ، تعال إلى المؤمنين الذين ينتظرونكَ. تعال يا أمير السلام!...» وتبقى هكذا لا تعي لنفسها.

يتحرّك الستار بقوّة أكبر كما لو أنّ أحداً مِن الخارج يُحدِث تيّار هواء أو يهزّه ليُبعِده. ويَلِج نور أبيض وكأنّه مِن اللآلئ أو مِن الفضّة الصّرف يجعل الجدران المائلة إلى الاصفرار أكثر إشراقاً، ويجعل ألوان الأقمشة أكثر حيويّة، ويجعل وجه مريم المرتفع أكثر روحانيّة. في قلب هذا النور، ودون أن تَكشف السجّادة عن السرّ الذي يتمّ –حتّى إنّها لم تعد تهتزّ، بل تدلّت جامدة على الدعامات، وكأنّها جدار يَعزل الداخل عن الخارج– في قلب هذا النور يَظهَر رئيس الملائكة جاثياً.

بكلّ تأكيد، كان لا بدّ مِن أن يتَّخِذ مظهراً بشريّاً، ولكنّ مظهره هذا يفوق الشكل البشريّ. مِن أيّ نوع مِن الأجساد تشكَّلَ هذا الوجه البهيّ الساطع؟ ما جوهر المادّة التي صَنَعَهُ الله منها ليجعل أحاسيس العذراء تُدرِكه؟ وحده الله يمتلك جواهر المواد هذه ويستخدمها بشكل تامّ. إنّه وجه، جسم، عيون، فم، شعر، ويدان كالتي لنا، ولكنّه ليس مِن مادّتنا الكامدة غير النفوذة. إنّه نور أَخَذَ لون الجسد والعيون والشعر والشفاه، نور يتحرّك ويضحك ويَنظُر ويتكلّم.

«السلام لكِ يا مريم، يا ممتلئة نعمة، السلام لكِ!» صوت يتمتّع بانسجام عذب مثل اللآلئ التي تتساقط على معدن ثمّين.

ترتعش مريم وتَخفض عينيها، ترتعش أكثر عندما ترى هذا المخلوق النورانيّ جاثياً على بُعد متر منها تقريباً، ذراعاه متصالبتان على صدره ويَنظُر إليها باحترام لا متناه.

تنتَصِب مريم واقفة وتلتصق بالجدار. يشحب لونها، ثمّ يعلوها احمرار. وجهها يُعبِّر عن دهشة وذهول. تضمّ يديها بشكل لا شعوريّ إلى صدرها وتخبّئهما في كمّيها الطويلين. تنحني قليلاً لتُخفي ما أمكنها مِن جسدها. عادة حياء حلو.

«لا. لا تخافي فالربّ معكِ! أنتِ مباركة بين كلّ النساء.»

ويستمرّ خوف مريم. فَمِن أين أتى هذا غير العاديّ؟ هل هو مُرسَل مِن قِبَل الله أم مِن قِبَل الشيطان المُخادِع؟

«لا تخافي يا مريم!» يُكرّرها رئيس الملائكة. «أنا جبرائيل ملاك الله. وقد أرسَلَني الله لكِ. لا تخافي فقد نلتِ نعمة لدى الله، وها أنتِ تحبلين وتلدين ابناً وتسمّينه يسوع. هذا سيكون عظيماً وابن العلي يُدعى، سيكون كذلك بحقّ، وسيعطيه الربّ الإله عرش داود أبيه ويملك إلى الأبد على آل يعقوب، ولن يكون لِمُلكه انقضاء. أَدرِكي أيّتها العذراء القدّيسة، محبوبة الربّ وابنته المباركة، والمدعوّة لتكوني أُمّ ابنه، أيّ ابن ستُنجِبين.»

«كيف سيكون هذا وأنا لا أَعرِف رجلاً؟ هل رَفَضَ الربّ الإله تقدمة خادمته، ولا يريدني أن أبقى عذراء مُحبَّة به؟»

«لا، لن يكون بفعل بَشَر أن تصبحي أُمّاً يا مريم. فأنتِ العذراء الأزليّة، قدّيسة الله. والروح القدس يحلّ عليكِ وقوّة العليّ تظلّلكِ. لذلك فالمولود منكِ يُدعى القدّوس، قدّوس هو وابن الله. وكلّ شيء مستطاع لدى الربّ إلهنا. وها إنّ أليصابات العاقر قد حَمَلَت في شيخوختها بابن سيكون النبيّ الذي يهيّئ الطريق لابنكِ. فالربّ قد مَسَحَ عنها العار، وذِكرها يدوم بين الأمم مرتبطاً باسمكِ مثل ارتباط اسم خليقته بقدّوسكِ، وحتّى نهاية الدهور تطوّبكما جميع الأمم بسبب حلول نعمة الربّ عليكما، وعليكِ أنتِ بشكل خاصّ، وقد حَلَّت على الأمم بواسطتكِ. أليصابات هي الآن في شهرها السادس، وحَملها يثير فرحها، وسيثيره أكثر عندما تَعلَم ببهجتكِ أنتِ.. لا شيء غير مستطاع لدى الله يا مريم الممتلئة نعمة. ماذا ينبغي لي أن أقول لربّي؟ لا تَضطَّرِبي لأيّة فكرة. الربّ يسهر على مصالحكِ إذا وثقتِ به. والعالَم والسماء والأزليّ ينتظرون كلمتكِ!»

تقول مريم، وهي الآن بدورها، ذراعاها متصالبتان على صدرها وقد انحنت انحناءة كبيرة:
«ها أنا ذا أَمَة للربّ، وليكن لي بحسب قولكَ.»

يشعّ الملاك فَرَحاً. يَخشَع لأنّه بالتأكيد يرى روح الله نازلاً على العذراء المنحنية في قبولها. ثمّ يختفي دون تحريك السجّادة الستارة التي يتركها مُنسَدِلة على السرّ المقدّس.

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

24- (مَعصية حواء الأولى)

1944 / 03 / 05

يقول يسوع:

ألم يُكتَب في سفر التكوين إنّ الله قد مَنَحَ الإنسان السيادة على كلّ شيء ما عدا الله وملائكته؟ ألم يُكتَب فيه بأنّه خَلَقَ المرأة لتكون شريكة الرجل تُقاسِمهُ فرحه والسيطرة على الكائنات الحيّة؟ ألم يُكتَب فيه أنّهما كانا يستطيعان أن يأكلا مِن كلّ ما في الجنّة ما عدا شجرة معرفة الخير والشرّ؟ هل سألتم أنفسكم عن هذا، أنتم يا مَن تَلهَثون وراء أمور كثيرة تافهة ولا تعرفون أن تسألوا أنفسكم عن الحقائق السماويّة؟

لو كانت نفسكم نشيطة، كنتم ستقولون إنّها عندما تكون في حالة النعمة، فهي كالزهرة بين يدي ملاككم، عندما تكونون في حالة النعمة، فهي تُشبه زهرة تتلقّى قبلة الشمس، منتعشة بالندى بفعل الروح القدس الذي يدفئها وينيرها، ويسقيها ويجمّلها بالأنوار السماويّة. كَم مِن الحقائق تخبركم عنها نفسكم لو كنتم تُجيدون الحوار معها؟ لو كنتم تحبّونها كما يحبّها الذي يمنحكم الشبه مع الله، والذي هو الروح بما أنّ نَفْسكم هي روح. أيّة صديقة عظيمة تجدون في أنفسكم لو أحببتموها بدل خيانتها حتّى القتل؟ أيّة صديقة عظيمة وسَنيّة، كنتم ستستطيعون محادثتها عن الأمور السماويّة، أنتم يا مَن تتوقون إلى الكلام وتُفسِدون الواحد الآخر بصداقاتكم. هذه الصداقات، إن لم تكن شائنة -وهذا ما يحدث أحياناً- فهي تكون تقريباً دائماً غير ذات جدوى، ولا تعطي الفرصة للتعبير عن ذاتها إلّا بسيل مِن الكلمات الباطلة والضارّة، والدنيويّة على الدوام.

ألم أقل: "مَن يحبّني يحفظ كلامي، وأبي يحبّه، وإليه نأتي، وعنده نجعل مقامنا؟" النَّفْس في حالة النعمة تمتلك الحبّ، وبامتلاكها الحبّ تمتلك الله، أي الآب الذي يحفظها، والابن الذي

يسوسها، والروح الذي ينيرها. حينئذ تمتلك المعرفة والعِلم والحكمة. تمتلك النور. فكّروا إذاً، أيّة مُحاورات رائعة تستطيع ربط نفسكم بكم؟ إنّها هي، تلك المحاورات التي مَلَأَت سكون السجون، صمت الزنزانات، صمت الصومعات، وسكوت المتّقين العاجزين. إنّها هي التي قَوَّت المساجين في انتظار الشهادة، والنُّسّاك في البحث عن الحقيقة، والمتوحّدين التوّاقين إلى معرفة مُسبَقة عن الله، وتقوى العاجزين للرضوخ، ولكن ماذا أقول في حبّهم لصليبهم؟

لو كنتم تعرفون سؤال نفسكم لكانت تحدّثكم عن الدلالة الحقيقيّة والدقيقة، الواسعة وسع العالم لهذه العِبارة "أن يُسَيطِر" والتي هي كالتالي: "ليُسيطِر الإنسان على كلّ شيء، على مستوى حالاته الثلاث: الحالة الدنيا، الحيوانيّة. الحالة الوسطى، الأخلاقيّة. والحالة السامية، الروحيّة. وأنّها كلّها تُوصِله إلى نهاية واحدة: امتلاك الله." امتلاكه عن طريق استحقاقه بواسطة هذه السيطرة المُطلَقَة التي تجعل كلّ قوى الأنا خاضعة، بل وخادمة لهذا الهدف الوحيد: استحقاق امتلاك الله. وستقول لكم إنّ الله مَنَعَ معرفة الخير والشرّ، لأنّه قد مَنَحَ الخير مجّاناً لخليقته، أمّا الشرّ، فلم يرد أن تعرفوه، لأنّه ثمرة لذيذة في الحلق، ولكنّها ما أن تَصِل بعصيرها إلى الدم حتّى تحمل الحرارة القاتلة وتؤدّي إلى عطش مُحتَدِم، لدرجة أنّه كلّما شرب أحد مِن هذا العصير الكاذب عَطش أكثر.

سوف تعترضون: "لماذا وَضَعَه فيها؟" ولماذا؟ لأن الشرّ قوّة وُجِدَت بذاتها بشكل آنيّ، كما كثير مِن الآلام التي تصيب الأجسام الأكثر سلامة.

لوسيفوروس مثلاً كان ملاكاً، وكان الأكثر جمالاً وبهاء بين الملائكة. كان روحاً كاملاً، ولكنّه فقط أدنى مرتبة مِن الله. ومع ذلك وُلِدَت في كيانه النورانيّ أبخرة الكبرياء التي لم يبدّدها، بل على العكس كثّفَها بأن حضنَها. ومِن هذا الاحتضان وُلِدَ الشرّ. وقد كان موجوداً قبل أن يُوجَد الإنسان. وطَرَدَ الله ذلك الملعون الذي حضن الشرّ ودَنَّسَ الجنّة، خارج الفردوس. إلّا أنّه بقي الحاضن الأزليّ للشرّ. وبما أنّه لم يعد بإمكانه تدنيس الفردوس، فقد دَنَّسَ الأرض.

فهذا النبات الرمزيّ يُستخدَم للكشف عن هذه الحقيقة. قال الله للرجل والمرأة: "تعرفان كلّ أسرار الخليقة، ولكن لا تتعدّيا على حقّي بأن أكون خالق الإنسان. ولإكثار الجنس البشريّ سيكفيكم حبّي الذي يسري فيكم بدون فجور، وبفورة المحبّة فقط سوف يُخلَق آدميو الجنس البشريّ الجدد. أعطيكم كلّ شيء ولا أحتَفِظ سوى بسرّ تكوين الإنسان."

أراد الشيطان أن يسلب الإنسان بكارة الذكاء تلك، وبلسانه، لسان الحيّة، مَدَحَ ودَاعَبَ أعضاء وعيني حواء بإحداث ردود فعل وإثارة لم يكن الأبوان الأوّلان يعرفانها، لأنّ المكر لم يكن قد سَمَّمَهُا بعد.

حوّاء "رأت". وعندما رأت أرادت أن تجرّب. فكان استيقاظ الجسد. آه! لو نادت الله! لو جَرَت إليه لتقول له: "أبتي، أنا مريضة. مداهنات الحيّة أثارت فيّ الاضطراب." لكان الأب طَهَّرَها وشَفَاها مِن سَورَتها، وكما كان قد بثّ فيها الحياة، كان باستطاعته أن يبثّ فيها براءة جديدة بأن يجعلها تنسى سمّ الحيّة، وحتّى بأن يضع فيها مُقت الحيّة، مثل الذين، بعد إصابتهم بمرض ما وشفائهم منه، يحتَفِظون باشمئزاز غريزيّ تجاه هذا المرض. ولكنّ حوّاء لم تتوجّه للآب: بل توجَّهَت صوب الحيّة، وقد استعذَبَت هذا الإحساس: "وبرؤيتها أنّ ثَمَر الشجرة كان لذيذاً للأكل، جميلاً للعينين، حسناً للنَّظَر، قَطَفَته وأكلَت منه."

ثمّ "أدركَت"، وكان الخُبث قد اخترق أحشاءها بلسعته. فرأَت بعينين جديدتين، وسَمِعَت بأذنين جديدتين أخلاق وأصوات البهائم، ورَغبَت بها رغبة مجنونة. بدَأَت الخطيئة وحيدة وأكمَلَتها مع شريكها. لذا جاء الحُكم على المرأة أعظم.

بواسطتها أصبَحَ الرجل متمرّداً على الله وعَرف الفجور والموت. بسببها لم تعد له السيطرة على مَلَكاته الثلاث: مَلَكَة الروح: لأنّه سَمَحَ للروح بمخالفة أمر الله؛ مَلَكَة السلوك الأخلاقيّ: لأنّه سَمَحَ للأهواء بأن تتملّكه؛ ومَلَكَة الجسد: لأنّه انحَدَرَ به إلى مستوى قوانين غرائز البهائم.

تقول حوّاء: "الحيّة أغوتني"، ويقول آدم: "المرأة أعطتني الثمّرة وأنا أكلتُ منها". وحينذاك ترتبط الشهوة الثلاثيّة بممالك الإنسان الثلاث.

ما مِن شيء غير النعمة يستطيع أن ينجح في تخفيف وطأة قبضة هذا الوحش عديم الرحمة. وإذا كانت حيويّة، حيويّة جدّاً، وتظلّ دوماً أكثر حيويّة بإرادة الابن الوفيّ، فستتوصل إلى ذبح الوحش وإلى عدم بقاء ما تخشاه. لا طُغاة داخليّون: المعرفة والجسد والأهواء. ولا طُغاة خارجيّون: العالم وجبابرة العالم. لا اضطهاد ولا موت. فكما قال بولس الرسول: "أنا لا أخاف أيّاً مِن هذه الأشياء، ولا أحرص على حياتي أكثر مِن ذاتي إنّما فقط كي تتمّ رسالتي والكهنوت الذي تلقّيتُه مِن الربّ يسوع لأشهد لإنجيل نعمة الله."»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

25- (حواء الجديدة مارَسَت الطاعة في كلّ المناسبات)

08 / 03 / 1944

تقول مريم:

«في الفرح -ولأنّني ما أن أدرَكتُ الرسالة التي دعاني الله إليها امتلأتُ فرحاً- فُتِحَ قلبي كزنبقة مغلقة، وتدفّق منه الدم الذي أصبَحَ أرضاً تُغرَس فيها بذرة الربّ.

فرح الأمومة:

كنتُ قد كرّستُ نفسي لله منذ طفولتي الأولى، ذلك أنّ نوره تعالى قد كَشَفَ لي كوضح النهار سبب شقاء العالم، وقد أردتُ، على قدر استطاعتي، محو بصمات الشيطان عنّي. لم أكن أعلم أنّني بلا عيب، كما لم أكن أستطيع أن أفكّر بهذا، فمجرّد التفكير بهذا الامتياز كان سيصبح تخميناً وكبرياء. وبما أنّي وُلِدتُ مِن أبوين بشريّين، لم يكن مسموحاً لي أن أفكّر أنّني أنا المختارة المدعوّة لأكون دون عيب. كان روح الله قد أطلَعَني على ألم الآب أمام فساد حواء التي أرادت أن تتخبّط وتنحدر فتهبط مِن مستوى خليقة النعمة إلى مستوى المخلوقات الدنيا. كنتُ أحمل في نفسي الرغبة في تلطيف هذا الألم، وذلك بأن ينمو جسدي وفق طهارة ملائكيّة، مع إرادتي بأن أحافظ على نفسي مِن أن تُنتَهَك أفكاري ورغباتي، وكذلك أن أحافظ عليها في علاقاتي البشريّة. فخفقان قلبي كان لله فقط، وله فقط كياني بأكمله. ولكن حتّى ولو لم تكن فيَّ حرارة الجسد المتأجّجة، فقد كنتُ أملك قرار التضحية بألّا أصبح أُمّاً.

الأمومة، بعيداً عن كلّ ما يَحطّ مِن قَدرِها الآن، كانت ممنوحة أيضاً لحوّاء مِن الآب الخالق. أمومة عذبة وطاهرة، دون وطأة الأحاسيس! لقد اختَبَرَتْها! كم افتَقَرَت حوّاء برفضها هذا الغِنى!

أكثر مِن كونها غير آيلة للموت. ولا يكن ذلك بادياً لكم كأنّه مبالغة. يسوعي، وأنا معه، عرفنا خمول الموت. أنا عرفتُه لطيفاً، إذ عندما أُنهِكتُ أَخَذَني النوم. أمّا هو فقد عِرفه حُكماً وحشيّاً عليه بالموت. فنحن أيضاً أدرَكنا الموت. ولكنّ الأمومة دون الانتهاك بأيّ شكل، فلي فقط، أنا حوّاء الجديدة، لكي أستطيع أن أُحَدِّث العالم عن مدى عذوبة مصير المرأة التي كانت مدعوّة لأن تصبح أُمّاً بدون ألم الجسد. والرغبة بهذه الأمومة الطاهرة كان ممكناً أن توجَد، وقد وُجِدَت بالفعل في العذراء التي كانت بكلّ كيانها لله، فهذه الأمومة هي مجد المرأة.

لو فكرتم بعدئذ بمدى سرور المرأة حين تصبح أُمّاً عند الإسرائيليّين، لكنتم تمنّيتم بشكل أفضل التضحية التي رضيتُ بها بإقبالي على نَذر نفسي لهذا الحرمان. أمّا الآن فقد مَنَحَ الصلاح الأزليّ لخادمته هذه النعمة دون أن يَنزَع عنّي البراءة التي لَبِستُها لأكون زهرة على عرشه. وأنا قد اختَبَرتُ غبطة سَنيّة بامتلاك الفرح المزدوج لكوني أُمّ إنسان وكوني أَمَة الله بآن معاً.

فرح كوني أنا التي بها السلام وَصَلَ السماء بالأرض.

آه! الرغبة بهذا السلام، لمحبّة الله والقريب ومعرفة أنّه بواسطتي، أنا الخادمة المسكينة للكلّيّ القُدرة، كان قد أتى هذا السلام للعالم! أقول: "ألا أيّها الناس، لا تعودوا تبكون بعد. فأنا أحمل السرّ الذي يجعلكم سعداء. لا أستطيع البوح به لكم لأنّه راسخ فيَّ، في قلبي، مثلما حَوَت أحشائي ابن الله دون مسّ. ولكنّي الآن أحمله وسطكم، وكلّ ساعة تمرّ تُدني اللحظة التي ترونه فيها وتعرفون اسمه القدّوس."

فرح إعطاء الفرح لله: فرح مؤمنة بإلهها الذي أصبَحَ سعيداً.

آه! يا لنزع مرارة معصية حوّاء وكبريائها ومرارة كفرها مِن قلب الله! لقد أظهَرَ يسوعي الخطيئة التي دنَّسَ الزوجان الأوّلان نفسيهما بها. ولقد مَحَوتُ هذه الخطيئة بالسير بعكس مراحل السقوط.

بداية الخطيئة كانت في عدم الطاعة. قال الله: "لا تأكلا ولا تلمسا هذه الشجرة." لقد كان باستطاعة الرجل والمرأة، مَلِكَيّ الخليقة، لمس كلّ شيء وأكل كلّ شيء ما عدا تلك الشجرة، لأنّ الله أراد أن يجعل الملائكة فقط أسمى منهما، وهما لم يأخذا مَنعه هذا بعين الاعتبار.

الشجرة: الواسطة التي بها اختبَرَ الله طاعة أبنائه. ما هي الطاعة لأوامر الله؟ إنّه الخير، لأنّ الله لا يَأمُر إلا بالخير. وما هي المعصية؟ إنّها الشرّ، لأنها تبثّ في النَّفْس مشاعر العِصيان، وهي الأرضيّة الملائمة لعمل الشيطان.

وتدنو حوّاء مِن الشجرة التي كان مِن المفروض أن تَهرب منها لتنال الخير، بينما مُجاورتها، على العكس مَنَحَتها الشرّ. ذَهَبَت إليها مُنجَذِبة بفضول سخيف لرؤية ما بها مِن خصوصيّة، وبالطيش الذي جَعَلَها تَحكم بأنّ أمر الله غير ذي جدوى، لأنّها قويّة وطاهرة، مَلِكَة عدن، حيث كلّ شيء تحت تصرفها، وحيث لا شيء يمكنه أن يؤذيها. معصيتها هذه ستكون سبب دمارها، المعصية التي أصبَحَت الآن خميرة الكبرياء.

إلى جانب النبات، وُجِدَ المغوي المُضَلِّل الذي اغتَنَمَ فرصة عدم خبرتها، سذاجة عدم خبرتها كعذراء، ضعف عدم خبرتها، وغَنَّى أغنية الكذب: "أتؤمنين بوجود الشرّ؟ أبداً. لقد قال الله لكِ ذلك ليبقيكِ خادمة لجبروته. أتظنان نفسيكما مَلِكَين؟ لا، فإنكما لستما حتّى ولا حُرّين كالحيوان البرّيّ الذي جَعَلَهُ يحبّ حبّاً حقيقيّاً، وذاك ما لم يَسمَح به لكما. لقد أَذِنَ له أن يُصبِح خالِقاً مثل الله، فهو يتوالد ويُصبِح له أبناء، ويرى عائلته تنمو وفق مرامه. الأمر الذي لم يَسمَح به لكما. هذه المَسرّة مرفوضة بالنسبة لكما، فما نفع كونكما رجلاً وامرأة إذاً، إذا كان مفروضاً عليكما العيش هكذا؟ كُونا آلهة. فأنتما حتّى الآن لم تعرفا مَسرّة أن تكونا اثنين في جسد واحد وتَخلقا منكما ثالثاً وأكثر. لا تؤمِنا بوعود الله بأن تستمتعا بذريتكما برؤية أولادكما يُنشِئان عائلات جديدة، وبأن يدعكم لتكونوا آباء وأُمّهات، لقد أعطاكما شِبه حياة. فالحياة الحقيقيّة هي معرفة قوانين الحياة. هي إذن أن تُصبِحا شَبيهيّ الآلهة وأن تستطيعا القول لله: "نحن مساويان لكَ؟"

وتستمرّ الغواية لأنّ حوّاء لم تكن تملك الإرادة في طردها، بل بالأحرى رَغِبَت في اتّباعها ومعرفة ما لم يكن يخصّ البشر. وها هي ذي الشجرة المحرَّمة تُصبِح المميتة بحقّ للجنس البشريّ، لأنّه مِن أغصانها أُخِذَ ثمّر المعرفة المُرّ الآتي مِن الشيطان. وقد أصبَحَت المرأة أنثى، ومع خميرة المعرفة الشيطانيّة في قلبها مضت إلى آدم لتُفسِده. هكذا الجسد انحَدَر، والأخلاق أُفسِدَت، والروح حُطَّ مِن قَدْره. وها هما قد عرفا الألم وموت الروح المجرّد مِن النعمة والجسد المجرّد مِن اللاموت. ومِن جرح حوّاء وُلِدَ الألم الذي لن يزول حتّى موت آخر زوج على الأرض.

مَشيتُ درب الخاطئين بالعكس. أطعتُ. في كلّ الظروف أطعتُ. طَلَبَ الله منّي أن أكون عذراء. أطعتُ. بعد أن أحببتُ البتولية التي جَعَلَتني طاهرة مثل المرأة الأولى قبل معرفة الشيطان، طَلَبَ منّي الله أن أكون عروسة. أطعتُ، رافعة الزواج إلى هذه الدرجة مِن الطهارة التي كانت في فِكر الله عندما خَلَقَ الأبوين الأوّلين. مُقتَنِعة بأنّ قَدَري هو الوحدة في الزواج واحتقار القريب لعقمي المقدّس، حينئذ طَلَبَ الله مني أن أُصبِح أُمّاً. أطعتُ. وأيقنتُ أنّ هذا ممكن وأنّ هذه الكلمة أتت مِن الله، وأنّني لدى سماعي إيّاها كنتُ مغمورة بالسلام.

لم أفكّر أبداً: "أنا كنتُ أستحق ذلك". كما لم أقل لنفسي: "الآن سينظر العالم إليَّ بإعجاب لأنّني أصبَحتُ شبيهة بالله بولادتي جسد الله". بل قد تلاشيتُ في التواضع. وتدفَّقَت المسرّة في قلبي كعود مُزهِر. ولكنّه اكتظّ مباشرة بأشواك حادّة وأصبَحتُ مُحاصَرَة، مُغلَّفَة بالألم كالأغصان التفَّ حولها اللبلاب. ألم معاناة الزوج: إنّه المعصرة في أحشاء الفرح. ألم آلام ابني: تلك هي الأشواك وسط فرحي. فحوّاء أرادَت الاستمتاع والنصر والحريّة. وأنا رضيتُ بالألم والتلاشي وبأن أكون أَمَة. لقد كفرتُ بحياتي المستقرّة، بتقدير الزوج وبحريّتي الشخصيّة. ولم أحتفظ لنفسي بشيء.

أصبحتُ أَمَة الرب بجسدي وسلوكي وروحي، باتّكالي عليه، ليس فقط لأجل البتوليّة، ولكن للدفاع عن شرفي، لتعزية زوجي، مِن أجل أن يحمله إلى سموّ الزواج بشكل يجعل منّا اللذَين

يُعيدان للرجل والمرأة اعتبارهما المفقود. عانَقتُ إرادة الربّ مِن أجلي، مِن أجل زوجي ومِن أجل ابني. قلتُ: "نعم" لأجلنا نحن الثلاثة، واثقة بأنّ الله لا يكذب بوعده أن يسعفني في ألمي كعروسة تَرى أنّه قد حُكِمَ عليها بأنّها مذنبة، كأُمّ تَرى أنّها تَحبَل لتدفع بابنها إلى الآلام.

قلتُ "نعم". نعم. وهذا يكفي. وهذه "النَّعَم" مَحَت "لا" حوّاء لأمر الله. "نعم، يا ربّ، كما تشاء، سأعرف ما تريد. سأَحيَىَ كما تشاء. سأستمتع إن أنتَ شئتَ، سأتألّم لما تريده أنتَ. نعم، دائماً نعم، ربّي، منذ اللحظة التي جَعَلَني فيها شعاعكَ أُمّاً وحتّى اللحظة التي ناديتَني فيها إليكَ. نعم، دائماً نعم. كلّ أصوات الجسد، كلّ انحناءات إحساسي تحت ثِقل هذه النَّعَم الدائمة التي هي لي. وكما على قاعدة ماسيّة، روحي تنقصها الأجنحة لتطير إليكَ، ولكنّها السيدة على كلّ الأنا المروَّضة والخاضعة لخدمتكَ في الفرح، لخدمتكَ في الألم. ولكن ابتسم يا الله وكُن سعيداً، فلقد غُلِبَت الخطيئة، انتُزِعَت، قُوِّضَت، طُرِحَت تحت كعبي، غُسِلَت بدموعي، هُدِمَت بطاعتي. ومِن أحشائي ستنبت الشجرة الجديدة، ستحمل الثمّرة التي تعرف كلّ الشرّ لتتألّم به بذاتها وتعطي كلّ الخير. إليها يأتي كلّ البشر، وسأكون سعيدة لو يقطفونها، حتّى ولو لم يفكّروا أنّها منّي نَبَتَت، ليخلص البشر ويكون الله محبوباً، وليجعل مِن خادمته ما يتمّ عمله بأرض تَنتَصِب فيها شجرة: درجة سلّم مِن أجل الصعود."

ماريا: يجب عليكِ دائماً معرفة أن تكوني درجة سلّم ليَصعَد عليها الآخرون إلى الله. لو داسوا علينا، لا يهمّ. على أن ينجحوا في الذهاب إلى الصليب. إنّها الشجرة الجديدة التي تحمل ثمّرة معرفة الخير والشرّ. بالفعل، إنّه يقول للإنسان ما هو شرّ وما هو خير ليَعرف الاختيار والعيش، كما يَعرف في الوقت ذاته أن يصبح ترياقاً يشفي الذين تسمّموا بالشرّ الذي أرادوا تذوّقه. قلبنا تحت أقدام البشر ليزداد عدد المخلَّصين، ولكي لا يكون دم يسوعي قد أريق دون أن يُثمِر. هذا هو قَدَر خادمات الله. إنّما بعد ذلك، نستحقّ أن نَقبَل في أحشائنا الذبيحة المقدّسة، وعند أقدام

الصليب المجبول بدمه وبدموعنا نستطيع القول: "ها هي أيّها الآب، الذبيحة المنزَّهَة التي نُقرّبها لكَ لأجل خلاص العالم. احفظنا يا رب ذائبتَين فيها، وباستحقاقاتها اللامتناهية، امنحنا بركتكَ."

وأنا أمنحكِ تودّدي. استريحي يا ابنتي، الربّ معكِ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

26- (كلمة أخرى حول شرح الخطيئة الأصلية)

1944 / 03 / 08

يقول يسوع:

«يجب أن تُبَدِّد كلمة أُمّي كلّ تردّد حتّى في فِكر أكثر الناس تشبُّثاً بالشكليّات.

ويوجد منهم الكثير! يريدون أن يُمنطِقوا الأمور الإلهيّة بما هو مادّيّ، بمقاييسهم البشريّة، ويَزعمون أنّه مِن المفروض أن يُمنطِقها الله كذلك. إنّما على العكس، إنّه جميل جدّاً التفكير بأنّ الله يفكّر بطريقة فائقة البشر لدرجة عظيمة ولا نهائيّة. كذلك هو رائع ومناسب التفكير، ليس حسب الرؤية البشريّة، ولكن حسب الروح، واتّباع الله. وعدم الإرساء حيث يتعلّق فكركم الإنسانيّ الذي هو أيضاً مِن قَبيل الكبرياء، لأنّه افتراض الكمال في الروح البشريّ. وبالعكس، بخصوص الكمال، ليس هناك سوى الفِكر الإلهيّ، يستطيع لو أراد وارتأى أنّ مِن المفيد أن يفعل، أن يَنزِل ويُصبِح كلمة في فِكر وعلى شفاه إحدى مخلوقاته المنبوذة مِن العالم، لأنّها في نَظَر العالم جاهلة وبلا قيمة ومحدودة وصبيانيّة وسخيفة.

تُحِبّ الحكمة أن تفقد كبرياء الروح اتّجاهها، وأن تنتَشِر على المنبوذين مِن العالم الذين لا أفكار شخصيّة لهم ولا مذاهب مُكتَسَبَة بالثقافة، ولكنّهم يفيضون حبّاً وطهارة، وهم عظماء برغبتهم في خدمة الله بعد العمل على معرفته وحبّه، وبعد استحقاقهم معرفته بحبّهم إيّاه بكلّ قوّتهم. لاحِظوا أيّها الناس في فاتيما (Fatima) في لورد (Lourde) في غوادي لوبي (Guadeloupe) في كارافاجيو (Caravagio) في ساليتي (Salette)، ففي كلّ مكان حَدَثَت ظهورات حقيقيّة ومقدّسة، الذين رأوا، الذين كانوا مدعوّين للرؤية، هم مخلوقات مسكينة،

وهم مِن ناحية السنّ والثقافة والشروط بين أكثر الناس تواضعاً. ولهؤلاء المغمورين، لهؤلاء اللاشيء تَظهَر النعمة لتجعل منهم رُسُلها.

ماذا ينبغي للبشر إذن أن يَفعَلوا؟ أن ينحنوا مثل العشّار ويقولوا: "ربّي، لقد كنتُ خاطئاً جدّاً وغير أهل لأستحقّ أن أعرفكَ. مبارك أنتَ لصلاحكَ الذي يعزّيني بواسطة هذه المخلوقات ويمنحني سنداً سماويّاً ودليلاً وعِبرة وأملاً بالسلام". وألّا يقولوا: "ولكن لا! إنّهم محكوم عليهم، هراطقة! غير ممكن!" كيف يكون هذا غير ممكن؟ كائن موهوب قليلاً يصبح عالِماً في علوم الله؟ لماذا لا يمكن؟ ألم أُقِم الموتى وأُشفِ المجانين وأُعالِج الصرعى؟ ألم أُنطِق الخُرس وأفتح أعين العميان وأجعل الصمّ يَسمَعون وأمنح الذكاء للمعوقين؟ ألم أَطرُد الشياطين كذلك وآمُر الأسماك بأن تقفز إلى الشِّباك والخبز أن يَكثُر والماء أن يصبح خمراً والعاصفة أن تهدأ والماء أن يتصلّب ويصبح كسطح مَرصوف؟ فما هو غير الممكن لدى الله؟

حتّى قبل أن يصبح الله: المسيح ابن الله، فيما بينكم، ألم يَجتَرِح الله المعجزات بواسطة خُدّامه الذين يتصرّفون باسمه؟ ألم تُخصَب أحشاء ساراي العاقر التي لإبراهيم لتصبح سارة وتَلِد في شيخوختها اسحق الذي أُعِدّ ليكون الذي أُبرِم الميثاق معه؟ ألم تتحوّل مياه النيل إلى دماء وتمتلئ بالحيوانات النَّجِسة بأمر موسى؟ وبكلمته كذلك، ألم تَنفق الحيوانات بالطاعون، أما تقرّحت أجساد الرجال وحُصِدَت السنابل وتكسرت ببَرَد مكتَسِح، وجُرِّدت الأشجار بالجرّاد وأُطفِئَت الأنوار فأظلمت ثلاثة أيّام وطاح الموت بالمواليد الجدد، وشُقّ البحر ليمرّ إسرائيل، وتحلّت المياه المُرّة؟ ونَزَل المنّ والسلوى بغزارة؟ ألم تتدفّق كذلك المياه بغزارة مِن الصخرة الصمّاء؟ وكذلك يشوع، ألم يُوقِف الشمس في كبد السماء؟ وداود الفتيّ ألم يُجندِل العملاق؟ وإيليا ألم يُكثِر الطحين والزيت ويُقِم ابن أرملة صرفة (Sorepta) ؟ ألم يَنزِل المطر بناء على طلبه على الأرض القاحلة؟ ألم تَنزِل نار السماء على المِحرَقَة؟ والعهد الجديد أليس غابة صغيرة مُزهِرة، حيث كلّ زهرة فيه

معجزة؟ فَمَن لديه القُدرة إذن على اجتراح المعجزات؟ ثمّ ما هو غير الممكن لدى الله؟ مَن مثل الله؟

احنُوا رؤوسكم واعبُدوا. زمن الحصاد الكبير قد اقترب، وكلّ شيء يجب أن يكون مكشوفاً قبل أن ينقضي وجود البشر، كلّ شيء: النبوءات اللاحقة للمسيح وتلك التي قبله، والرمزيّة منها والتوراتيّة التي ابتدأت منذ الكلمات الأولى لسفر التكوين. وإذا كنتُ أنا أُعلِمكم بنقطة ما تزال غير مشروحة حتّى الآن، فتقبّلوا هذه الموهبة واقطفوا ثمّارها، وليس الإدانة. لا تفعلوا مثل يهود زمن حياتي الآيلة للموت الذين أرادوا إغلاق قلوبهم في وجه تعاليمي، ولعدم قدرتهم على مساواتي في فَهم الأسرار والحقائق فائقة الطبيعة، اعتبَروني مُدّعياً وكافراً.

لقد قلتُ: "شجرة استعاريّة"، أمّا الآن فأقول: "شجرة رمزيّة". قد تُدرِكون أفضل. فالرمز فيها واضح: بحسب الطريقة التي تعامَلَ فيها ابنا الله (آدم وحواء) معها يمكن إدراك ميولهم إذا ما كانت صوب الخير أم صوب الشرّ. مثل الماء المَلَكيّ في اختبار الذهب، وميزان الصائغ الذي يُعطي الزِنة بالقيراط، كذلك هذا النبات، كونه أصبَحَ "رسالة" لأمر الله بالنسبة لهما، فقد أعطى مقدار طهارة آدم وحواء.

أَسمَع الآن اعتراضاتكم: ألم تكن الإدانة متطرفة؟ والسبيل المتّبع لحصولها سخيفاً؟

لا. فإذا اقترفتُم هذه المعصية في الوقت الراهن، أنتم يا مَن أخذتم عنهما هذا الإرث، فسيكون ذلك أخفّ وطأة مما كان بالنسبة لهما. فإنّكم قد افتُديتم بي، إلّا أنّ سمّ الشيطان يبقى دائماً متأهّباً للتدفّق مِن جديد. إنّه مثل أمراض كثيرة لم يزل مفعولها تماماً مِن الدم. فهما، أي الأبوان الأوّلان، كانا تحت مَلَكة النعمة قبل أن يَفقدا نضارتهما بفقدان الحظوة. كانا إذن أقوى، كانا مدعومَين أكثر بالنعمة، وفي داخلهما نبع براءة وحبّ. كانت مواهب الله التي وَهَبَهما إيّاها لا نهائيّة، فكان سقوطهما بالتالي أعظم على الرغم مِن هذه المواهب.

والثمّرة المقدَّمة والمأكولة هي أيضاً رمزيّة. كانت ثمّرة تجربة أرادا خوضها بتحريض شيطانيّ ضدّ أمر الله. لم أكن قد مَنعتُ الناس عن الحبّ، بل أردتُه فقط أن يكون دون مكر. وكما كنتُ أحبّهما حبّاً مقدّساً مِن حيث الجوهر، فقد كان مِن الواجب عليهما أن يحبّا بعضهما بمودّة مقدّسة بحيث لا تَدَع مجالاً للشهوة تُدنِّسها.

يجب ألّا ننسى أنّ النعمة نور، ومَن يمتلكها يعرف أن يميّز ما هو مفيد وجيّد للمعرفة. ولقد عَرفَت الممتلئة نعمة كلّ شيء لأنّها نَمَت بالحكمة، الحكمة التي هي نِعمة، وعَرفَت أن تَسلك بقداسة. حوّاء إذن كانت تعرف ما هو جيّد لها أن تعرفه، لا أكثر، لأنّه عَبَث أن تَعرف ما هو غير جيّد. لم تؤمن بكلام الله ولم تكن وفيّة لوعدها له بالطاعة. آمَنَت بالشيطان، أخلَفَت بوعدها، ورَغِبَت في معرفة ما هو غير جيّد، وأحبّته دون تبكيت ضمير؛ الحبّ الذي منحتُها إيّاه على درجة مِن القداسة، وهي جَعَلَته أمراً فاسداً، أمراً منحطّاً، إنّها ملاك ساقط، تمرَّغَت في الوحل والقمامة، بينما كان باستطاعتها أن تجري سعيدة بين أزهار الفردوس الأرضيّ، وأن تَرى سلالتها تُزهِر حولها كنبات مكسوّ بالأزهار دون جرّ أوراقها في الحمأة.

لا تكونوا مثل أولئك الأطفال الحمقى الذين أتحدّث عنهم في الإنجيل: سَمِعوا الغناء فَسَدّوا آذانهم. سَمِعوا الطبل فلم يرقصوا. سَمِعوا البكاء فأرادوا أن يضحكوا. لا تكونوا ضيّقي الأفق، ولا ناكري الجميل. تقبّلوا، تقبّلوا النور دون خبث، وبإذعان دون تهكّم ولا تشكيك.

تكلّمتُ كثيراً في هذا الموضوع، لِأُفهِمكم إلى أيّة درجة يجب أن تكونوا عارفي الجميل للذي مات ليوصلكم إلى السماء، وللتغلب على الشهوة الشيطانيّة، أردتُ أن أكلّمكم في هذا الوقت مِن التهيئة للفصح عمّا كان الحلقة الأولى مِن السلسلة التي بها جُرّ كلمة الله إلى الموت، الحَمَل الإلهيّ إلى المذبح، أردتُ الكلام لأنّه في الوقت الحاضر تسعون في المائة منكم يشبهون حوّاء متسممين بنفحة وكلمة الشيطان. فإنّكم لا تعيشون لتحبّوا بعضكم بعضاً ولكن لتَشبَعوا. لا تَحيون للسماء بل للوحل.

لم تعودوا مخلوقات تتميّزون بنَفْس وحسّ فكريّ، ولكنّكم كالكلاب دون نَفْس ودون فِكر. لقد قتلتم النَّفْس وأفسدتم الفِكر. أؤكد لكم بحقّ أنّ الوحوش يفوقونكم شرفاً وحبّاً.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

27- (إعلام يوسف بخبر حَبَل أليصابات)

25 / 03 / 1944

يَظهَر بيت الناصرة، حيث كانت مريم. مريم شابّة كما كانت يوم ظَهَرَ لها ملاك الله. لا شيء مثل رؤيتها يملأ نفسي مِن عطر البتوليّة في هذا المقام، مِن العطر الملائكيّ الذي ما زال يضجّ في الغرفة التي رَفرَفَ فيها بجناحيه الذهبيّتين، مِن العِطر الإلهيّ الذي تركّز كلّه على مريم ليجعل منها أُمّاً، الذي بات الآن يفوح منهاِ.

الوقت مساء، ذلك أنّ الظِّلال بدأت تجتاح الغرفة التي كان نور عظيم قد هبط عليها مِن السماء قبل حين.

مريم جاثية قُرب سريرها تصلّي، ذراعاها متصالبتان على صدرها، رأسها منحن إلى الأرض. إنّها ما تزال ترتدي الثياب التي كانت ترتديها أثناء البِشارة. وكلّ شيء على حاله: الغصن المُزهِر في مزهريّتها، الأثاث بنفس الترتيب. فقط الغزّالة والمِغزَل كانا موضوعين في إحدى الزوايا مع ريشة مشاقة للواحدة والخيط اللامع الذي كَرَّ مِن الآخَر.

تُنهي مريم صلاتها، وتنهَض بوجه مشعّ وثغر باسم، ولكنّ دمعة تتلألأ في عينها اللازورديّة. تأخذ مصباح الزيت وتُشعِله بحجر صوّان. وتُبدي اهتماماً ليكون كلّ شيء في الغرفة مرتّباً. تُرتّب غطاء الفراش الذي كان في غير وضعه الصحيح. تُضيف الماء للمزهريّة حيث الغصن المُزهِر، وتَحملها إلى الخارج، إلى رطوبة الليل. ثمّ تعود. تأخذ غطاء الخزانة المطرّز والمصباح المُنار وتَخرج مُغلِقة الباب. تمشي بضعة خطوات في الحديقة الصغيرة على مدى المنزل، وتَدخُل إلى الغرفة حيث رأيتُ وداع يسوع ومريم. أعرفها رغم غياب بعض الأغراض التي كانت موجودة آنذاك.

تَغيب مريم في غرفة مجاورة صغيرة حاملة معها المصباح، وأبقى أنا هنا برفقة شغلها فقط الموضوع على زاوية الطاولة. أَسمَع الوقع الخفيف لخطى مريم التي تذهب وتجيء، أَسمَعها تحرّك الماء في غسيل شيءٍ ما، ثمّ تقطع حطباً إلى أجزاء صغيرة، عرفتُ أنّه حطب مِن خلال الصوت الذي تُصدِره. وأُلاحظ أنّها تُشعِل النار.

ثمّ تعود لتَخرُج إلى الحديقة وتَدخُل ثانية حاملة تفّاحاً وخضاراً. تضع التفّاحات على الطاولة في صينيّة معدنيّة منقوشة يدويّاً: تبدو لي مِن النحاس المحفور، تعود إلى المطبخ (فهذه الغرفة هي حتماً المطبخ) يرتسم الآن لهب الموقد بفرح مِن خلال الباب المفتوح ويُراقِص الظِّلال على الجدار.

وبعد مضي وقت قصير تعود مريم حاملة قطعة خبز أسمر وفنجان حليب حارّ. تجلس وتغمس قطع الخبز في الحليب. تأكلها على مهل. ثمّ تترك نصف فنجانها وتَدخُل مِن جديد إلى المطبخ لتعود حاملة خضاراً تَسكب عليها الزيت لتأكلها مع الخبز. بعد شرب الحليب تأخذ تفّاحة وتأكلها؛ إنّها وجبة فتاة صغيرة. تأكل مريم ثمّ تفكّر وتبتسم لخاطرة داخليّة. تنهض وتُدير عينيها صوب الجدران التي تبدو وكأنّها تبثّها سرّاً. وكانت مِن وقت لآخر تبدو بمظهر جادّ، تكاد تكون حزينة، ثمّ تعود الابتسامة.

يُسمَع طرق على الباب، تنهض مريم وتفتح. يَدخُل يوسف. يتبادلان التحيّة، ثمّ يجلس يوسف على كرسيّ صغير مقابل مريم على الجهة الأخرى للطاولة.

يوسف رجل وسيم بكلّ عنفوان الشباب. كان ابن خمس وثلاثين سنة على الأغلب، بشعره الكستنائيّ الغامق، ولحيته باللون ذاته تحيط بوجه متناسق ذي العينين الوديعتين باللون الكستنائيّ المائل إلى السواد. الجبهة عريضة وملساء، الأنف صغير محدّب قليلاً، الخدّان مكوَّران باللون الأسمر إنّما ليس الزيتونيّ، والوجنتان فيهما ورديّتان. هو ليس ضخماً جدّاً ولكنّ صحّته جيّدة وهو قويّ.

قبل أن يَجلس يَخلع معطفه (وهو الأوّل الذي أراه بهذا الشكل) كان شكله مدوّراً مُقفَلاً عند العنق بمشبك أو شيء من هذا القبيل، مع قَبّة. وهو بنّي فاتح ومِن قماش غير نفوذ مِن الحرير المُصوَّف، يُشبه عباءة ابن الجبل المخصّصة للحماية مِن عوامل الطقس الرديئة. قبل أن يجلس يعطي مريم بيضتين وعنقود عنب، ليس طازجاً تماماً، ولكنّه محفوظ جيّداً.

يبتسم قائلاً: «لقد جلبوه لي مِن قانا، أمّا البيضتان فقد أعطانيهما قائد المائة مقابل إصلاح عربته. كانت عَجَلَة منها معطّلة وعامِلهُم مريض. إنّهما طازجتان، جَلَبَهما مِن قن الدجاج الذي في بيته. اشربيهما فسينفعانكِ.»

«غداً يا يوسف، فقد أكلتُ الآن.»

«أمّا العنب فيمكنكِ أكله، إنّه طيّب، لذيذ كالعسل، لقد حملتهُ بعناية كي لا أُتلِفه كلّية، فهناك غيره، سأجلب لكِ غداً سلّة صغيرة. لم أستطع هذا المساء لأنّني أتيتُ مِن بيت قائد المائة مباشرة.»

«آه! فأنتَ إذن لم تتعشَّ بعد.»

«لا، إنّما لا يهمّ.»

تَنهَض مريم مباشرة وتذهب إلى المطبخ لتعود حاملة الحليب مع زيتون وجبن. ثمّ تقول: «ليس لديّ شيء آخر، خذ بيضة.»

يرفض يوسف، فالبيضتان لمريم. يأكل بشهيّة، خبزاً مع الجبن، ويشرب الحليب الذي ما يزال فاتراً. ثمّ يأخذ تفّاحة مِن يدها. وينتهي العشاء.

تأخذ مريم تطريزها بعد أن ترفع الصحون عن المائدة. يساعدها يوسف الذي يبقى في المطبخ بينما تعود هي. أسمعه يتحرّك أثناء إعادة كلّ شيء إلى مكانه، ثمّ يزكي النار لأنّ الأمسية باردة.

حينما يعود تشكره مريم، ويتحدّثان. يروي يوسف كيف أمضى يومه. يتكلّم عن أولاد أخيه. يبدي اهتمامه بشغل مريم وأزهارها. ويعدها بجلب أزهار جميلة جدّاً وَعَدَه بها قائد المائة: «زهور غير موجودة عندنا. لقد جلبَها مِن روما. وقد وَعَدَني بشتلات منها. والآن، بما أنّ القمر ملائم فسوف أزرعها لكِ. إنّ ألوانها جميلة ورائحتها عَطِرة جدّاً. لقد رأيتُها الصيف الماضي، فهي تُزهِر في الصيف. سوف تعطّر لكِ كلّ المنزل. سأتمكّن مِن زراعتها وتطعيمها، فالقمر ملائم. إنّه الوقت المناسب.»

تبتسم مريم وتشكره. يخيّم صمت. ينظر يوسف إلى رأس مريم الأشقر، المنكبّ على التطريز نظرة حبّ ملائكيّ. بكلّ تأكيد، لو نَظَرَ ملاك إلى امرأة بحبّ الزوج لما كان نَظَرَ إليها غير هكذا.

مريم، كما لو أنّها اتّخَذَت قراراً، تضع التطريز على صدرها وتقول: «يوسف، لديّ شيء آخر أقوله لكَ. كما تعلم ليس لديّ شيء أقوله بما أنّني أعيش في خلوة، ولكنّني اليوم أحمل بُشرى. لقد عَلِمتُ أن نسيبتنا أليصابات زوجة زكريّا تنتظر مولوداً...»

يُحملِق يوسف ويقول: «أفي هذا العُمر؟»

تجيب مريم مبتسمة: «في هذا العُمر. الربّ قادر على كلّ شيء، وقد شاء أن يمنح هذه الفرحة لنسيبتنا.»

«كيف عرفتِ هذا؟ ثمّ هل النبأ أكيد؟»

«لقد جاء مرسال ممن لا يعرفون الكذب. إنّي أرغب في الذهاب إلى أليصابات لأخدمها وأخبرها بأنّني أشاركها سرورها. لو سمحتَ لي بذلك...»

«مريم، إنّكِ عروستي، وأنا خادمكِ. كلّ ما تعملينه جيّد. متى تودّين الذهاب؟»

«في أقرب وقت. ولكنّني سأقيم هناك أشهراً بأكملها.»

«وأنا سوف أعدّ الأيّام في انتظاركِ. اذهبي مطمئنّة، وسأهتمّ ببيتكِ والحديقة. سوف تجدين زهوركِ جميلة كما لو كنتِ تهتمّين بها بنفسكِ. إنّما... انتظري، عليَّ أن أذهب قبل عيد الفصح إلى أورشليم لأشتري بعض الحاجيّات الضروريّة لعملي. إذا انتظرتِ بضعة أيّام، فسأصحبكِ إلى هناك، ليس أبعد، إذ يجب أن أعود بسرعة. ولكنّنا نستطيع أن نترافق حتّى هذا الحدّ. سأكون أكثر اطمئناناً إذا عَلِمتُ بأنّكِ لستِ وحيدة على الطرقات. وعند العودة ستُعلمينني لآتي لملاقاتكِ.»

«إنّكَ طيّب جدّاً يا يوسف. فليكافئكَ الربّ ببركاته، وليُبعِد عنكَ الألم. إنّي أصلّي إليه دائماً مِن أجل ذلك.»

ويبتسم العروسان العفيفان بطريقة ملائكيّة. ويخيّم الصمت برهة ثمّ ينهض يوسف ويرتدي معطفه ويضع قبّعته على رأسه. ثمّ يحيّي مريم التي نهضت بدورها وينصرف.

تنظر إليه مريم وهو يَخرُج، وتُطلِق زفرة كأنّ بها غمّاً، ثمّ ترفع عينيها إلى السماء وتصلّي بالتأكيد.

تُغلِق الباب، تَطوي الشغل، وتَذهب إلى المطبخ. تُطفئ النار أو تغطّيها. وتَنظر لترى إذا ما كان كلّ شيء مرتّباً في مكانه. تَأخذ المصباح وتَخرُج مُغلِقة الباب. تحمي بيدها الشعلة المتراقصة في رياح الليل الباردة. وتَدخُل إلى غرفتها وتصلّي أيضاً.

هكذا تنتهي الرؤيا.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

28- (دَعي لي أمر تبرئة ساحتكِ أمام عروسكِ)

25 / 03 / 1944

تقول مريم:

«أيّتها الابنة الحبيبة، عندما انتهت النشوة التي ملأتني بفرح لا يمكن التعبير عنه، عادت أحاسيسي لتتفتّح على الأشياء الأرضيّة. أولى الأفكار الواخزة كَشَوك زهرة، التي وَخَزَت قلبي المغمور بزهور الحبّ الإلهيّ الذي أصبَحَ عروسي منذ زمن، كانت فِكرة يوسف.

لقد وهبتُ حبّي بالفعل لحارسي القدّيس المتيّقظ. منذ اللحظة التي أرادتني فيها المشيئة الإلهيّة، مِن خلال كلمة الكاهن، عروسة ليوسف، تمكّنتُ مِن التعرّف إليه وتثمين قداسة هذا البارّ. فباتّحادي به، أحسستُ بزوال وحدتي كيتيمة، ولم أعد أتحسّر على الهيكل، الملجأ الذي أضعتُ. كان تعويضاً لي عن عذوبة أبي الغائب. بقربه كنتُ أحسّ بالأمان كما بجانب الكاهن. لقد هوى كلّ تردّد، ليس هوى وحسب بل نُسِيَ، لقد ابتَعَدَ كلّياً عن قلبي، قلب عذراء. كنتُ قد أدركتُ أنّ أيّ تردّد وأيّ تخوُّف لم يكن ليجد له طريقاً حيال يوسف الذي عهدتُ إليه ببتوليّتي، فكنتُ أكثر اطمئناناً عليها مِن طفل في أحضان أُمّه.

كيف سأخبره الآن أنّني سأصبح أُمّاً؟ كنتُ أبحث عن الكلمات لأنقل له الخبر. إنّ هذا البحث صعب. لم أكن أريد أن أتبجّح بنعمة الله، كما لم أكن أستطيع أن أبرّر أمومتي بأيّة طريقة غير القول: "الربّ أحبّني مِن بين سائر النساء وجَعَلَ منّي، أنا خادمته، عروسة له". أو أن أغشّه بإخفاء حالتي، وهذا ما لم أكن أريده أيضاً.

ولكنّني، بينما كنتُ أصلّي، قال لي الروح القدس الذي ملأني: "اصمتي أنتِ، واتركي لي الاهتمام بتسوية وضعكِ مع عروسكِ." متى؟ كيف؟ لم أسأله. كنتُ دائمة الاتّكال على الله، كما تترك الوردة نفسها للماء الذي يحملها. لم يتركني الأزليّ أبداً دون عون منه. لقد سانَدَتني يده وحَمَتَني وقادَتني إلى هنا. وسوف يفعل ذلك الآن.

يا ابنتي، كم هو جميل ومؤاس الإيمان بالأزليّ، الله الصالح! يتقبّلنا بين ذراعيه مثل مهد. يحملنا مثل مركب إلى شاطئ الخير المضيء، يدفئ قلوبنا، يعزّينا ويغذّينا، يمنحنا الراحة والمسرّة ويهبنا النور ويهدينا. فالثقة بالله هي كلّ شيء لمن يثق به: يعطيه ذاته.

هذا المساء حَمَلتُ ثقتي كخليقة إلى كلّيّ الكمال. الآن أستطيع فعل ذلك لأنّ الله فيَّ. في البدءِ كنتُ أثق ثقة الخليقة المسكينة التي كُنتُها: دائماً لا شيء، حتّى ولو كنتُ المحبوبة كثيراً لكوني المنزّهة عن كلّ عيب. إلاّ أنّني الآن أملك ثقة إلهيّة لأنّ الله فيّ: عروسي، ابني! يا لها مِن فرحة! أن أتّحد بالله. ليس لمجدي ولكن لمحبّته في وحدة تامّة ولتمكُّني مِن القول له: "أنتَ، أنتَ وحدكَ الذي فيَّ، كن أنتَ الفاعل بكمالكَ الإلهيّ كلّ ما أفعله أنا."

لو لم يقل لي هو نفسه: "اصمتي" لكنتُ تجرّأتُ أن أبوح ليوسف بوجه منخفض للأرض: "لقد حلَّ الروح فيَّ وأنا أحمل الآن بذرة الله." وكان هو سيصدّقني، لأنّه كان يُقدِّرني، ولأنّه، ككلّ الذين لا يكذبون أبداً، لا يمكنه الاعتقاد أنّ الآخرين يكذبون. نعم، لكي أُجنّبه الألم المُقبِل، كنتُ قد تجاوزت اشمئزازي مِن أن أنسب لنفسي فخراً كهذا. ولكنّني أطعتُ الأمر الإلهيّ. وخلال أشهر، ابتداء مِن هذه اللحظة، أُحِسُّ بأوّل جرح يدمي قلبي.

أولى آلامي، لكوني المختارة للمشاركة في الفداء، قد قدّمتُها لله وتحمّلتُها، لأعطيكم قاعدة للسلوك في أوقات الألم المماثلة، عندما يتوجّب عليكم الصمت في ظرف حادث يضعكم في جوّ غير ملائم أمام مَن يحبّكم.

دعوا لله مهمّة الحفاظ على سمعتكم والمشاعر التي تملأ قلوبكم. استحِقّوا، بحياة مقدّسة، حماية الله، ثمّ اذهبوا بسلام مطمئنّين حتّى ولو كان العالم كلّه ضدّكم، فسيُدافع هو عنكم لدى مِن يحبّكم، وسيُظهِر الحقيقة.

استريحي الآن يا ابنتي، وكوني ابنتي باستمرار.»

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

29- (مريم ويوسف يَمضِيان إلى أورشليم)

27 / 03 / 1944

إنّني أُشاهِد لحظة الانطلاق للمضيّ إلى القدّيسة أليصابات. لقد أتى يوسف لأخذ مريم، جالباً معه حِمارَين رماديّين، أحدهما له والآخر لمريم.

كان على أحد الحِمارَين سرج عاديّ وقد أُضيف إليه ترتيب غريب، أدركتُ منه أنّه معدّ لحمل الأمتعة. إنّه عبارة عن حامل للأمتعة أضاف إليه يوسف صندوقاً خشبيّاً: حقيبة كما نسمّيها الآن، حَمَلَها إلى مريم لتضع فيها ملابسها فتحميها مِن المطر. أُحسُّ وكأنّ مريم تشكر يوسف بحرارة على هديّته، وهي تُخرِج كلّ ما كانت قد جهّزته في صرّة لترتّبه فيها.

يُغلِقان باب المنزل وينطلقان... إنّه الفجر، فأنا أرى الشفق يُضفي على الشرق اللون الورديّ.

ما تزال الناصرة نائمة. لم يلتق المسافران الصباحيّان سوى براعٍ يدفع أمامه عنزاته التي تخبّ، مُلاصِقة الواحدة للأخرى ومتراصّة في أكثر مِن مَوضِع، حتّى لكأنّ الواحدة تتداخل في الأخرى وهي تثغو. الحِملان أيضاً تثغو أكثر مِن الأخريات بأصواتها الحادّة، لقد كانت تبغي البحث عن الضِّرع الوالديّ. إلّا أنّ الأُمّهات تُسرِع صوب المرعى وتدعوها للخَبّ بثُغائها الأقوى.

تَنظُر مريم وتبتسم بعد أن تتوقّف لتفسح المجال للقطيع ليمرّ، تنحني، وهي على سرجها، لتُداعِب الحيوانات اللطيفة بلمس ظهرها. وعندما يَصِل الراعي، حاملاً بين ذراعيه حَمَلاً وُلِد لتوّه، ويتوقّف ليُلقي التحيّة، تبتسم مريم وهي تُداعِب فم الحَمَل الورديّ الذي يثغو بدون جدوى. تقول

مريم: «إنّه يبحث عن أُمّه. ها هي أُمّكَ، إنّها لا تترككَ، لا، يا صغير.» بالفعل فقد كانت الأُمّ تحكّ جسدها بالراعي وتَنتَصِب لتلعق فم وليدها.

يمرّ القطيع مُحدِثاً صوتاً كصوت المطر على الأوراق، مثيراً خلفه الغبار بقوائمه الصغيرة التي تُسرِع وتترك نقشاً مِن آثارها على أرض الدرب.

يُتابِع يوسف ومريم طريقهما. يوسف يرتدي معطفه ومريم تتدثّر بشال مخطَّط، فالصبيحة رطبة.

مع ذلك، ها هما وسط القرية يسيران الواحد إلى جانب الآخر. يتحدّثان قليلاً، فيوسف يفكّر في أعماله، ومريم تتبع خواطرها مُستَغرِقة، تبتسم لها ولما يُحيط بها. تَنظُر إلى يوسف أحياناً وقد ظلَّلَ وجهها وشاح مِن الحزن؛ ثمّ تعود الابتسامة حتّى وهي تنظر إلى عروسها المتيقّظ الذي يتكلّم قليلاً ولا يفتح فمه إلاّ لكي يسأل مريم إذا كانت مرتاحة، أو هي بحاجة إلى شيء ما.

يَظهَر الآن على الطريق أناس آخرون، خاصّة في جوار بعض البلدات أو عند التقاطع. ولكنّهما لا يكترثان للأشخاص الذين يلتقيانهم. إنّهما ماضيان على دابّتيهما اللتين تخبّان محدثتين صوت جَلجَلة قويّ، ولم يقفا إلّا مرة واحدة في ظلّ غابة صغيرة ليأكلا بعض الخبز والزيتون ويشربا مِن نبع تتدفّق المياه فيه مِن مغارة. عليهما التوقّف مرّة أخرى للاحتماء مِن المطر المتساقط بغزارة وعُنف مِن غيمة مُكفهرّة جدّاً.

احتَمَيا في ظلّ رابية، تحت نتوء صخرة تحميهما مِن قطرات المطر الكبيرة. ولكنّ يوسف يُصِرّ بِشِدّة على أن تلبس مريم معطفه الصوفيّ غير النَّفوذ، حيث يسيل الماء عليه دون أن يبلّلها. وكان لا بدّ لمريم مِن أن تتنازل أمام إصرار عروسها الذي، لكي يُطَمئِنها على مصيره، يضع على رأسه وكتفيه غطاء رمادياً كان على السرج، وهو على الأرجح، غطاء الحمار. تُشبه مريم الآن أخاً صغيراً، بالقبّعة التي تحيط بوجهها والمعطف الكستنائي المُحكَم عند الرقبة والذي يغلّفها بالكامل.

يتوقّف المطر الغزير ليبدأ رذاذ مُزعِج. ويُتابِع الإثنان مسيرهما على الطريق التي أصبَحَت مُوحِلة. ولكنّه الربيع، وبعد برهة تبدأ الشمس بجعل الدرب أسهل. والمطيّتان تركضان الآن بنشاط أكثر على الطريق.

لم أعد أرى شيئاً لأنّ الرؤيا تتوقّف هنا.

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

30– (مِن أورشليم إلى بيت زكريا)

28 / 03 / 1944

نحن في أورشليم. وقد تعرَّفتُ عليها بشوارعها وأبوابها.

يتوجّه العروسان أوّلاً إلى الهيكل، وقد تعرَّفتُ على الإسطبل الذي تَرَكَ يوسف فيه الحمار يوم التعارف في الهيكل. والآن أيضاً، هو يترك المطيّتين بعد العناية بهما، ويمضي بصحبة مريم لتقديم فروض عبادتهما لله.

ثمّ يَخرُجان، وتذهب مريم مع يوسف إلى منزل أصحاب لهما كما يبدو، حيث يستعيدا نشاطهما، وترتاح مريم ريثما يعود يوسف مع عجوز قصير القامة: «هذا الرجل يسافر على طريقكِ ذاتها. وستبقى مسافة قصيرة جدّاً تقطعينها بمفردكِ لتَصِلي إلى نسيبتكِ. ثقي به، فأنا أعرفه.»

يَأخُذان مطيّتيهما ويُرافِق يوسف مريم حتّى باب المدينة (هو باب آخَر غير ذاك الذي دَخَلا منه). يتصافحان وتمضي مريم وحدها مع العجوز الذي يتكلّم بقدر ما كان يوسف صموتاً، ويُبدي اهتماماً بألف شيء. ومريم تُجيب بصبر.

لقد أصبَحَ الصندوق الذي كان محمولاً على مطيّة يوسف محمولاً الآن على مقدّمة سرج مطيّة مريم، كذلك المعطف لم يَعُد معها، وحتّى شالها، فقد طَوَته ووَضَعَته فوق الصندوق. إنّها جميلة جدّاً بثوبها الأزرق السماويّ الداكن ووشاحها الأبيض الذي يحميها مِن الشمس. كم هي جميلة!

كان سَمَع العجوز ثقيلاً، على ما يبدو، لأنّ مريم كانت تضطر لرفع صوتها كثيراً كي يَسمَعها، وهي التي كانت لا تتكلّم إلا بصوت خافت. أمّا الآن فقد انتهى، لقد أفرَغَ جعبته مِن الأسئلة والأخبار، وها هو يغفو على السرج تاركاً القيادة لمطيّته التي تعرف الطريق جيّداً.

تَغتَنِم مريم فرصة الهدنة هذه لتستجمع أفكارها وتصلّي. إنّها حتماً صلاة تُرنّمها بصوت خافت وهي تنظر إلى السماء اللازورديّة واضعة ذراعيها على صدرها. وبانفعال الروح يرتسم على وجهها نور وغبطة.

لم أعد أرى شيئاً.

الآن وقد توقَّفَت الرؤيا فقد مكثتُ كالأمس والأُمّ إلى جانبي، أراها في داخلي على درجة مِن الصفاء والوضوح، حتّى إنّني أستطيع أن أَصِفها: خدّاها بلون ورديّ فاتح، ممتلئان قليلاً ولكن بعذوبة ممتعة، فمها الصغير أحمر زاه، وعيناها الزرقاوان تتألّقان تحت حاجبيها الشقراوين الداكنين.

يمكنني الكلام عن شعرها الذي فُرِقَ عند قمة الرأس، وهو يتدلى بشكل ممتع بجدلات ثلاث مِن كلّ جهة، حتّى تغطي نصف كلّ مِن الأذنين الصغيرتين، ثمّ تختفي بلونها الأشقر الذهبي البرّاق خلف الوشاح الذي يغطّي رأسها. (أراها بالفعل بثوب مِن الحرير الفردوسيّ، ومعطفها على رأسها، معطف خفيف كوشاح وهو مع ذلك غير شفاف ومِن قماش الثوب نفسه.)

يمكنني القول إنّ ثوبها محصور عند رقبتها بمشدّ ينزلق منه حبل عُقِدَ طرفاه عند أسفل العنق، كما شُدَّ الثوب عند الخصر بحبل أغلظ مِن الأول، ولكنّه مِن الحرير الأبيض كذلك، ويتدلّى على الجانبين بشرّابتين.

كما يمكنني المضيّ في القول إنّ ثوبها المحصور عند العنق والخصر ينثني عند الصدر سبع ثنيات مدوّرة قليلاً، تُشكّل الزينة الوحيدة لثوبها العفيف.

وكذلك بإمكاني التحدّث عن انطباع العفّة المنبعث مِن مَظهَر مريم، مِن تقاسيمها الرقيقة والمتناغمة التي تجعل منها امرأة ملائكيّة.

وكلّما نظرتُ إليها أتألّم لتصوّري إلى أيّة درجة جَعَلوها تتألّم، وأتساءل كيف كان مِن الممكن عدم الإشفاق عليها، عذبة هي ولطيفة ورقيقة حتّى في مظهرها الجسمانيّ. أَنظُر إليها وأَسمَع صيحات الجلجلة وما وُجِّه إليها مِن سخرية وتهريج، وكذلك كلّ اللعنات التي تلقّتها لكونها أُمّ المحكوم عليه. أراها جميلة وهادئة الآن، إلاّ أنّ مظهرها الحالي لا يمكنه أن يمحو ذكرى وجهها المأساويّ ساعة النزاع، والأسى الذي كان يُعبِّر عنه في بيت أورشليم بعد موت يسوع. كنتُ أرغب لو أُلاطِفها وأُقبّل وجنتيها الورديّتين برقّة شديدة، لأنتزع بقبلتي ذكرى دموعها المقيمة فيها مثل إقامتها فيَّ...

لا يمكنني تصديق مدى السلام الذي يَمنَحه وجودها إلى جانبي. تُخامِرني فِكرة أن موتي وأنا أراها سوف يكون بعذوبة، بل أكثر مِن أكثر ساعات الحياة عذوبة. في الآونة الأخيرة، عندما لم أعد أراها هكذا بشكل كامل، تألّمتُ لغيابها كما لغياب أُمّ لي. يُعاوِدني الآن الإحساس بالفرح فائق الوصف الذي لم يفارقني طيلة كانون الأول (ديسمبر) وأوائل أيّام كانون الثاني (يناير). فأنا سعيدة رغم وشاح الألم الذي عَتَّمَ صفو هنائي برؤية تَمزُّقات الآلام.

إنّه مِن الصعب القول وإفهام ما اختبرتُه وما حَدَثَ منذ الحادي عشر مِن شباط (فبراير)، عشيّة رؤيتي يسوع يعاني مِن آلامه. لقد كان مَنظَراً غيَّرَني جذريّاً. فلو مُتُّ الآن أو بعد مائة عام، فستبقى تلك الرؤيا بجدّتها وتأثيرها مطبوعة في مخيّلتي. قبل ذلك كنتُ أفكّر في آلام يسوع، أمّا الآن فقد رأيتُها، لذا تكفيني كلمة أو نظرة إلى صورة لكي أتألّم مِن جديد ذلك الألم الذي أحسستُ به ذاك المساء لاختباري فظاعة تعذيبه، واختباري ضيق ألمها وهي مفجوعة، حتّى ولو لم يذكّرني به شيء، فذكراه تَعصر قلبي.

تبدأ مريم بالكلام وأَصمُت أنا.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

31- (لا تتخلوا أبداً عن حماية الصلاة)

28 / 03 / 1944

تقول مريم:

«لن أطيل كلامي لأنّكِ تَعِبة جدّاً، يا ابنتي المسكينة. إنّني فقط ألفت انتباهكِ وانتباه القرّاء إلى عادة يوسف الثابتة وكذلك عادتي إعطاء الأولويّة دائماً للصلاة. فالجفاء والعَجَلَة والهمّ والانشغالات كلّها لا تعيق الصلاة أبداً، بل على العكس، إنّها عوامل مُساعِدة. الصلاة دائماً مَلِكَة اهتماماتنا وسلوانا ونورنا وأملنا. وإذا كانت السلوى في ساعات الحزن، ففي ساعات السعادة تُصبِح ترتيلة. إنّها الصديقة الصَّدوقة الوفيّة لروحنا. إنّها تُحرّرنا مِن الأرض، مِن المنفى وتسمو بنا إلى أعالي السماء، إلى الوطن.

لم أكن الوحيدة التي أحمل الله فيّ، ولم يكن يشغلني سوى التطلّع إلى أحشائي لأعبد قدس الأقداس، إنّما يوسف أيضاً كان يشعر باتّحاده بالله في الصلاة، لأنّ صلاتنا كانت عبادة حقيقيّة لكلّ كياننا الذي كان يذوب في الله في عبادته وتلقّي عناقه بعد ذلك.

انظروا إليّ، أنا التي كنتُ أحمل الأزليّ، لم أكن أتصوّر نفسي مُعفاة مِن التردّد بإجلال إلى الهيكل. فالقداسة الأكثر سموّاً لا تعفي مِن الشعور بالعَدَميّة أمام الله، وبتواضُع هذا العَدَم، لأنّه هو يسمح لنا به بأوشعنا متواصلة لمجده.

هل أنتم ضعفاء، مساكين، ومُفعَمون أخطاء؟ تضرّعوا إلى قداسة الربّ: "قدّوس، قدّوس، قدّوس!" ادعوا هذا القدّوس المبارَك إلى نجدة بؤسكم. سوف يأتي ويملأكم بقداسته. هل أنتم قدّيسون وأغنياء بالاستحقاقات في عينيه، فهذه القداسة اللامتناهية ستجعل قداستكم تنمو أكثر

وباستمرار. الملائكة، مع كونهم كائنات تفوق ضعف البشريّة، لا يتوقّفون لحظة عن ترتيل "قدّوس"، وجماهم فائق الطبيعة ينمو ويزداد في كلّ تضرُّع إلى قداسة إلهنا. فاقتدوا بالملائكة.

لا تتخلّوا أبداً عن حماية الصلاة التي تتكسّر عليها أسلحة الشيطان ومكر العالم وشهوات الجسد وكبرياء الروح. لا تُلقوا أبداً هذه الأسلحة التي تفتح السماء وتُمطِر النِّعم والبركات.

الأرض في حاجة إلى حمّام مِن الصلوات لتتطهّر مِن الأخطاء التي تجلب قصاصات الله. وبما أنّ نفوس الصلاة قليلة جدّاً، فيجب عليها أن تصلّي كثيراً كي تُعوِّض عن تقصير الآخرين. يجب عليهم مُضاعفة صلواتهم الحارّة ليَصِلوا إلى القَدْر اللازم للحصول على النعمة. تصبح الصلاة حيّة حارّة عندما تبلغ نبعها في الحبّ والتضحية.

أن تتألّمي يا ابنتي وتتّحد آلامكِ بآلامي وآلام يسوعي، هذا رائع ومرْضيّ لدى الله وله استحقاقاته، فإنّ محبّتكِ مشاطرتنا عزيزة على قلبي جدّاً. ولكن هل لكِ أن تعطيني قبلة؟ قبّلي إذن جراح ابني، اسكبي عليه عطر محبّتكِ. إنّ الإحساس بألم السياط والأشواك وعذاب المسامير والصليب، يُعاودني في نفسي. ولكنّني كذلك أعود لأحسُّ بكلّ التودّدات الممنوحة ليسوعي. إنّها أكثر مِن القبلات الممنوحة لي. ثمّ تعالي. أنا مَلِكَة السماء ولكنّني سأظلّ أُمّكِ...

وإنّني لسعيدة!»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

32- (وصول مريم إلى بيت زكريّا)

1944 / 04 / 01

إنّني في بلدة جبليّة. الجبال فيها غير شاهقة، ولكنّها ليست تلالاً كذلك. لها قمم وأخاديد جبال حقيقيّة كالتي نراها على سلسلة جبال "أبنين" "Apennins" (سلسلة جبال على طول إيطاليا بطول 1300 كم). النباتات فيها كثيفة ورائعة. فيها الكثير مِن المياه التي تُحافِظ على الحقول خضراء والبساتين المليئة بالتفّاح مُنتِجة، وكذلك أشجار التين مع الكروم حول البيوت. إنّه الربيع بدون شك، ذلك أنّ العناقيد أصبحت كبيرة مثل حبّات البيقية، وبراعم أشجار التفّاح قد بَدَأَت تتفتّح وهي تبدو الآن خضراء، وعلى الأغصان العليا مِن أشجار التين هناك ثمار أَخَذَت تمام شكلها. وثمّ الحقول، فإنّها ليست سوى سجّاد طريّ بألف لون. ترعى القطعان فيها أو ترتاح، وهي تبدو كبُقَع بيضاء على زمرّد العشب.

تمضي مريم بمطيّتها صعوداً في طريق لا بأس بحالتها، يُفتَرَض أنّها الطريق الرئيسيّة لمدخل البلدة. إنّها تصعد الآن لأنّ البلدة التي تبدو بمظهر منتظم إلى حدّ ما تقع في الأعلى. والذي يُعلِمني عادة يقول لي: «هذا المكان هو حبرون (الخليل)» كنتم تحدثونني عن (Montana) أمّا أنا فلستُ مُتيقّنة ولا أعلم إذا ما كانت حبرون هي البلدة كلّها أم التجمّع السكنيّ فقط. فلن أتحدّث عنها إذن إلاّ في حدود معرفتي.

ها هي مريم تَدخُل القرية. الوقت مساء: نساء على الأبواب يُراقِبن القادمة الغريبة ويتحدّثن عنها فيما بينهنّ. يتبعنها بأعينهنّ، ولم يتأكّدن إلا حين رأينَها تقف أمام أحد أجمل البيوت الواقعة وسط البلدة. مِن الأمام هناك حديقة، ومِن الخلف والجوانب يحيط به بستان مُعتَنى به جيّداً. بعد ذلك يأتي حقل يَصعَد ويَنزِل حسب تضاريس الجبل، وينتهي بدوحة. وبعد ذلك لم أعد أعرف

ماذا يوجد. هذه الأملاك مُحاطَة بسياج مِن العليق وشجيرات الورد البرّيّ. لا أُميّز حملها جيّداً، فزهور وأوراق تلك الأدغال متشابهة كثيراً، وبما أنّ الثمار لم تكتمل بعد على الأغصان، فمن السهل الوقوع في الخطأ. في الواجهة الأماميّة مِن المنزل، مِن الناحية المواجِهة للبلدة، يحيط بالأملاك جدار أبيض تُعرِّش عليه أغصان ورود حقيقيّة، لا تحمل وروداً في الوقت الحالي، ولكنّها مزيّنة بالبراعم والأزرار. وفي الوسط بوّابة حديديّة مغلقة. مِن كلّ ذلك يمكن الاستدلال على أنّه منزل أحد أعيان البلدة أو أحد أثريائها. فكلّ شيء يشير فعلاً، إذا لم يكن إلى الثراء، فعلى الأقلّ إلى اليُسر بكلّ تأكيد. إنّه مُنتَظَم للغاية.

تترجّل مريم مِن على مطيّتها، وتدنو مِن البوّابة. تَنظُر مِن خلال القضبان فلا ترى أحداً. فتأخذ بالبحث عن وسيلة تُعلِن بواسطتها عن وجودها. وكانت امرأة صغيرة القدّ أكثر فضولاً مِن الأُخرَيات وقد تَبِعَتها، فتدلّها على تركيبة غريبة تُستَخدَم كجرس، وهي عبارة عن قطعتي معدن مثبّتتين على محور، عند تحريك المحور بواسطة الحبل تتصادمان الواحدة بالأخرى فتُصدِران صوتاً يشبه صوت الجرس أو صوت صنج.

تشد مريم الحبل، إنّما بلطف شديد بحيث يرن الجهاز رنّة خفيفة لم يسمعها أحد. فتدنو العجوز صغيرة القدّ، وهي عِبارة عن أنف وذقن وبينهما لسان يساوي عشرة، وتتعلّق بالحبل وتشدّ، تشدّ، تشدّ مُحدِثة ضجّة توقِظ الميت. «هذا ما يجب فِعله، وإلّا فكيف ستجعلينهم يسمعونكِ؟ اعلَمي أنّ أليصابات عجوز، وكذلك زكريّا، وهو في الوقت الحاضر أصمّ أبكم فوق البيعة. كذلك الخدّام شيوخ، هل تَعرِفين ذلك؟ ألم تجيئي أبداً؟ هل تَعرِفين زكريّا؟ هل أنتِ...»

إنقاذاً لمريم مِن هذا الطوفان مِن الاستفسارات والأسئلة، يُقبِل عجوز صغير يتعثّر. ربما كان البستانيّ أو أحد الفلّاحين، فهو يَحمِل في يده مِعزَقَة ويُعلّق في حزامه ساطوراً صغيراً. يَفتَح فتَدخُل مريم وهي تَشكُر العجوز الصغيرة ولكن... وا أسفاه! دون أن تُجيبها. يا لخيبة أمل هذه الفُضوليّة!

حال دخولها تقول مريم: «أنا مريم بنت يواكيم وحنّة مِن الناصرة، نسيبة معلِّميكم.»

ينحني العجوز ويؤدّي التحيّة ويبدأ بالهتاف: «سارة! سارة!» ثمّ يَفتَح البوّابة لِيُدخِل الحمار الذي بقي خارجاً، لأنّ مريم، كي تتخلّص مِن العجوز الصغيرة المُزعِجة تنزلق إلى الداخل بسرعة، ويُغلِق البستانيّ البوّابة بسرعة مشابهة في وجه الثرثارة، ثمّ يقول بينما يُدخِل المطيّة: «آه! سعادة كبيرة في هذا المنزل، وكذلك غمّ كبير! السماء مَنَحَت العاقر وَلَدَاً، فليتبارك تعالى! إلّا أنّ زكريّا عاد منذ سبعة أشهر مِن أورشليم أبكَم، يتحدّث إلى الآخرين بواسطة الإشارة أو الكتابة. ألعلّكِ عَلِمتِ بذلك؟ كم كانت سيّدتي تطلبكِ وسط هذه السعادة وهذا الغَمّ! غالباً ما تتحدّث عنكِ مع سارة، وقد كانت تقول: "لو كانت مريم الصغيرة معي أيضاً! لو أنّها ما تزال في الهيكل، لكنتُ طلبتُ مِن زكريّا أن يأتي بها، ولكن الربّ شاء أن تكون الآن عروسة ليوسف الناصريّ. هي وحدها تستطيع مؤاساتي في هذه المحنة وتساعدني في الابتهال إلى الله، فهي طيّبة وصالحة جدّاً، والجميع في الهيكل يبكون لغيابها. في العيد الماضي، عندما ذهبتُ مع زكريّا آخر مرّة إلى أورشليم لأشكر الله على منحه إيّاي ابناً، سمعتُ معلّماتها يقلن لي: 'يبدو الهيكل وكأنّه فَقَدَ شاروبيم المجد منذ أن توقّف صوت مريم عن التردّد بين هذه الجدران'". سارة! سارة! إنّ زوجتي ثقيلة السّمع قليلاً، ولكن تعالي، تعالي، سوف أرشدكِ.»

بَدَلَ سارة، تَظهَر في أعلى سلّم جناح في طرف المنزل، امرأة متقدّمة أكثر في السنّ، تملؤها التجاعيد، والشعر يكسوه المشيب. هذا الشعر الذي يُفتَرَض أنّه كان أسود قاتماً لأنّ حاجبيها ورموشها ما تزال سوداء قاتمة، وهي كانت سمراء داكنة، فلون وجهها يشير إلى ذلك بوضوح. وحَمْلها الظاهر جدّاً رغم رحابة ثيابها يتعارض بشكل غريب مع شيخوختها الحاليّة. إنّها تَنظُر وتُشير بيدها. لقد تعرَّفت على مريم. ترفع ذراعيها إلى السماء مع هتاف «أوه!» وبدهشة وسرور، تُسرِع قدر استطاعتها لملاقاة مريم. ومريم كذلك، الرزينة دائماً بمشيتها، أَخَذَت تركض بخفّة كظبية، وتَصِل إلى أسفل الدرج بنفس الوقت مع أليصابات. وتضمّ مريم إلى قلبها بابتهاج نسيبتها التي تبكي فَرَحَاً لرؤيتها.

تَظلّان متعانِقَتَين برهة، ثمّ تنفكّ أليصابات مِن العناق مع «آه!» يمتزج فيها الألم بالفرح، وتحمل يدها إلى بطنها المنتفخ. تخفض وجهها الذي بات يتلوّن بالأصفر والأحمر بشكل مُتناوِب. تمدّ مريم والخادم أيديهما ليَسنداها، لأنّها بدَأَت تترنّح كما لو أنّها كانت تشعر بسوء. ولكنّ أليصابات، بعد أن ظلّت دقيقة وكأنّها تختلي بنفسها، ترفع وجهاً مُشعّاً لدرجة أنّه يبدو وكأنّه يعود شابّاً. تنظر إلى مريم بإجلال وهي تبتسم كما لو كانت ترى ملاكاً، ثمّ تنحني بتحيّة عميقة وهي تقول: «مباركة أنتِ في النساء! مباركة ثمرة بطنكِ! (تلفظهما هكذا، جملتين منفصلتين تماماً). كيف لي أن تأتي أُمّ ربّي إليّ، أنا خادمتكِ؟ فها إنّ الجنين قد ارتَكَضَ في بطني لدى سماعه صوتكِ، وعندما قَبّلتُكِ قال لي روح الرب في أعماق قلبي الحقائق السامية جدّاً. مغبوطة أنتِ لإيمانكِ بأنّه مُستطاع لدى الله ما يبدو غير مُستطاع للروح البشريّة! مباركة أنتِ لأنّكِ، بفضل إيمانكِ، سيتمّ فيكِ ما قيل لكِ مِن قِبَل الربّ ونبوءات الأنبياء لهذا الزمان! مباركة أنتِ مِن أجل الخلاص الذي ستنجبينه لأبناء يعقوب! مباركة أنتِ لأنّكِ حملتِ القداسة لابني الذي أُحسّ به يقفز كَجَدي بسبب الفرح الذي يختبره في أحشائي! هذا لأنّه أَحَسَّ بنفسه محرَّراً مِن الخطيئة، مدعوّاً ليكون السابق، مقدّساً قبل الفداء بواسطة القدّوس الذي فيكِ!»

مريم، بدمعتين كلّؤلؤتين تنهَمِران مِن عينيها الضاحكتين باتّجاه فمها الذي يبتسم ووجهها المرتفع نحو السماء وكذلك ذراعاها، في الوضع الذي سيتّخذه كثيراً يسوع فيما بعد، تهتف: «تُعَظِّم نفسي الرب.» وتُكمِل الترتيلة كما وصَلَت إلينا. وفي النهاية، عند الآية: «عَضَدَ إسرائيل فتاه...» تُصالِب يديها على صدرها، تجثو منحنية إلى الأرض في عبادة لله.

يتوارى الخادم بكلّ لباقة، عندما يرى أنّ أليصابات لم تعد تشعر بسوء، وهي تبثّ أفكارها لمريم. ويعود مِن البستان برفقة عجوز جليل ذي شعر أبيض ولحية، وهو يحيّي مريم مِن بعيد بحركات كبيرة وأصوات حَلقيّة.

«لقد وَصَلَ زكريا» تقول أليصابات وهي تلمس كتف العذراء المستغرقة في صلاتها «زوجي زكريا أَبكَم. لقد عاقَبَه الله لأنّه لم يؤمن. سوف أقصّ عليكِ فيما بعد حكايته، إنّما الآن أرجو العفو مِن الله لأنّكِ أتيتِ أنتِ الممتلئة نعمة.»

تَنهَض مريم وتذهب لملاقاة زكريا، وتنحني أمامه إلى الأرض، وتُقبّل طرف الرداء الأبيض الذي يتسربله حتّى الأرض. إنّه ثوب فضفاض جدّاً وقد رُبِطَ عند الخصر بشريط عريض مُوشّى.

يُرحِّب بها زكريا بحركات، ويمضيا معاً لموافاة أليصابات. ثمّ يَدخُلون جميعهم إلى قاعة رَحبَة ومنظّمة بشكل جيّد جدّاً حيث يُجلِسان مريم ويُقدِّمان لها كأساً مِن الحليب الطازج -إنّه ما يزال يرغو- مع بعض الكعك الصغير.

تُملي أليصابات أوامرها للخادمة التي تَظهَر أخيراً بيديها اللتين يكسوهما الطحين، والشعر الذي أَكسَبَه الطحين العالق فيه بياضاً أكثر ممّا هو عليه في الحقيقة؛ قد تكون في ذلك الحين تصنع الخبز. ثمّ تطلب إلى خادم آخر، سَمِعتُها تناديه صموئيل، أن يحمل صندوق مريم إلى غرفة عيَّنَتها له. كلّ واجبات ربّة بيت تجاه ضيفة لديها.

وفي هذه الأثناء كانت مريم تُجيب على أسئلة يطرحها زكريّا كتابة بواسطة مِسبَر على لوح مطليّ بالشمع. أدركتُ مِن الأجوبة أنّه يُحدّثها عن يوسف، ويَسألها عن وَضعها كعروسة. وأيقنتُ كذلك أنّ زكريّا لم يتلقَّ أيّة إشارة نورانيّة فائقة الطبيعة عن وضع مريم كأُمّ الماسيا. وها هي أليصابات تدنو مِن زوجها وتضع يدها بحنان على كتفه كما لمُداعَبة عفيفة، وهي تقول له: «مريم أيضاً هي أُمّ. افرح لسعادتها.» ولكنّها لم تُضِف شيئاً، تَنظُر إلى مريم وكذلك مريم تَنظُر إليها دون أن تدعوها لقول المزيد. وتَصمُت.

ما أعذبها رؤيا! لقد انتزعَت منّي الهلع الذي أحسستُ به لرؤيتي يهوذا ينتحر.

أمس مساء، قبل أن أنام، رأيتُ مريم تبكي وهي منحنية على حجر الدَّهن، على جسد الفادي الذي لا حراك فيه. كانت إلى يمينه وظهرها لمدخل المغارة الضريح. أضاءَت نور المشاعل وجهها وجَعَلَتني أرى وجهها المسكين الذي اجتاحَه الألم وغَمَرَته الدموع. كانت تمسك بيد يسوع، تمسحها، تُدفّئها على خدّيها ثمّ تقبّلها وتبسط أصابعها... كانت تقبّل أصابعه كلّاً بمفرده رغم كونها جامدة. كانت تمرّر يدها على وجهه وتنحني لتقبّل فمه المفتوح وعينيه شبه المغمضتين وكذلك جبينه المجروح. ونور المشاعل المائل للاحمرار يُبرِز جراح كلّ الجسد المُنهَك أكثر حدّة، وفظاعة العذاب الذي تلقاه أكثر وضوحاً وكذلك حقيقة موته.

بَقيتُ في تأمّلي هكذا طالما بَقِيَ فِكري نيّراً. ثمّ نبَّهني نعاسي كي أصلي وأتخذ وضعية النوم الصحيحة. وهنا بالضبط بدَأَت الرؤيا المذكورة أعلاه، ولكن الأُمّ قالت لي: «لا تتحرّكي، انظري فقط وستكتبين غداً.» وأثناء نومي رأيتُ كلّ شيء مِن جديد في الحلم. وعندما استيقظتُ في السادسة والنصف صباحاً عدتُ لأرى كلّ ما رأيتُه مساء أمس وفي الحلم. كتبتُ وأنا أرى. ثمّ أتيتم واستطعتُ أن أسأل إذا كان مِن المفروض أن أكتب كلّ ما سوف يلي. إنّها لوحات صغيرة متفرّقة عن إقامة مريم في بيت زكريّا.

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

33- (مريم تَبوح بالاسم لأليصابات)

1944 / 04 / 02

يبدو أنّ الوقت صباح، وأرى مريم تخيط في الردهة. وأليصابات تروح وتجيء، تعتني بشؤون المنزل. كلّما دَخَلَت لا تتوانى أبداً في التوجّه إلى مريم لتمرّر يدها على رأسها الأشقر مُداعِبَة إيّاها، ويَبرز لونه الأشقر أكثر وهي قرب الجدران المظلّلة تحت شعاع جميل مِن الشمس التي تَدخُل مِن الباب المطلّ على الحديقة.

تنحني أليصابات لترى شُغل مريم -التطريز الذي بدَأَتهُ في الناصرة- والذي تعمل على إضفاء الجمال عليه.

تقول مريم: «عندي أيضاً كتّان أغزله.»

«لابنكِ؟»

«لا، لقد كان لديّ عندما لم أكن أفكّر بعد...» لم تُكمِل مريم ولكنّني أدركتُ «عندما لم أكن أفكّر بعد بأنّني سأكون أُمّ الله.»

«ولكن الآن يجب أن تستخدميه له. هل هو جميل؟ ناعم؟ فالأطفال كما تعلمين بحاجة إلى ثياب مُرهَفة جدّاً.»

«أعرف ذلك.»

«أنا كنتُ قد بدأتُ... متأخّرة، لأنّني أردتُ أن أتأكّد مِن أنّها ليست خديعة مِن الروح الشرّير. وعلى الرغم مِن... فقد اعتراني فرح عظيم لا يمكنه أن يتأتّى مِن الشيطان. ثمّ... تألّمتُ كثيراً. أنا عجوز حتّى أكون في مثل هذه الحال. لقد تألّمتُ كثيراً. وأنتِ، أفلا تتألّمين؟...»

«أنا، لا، لم أشعر يوماً مدى حياتي أنّني كنتُ أحسن حالاً مِن الآن.»

«أي نعم! أنتِ... لا عيب فيكِ، إذا كان الله قد اختاركِ لتكوني أُمّه. إذن فأنتِ لستِ خاضعة لآلام حوّاء. ثمّ إنّ الذي تحبلين به قدّوس هو.»

«يُخيّل إليَّ أنّ في قلبي أجنحة وليس ثِقلاً. يخيّل إليَّ أنّي أحمل في داخلي كلّ الزهور وكلّ العصافير التي تُغرّد في الربيع، وكذلك لذّة العسل وكلّ الشمس... آه! كم أنا سعيدة!»

«مباركة أنتِ! فأنا أيضاً منذ اللحظة التي رأيتُكِ فيها، لم أعد أشعر بثِقل ولا تعب ولا ألم. يبدو لي أنّني قد تجدَّدتُ وأصبحتُ شابّة ومُحرَّرة مِن شقاء الجسد كامرأة. فبعد أن قَفَزَ ابني مِن الفرح لدى سماعه صوتكِ، سَكَنَ مسروراً. يبدو لي أنّني أحمله في أحشائي كما في مهد حيّ، وأنّني أراه نائماً مُشبَعاً وسعيداً، يتنفّس كعصفور يستريح مطمئنّاً تحت جناح أُمّه... فالآن سأبدأ عملي، لم يعد يُتعِبني. إنّي لا أرى بوضوح، ولكن...»

«دعي عنكِ أليصابات! فأنا أفكّر أن أغزل وأن أنسج لكِ ولابنكِ. فأنا رشيقة وأرى بوضوح.»

«ولكن يجب أن تفكّري بابنكِ...»

«آه! لديّ متّسع مِن الوقت!... أفكّر أوّلاً بكِ وبابنكِ، وثمّ أفكّر بيسوعي.»

لقد كانت العبارة عذبة للغاية، وصوت مريم كان يتهلّل وهي تلفظ هذا الاسم، ثمّ تتلألأ عيناها بدموع فرح مُشرِقة بينما هي تنظر إلى السماء المضيئة واللازورديّة، هذا ما يفوق القُدرات البشريّة. يبدو أنّ النشوة قد استولت عليها ولم تعد تعي سِوى القول: «يسوع.»

فتقول أليصابات: «يا له مِن اسم جميل! اسم ابن الله، مخلّصنا!»

«آه! أليصابات!» وتتحوّل ملامح مريم لتبدو حزينة، حزينة، وتُمسِك يديّ نسيبتها التي تُصالِبهما على بطنها المنتفخ «قولي لي أنتِ يا مَن امتلأتِ مِن روح الربّ عند قدومي، وتنبّأتِ بما يجهله العالم. قولي لي: ماذا على ولدي أن يفعل ليخلّص العالم؟ الأنبياء... آه! مَن الأنبياء الذين يتكلّمون عن المخلّص! اسحق... هل تَذكُرين اسحق؟ "إنّه رجل الآلام، فبكدماته شُفينا نحن. لقد طُعِن وجُرِح بسبب ما اقترفنا مِن الآثام... أراد الربّ أنّ بالآلام... وبعد الحُكم رُفِع..." عن أيّ رَفع يتكلّم؟ إنّه يُدعَى حَمَلاً وأنا أفكّر... بحَمَل الفصح، حَمَل موسى، لذا فأنا أُقابِله بالحيّة التي رَفَعَها موسى على صليب. أليصابات!... أليصابات!... ماذا سيفعلون بابني؟ كيف عليه أن يتألّم ليخلّص العالم؟» وتبكي مريم.

تؤاسيها أليصابات: «لا تبكي يا مريم. إنّه ابنكِ صحيح، ولكنّه أيضاً ابن الله. والله سوف يفكّر بابنه وبكِ أنتِ أُمّه. وإذا ظَهَرَ كثيرون فيما بعد غليظي القلب تجاهه، فسيكون هناك كثيرون يحبّونه. كثيرون!... عَبْر قرون وقرون، سيتطلّع العالم نحو ابنكِ ويباركُكِ معه، أنتِ: النبع الذي منه ينبع الفِداء. ومصير ابنكِ! إنّه مرتفع إلى درجة المَلِك على كلّ الخليقة. فكّري بهذا يا مريم. مَلِك: لأنّه سيفتدي كلّ ما كان قد خُلِق، ولهذا سيصبح الملك الكونيّ. وأيضاً سيكون محبوباً على الأرض عبر الأزمنة. ابني سيسبق ابنكِ ويحبّه. وهذا ما قاله الملاك لزكريّا وهو قد كَتَبَه لي... آه! يا له مِن ألم أن أراه صامتاً، زوجي زكريّا! ولكنّني أرجو، لدى ولادة ابني، أن يتحرّر الأب أيضاً مِن القَصاص الذي وَقَعَ عليه. صلّي معي أنتِ يا عرش قُدرة الله وسبب فرح العالم. ولكي أنال ذلك أُقدّم، بالقدر الذي أستطيعه، وليدي للربّ. إنّه له فعلاً وقد أعارَه لخادمته ليهبها الفرح

بسماع مَن يدعوها "أُمّاً". وتلك هي الشهادة لما فَعَلَهُ اللهُ مِن أجلي. أريد تسميتَه "يوحنّا". أليس ابني نعمة أم هو صدفة؟ أوليس الله هو الذي صَنَعَ بي ذلك؟»

«أنا واثقة تماماً بأنّ الله سيمنحكِ هذه النعمة. سأصلّي... معكِ.»

«أَحزَن كثيراً لرؤيتي إيّاه أَبكَم!...» وتبكي أليصابات. «وعندما يكتب لأنّه لا يستطيع الكلام، يخيّل إليَّ أنّ هناك جبالاً وبحوراً بيني وبين زكريّا. فبعد سنوات كثيرة مِن الكلام العَذب يبقى فمه الآن صامتاً. الآن بشكل خاصّ حيث لا شيء أجمل مِن الكلام عما سيحصل. أَمتَنِع حتّى عن الكلام لكي لا أراه يُجهِد نفسه بالحركات ليُجيبني. لقد بكيتُ كثيراً! لقد انتظرتكِ طويلاً! البلدة تَنظُر، تُثرثر وتنتقد. هكذا هو العالم! وعندما يكون هناك حزن أو فرح فالحاجة تكون ماسّة للتفهّم وليس للانتقاد. الآن يبدو لي أنّ الحياة ستكون أفضل بكاملها. أُحِسّ بالفرح يملأني منذ أن أصبَحتِ معي. أُحِسّ بأنّ اختباري سيمرّ وسأصبح قريباً سعيدة تماماً. سيكون هذا، أليس كذلك؟ إني مُذعِنة لكلّ شيء. ولكن ليت الله يصفح عن زوجي! للتمكّن مِن سماعه يصلّي كما في السابق!»

تُلاطِفها مريم وتواسيها، ثمّ، ولكي تسلّيها، تدعوها إلى نزهة في الحديقة المُشمِسة. وتذهبان معاً تحت عريشة منصوبة جيّداً، وتَصِلان إلى برج ريفيّ اتَّخَذَت طيور الحمام أعشاشاً في تجاويفه.

تَنثر مريم الحبوب وهي تضحك، وطيور الحمام تتهافت عليها مع الهديل وتطير حولها بشكل دائريّ. وتقف على رأسها وكتفيها وذراعيها مادّة مناقيرها الورديّة لالتقاط الحبوب مِن تجاويف يديها، ناقرة بلطف شَفَتيّ العذراء الورديّتين وأسنانها التي تلمع في الشمس. تُخرِج مريم حبوباً شقراء مِن كيس معها وتضحك وسط هذه المنافسة العامرة على النَّهَم.

تقول أليصابات: «كم تحبّكِ! لم يمض على وجودكِ معنا بضعة أيّام وهي تحبّكِ أكثر منّي، أنا التي أعتني بها بشكل دائم.»

تستمرّ النزهة إلى أن تَصِلا إلى سياج مُغلَق في نهاية البستان حيث توجد عشرون عنزة مع جِدائها.

«هل أنتَ عائد مِن المرعى؟» تقول مريم وهي تُداعِب راعياً صغيراً.

«نعم، فأبي قال لي: "اذهب إلى البيت لأنّ المطر سينهمر قريباً، وهناك حيوانات ستضع صغارها، فاهتمّ بتأمين العشب اليابس لها واجعل مهد قشّ قريباً منها؛ ها هو آت.» ويُشير إلى ما وراء غابة يأتي منها ثغاء مُرتَعِش.

تُداعِب مريم جَدياً أشقر كطفل يحتكّ بها، وتَشرَب مع أليصابات حليباً طازجاً حَلَبَه الراعي الصغير وقدّمه لهما.

يَصِل القطيع برفقة راعٍ ضخم مثل دبّ، إنّما يبدو أنّه رجل طيّب، فقد كان يحمل على كتفيه عنزة تئنّ، ويضعها على الأرض بلطف ويقول مُفسّراً: «سوف تَلِد ولم تعد تستطيع السير إلّا بصعوبة، فحَمَلتُها على كتفي ومشيتُ بسرعة لأصل بها في الوقت المناسب.» ثمّ يقود الولد العنزة التي تتعثّر متألّمة، إلى الحظيرة.

تَجلس مريم على صخرة تَلعَب مع الحِملان والجِدّاء وهي تُقَرِّب زهر النفل مِن أفواهها الورديّة. ويَرفَع جَدي أبيض وأسود قائمتيه الأماميّتين ويضعهما على كتفيها ويشمّ شعرها فتقول له مريم وهي تضحك: «هذا ليس خبزاً، غداً سأجلب لكَ قطعة خبز. اهدأ الآن.»

وأَخَذَت أليصابات التي استعادت هدوءها تضحك.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

34– (مريم تتحدث عن ابنها)

02 / 04 / 1944

أرى مريم تَغزل بسرعة، تحت العريشة حيث ينمو العنب. المفروض أنّ وقتاً قد مضى لأنّ ثمّار التفّاح بدَأَت تأخذ لونها الأحمر على الشجر، والنحل يطنّ قرب ثمر التين الذي نَضَج.

لقد أضحَت أليصابات ضخمة جدّاً وثقلت مشيتها. ومريم تنظر إليها بحنان. وحتّى مريم نفسها عندما تنهض لتلمّ المِغزَل الواقع بعيداً تبدو مكوّرة مِن الجانبين وقد تبدَّلَت تعابير وجهها. لقد نضَجَت أكثر، فقد كانت شابّة صغيرة وهي الآن امرأة.

بدأ النهار يميل، وتَدخُل المرأتان إلى الداخل حيث أُشعِلت المصابيح. وفي انتظار العشاء مريم تنسج.

«ولكن ألا يتعبكِ حقّاً هذا؟» تسأل أليصابات وهي تشير بإصبعها إلى عمل النسيج.

«لا، اطمئني.»

«أمّا أنا فهذه الحرارة تتعبني. لم أكن أعاني، ولكن الحَمْل الآن أصبح ثقيلاً على كُليَتَيّ العجوزتين.»

«تشجّعي، فقريباً ستلدين بالسلامة. وكم ستكونين سعيدة آنئذ! أمّا أنا فلستُ أرى ساعة أمومتي. ابني! يسوعي! كيف سيكون؟»

«جميلاً مثلكِ يا مريم.»

«آه! لا! بل أجمل! هو الله وأنا خادمته. ولكن قصدي مِن القول كان: "هل سيكون أشقراً أم أسمراً؟ هل ستكون عيناه كسماء ساكنة أم مثل أيائل الجبال؟ إنّي أتصوّره أجمل مِن الشاروبيم، بشعر ذهبيّ وعينين بلون بحر الجليل عندما تبدأ النجوم ترتفع في أفق السماء، وفم صغير وأحمر مثل رمّانة انفلَقَت على أُمّها، ووجنتين ورديّتين تماماً مثل هذه الوردة الشاحبة، ويدين كأنّهما في كُمّ زنبقة، وهما صغيرتان للغاية، وجميلتان للغاية، وقدمين صغيرتين تكادان تكونان على قدر ملء تجويف الكفّ وناعمتين لطيفتين ومخمليّتين، بل هما أكثر نعومة مِن تويج زهرة. انظري، إنّني أُسقِط الفكرة التي أُكوّنها عنه على كلّ الجمالات التي توحيها لي الأرض. وأَسمَع صوته. عندما يبكي، صغيري، سيبكي قليلاً فقط مِن الجوع أو الوَهَن، وسوف يُسبّب ذلك ألماً كبيراً لأُمّه التي لن تستطيع... آه! لا، لن تستطيع رؤيته يبكي دون أن يُطعَن قلبها. سيكون صراخه مثل الثّغاء الذي يَصِلنا مِن هذا الحَمَل الصغير المولود حديثاً وهو يفتّش عن ضرع أُمّه، ولكي ينام يبحث عن دفء جزّتها. ضحكته تملأ قلبي المتعلّق بوليدي نشوة سماويّة. سأُصبح عاشقة له، لأنّه إلهي، وحبّي له كعاشقة لن يتعارض مع تكريسي ذاتي للبتوليّة. ستكون ضحكته مثل هديل زغلول حمام صغير سعيد مُشبَع وراض في دفء عشّه. أفكّر في خطواته الأولى... عصفور يُنطنِط على حقل مُزهِر. والحقل سيكون قلب أُمّه الذي يحمي قدميه الورديّتين الصغيرتين بكلّ حبّه لكي لا يُواجِه أيّ شيء يمكنه أن يجعله يتألّم. كم أحبّ وَلَدي! ابني! ويوسف أيضاً سوف يحبّه!»

«ولكن يجب أن تخبري يوسف بذلك!»

تتجهّم مريم وتتنهّد. «كان ينبغي لي أن أخبره... كنتُ أرغب أن تُعلِمه السماء بذلك لأنّ الحديث في هذا صعب جدّاً.»

«هل تريدينني أن أكلّمه؟ أن أجعله يأتي مِن أجل خِتان يوحنّا؟...»

«لا، فلقد تركتُ لله مهمة إعلامه بمصيره السعيد كمربّي ابن الله. وهو سيتدبّر الأمر. قال لي الروح هذا المساء: "اصمتي، اتركي لي المهمة، سوف أبرّركِ". وهو سيفعل، فالله لا يكذب

أبداً، إنّه اختبار كبير، إنّما يمكن اجتيازه بمعونة الأزليّ. ولا يجوز لأحد سواكِ، أنتِ يا مَن باح لكِ الروح بذلك، أن يَعلَم مِن فمي بعطف الربّ حيال خادمته.»

«أنا قد التزمتُ الصمت دائماً حتّى حيال زكريّا الذي كان سيفرح كثيراً. إنّه الآن يعتقد أنّ أمومتكِ طبيعية.»

«أعلَم، ولقد أردتُ ذلك مِن قبيل الحيطة والحذر. فأسرار الله مقدّسة. ملاك الربّ لم يبح لزكريّا بأمومتي الإلهيّة. كان باستطاعته أن يفعل لو أراد الله ذلك، ذلك أنّ الله كان يَعلَم أنّ زمن تجسّد كلّمته في أحشائي وشيك. ولكنّ الله أخفى هذه الفرحة المشعّة عن زكريّا الذي رَفَضَ خصوبتكِ المتأخّرة باعتبارها مستحيلة. إنّني أَمتَثِل لإرادة الله. وكما رأيتِ، لقد عرفتِ أنتِ هذا السرّ الحيّ فيَّ... وهو لم يُلاحِظ شيئاً. وطالما لم يقع حجاب شكّه بما يخص قُدرة الله، فسيعيش بعيداً عن النور فائق الطبيعة.»

تتنهّد أليصابات وتلتزم الصمت.

يَدخُل زكريا، يُقدِّم لفائف لمريم، إنّها ساعة الصلاة قبل العشاء، ومريم هي التي تصلّي بصوت مرتفع بدل زكريّا. ثمّ يَجلسون إلى المائدة.

«عندما ترحلين مِن هنا، كم سنفتقد مَن يتلو لنا الصلوات!» تقول أليصابات وهي تَنظُر إلى زوجها الأبكم.

فتجيب مريم: «سوف تصلّي أنتَ آنذاك يا زكريّا.»

يهزّ رأسه ويكتب: «لن أستطيع الصلاة عن الآخرين، لقد أصبحتُ غير أهل لذلك منذ اللحظة التي شككتُ فيها بقُدرة الله.»

«زكريّا، سوف تصلّي، فالله غفور ويُسامح.»

يَمسَح العجوز دمعة ويتنهّد.

بعد العشاء، تعود مريم إلى أعمال النسيج، فتقول لها أليصابات: «هذا يكفي! إنّكِ تُجهِدين نفسكِ كثيراً.»

«إنّ زمن الولادة وشيك يا أليصابات، وأريد أن أصنع لابنكِ جِهازاً يليق بسابق المَلِك الذي مِن أصل داود.»

يَكتب زكريّا: «ممّن سيولَد؟ وأين؟»

تُجيب مريم: «حيث قال الأنبياء ومِن التي يختارها الله الأزليّ. كلّ ما يَصنعه ربّنا، تعالى، هو جيّد.»

يَكتب زكريا: «في بيت لحم إذن! قضاء يهوذا! سوف نذهب لتكريمه أيّتها المرأة. وأنتِ أيضاً ستأتين إلى بيت لحم مع يوسف.»

تخفض مريم رأسها فوق شغلها: «سوف آتي.»

وبهذا تنتهي الرؤيا.

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

35- (يجب أن تجعلنا عطية الله أفضل على الدوام)

1944 / 04 / 02

تقول مريم:

«أُولى مظاهر حبّ القريب تُمارَس تجاه القريب. فلا يخيّل إليكِ أنّ ذلك تلاعب ألفاظ.

للمحبّة غاية مُضاعَفَة. الله والقريب. محبّة القريب تتضمّن تلك التي نمارسها تجاه أنفسنا. أمّا إذا أحببنا أنفسنا أكثر مِن الآخرين فلا نعود مُحبّين، بل نكون بهذا أنانيّين.

حتّى في الأمور المُباحَة، يجب أن يكون لنا فيها قَدر مِن القداسة يجعلنا نقدّم احتياجات القريب على احتياجاتنا. كونوا مطمئنّين يا أولادي: فالله يعوّض النفوس الكريمة بوسائل صلاحه الكلّية القُدرة. هذا اليقين جعَلَني آتي إلى الخليل لمساعدة نسيبتي في الحالة التي وُجِدَت فيها. ومع عزمي على العون البشريّ باندفاعي للعطاء إلى أبعد الحدود، أضاف الله على عادته عطية العَون فائق الطبيعة الذي لم يكن ليخطر لي على بال.

أَذهَب لتقديم العون المادّيّ، والله يُقدِّس استقامة مسعاي بتقديس ثمرة أحشاء أليصابات، ومع هذا التقديس الذي قَدَّس المعمدان مسبقاً، سَكَّنَ الآلام الجسديّة لابنة حوّاء المسنّة، والتي حمَلَت في سنّ غير عاديّة.

أليصابات، المرأة التي تملك الإيمان الجريء، والتي استسلَمَت بثقة لإرادة الله، استَحَقّت إدراك السرّ الكامن فيَّ. كَلَّمَها الروح بواسطة ارتكاض الجنين في أحشائها. لقد نَطَقَ المعمدان بحديثه الأوّل كمبشّر بالكلمة مِن خلال أشرعة الأوردة والجسد التي فَصَلَته عن أُمّه القدّيسة وبنفس الوقت وحّدَته معها.

وأنا لم أرفض أن أقول لها، وهي الجديرة والتي تجلّى لها النور، عن مزيّتي كأُمّ الربّ. ذلك أنّ رفضي كان سيؤثّر في حَجب التسبيح الواجب لله، التسبيح الذي كنتُ أحمله في داخلي، وبما أنّني لم أكن أستطيع البوح به لأحد، فقد كنتُ أَسرُّ به للنباتات والزهور والنجوم، للشمس وغناء العصافير الشجيّ، للنِّعاج الوديعة والنور الذهبي الذي يَطبَع قبلاته عليَّ عندما يهبط مِن السماء، وكذلك لخرير الجداول. ولكنّ صلاة اثنين أَعذَب وأفضل مِن الصلاة منفَرِدين. كنتُ أرغَب في أن يعرف العالم بأكمله مصيري، ليس مِن أجلي، إنّما لنتّحد معاً في تسبيح ربّي.

الحيطة والحذر مَنَعَاني مِن البوح بالحقيقة لزكريّا. فهذا كان سيُعتَبَر تجاوُزاً لعمل الله. فحتّى ولو كنتُ بالنسبة له عروسة وأُمّاً، إلّا أنّني أبقى دائماً خادمته، ولا ينبغي بسبب حبّه الكبير أن أسمح لنفسي بأن أقوم مقامه وأن أتّخذ قراراً يجعلني في مرتبة أعلى منه. لقد تنبَّهَت أليصابات بقداستها للأمر وصَمَتَت، ذلك أنّ مَن يَكن قدّيساً يَكن دائماً خاضعاً ومتواضعاً.

يجب أن تجعلنا عطيّة الله دائماً أفضل. وكلّما تلقّينا منه العطايا كلّما وَجَبَ علينا العطاء، إذ كلّما تَلقّينا كلّما كان هو فينا ومعنا وكان ينبغي لنا أن نجتهد في الاقتراب مِن كماله. وهذا هو السبب الحقيقيّ الذي جَعَلَني أُرجِئ عملي الشخصيّ إلى مرحلة تالية وأَعمَل لأليصابات.

لم أدع مجالاً للخوف مِن عدم إيجاد الوقت أن يسيطر عليّ، فالله سيّد الزمن. وعندما نضع رجاءنا في الله نستفيد مِن عنايته نفسها في أمورنا الماديّة. الأنانيّة لا تَستَعجِل شيئاً، بل تؤخّر كلّ شيء، والمحبّة لا تؤخّر شيئاً، بل تَستَعجِل كلّ الإنجازات. احفَظوا ذلك جيّداً وعلى الدوام.

يا لهذا السلام في بيت أليصابات! فلو لم تراودني فكرة يوسف وفكرة ابني الذي عليه افتداء العالم، لكنتُ سعيدة. ولكن ها إنّ الصليب قد بدأ يُسقِط ظِلاله على حياتي، وكنتُ أَسمَع أصوات الأنبياء كالأجراس... كنتُ أُدعى: مريم. والمرارة كانت تمتزج دائماً بالعذوبة التي كان الله يَسكبها في قلبي. واستَمَرّت في تزايد مُطَّرِد حتّى موت ابني.

ولكن يا ماريا، عندما يدعونا الله إلى مصير أن نكون ضحايا مِن أجل جلاله، آه! **ما أروع أن نُطحَن مثل الحبوب تحت حجر الرحى لنجعل مِن ألمنا الخبز الذي يقوّي الضعفاء ويجعلهم قادرين على كسب السماء.**

يكفيكِ هذا الآن، فأنتِ متعبة وسعيدة. استريحي مع بركتي.»

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

36- (وِلادة المعمدان)

1944 / 04 / 03

وَسَط الأشياء المُنفِّرة التي يقدّمها لنا العالم في هذا الوقت تهبط رؤيا السلام هذه مِن السماء – ولا أدري كيف يمكن أن يتأتّى ذلك لأنّني مثل قشّة تبن في مهبّ الريح في قلب هذه المواجهات المستمرّة مع الشرور البشريّة المناقضة لكلّ ما هو حيّ فيَّ.

ما يزال المكان بيت أليصابات، في ليلة صيف جميلة لا تزال مُضاءَة بالشمس المائلة للغروب، حيث قوس القمر يبدو كفاصِلة فضيّة موضوعة على قطعة جوخ كبيرة مِن اللازورد الداكن.

شجيرات الورد تَنشر عطرها القويّ، والنحل يُنهي الجولات الأخيرة لطيرانه، وكقطرات ذهب يطنّ في أجواء المساء الحارّ والساكن. مِن الحقول تهبّ رائحة قويّة مِن العشب اليابس تحت الشمس، ورائحة خبز يمكن القول بأنّه طازج، خارج لتوه مِن الفرن، وقد تكون متأتيّة كذلك مِن الغسيل الكثير المنشور هنا وهناك ليجفّ، والذي ما زالت سارة تطويه.

تتمشّى مريم بهدوء مع نسيبتها التي أَمسَكَت بذراعها، تروحان وتجيئان على مهل تحت العريشة نصف المضيئة.

عين مريم تُراقِب كلّ شيء، وبينما تهتمّ بأليصابات ترى سارة وهي تعمل على طيّ قطعة نسيج طويلة رَفَعَتها مِن فوق سياج، فتقول لنسيبتها: «انتظريني، اجلسي هنا.» وتمضي لمساعدة الخادمة العجوز في شدّ القماش لتسوية الثنيات، وأثناء طيّها تقول بابتسامة: «ما تزال آثار الشمس فيها، فهي دافئة.» ولكي تُرضِي المرأة تقول: «هذا النسيج، بعد غسلكِ إيّاه، أصبَحَ أجمل مما كان عليه سابقاً. ليس هناك مَن يُتقِن كلّ شيء هكذا مثلكِ.»

تَذهَب سارة مزهوّة وهي تحمل النسيج المعطّر.

تعود مريم إلى أليصابات وتقول لها: «بضع خطوات أخرى، فهي مفيدة لكِ.»

ولكن، بما أنّ أليصابات لم تكن ترغب بالتحرّك تقول لها: «لنذهب فقط لتفقّد طيور الحمام إذا كانت كلّها في أعشاشها، وإذا كان الماء في مَشارِبها نظيفاً، ثمّ نعود إلى البيت.

يُفترَض أن تكون طيور الحمام هي المفضّلة لدى أليصابات. وعندما تكون أمام البُرج الريفيّ الصغير، فإنّها تكون كلّها مجتمعة: الإناث على الأعشاش والذكور أمامها دون حراك، وعندما ترى المرأتين تَهدل لتحيّيهما. أليصابات تتأثّر كثيراً لهذا. أمّا الوَهَن الذي يُعزَى لحالتها فإنّه يسيطر عليها ويوحي لها بمَخاوف تجعلها تبكي. إنّها تتّكئ على نسيبتها: «إن مُتُّ... يا لحماماتي المسكينة! فأنتِ لن تبقي، لو كنتِ ستبقين، فلا يعود يهمّني أن أموت. لقد امتلكتُ أعظم فرحة يمكن لامرأة أن تمتلكها، فرحة كنتُ قد أذعَنتُ بألّا أعرفها. وحتّى الموت فلا يمكنني أن أتشكّى منه إلى الربّ. إنّه، تَمَجَّد اسمه، قد غَمَرَني بفيض صلاحه. إنّما هناك زكريّا... وكذلك سيكون الطفل. الأوّل عجوز وسَيَجد نفسه مثل التائه في الصحراء دون امرأته، والآخر طفل مسكين سيكون مثل زهرة حُكِمَ عليها بالموت برداً، لأنّه سيفقد أُمّه. يا له مِن طفل مسكين دون عطف أُمّه وحنانها!...»

«ولكن لماذا هذا الحزن؟ لقد منحكِ الله فرح الأمومة، ولن يحرمكِ منها وهي في أَوجها. ستكون ليوحنّا الصغير كلّ قبلات أُمّه ولزكريّا كلّ عنايات زوجته الأمينة الوفيّة حتّى الشيخوخة المتقدّمة جدّاً. إنّكما غصنان مِن شجرة واحدة، ولن يموت غصن تاركاً الآخر في وحدته.»

«أنتِ طيّبة وتواسينني، ولكنّي قد كبرتُ كثيراً لكي يكون لي ابن. والآن وقد حان موعد قدومه إلى العالم، فأنا خائفة.»

«آه! لا، فيسوع هنا! وحيث يكون يسوع يجب أن ينتفي الخوف. لقد خَفَّفَ ابني آلامكِ، كما قلتِ، عندما كان مثل الزرّ لم يكد يتشكّل. والآن وقد نما أكثر فأكثر وهو في أحشائي كائن حيّ كامل -أُحِسُّ بقلبه ينبض قرب صدري، ولديَّ انطباع أنّي أمتلك عصفوراً صغيراً في عشّ ينبض قلبه الصغير بخفّة- وهو سيجنّبكِ الآن كلّ خطر. يجب أن تؤمني بذلك.»

«نعم أؤمن، ولكن إذا مُتُّ فلا تتركي زكريّا حالاً. أعرف أنّكِ تفكّرين ببيتكِ، إنّما ابقي قليلاً أيضاً لمساعدة زوجي في أيّام حزنه الأولى.»

«سوف أبقى، إنّما لأفرَح لفرحكِ وفرحه، ولن أذهب إلّا حينما تصبحين قويّة وسعيدة. ولكن ابقي هادئة مطمئنّة، يا أليصابات، كلّ شيء سيكون على ما يرام. في ساعة ألمكِ لن ينقص البيت شيء. زكريّا سوف تخدمه الخادمة الأكثر عطفاً، وزهوركِ سيُعتَنى بها وكذلك طيور الحَمام. وسوف تعودين لتجدي هذه وتلك مبتَهِجَة وجميلة لتحتفل بعودة معلّمتها السعيدة. لندخل الآن، أراكِ شاحبة...»

«نعم، يبدو أنّ ألمي يتضاعف. قد يكون الوقت حان. مريم، صلّي لأجلي.»

«سأساعدكِ بصلاتي إلى أن تتفتّح آلامكِ فَرَحاً.»

تَدخُل السيّدتان بتمهّل إلى البيت.

تتوجّه أليصابات إلى حجرتها، ومريم، بِحَذَق ونفاذ بصيرة، تُعطي الأوامر وتُهيّئ لكلّ ما يمكن توقُّعه وتواسي زكريّا القَلِق.

في البيت حيث يسهر الجميع في هذه الليلة، وحيث تُسمَع أصوات غريبة لنساء دُعين للمساعدة، تبقى مريم متيقّظة كالمنارة في ليلة عاصِفة. البيت كلّه يدور حولها، وهي تسهر على كلّ شيء بلطف وابتسامة. إنّها تصلّي، عندما لا يطلبها أحد لأمر أو لآخر تختلي للصلاة. إنّها

في الحجرة التي يجتمعون فيها دائماً للأكل والعمل. زكريّا معها، وهو يتنهّد ويَدور قَلِقاً. يصلّيان معاً، ثمّ تستمرّ مريم بالصلاة حتّى في الوقت الذي يتعب فيه العجوز، فيأخذ كرسيّاً ويجلس قرب الطاولة صامتاً وحالماً، وهي تصلّي. وعندما تراه مستغرقاً في النوم واضعاً رأسه على ذراعيه المتصالبتين والمستندتين إلى الطاولة، تنزع حذاءها لكي تُقلّل قدر الإمكان مِن الجَلَبَة وتمشي حافية. فكان الصوت الذي تُحدِثه أقلّ مِن صوت فراشة تطير في غرفة. تأخذ معطف زكريّا وتغطّيه به بكلّ لطف، حتّى إنّه استمرّ في النوم في حرارة الصوف التي تحميه مِن برودة الليل التي تَدخُل على شكل هبّات مِن الباب المفتوح في أغلب الأحيان. ثمّ تعود لتصلّي. وعندما تعلو صيحات الوِلادة تَركَع وتَفتَح ذراعيها وتصلّي بحرارة أكبر.

تَدخُل سارة وتشير إليها بأن تَخرُج. وتَخرُج مريم حافية إلى الحديقة. فتقول لها: «معلّمتي تطلبكِ.»

«ها أنذا آتية» وتمشي مريم طول البيت وتَصعَد السلّم... وكأنّها ملاك أبيض يدور في الليل الهادئ والمرصّع بالنجوم. وتَدخُل عند أليصابات.

«آه! مريم! مريم! يا له مِن ألم! لم أعد أتحمّل. مريم! يا لهذا الألم الذي يجب أن نقاسيه لنصبح أُمّهات!»

تُلاطِفها مريم بحنان وتُقبّلها.

«مريم! مريم! دعيني أضع يدي على بطنكِ!»

تأخذ مريم اليدين المجعّدتين والمنتفختين وتضعهما على بطنها المستدير وتُمسِك بهما بشدّة بين يديها المصقولتين والخفيفتين. والآن وقد بقيتا وحدهما تتكلّم بهدوء: «يسوع هنا، وهو يَرَى ويُدرِك. ثقي أليصابات. إنّ قلبه القدّوس يَخفق بقوّة أكبر لأنّه يعمل في هذه اللحظة لخيركِ. أسمَعهُ يَخفق كما لو كنتُ أُمسِكه بين يديّ. إنّي أُدرِك الكلمات التي يقولها لي الطفل مِن خلال هذا

الخَفَقان. يقول لي في هذه اللحظة: "قولي للمرأة بألّا تخاف. قَدْر قليل مِن الألم بعد. ثمّ عند شروق الشمس، وسط زهرات كثيرات تنتظر هذا الشعاع الصباحيّ لتتفتّح على أعوادها ستكون في بيتها الزهرة الأجمل، سيكون يوحنّا، سابِقي".»

وتضع أليصابات وجهها على بطن مريم وتبكي بهدوء.

تبقى مريم على هذا الوضع بعض الوقت لأنّه كان يبدو لها أنّ الألم يخفّ، يتلاشى ويَسكن. تشير للجميع بأن يمكثوا هادئين، وتبقى واقفة، بيضاء وجميلة للغاية في شعاع مصباح الزيت الضعيف، مِثل ملاك يسهر على الألم. إنّها تصلّي. أراها تُحرّك شفتيها. حتّى لو لم أكن أراهما تتحرّكان كنتُ سأُدرِك أنّها تصلّي مِن خلال التعبير عن النشوة والانخطاف البادي على وجهها.

يمرّ الوقت، ويُعاوِد الألم أليصابات. تُقبّلها مريم ثانية. وتَنزِل بسرعة في شعاع القمر وتركض لترى إذا كان العجوز ما يزال نائماً. فلقد كان نائماً ويئنّ وهو يحلم. تقوم مريم بحركة تنمّ عن شفقة وتعود إلى الصلاة.

يمرّ بعض الوقت، يستيقظ العجوز ويُلقي نظرة دهشة كما لو أنّه لم يتذكّر جيّداً لماذا هو هنا. ثمّ يتذكّر ويقوم بحركة تعجّب بصوت حلقوميّ. ثمّ يَكتُب: «ألم يُولَد بعد؟» تشير مريم بأن لا. فيكتب زكريّا: «يا لآلامها، مسكينة زوجتي! هل تقوم دون أن تموت؟»

تأخذ مريم بيد العجوز وتُطمئِنه: «عند الفجر، بعد قليل، سيولَد الطفل. كلّ شيء سيكون على ما يرام. أليصابات قويّة. كم سيكون جميلاً هذا اليوم –فالنهار سيبزغ بعد قليل– الذي فيه سيرى ابنكَ النور! أجمل يوم في حياتكَ! إنّها نِعَم عظيمة يحفظها الله لكَ، وابنكَ هو البشير بذلك.»

يهزّ زكريّا رأسه بحزن ويشير إلى فمه الأبكم. كان يريد قول أشياء كثيرة ولكنّه لم يستطع.

تُدرِك مريم وتجيب: «سيعطيكَ الله الفرح كاملاً. وهو تعالى يستجيب لأبعد مِن رجائكَ. إنّه يريد هذا الإيمان الكامل ليغسل الارتياب القديم. قُل معي في قلبكَ: "أنا أؤمن"، قُلها مع كلّ خَفْقة مِن قلبكَ. فكنوز الله تنفتح لمن يؤمن به وبصلاحه المُقتَدِر.»

بدأ النور يتسرّب عبر الباب المُوارَب الذي فَتَحَته مريم. الفجر ينشر نوره الأبيض على الأرض الرطبة. فقد كانت رائحة الأرض ورطوبة الخُضرة قويّة. وبدأت أولى زقزقات العصافير التي تتنادى مِن غصن إلى آخر تُسمَع.

ويتوجّه الرجل العجوز ومريم إلى عتبة الباب. إنّهما شاحبان بعد ليلة دون نوم، ونور الفجر يُظهِرهُما أكثر شحوباً. تلبس مريم حذاءها وتذهب إلى أسفل الدرج وتُنصِت. حينئذ تَظهَر امرأة تشير وتعود. لا شيء بعد.

تذهب مريم إلى حجرة لتعود منها حاملة حليباً ساخناً تُقدّمه للعجوز. ثمّ تذهب لتفقّد طيور الحمام وتعود لتغيب في هذه الحجرة. ربما هي المطبخ. تَجول وتتفقّد. تبدو وكأنّها قد نامت نوماً كافياً ورائعاً، لذا فهي حيويّة جدّاً وهادئة.

يَذرَع زكريّا المكان جيئة وذهاباً، بعصبيّة، يذهب ويعود عبر الحديقة. تَنظُر إليه مريم بإشفاق. ثمّ تعود لتَدخُل مِن جديد إلى نفس الحجرة. تركع أمام نولها وتصلّي مِن صميم قلبها، ذلك أنّ أنّات التي في الفراش قد أصبَحَت أكثر حدّة. وتنحني إلى الأرض لتصلّي إلى الأزليّ. يَدخُل زكريّا فيراها ساجدة هكذا فيبكي، مسكين هو هذا العجوز. تَنهَض مريم مِن جديد وتأخذه بيده. تبدو وكأنّها أُمّ لهذه الشيخوخة المُنعَزِلة، تَسكب عليها السلوان.

يَظلّان هكذا، الواحد قرب الآخر تحت الشمس التي تُضفي على جو الصباح لون الورد، إلى أن يَرِدهُما النبأ السعيد: «لقد وُلِد! لقد وُلِد! إنّه صبيّ! يا لكَ مِن أب سعيد! إنّه صبيّ نديّ مثل الوردة، جميل مثل الشمس، قويّ، شديد، وعذب مثل أُمّه. لكَ الفرح أيّها الأب المبارك مِن

الربّ لأنّه قد وُلِدَ لك ابن تُقدِّمه إلى هيكله. المجد لله الذي مَنَحَ الذريّة لهذا البيت! البركة لكَ ولابنكَ المولود مِن صُلبكَ! ولتتمكّن ذرّيته مِن ديمومة اسمكَ إلى أجيال وأجيال عبر الأنسال، ولتُحافِظ على الاتّحاد بالربّ الأزليّ.»

تُبارِك مريم الربّ بدموع الفرح. ثمّ يتقبّل الإثنان الطفل المحمول إلى أبيه ليباركه. ولم يذهب زكريّا للقاء أليصابات. يتقبّل الطفل الذي يصرخ كالتائه، ولكنّه لا يذهب للقاء زوجته.

مريم هي التي تذهب حاملة بحنان الطفل الذي ما أن تحمله حتّى يصمت فجأة. والعَرَّابة التي تتبعها تُلاحِظ ذلك فتقول لأليصابات: «يا امرأة، إنّ ابنكِ قد صَمَتَ فجأة عندما حَمَلَته. انظري كيف ينام هادئاً مطمئنّاً. والله أعلم أنّه قويّ وكثير الحركة. والآن انظري إليه كأنّه زغلول حمام صغير.»

تضع مريم المولود بجانب أُمّه وتُلاطِفها بمسح شعرها الرماديّ وإعادة ترتيبه. وتقول لها بهدوء: «الوردة قد وُلِدَت. وأنتِ ما زلتِ على قيد الحياة. وزكريّا سعيد.»

«هل يتكلّم؟»

«ليس بعد، إنّما فليكن رجاؤكِ بالربّ. استريحي الآن. سأبقى معكِ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

37– (يتفتح الأمل مِثل زهرة لِمَن يتكئ برأسه على صدري الوالدي)

1944 / 04 / 03

تقول مريم:

«إذا كان وجودي قد قَدَّسَ المعمدان، فهو لم يعف أليصابات مِن الحُكم على حوّاء "بالألم تلدين البنين" الصادِر مِن الأزليّ بحقّها. أنا وحدي بلا عيب وبغير اتّحاد بشريّ، لذا كنتُ مستثناة مِن آلام الوَضع. الحزن والألم هما ثمرة الخطيئة. ومع ذلك فأنا التي كنتُ "بدون خطيئة" كان ينبغي لي أن أعرف الألم والحزن لأنّني كنتُ المُشارِكة في الفداء. ومع ذلك لم أعرف حدّة معاناة الولادة. لا، لم أعرف هذا الألم.

ولكن ثقي يا ابنتي، فإنّه لم ولن يوجد أبداً ألم مبرّح يشبه ألم ولادتي كشهيدة لأمومة روحيّة تمَّت على أقسى سرير: سرير صليبيّ على قَدَم صليب ابني الذي يموت. ومَن هي الأُمّ المُرغَمة على الوِلادة بهذه الطريقة، وعلى مزج ألم أحشائها التي تتمزّق لسماع حشرجة ابنها المحتضر بالتمزّق الداخليّ لاضطرارها تجاوُز هَول وجوب قولها: "أُحبّكم، تعالوا إليّ، أنا أُمّكم"، لِقَتَلة ابنها الذي وُلِدَ مِن الحبّ الأسمى الذي لم ترَ السماء مثله، مِن اتّحاد حبّ إله وعذراء، بقبلة نار، بعناق النور، الذين أصبحوا جميعهم جسداً وجَعَلوا مِن أحشاء امرأة تابوت عهد الله.

لقد قالت أليصابات: "كَم مِن الآلام كي أُصبِح أُمّاً!" إنّها آلام فظيعة، ولكنّها لا شيء بالمقارنة مع آلامي.

"دعيني أضع يدي على بطنكِ" آه! لو كنتم في آلامكم تطلبون ذلك منّي على الدوام!

أنا حاملة يسوع الأزليّة. لقد أقام في أحشائي كما رأيتِهِ العام الماضي مثل نزيل في بيت القربان. مَن يأتِ إليَّ يَجِده. مَن يتّكئ عليَّ يلمسه. مَن يتوجّه إليَّ يُكَلِّمه. أنا ثوبه وهو روحي. إنّه متّحد بي الآن أكثر، أكثر حتّى مِن الأشهر التسعة التي نما خلالها في أحشائي، ابني متّحد بي أنا أُمّه. وكلّ ألم يَسكُن، وكلّ أمل يتفتّح، وكلّ نعمة تتدفّق لمن يأتي إليَّ ويضع رأسه على صدري.

إنّي أصلّي مِن أجلكم. فغبطة كوني في السماء أعيش في نور الله لم تُنسِني أولادي الذين يتألّمون على الأرض. وأصلّي. السماء بأكملها تصلّي لأنّ السماء تحبّ. السماء هي المحبّة الحيّة. والمحبّة ترأف بكم. إنّما حتّى ولو لم يوجد غيري فستكون مع ذلك صلاة كافية لاحتياجات مَن يرجو الله، لأنّني لا أتوقّف عن الصلاة لأجلكم جميعاً: قدّيسين وفاسِدين. للقدّيسين لأمنحهم الفرح، وللفاسِدين لأمنحهم التوبة التي تُخَلِّص.

تعالوا! تعالوا يا أبناء آلامي. أنتظركم عند أسفل الصليب لأُنعِم عليكم.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

38- (خِتـان المعمـــدان)

04 / 04 / 1944

أرى البيت وكأنّ فيه عِيداً. إنّه يوم الخِتان. تَحرص مريم على أن يبدو كلّ شيء جميلاً في مظهره ومرتّباً. فالغُرَف تتلألأ بالضياء، وكذلك الأقمشة الجميلة والمفروشات الحلوة، إنّه رونق وروعة. يوجد كثير مِن الناس.

مريم تتنقّل، رشيقة بين الجموع، بهيّة في ثوبها الأبيض الرائع الجمال.

أليصابات وَقورة كامرأة مُسِنّة مهيبة، تستمتع بمتعة العيد. الطفل على صدرها وقد شبع مِن الحليب.

حان موعد الخِتان.

يقول الرجال: «سنسمّيه زكريّا. فأنتَ قد شختَ ومِن الأفضل أن يُعطى اسمكَ لابنكَ.»

تصرخ الأُمّ: «أبداً. فاسمه هو يوحنّا. يجب أن يكون اسمه شهادة لقُدرة الله.»

«ولكن منذ متى واسم يوحنّا هذا في عائلتنا؟»

«لا يهمّ. يجب أن يُسمَّى يوحنّا.»

«ما هو قولكَ يا زكريّا؟ أنتَ تريد أن يَحمل اسمكَ، أليس كذلك؟»

يُشير زكريا بِلا. ثمّ يأخذ اللوح ويَكتب: "اسمه يوحنّا". وما أن يُنهي كتابة هذا حتّى ينطَلِق لسانه ويُضيف: «بما أنّ الله قد أَغدَقَ بنعمته الكبيرة عليَّ أنا أبيه، وعلى أُمّه، وعلى هذا الصغير خادمه الجديد الذي سيُمضِي حياته بالفعل في تمجيد الربّ، وسيكون اسمه عظيماً في الأجيال القادمة وفي عينيّ الله، لأنّ مهمّته ستكون هِداية القلوب إلى الربّ العلي. هكذا قال الملاك وأنا لم أؤمن به. ولكنّي الآن أنا أؤمن وقد امتلأتُ مِن النور. إنّه بيننا وأنتم لا تَرونه. مصيره أن يبقى مجهولاً لأنّ نفوس الناس مُثقَلة ونائمة. ولكنّ ابني سيراه وسيتكلّم عنه ويُحوِّل قلوب أبرار إسرائيل نحوه. آه! طوبى لمن سيؤمنون به ويؤمنون دائماً بكلمة الربّ. وأنتَ أيّها الإله الأزليّ، لتكن مباركاً يا إله إسرائيل لأنّكَ زرتَ وافتديتَ شعبكَ بإرسالكَ له مُخَلِّصاً قادراً مِن آل داود خادمه. كما وَعَدتَ بفم الأنبياء القدّيسين منذ الأزمنة القديمة أن تُحرّرنا مِن أعدائنا ومِن أيدي مُبغِضينا. لتَمنَح رحمتكَ لآبائنا وتُظهِر أنّكَ لا تنسى عهدكَ المقدّس كما عاهدت أبانا إبراهيم: أن تَهبنا أن نخدمكَ دون خوف، ومُحرَّرين مِن أيدي الأعداء بالقداسة والبرّ بحضوركَ كلّ أيّام حياتنا.» ويُكمِل هكذا حتّى النهاية.

أمّا الحضور فقد أخَذَهم الذهول: للاسم، للمعجزة، وللكلام الذي تفوّهَ به زكريّا.

ما أن نَطَقَ زكريا كلمته الأولى حتّى زغردت أليصابات فَرَحاً، وبكت، بينما عانَقَتها مريم بفرح.

حُمِل الطفل إلى مكان آخر مِن أجل الخِتان. وعندما أُعيد كان يوحنّا الصغير يصرخ بملء صوته. حتّى حليب أُمّه لم يُهدئه. كان يتخبط مثل الصوص. فما كان مِن مريم إلّا أن أَخَذَته وهَدهَدَته فصَمَت وسَكَن.

فتقول سارة: «عجباً، انظروا! إنّه لا يَصمُت إلا حينما تَحمله!»

يَمضي الناس على مهل. ولا يبقى في الغرفة سوى مريم تحمل الطفل بين ذراعيها وأليصابات المفعَمَة فَرَحاً.

يَدخُل زكريّا ويُغلِق الباب. يَنظُر إلى مريم والدموع في عينيه. يريد التكلّم ولكنّه يُؤثِر الصمت. يتقدّم، يَركَع أمام مريم ويقول لها: «بارِكي خادم الربّ البائس. بارِكيه فأنتِ تستطيعين ذلك لأنّكِ تحملينه في أحشائكِ. كلمة الربّ قالت لي ذلك عندما اكتشفتُ خطيئتي وآمنتُ بكلّ ما قيل لي. أراكِ وقَدَرُكِ السعيد. أعبد فيكِ إله يعقوب، أنتِ هيكلي الأوّل حيث الكاهن الأوّل الذي أصبَحَ الآن مُدرِكاً يستطيع الآن الصلاة للأزليّ. مباركة أنتِ يا مَن نلتِ نعمة للعالم وحَمَلتِ له المخلّص. اغفري لخادمكِ إن لم يلحظ مِن الوهلة الأولى عَظَمَتكِ، فإنّكِ قد جَلَبتِ لنا بقدومكِ كلّ النِّعم، لأنّكِ أينما ذهبتِ، يا ممتلئة نعمة، يَصنَع الله العجائب، ومقدّسة هي الجدران التي تَدخُلينها، مقدّسة هي الآذان التي تَسمَع صوتكِ، والأجساد التي تلمسينها. مقدّسة القلوب لأنّكِ تَمنَحين النِّعم يا أُمّ الله تعالى، العذراء التي تَكلَّمَ عنها الأنبياء والمنتَظَرَة لتَمنَح المخلّص لشعب الله.»

تبتسم مريم مُضطَرِمة بالتواضع وتقول: «التسبيح للربّ، له وحده. فمنه، لا منّي تأتي كلّ نعمة. وهو الذي مَنَحَكَ نعمته لتحبّه وتخدمه بالكمال بقيّة أيّام حياتكَ، لتستحقّ ملكوته الذي سيَفتَح ابني أبوابه للآباء والأنبياء وأبرار الربّ. وأنتَ يا مَن تستطيع أن تصلّي الآن أمام قدس الأقداس، صلِّ مِن أجل خادمة العليّ، لأنّ كوني أُمّ ابن الله، فهو قَدْر السعادة، أمّا كوني أُمّ الفادي، فهو قَدْر الآلام الفظيعة. صلِّ لأجلي، أنا التي أُحِسُّ ساعة بعد ساعة بتعاظُم ثِقل الألم. وهذا ما يجب أن أحمله حياة بأكملها. وإذا كنتُ لا أرى التفاصيل، إلاّ أنّني أُحِسُّ أنّه حِمل أثقل مما لو كان العالم كلّه موضوعاً على كَتِفَيَّ كامرأة، وأنّه ينبغي لي أن أرفعه إلى السماء. أنا، أنا وحدي، المرأة المسكينة! ابني! وَلَدي! آه! في الوقت الحاضر، إن حَمَلتُ ابنكَ وهَدهَدتُه يتوقّف عن البكاء. ولكن هل سأستطيع هَدهَدة ابني لأُسكّن ألمه؟... صلِّ لأجلي يا كاهن الربّ. قلبي

يرتعد مثل زهرة في قلب زوبعة. أَنظُر إلى الناس وأحبّهم، ولكن خلف وجوههم أراه يَظهَر، العدوّ، بل فعليّاً أعداء الله ويسوع ابني...»

وتبدأ الرؤيا بالتلاشي مع رؤية شحوب مريم ودموعها حيث تتألّق نظرتها.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

39– (هيِّئُوا أنفسكم لاستقبال النور)

04 / 04 / 1944

تقول مريم:

«يَغفر الله لمن يعرف خطأه ويندم عليه ويَعتَرِف بتواضع وبقلب صادق. إنّه لا يغفر وحسب: إنّه يُكافِئ. آه! كم هو طيّب ربّي تجاه المتواضِع والصادق! تجاه مَن يؤمن به ويتّكل عليه! أزيلوا مِن نفوسكم كلّ ما مِن شأنه أن يعيقها ويجعلها خامدة. هَيّئوها لتستقبل النور. كالمنارة في الظلام. سيكون لكم مُرشِداً ومؤاسياً مقدّساً.

الصداقة مع الله، غبطة الذين يُخلِصون له، غنى لا يعادله شيء، مَن يمتلككِ لا يبقَ وحيداً ولا يحسّ مرارة اليأس. إنّكِ لا تلغي الألم، يا مَن أنتِ الصداقة المقدّسة، لأنّ الألم كان مصير الإله المتأنّس، ويمكنه أن يكون مصير الإنسان. ولكنّكِ تجعلين هذا الألم حلواً في مرارته، فإنّكِ تمزجين فيه الضياء والملاطفة اللّتَين، مثل لمسة سماويّة، ترتقيان بالصليب.

وعندما يمنحنا الصلاح الإلهيّ نِعمة، فلنستخدم الخير الذي نتلقّاه لتمجيد الله. ولا نكن مجانين نجعل مِن الغَرَض النافع سلاحاً ضارّاً، أو مثل السفهاء الذين يُحوّلون غناهم إلى شقاء.

كثير هو الألم الذي تعطينيه أيّها الابن خلف الوجه الذي يَكشف لي عن العدوّ الذي ينقضّ على يسوعي. ألم عظيم! أرغب في أن أكون للجميع نبع النِّعم. ولكن الكثيرين منكم يرفضون النّعمة. تطلبون "النِّعم" ولكن بنفس لا تحوي النِّعمة. وكيف ستنجدكم النِّعمة إذا كنتم أعداءها؟

السرّ العظيم للجمعة المقدسة يقترب. كلّ شيء في الهيكل يُذكِّر به ويَحتَفل به. إنّما ينبغي لكم أن تحتفلوا به وتتذكّروه في قلوبكم، وأنتم تقرعون صدوركم مثل الذين كانوا نازلين مِن الجلجلة وتقولون: "إنّه حقّاً ابن الله المخلّص" وأيضاً: "يا يسوع باسمكَ خَلِّصنا" وكذلك: "أيّها الآب اغفر لنا" وأخيراً: "ربّي أنا لستُ أهلاً، ولكن لو غفرتَ لي وأتيتَ إليَّ فسَتَبرأ نفسي، ولا أريد، لا ولن أريد الخطيئة لكي لا أعود إلى الشرّ والكُره تجاهكَ."

صَلّوا يا أبنائي بكلمات ابني. قولوا معه للآب مِن أجل أعدائكم: "أيّها الآب اغفر لهم". نادوا الآب الذي خَرَجَ منكم مغتاظاً بسبب أخطائكم:" أبتي، أبتي، لماذا تَركتَني؟ أنا خاطئ ولكن إذا تَركتَني فسأهلك. عُد أيّها الآب القدّوس لأخلص". اتَّكِلوا على الوحيد الذي يستطيع أن يحفظ خيركم الأبديّ، روحكم، في مأمن مِن ضربات الشيطان: "أيها الآب، بين يديكَ أستودِع روحي".

آه! إذا استودعتم روحكم بكلّ تواضع وقلب مُحِبّ بين يدي الله، فإنّه يقودكم كما يقود الأب ابنه ولا يسمح بأن يَغبنه شيء. يسوع في حشرجاته صلّى ليُعَلِّمكم الصلاة.

أُذَكِّركم به في أيّام الآلام هذه. وأنتِ يا ماريا، أنتِ يا مَن تَرَين فيَّ فرح الأمومة وكم أنتشي بها، أعيدي إلى ذاكرتكِ هذه الفكرة: لقد امتلكتُ الله مِن خلال آلام متزايدة باستمرار. لقد نَزَلَ إليَّ مِن مبدأ حياة الله، ومثل شجرة عملاقة كَبر حتّى لامَسَ السماء بقمّتها والجحيم بأساساته. حينها تلقّيتُ على صدري الجثّة الهامدة للجسد الذي مِن جسدي، حيث رأيتُ وعَدَدتُ التمزُّقات الوحشيّة، ولمستُ قلبه الذي كان قد اختُرِق بطعنة ليستنفذ الألم حتّى آخر قطرة مِن دمه.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

40- (تقدمة المعمدان إلى الهيكل)

05 و 06 / 04 / 1944

هذا ما رأيتُه في ليلة الأربعاء–الخميس مِن الأسبوع العظيم المقدّس:

مِن عربة فاخرة رُبِطَت إليها مطيّة مريم أيضاً، أرى زكريّا يَهبط مع أليصابات ومريم التي تحمل يوحنّا الصغير، وكذلك صموئيل ومعه الحَمَل وطير الحمام في قفص. يَنزلون جميعهم قرب الإسطبل حيث ينبغي أن يقف عادة كلّ الحجّاج القادمين إلى الهيكل ليضعوا مطاياهم.

تُنادي مريم رجلاً قصير القامة، هو المالك للإسطبل وتسأله إذا ما كان ناصريّ قد وَصَلَ في الأمس أو في الساعات الأولى مِن صبيحة اليوم. «لا أحد سيّدتي.» يُجيب العجوز القصير. تُدهَش مريم ولكنّها لا تُضيف شيئاً.

تَجعَل صموئيل يفكّ حمارها وتَلحَق بزكريّا وأليصابات، تُعلّل تأخير يوسف: «قد يكون أمر ما أخَّرَه، ولكنّه سيأتي اليوم حتماً.» ثمّ تعود فتأخذ الطفل الذي كانت قد أعطته لأليصابات، ويتوجّهون إلى الهيكل.

يتلقّى زكريّا ترحيب الحرّاس وتحيّات وتهاني الكَهَنَة الآخرين. زكريّا اليوم متألّق بثيابه الكهنوتيّة وفرحه كأب سعيد، حتّى كأنّه بطريرك. أعتقد أنّ إبراهيم كان يشبهه يوم ابتهاجه بتقديم اسحق للربّ.

أرى طقوس تقدمة الإسرائيليّ الجديد وتطهير الأُمّ. إنّه أكثر أُبّهة مِن تقدمة مريم، لأنّ يوحنّا ابن كاهن، والكَهَنَة يَحتَفِلون بشكل أكثر فخامة. إنّهم يَهرَعون بأعداد ويَنهَمِكون حول مجموعة النساء الصغيرة والمولود الجديد.

ويدنو بعض الناس أيضاً على سبيل الفضول، وأَسمَع التعليقات. وبما أنّ مريم كانت تحمل الطفل أثناء توجّههم إلى المكان المعتاد فقد ظَنَّ الناس أنّها أُمّه. ولكنّ امرأة تقول: «هذا مستحيل، أفلا تَرَون أنّها حامل؟ عُمر الطفل لا يتجاوز أيّاماً وهي ما تزال حاملاً.»

يقول آخر: «مع ذلك، لا يوجد غيرها يمكنها أن تكون الأُمّ، فالأُخرى عجوز. يُفتَرَض أنّها إحدى القريبات، إنّما لا يمكنها أن تكون أُمّاً وهي في هذه السن.»

«فلنتبعهم، وسوف نرى مَن هو المُحِقّ.»

ويتزايد الذهول عندما يُلاحَظ أنّ التي تُكمِل مراسم التطهير هي أليصابات التي تُقَدِّم الحَمَل الذي يثغو إلى المحرقة وطير الحمام إلى المعصية.

«إنّها هي الأُمّ، أرأيت؟»

«لا!»

«نعم.»

يتهامَس الناس وهم لا يزالون غير مصدّقين. يُحدِثون أصواتاً كثيرة حتّى إنّ «بشت» بلهجة آمرة تَصدُر عن مجموعة كَهَنَة يَحضرون المراسم. يَصمت الناس بُرهة ولكن الهمس يعود بشكل أقوى عندما تأخذ أليصابات المتألّقة، بإباء مقدّس، الطفل وتَدخُل به إلى الهيكل لتقدّمه للربّ.

«إنّها هي حقّاً!»

«الأُمّ هي التي تقوم بالتقدمة دائماً.»

«يا لها مِن معجزة! هل حَدَثَ مثلها قطّ؟»

«تُرى، ماذا سيكون مِن أمر هذا الطفل الذي أُعطِيَ لهذه المرأة في مثل هذه السنّ المتقدّمة؟»

«بماذا يُنبئ ذلك؟»

يُجيب أحدهم وقد وَصَلَ وهو يَلهَث: «ألا تعلمون؟ إنّه ابن زكريّا الكاهن مِن نسل هارون، هذا الذي أصبَحَ أبكماً عندما كان يُقدّم البخور في قدس الأقداس.»

«يا لهذا السرّ! والآن هو يتكلّم مِن جديد! وِلادة ابنه حلّت عقدة لسانه!»

«تُرى ما يكون الروح الذي كَلَّمه وجَعَلَ لسانه ميتاً ليُعوّده على الاحتفاظ بالصمت في ما يخصّ أسرار الله؟»

«يا له مِن سرّ! أيّة حقيقة كُشِفَت لزكريّا؟»

«هل ابنه هو ماسيا الذي تنتظره إسرائيل؟»

«لقد وُلِدَ في اليهودية وليس في بيت لحم، ولا مِن عذراء، فلا يمكن أن يكون ماسيا.»

«مَن هو إذن؟»

أمّا الإجابة فقد بَقِيَت في سرّ الله، وأمّا الناس فقد ظلّوا في فضولهم.

تنتهي الطقوس الدينيّة، ويَحتَفِل الكَهَنَة الآن بالأُمّ والابن معاً. أمّا الوحيدة التي لم ينتبه إليها أحد والتي تحاشاها الجميع عند ملاحظة حالها، هي مريم.

ما أن تنتهي التهاني حتّى يمضي أغلب الناس، كلّ في طريقه، وترغب مريم في العودة إلى النّزل لترى ما إذا كان يوسف قد وَصَلَ. إنّه لم يَصِل بعد. وتبقى مريم شاردة الذهن تعتريها خيبة أمل.

تهتمّ أليصابات لحالها: «يمكننا البقاء معكِ حتّى الساعة السادسة. ولكن يجب أن نرحل بعدها لنصل إلى البيت قبل العشيّة. إنّه ما يزال صغيراً ولا يحتمل البقاء إلى ما بعد هبوط الليل.»

وتُجيب مريم وهي ما تزال تُحافِظ على هدوئها، إنّما حزينة: «سأبقى في إحدى ساحات الهيكل، سأذهب للقاء معلّماتي... لستُ أدري ولكنّني سأفعل شيئاً.»

يتدخّل زكريّا باقتراح يحظى بالموافقة الفوريّة باعتباره حلّاً جيّداً: «فلنذهب إلى بيت أهل زبدى، فمِن المؤكّد أن يبحث عنكِ يوسف هناك، وإن لم يأتِ، فسيكون من السهل إيجاد مَن يصطحبكِ إلى الجليل. ففي هذا البيت يوجد صيّادون مِن جنيسارت في حركة ذهاب وإياب دائمة مِن وإلى هناك.

يَركَبون مطيّة مريم ويمضون إلى بيت أهل زبدى، وهُم أصلاً الذين استضافوا مريم ويوسف قبل أربعة أشهر.

تمضي الساعات مُسرِعة ويوسف لم يَظهَر بعد. تُسيطر مريم على محنتها بأن أخَذَت تُهدهِد للصغير، إنّما كان انشغال البال بادياً عليها، كأن تحاول إخفاء حالتها بعدم نزع معطفها رغم الحرارة التي أسالت عَرَق الجميع.

أخيراً تُسمَع ضربة قويّة على الباب تُعلِن عن قدوم يوسف. يَسطَع وجه مريم مستعيداً صفاءه.

يُحيّيها يوسف بعد أن تتقدّم هي أوّلاً وتُحيّيه باحترام: «بركة الربّ تحلّ عليكِ يا مريم!»

«وعليكَ كذلك يا يوسف، والتسبيح للربّ لأنّكَ وَصَلتَ! ذلك أنّ زكريّا وأليصابات كانا سيذهبان ليَصِلا بيتهما قبل حلول الليل.»

«لقد وَصَلَ مرسالكِ إلى الناصرة بينما كنتُ أنا في قانا أقضي بعض أعمالي، ولم أَعلَم سوى أمس مساء فانطلقتُ في الحال. ولكن بما أنّني سِرتُ بدون توقّف، فقد أَخَّرَني الحمار بفقدانه نعلاً. سامحيني.»

«بل سامحني أنتَ لبقائي طويلاً بعيدة عن الناصرة! ولكن انظر: لقد كانا سعيدَين جدّاً لكوني معهما، لذا أردتُ أن أُسعِدهما ببقائي معهما حتّى الآن.»

«حسناً فعلتِ يا امرأة. والطفل، أين هو الطفل؟»

يَدخُلان إلى الغرفة حيث توجد أليصابات التي ترضع ابنها قبل الرحيل. يُهنّئ يوسف أهل الطفل لكونه شديداً عتيداً. فترفعه أليصابات عن صدرها لتُريه ليوسف، ولكنّه يَصرخ ويتخبّط كما لو كان أحدهم يَسلَخه، فيضحك الجميع مِن احتجاجه، حتّى أهل زبدى الذين أسرعوا في إحضار الفواكه الطازجة للجميع، والحليب والخبز مع صحن سمك، يضحكون وينضمّون إلى حديث الآخرين.

مريم تتكلّم قليلاً. إنّها تَجلس في إحدى الزوايا هادئة صامتة، ويداها على صدرها تحت المعطف، حتّى وهي تشرب فنجان الحليب وتأكل عنقود العنب الذهبيّ مع القليل مِن الخبز، إنّها تتكلّم قليلاً ولا تتحرّك أبداً. إنّها تَنظُر إلى يوسف بمزيج مِن المعاناة والقلق. وهو كذلك كان ينظر إليها، وبعد برهة ينحني على كتفها ويسألها: «هل أنتِ تَعِبة؟ هل تتألّمين؟ فأنتِ شاحبة وحزينة.»

«إنّي أتألّم لابتعادي عن يوحنّا الصغير. فأنا أحبّه كثيراً، ولقد ضممتُه إلى قلبي منذ ولادته تقريباً...»

لم يَطرح يوسف أسئلة أخرى.

حان موعد رحيل زكريّا. تتوقّف العربة قُرب الباب ويدنو الجميع. تتعانق النسيبتان بحنان. تُقبّل مريم الطفل قبلات كثيرة قبل أن تعود أُمّه لتضمّه إلى صدرها وهي تَجلُس في عربتها. ثمّ تُحيّي زكريّا طالِبة منه بركته، وعندما تجثو أمام الكاهن يَنزَلِق المعطف ويَظهَر شكلها مُفَصَّلاً تحت أنوار بعد ظهيرة يوم صيف كاشفة. لم أَعلَم إذا ما كان يوسف قد لاحَظَ ذلك في تلك اللحظة التي كان فيها مُنهَمِكاً بوداع أليصابات... وتبتعد العربة.

ويَدخُل يوسف مع مريم التي تعود إلى مكانها في الزاوية نصف المضاءة. «إذا كنتِ لاتمانعين في السفر ليلاً، فإنّني أقترح الرحيل عند الغَسَق. فالحرارة في النهار شديدة، بينما الليل بارد وهادئ. أقول هذا مِن أجلكِ لكي لا أُعرّضكِ كثيراً للشمس. بالنسبة لي، لا يهمّني التعرّض للقيظ، إنّما أنتِ...»

«كما تريد يا يوسف. نعم، أعتقد أنّ السفر ليلاً أفضل.»

«البيت مرتّب جيّداً وكذلك الحديقة. سترين الزهور كم هي جميلة! سوف تَصِلين في الوقت المناسب لتَجِدي كلّ شيء مُزهِراً. شجرة التفاح والتين والكروم محمَّلة بالثمّار أكثر مِن أيّ وقت مضى، أمّا شجرة الرمّان فقد اضطُرِرتُ لوضع دعامات لها لكثرة الحِمْل على أغصانها، وقد أَخَذَت الثمار أشكالها كما لم نرَ مثيلاً لها في مثل هذا الوقت. وثمّ شجرة الزيتون... سوف تَحصَلين على زيت وافِر. لقد أزهَرَت بشكل مُعجِز، ولم تَفقد زهرة واحدة، بل إنّ كلّ زهرة فيها أضحت الآن زيتونة صغيرة. وعندما ستنضج ستغطّي الشجرة بلآلئ سوداء. ولا يوجد في الناصرة كلّها مَن يمتلك حديقة بهذا الجمال غيركِ. حتّى الأهل دُهِشوا بها. وحلفا قال إنّها معجزة.»

«عنايتكَ بها هي التي جَعَلَتها كذلك.»

«آه! لا! يا لي مِن رجل مسكين! ماذا فعلتُ أنا؟ بعض العناية بالشجر وبعض الماء للزهر... أتعلمين؟ لقد عملتُ لكِ سبيلاً، فلن تضطري للخروج بغية الحصول على الماء. لقد

أوصَلتُه للداخل إلى جانب المغارة، وجَعَلتُ له فسقيّة. لقد جَرَرتُه مِن النبع الموجود فوق زيتونة متّيا. إنّ مياهه نظيفة وغزيرة. جررتُها بواسطة مجرى صغير، وصَنَعتُ قناة صغيرة مغطّاة. والآن تَصِل المياه وتغنّي مثل قيثارة. لقد كنتُ أتألّم لرؤيتكِ تذهبين إلى نبع البلدة لتعودي مُحمَّلة بِجرار مليئة ماء.»

«شكراً لكَ يا يوسف، فأنتَ طيّب!»

يَصمت العروسان الآن لتعبهما حتّى إنّ يوسف قد نام بينما مريم تصلّي.

يَحلّ الليل. يُصِرّ المضيفون على أن يأكلا قبل الرحيل. فيأكل يوسف خبزاً وسمكاً بينما لم تأكل مريم سوى الفواكه مع شربها الحليب.

ثمّ هو الرحيل. يمتطيان حماريهما. وكما أثناء الذهاب، يَضَع يوسف صندوق مريم أمامه، وقبل أن تَصعَد مريم يتفقّد السرج إذا ما كان موضوعاً جيّداً. أُلاحِظ أن يوسف يَنظُر إلى مريم وهي تَصعَد فوق السرج، ولكنّه لم يَقُل شيئاً. يبدأ السفر في اللحظة التي أخَذَت أولى النجوم تتلألأ في السماء.

يُسرِعان باتّجاه الأبواب لبلوغها قبل احتمال إقفالها. وعندما يَخرُجان مِن أورشليم ويَسلكان الطريق الرئيسيّة المتّجهة إلى الجليل، تَظهَر النجوم بكثرة على امتداد السماء كلّها. أمّا في القرية فقد خَيَّم صمت مطبق. لم يَعُد يُسمَع سوى تغريد عندليب وصوت حوافر الحمارين التي تضرب بإيقاع أرض الطريق التي أصبَحَت قاسية بفعل جفاف الصيف.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

41- (لو كان يوسف أقلّ قداسة لما مَنَحَهُ الله نوره)

05 و 06 / 04 / 1944

تقول مريم:

«إنّها ليلة الخميس المقدّس. ستبدو هذه الرؤيا للكثيرين خارجة عن الموضوع. ولكنّ ألمكِ كعاشقة ليسوع المصلوب هو في قلبكِ ويستمرّ حتّى بوجود رؤيا عذبة. إنّها كالحرارة المنتَشِرة مِن الشعلة، هي مِن النار كذلك، إلاّ أنّها لم تعد ناراً. فالنار هي الشعلة وليست الحرارة المنتشرة حولها. إنّ أيّة رؤيا مطوّبة أو مطهِّرة لن تأتي لتنزَع مِن قلبكِ هذا الألم. انظري إليه كشيء ثمين أكثر مِن حياتكِ ذاتها: إنّه بالفعل، أكبر نعمة يمكن أن يمنحها الله لمن يؤمن بابنه. ثمّ إن رؤياي في سلامها تتوافق بشكل جيّد مع إحياء ذكرى هذا الأسبوع.

إنّ يوسف قد نال أيضاً عذاباته التي بدَأَت مِن أورشليم عندما انتبَه إلى حالتي، ودامت أيّاماً كما دامت ليسوع ولي. روحيّاً، لم تكن أقلّ ألماً. إنّ قداسة يوسف عروسي وحدها هي التي حافَظَت على هذه الحالة بشكل لائق وسرّي بحيث مرّت دون أن يُعرَف عنها عَبر الأجيال إلاّ القليل.

آه! أولى آلامنا! مَن يمكنه التحدّث عن الشدّة الداخليّة الصامتة؟ مَن يستطيع التكلّم عن ألمي لدى ملاحظتي أنّ السماء لم تكن قد برَّرَتني بإظهارها السرّ ليوسف؟ السرّ الذي كان يجهله. وقد أدركتُ ذلك برؤية احترامه لي ببساطة كالعادة. فلو كان يَعلَم أنّني أحمل كلمة الله في داخلي لكان عَبَدَ هذه الكلمة في أحشائي بطقوس عبادة مخصَّصَة لله، ولم يكن ليُقَصِّر في ممارستها، كما أنّي لم أكن لأرفض تقبُّلها لا لأجلي، إنّما لأجل مَن كان يسكن فِيَّ، الذي كنتُ أحمله كما كان تابوت العهد يحمل لوحي الوصايا وآنية المنّ.

مَن يمكنه وصف معركتي ضد الفتور الذي كان يحاول إرهاقي ليُقنِعني بأن رجائي بالربّ باطل؟ آه! أظنُّها كانت حَملَة هوجاء مِن الشيطان! كنتُ أُحِسُّ بالشكّ يُمسِكني مِن كتفي ويُطيل مجسّاته ليأسر نفسي ويمنعها مِن الصلاة. الشكّ الخطير جدّاً، القاتل للروح. إنّه قاتل، ذلك أنّه الإصابة المَرَضيَّة الأولى والتي تسمّى "اليأس"، حيث يجب أن يتصرّف الروح في مواجهتها بكلّ قواه لكي لا تَصِل النَّفْس إلى الهلاك وفقدان الله.

مَن يمكنه التحدّث بدقة عن ألم يوسف وأفكاره واضطراب عواطفه؟ إنّه مثل قارب صغير وسط عاصفة هوجاء، وكان قد وَجَدَ نفسه في زوبعة مِن الأفكار المتناقضة وردود فعل، كانت الواحدة منها أكثر ألماً وشراسة مِن الأخرى. لقد كان في الظاهر رجلاً مخدوعاً مِن قبل زوجته، فكان يرى انهيار سمعته الطيّبة واحترام العالم معاً بسببها، كان يرى نفسه مُشاراً إليه بالبَنَان وموضوع إشفاق البلدة. وكان يرى الحبّ والاحترام اللذين كان يكنُّهما لي يموتان أمام بَيّنة الفِعلة.

وهنا تلألأت قداسته وأشرَقَت أكثر مِن التي لي. وأشهد لذلك بحبّي كعروسة، إذ أَرغَب في أن تحبّوا يوسف، هذا الرجل الحكيم والفَطِن، الصَّبور والصالح، الذي لم يكن غريباً عن سرّ الفداء الذي ارتَبَط به بشكل وثيق لأنّه استخدَمَ ألمه وذاته لهذا، وذلك بإنقاذ المخلّص دافعاً الثمن تضحيته، وبقداسته العظيمة: فلو كان أقلّ قداسة لكان تَصَرَّف بشرياً بأن يشي بي كزانية لأُرجَم فتموت معي ثمّرة خطيئتي. لو كان أقلّ قداسة لما كان الله قد مَنَحَه النور ليرشده في مثل هذا الاختبار.

إنّما يوسف كان قدّيساً. وكان روحه الكلّيّ الطُّهر يحيا في الله. فالمحبّة كانت متأجّجة فيه وقويّة. وبمحبّته أنقَذَ لكم المخلّص، تارّة بعدم الوشاية بي إلى الشيوخ، وتارّة بتركه كلّ شيء وفق طاعة سريعة، ليَحمل يسوع إلى مصر أيّاماً لم تكن كثيرة، ولكنّها فظيعة بِشِدّتها، لقد كانت أيّام آلام يوسف وآلامي، تلك الأيّام الأولى التي كان ينبغي لي أن أعاني فيها، فقد كنتُ أُدرِك معاناته ولا أستطيع انتزاعها مطلقاً لأبقى وفيّة لأمر الله القائل لي: "اصمتي!".

عندما رأيتُه، حال وصولنا إلى الناصرة، يتركني بعد تحيّة مُقتَضَبة، حانياً ظهره، حتّى ليبدو وكأنّه شاخ في وقت قليل، إذا صحَّ التعبير، وعندما لم يأتِ إليَّ في المساء كعادته، أَعتَرِف لكم، أبنائي، أنّ قلبي المفطور قد عانى مِن ألم حادّ. مُحتَبَسة ووحيدة في البيت حيث كلّ شيء يُذكّرني بالبشارة والتجسّد، وحيث كلّ شيء يعيد إلى قلبي ذكرى يوسف المتّحد بي في بتوليّة لا عيب فيها، كان ينبغي لي أن أُقاوِم الفتور ووساوس الشيطان، وأن أرجو وأرجو وأرجو؛ وأن أصلّي وأصلّي وأصلّي؛ وأن أغفر وأغفر وأغفر ليوسف ريبته وتمرّده كَبَارٍّ اغتاظ.

أبنائي: عليكم بالرجاء والصلاة والصّفح للحصول على تدخّل الله ونيل حظوة لديه. وأنتم أيضاً عليكم أن تعيشوا آلامكم، فإنّ خطاياكم قد استَحَقَّتها. وأنا أُعَلِّمكم كيف تتجاوزونها وتُحَوِّلونها إلى فرح، أُرجوا دونما حساب، صلّوا دونما شك، واغفروا ليُغفَر لكم. ومغفرة الله، يا أبنائي، ستكون هي السلام الذي تتوقون إليه.

لن أقول لكم أيّ شيء آخر في الوقت الحاضر سوى أنّه بعد انتصار القيامة سيكون الصمت. أَشفِقوا على ما تحمَّلَه فاديكم، اسمَعوا أنّاته وعُدّوا جراحاته ودموعه. فكلّ دمعة انسَكَبَت كانت مِن أجلكم، وجراحاته تَقَبَّلَها مِن أجلكم. وأيّة رؤيا أخرى تُمحى أمام تلك التي تُذكّركم بالفداء الذي حَقَّقَه لكم.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

42- (مريم الناصريّة تتفاهم مع يوسف)

31 / 05 / 1944

بعد ثلاثة وخمسين يوماً، تعود الأُمّ للظهور في هذه الرؤيا التي طَلَبَت منّي أن أدوّنها في هذا الكتاب. وعاد الفرح ليُولَد فيَّ مِن جديد، لأنّ رؤية مريم تعني امتلاك الفرح.

إذاً فأنا أرى حديقة الناصرة الصغيرة. مريم تَغزل في ظلّ شجرة تفّاح وَارِفة ومُحمَّلة زيادة بالثمار التي بدَأَت بالاحمرار حتّى لَتحسبها خدود أطفال مدوّرة ووردّية.

ولكنّ لون مريم لم يكن كتلك الألوان الجميلة. فلون خدّيها الذي كان في الخليل قد اختفى. ووجهها شاحب مثل العاج، والشّفتان فقط ترسمان عليه قوساً مِن المرجان الشاحب. وتحت جفنيها المنخفضين ظِلّان مُظلِمان، وحافّة عينيها منتفخة كما بعد بكاء. لستُ أرى عينيها لأنّ رأسها منحن وكلّ انتباهها مُنصَبّ على الشغل وأكثر منه على أفكار حزينة، ذلك أنّني أسمَعها تتنهّد كمَن يعاني ويتألّم في قلبه. كان ثوبها ذا لون أبيض بأكمله، فقد كان مِن الكتّان الأبيض لأنّ الطقس حارّ جدّاً رغم أنّ رطوبة الزهور النقيّة توحي بأنّه الصباح. رأسها مكشوف، والشمس التي تُداعِب أوراق شجر التفّاح التي تحرّكها نسمات خفيفة جدّاً، والتي تتسلّل مُحدِثة خيوط نور على الأرض البنيّة المخصّصة للزهور، وتَرسم دوائر مضيئة على الرأس الأشقر وعلى الشعر الذي يبعَث انعكاسات ذهب خالص.

لم يَصدُر مِن البيت أيّ صوت، وكذلك مِن الجوار. لم يُسمَع سوى صوت خرير ساقية تنساب في فسقيّة في عمق الحديقة.

تَنتَفِض مريم لدى سماعها طرقاً قويّاً على باب البيت الخارجيّ. تضع مِغزَلها ومِردَنها جانباً وتنهض لتذهب وتفتح. ورغم كون ثوبها فضفاضاً، إلّا أنّه لم يُخْفِ استدارة الحوض تماماً.

تَجِد نفسها وجهاً لوجه أمام يوسف. تَشحب حتّى الشفتين. وفي هذه الأثناء يبدو وجهها كخبز الذبيحة بسبب هروب الدم منه. تَنظُر مريم بعين تَستَفسِر بحزن، بينما كانت نظرة يوسف مُستَغفِرة. يَلوذان بالصمت وهما يَنظران إلى بعضهما. ثمّ تفتح مريم فمها: «أفي هذه الساعة يا يوسف؟ هل أنتَ بحاجة إلى شيء ما؟ ماذا تريد قوله لي؟ تعال.»

يَدخُل يوسف ويُغلِق الباب. لم يتكلّم بعد.

«تكلّم يا يوسف، ماذا تريد؟»

«عفوكِ». وينحني كأنّه يريد أن يجثو. ولكن مريم التي ما تزال متحفّظة مِن لمسه، تُمسِك به بعزم مِن كتفيه وتمنعه مِن ذلك.

وأَخَذَ لون وجه مريم يتبدّل، فتارّة هو أحمر وأخرى شاحب كما كان قبلاً: «عفوي؟ ليس هناك شيء أغفره لكَ يا يوسف، ليس لديّ سوى الشكر على كلّ ما فعلتَه هنا أثناء غيابي، وكذلك على الحبّ الذي تكنّه لي.»

يَنظُر إليها يوسف وتترقرق دمعتان كبيرتان في حجرتي عينيه العميقتين، وتَبقَيان كما على حافة آنية، ثمّ تَنحَدِران على الخدّين واللحية.

«سامحيني يا مريم، فلقد تَزعزَعَت ثقتي بكِ، أمّا الآن فقد عرفتُ ولستُ أهلاً لأن يكون لي مثل هذا الكنز. لقد قَصَّرتُ في محبتي لكِ. لقد اتّهمتُكِ في قلبي. اتّهمتُكِ دون عدل لأنّني لم أسألكِ لتقولي لي الحقيقة. لقد أخطأتُ بحسب شريعة الله، وذلك بعدم حبي لكِ كحبّي لنفسي...»

«آه! لا! أنتَ لم تُقَصِّر أبداً!»

«بلى يا مريم. لو كنتُ اتُّهِمتُ بمثل هذا الجرم لكنتُ دافعتُ عن نفسي. وأنتِ... لم أسمح لكِ بالدفاع عن نفسكِ لأنّني كنتُ على وشك أن أتَّخِذ قراراً دون سؤالكِ. لقد أخطأتُ تجاهكِ بأن أسأتُ إليكِ بالريبة. لا شيء سوى الشكّ. وهذه إساءة يا مريم. فمن يشكّ بكِ يَنتَقِص مِن قَدْركِ. وأنا لم أعرفكِ كما كان ينبغي لي أن أفعل. ولكن لِما قد عانيتُ مِن الألم... ثلاثة أيام مِن الندم، سامحيني يا مريم.»

«ما مِن شيء لديّ أسامحكَ عليه. بل بالأحرى أنا التي أطلب منكَ أن تسامحني على ما سبّبتُه لكَ مِن الألم.»

«آه! نعم، يا له مِن ألم! يا لهذا الألم! انظري. لقد قيل لي هذا الصباح بأنّ شيئاً بدأ يَظهَر على صدغيّ، وتجاعيد على وجهي. لقد كبرتُ في أيّام أكثر مِن عشر سنوات. لماذا كنتِ يا مريم مُتواضِعة لدرجة أنّكِ أخفيتِ مجدكِ عنّي، أنا عروسكِ، ورضيتِ بأن أشكّ فيكِ؟»

لم يكن يوسف جاثياً ولكنّه منحن لدرجة أنّه يبدو كذلك، وتضع مريم يدها الصغيرة على رأسه وهي تبتسم. تبدو وكأنّها تُحلّه مِن خطاياه. تقول: «لو لم يكن تواضعي كاملاً لما استحققتُ أن أحبَل بمَن ننتظر، مَن يأتي ليمحو خطيئة الكبرياء التي دَمَّرَت الإنسان. ثمّ أنا أطعتُ... فالله هو مَن طَلَبَ منّي هذه الطاعة التي كَلَّفَتني كثيراً... مِن أجلكَ، مِن أجل الألم الذي اختَبَرتَه. إنّما لم يكن لديّ خيار سوى الطاعة. أنا خادمة الله، والخدّام لا يُناقِشون الأوامر التي يتلقّونها. بل هم يُنفِّذونها، يا يوسف، ولو أبكَتهم دماً.» تبكي مريم وهي تقول ذلك. تبكي بهدوء لدرجة أنّ يوسف المنحني لم يلحظ ذلك إلاّ حينما سَقَطَت دمعة على الأرض.

عندها يرفع رأسه –ولأوّل مرّة أراه يفعل ذلك– ويشدّ على يدي مريم الصغيرتين بين يديه القويّتين ويُقبِّل أطراف أناملها الناعمة التي تبرز مثل براعم الدراق مِن بين قبضتي يدي يوسف.

«الآن يجب أن نتدبّر الأمر، لأنّ...» ولم يُضِف يوسف شيئاً، ولكنّه يَنظُر إلى جسم مريم التي تجلس حالاً لكي لا تبقى عُرضة للنظرات التي تتركّز عليها. «يجب أن نُسرِع. سآتي إلى هنا... سنُتمّ الزواج... الأسبوع القادم، أمُوافِقة أنتِ؟»

«كلّ ما تفعله يا يوسف جيّد. أنتَ رأس البيت وأنا خادمتكَ.»

«لا، بل أنا خادمكِ. أنا الخادم المغبوط لإلهي الذي ينمو في أحشائكِ. وأنتِ المُبارَكة بين كلّ نساء إسرائيل. هذا المساء سأُخبِر الأهل. وفيما بعد... حينما أُصبِح هنا، سنعمل على تهيئة كلّ شيء لمجيئه... آه! كيف سأستطيع استقبال إلهي في بيتي؟ الله بين يديّ؟ سأموت مِن الفرح!... لن أجرؤ على لمسه أبداً!..»

«سوف تستطيع كما سأستطيع أنا ذلك، بنعمة الله.»

«أمّا أنتِ فإنّكِ أنتِ. أمّا أنا فَرَجُل مسكين، ليس في أبناء الله مَن هو مسكين أكثر منّي!»

«يسوع يأتي مِن أجلنا نحن المساكين ليجعلنا أغنياء بالله. سيأتي إلينا نحن الإثنين لأنّنا مساكين أكثر مِن كلّ الناس، ونحن نَعلَم ذلك. افرح يا يوسف، فذريّة داود حَصَلَت على المَلِك الذي تنتظره، وقد أصبَح بيتنا أكثر فخامة مِن قصر سليمان المَلَكيّ، فهنا ستكون السماء، وسنُشارِك الله سرّ السلام الذي سَيُعَلِّمه للعالم فيما بعد. سينمو بيننا وستكون أذرعنا مهداً للفادي الذي يكبر. ومِن عَرَقنا وتعبنا سنوفّر له الخبز... آه! يوسف! سوف نسمع صوت الله ينادينا "بابا"، "ماما"! آه!...» وتبكي مريم فَرَحاً بدموع سعيدة للغاية!

يجثو يوسف الآن على ركبتيه ويبكي خافياً رأسه في ثوب مريم الفضفاض الذي ينسَدِل مُشَكِّلاً ثنيات على بلاط الغرفة الصغيرة البسيط.

وهنا تنتهي الرؤيا.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

43- (اتركوا للربّ مهمّة الإعلان لكم عن خُدَّامه)

31 / 05 / 1944

تقول مريم:

«لا يُؤوّلنّ أحد شحوبي بطريقة خاطئة. لم يكن نتيجة خوف بشريّ، فبشريّاً كنتُ سأنتظر الرَّجم. وهذا لم يكن في يوم مَبعَث خوفي. بل كنتُ أعاني مِن ألم يوسف. حتّى فكرة إدانته لي لم تجعلني بحدّ ذاتها أَضطَرِب. إنّما ما لم يكن يَروق لي فقط هو أنّه بوقوفه عند فكرة إدانتي كان قد أَخَلَّ بالمحبّة. لذلك، عندما شاهدتُه قَفَزَ دمي. لقد كانت لحظة يُخطِئ بارّ فيها بحقّ العدل، وذلك بالإخلال بالمحبّة. وأن يُخِلّ بارّ بالمحبّة وهو الذي لم يُخِلّ أبداً في السابق، هو ما سَبَّبَ لي أشدّ العذاب.

لو لم أكن أتحلّى بالتواضع إلى أبعد حدوده، كما قلتُ ليوسف، لما كنتُ أستحقّ أن أحمل في أحشائي الذي تنازَلَ، وهو الإله، ليُصبح إنساناً ليزيل الكبرياء مِن الجنس البشريّ. لقد جعلتُكِ تَرَين هذا المشهد الذي لم يُورِده أيّ إنجيل لأنّني أردتُ لفت انتباه العالم البعيد جدّاً عن الشروط الأساسيّة لإرضاء الله وتقبّل حضوره المُتواصِل في قلبه.

الإيمان. لقد آمَن يوسف إيماناً أعمى بكلمة رسول السماء. لم يكن يطلب سوى الإيمان لأنّه كان مُقتَنِعاً بشكل جادّ أنّ الله صالح وأنّه، وهو الذي رجا الربّ، فلا يمكن أن يبتليه الربّ بألم أن يخونه قريبه ويخدعه ويهزأ به. لم يكن يطلب سوى الإيمان بي، لأنّه، كرجل شريف، لم يكن يستطيع مجرّد التفكير بدون ألم أن لا يفعل الآخرون ذلك. كان يعيش بموجب الشريعة، والشريعة تقول: "أحِبب قريبكَ كنفسكَ". فنحن نحبّ أنفسنا لدرجة الاعتقاد بأنّنا كاملون حتّى حينما لا نكون كذلك. لماذا نتوقّف إذن عن محبّة القريب لمجرّد فِكرة أنّه غير كامل؟

المحبّة المُطلَقَة. المحبّة التي تعرف أن تَصفَح، والتي تريد أن تَصفَح. تَصفَح مسبقاً بأن تُبرّر في قلبها أخطاء القريب. تَصفَح مباشرة بإيجاد كلّ الظروف المخفِّفة للمُخطئ.

التواضع المُطلَق مثل المحبّة. معرفة أنّنا مُقصِّرون، حتّى بمجرد فِكرة بسيطة، وعدم الاتّصاف بالكبرياء الأكثر ضرراً مِن الخطيئة السابقة بأن نرفض القول: "أنا أخطأتُ". فكلّ العالم، ما عدا الله، يُخطئ. مَن الذي أو مَن التي تستطيع القول: "أنا لا أُخطئ أبداً؟" والتواضع أكثر صعوبة كذلك. فهو الذي يَعرف أن يَكتم روائع الله فينا، عندما يكون مِن غير المفيد أن نُعلِنها لتمجيده بها. لكي لا نُقلّل مِن قيمة القريب الذي لم يتلقَّ هذه المواهب الخاصّة مِن الله. لو أراد ذلك، آه لو أراد ذلك، فالله يَظهَر بنفسه في خادِمه! فإنّ أليصابات قد رأتني كما أنا، وعروسي عَرفَني والغاية التي وُجِدتُ مِن أجلها، وذلك عندما حان الوقت ليَعرف.

دعوا لله مهمّة الإعلان لكم عن خدّامه. إنّه بحاجة لأن يكون ذلك بحبّ. إذ إنّه يهيّئ كلّ خليقة لرسالة خاصّة، هي مجد جديد يضاف إلى مجده اللامتناهي، لأنّها الشهادة عن طبيعة الإنسان كما أراده الله: كمال ثانوي يعكس الأصل. ابقوا في الظلّ وفي الصمت، يا مَن حظيتم بالنعمة، لتستطيعوا سماع الكلمات الوحيدة التي هي "الحياة"، لتستطيعوا استحقاق أن تَسطَع الشمس بشكل أزليّ فوقكم وفيكم.

آه! أيّها النور الأكثر مِن مغبوط، الذي تُدعى الله، يا مَن أنتَ فرح خدّامكَ، اسطَع على هؤلاء الخدّام الذين ينتمون إليكَ، الذين يبتَهِجون فيكَ بتواضعهم وهم يُسبّحونكَ، أنتَ وحدكَ الذي إذ تُشتِّت المتكبّرين إنّما تَرفَع المتواضعين الذين يحبّونكَ إلى بهاء مُلككَ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

44- (مَنشور الإحصاء)

04 / 05 / 1944

ما زلتُ أرى بيت الناصرة: الغرفة الصغيرة حيث تتناول مريم عادة طعامها. إنّها في هذه الأثناء مُنهَمِكة بشغل مِن القماش الأبيض. وتضع شغلها جانباً لتذهب وتُشعِل المصباح، فالليل يُرخي سدوله، والنور المُخضرّ المُتسلّل مِن الباب الموارَب على الحديقة لم يَعُد كافياً. وتُغلِق الباب. أدركتُ أنّ حَمْلَها أصبَح متقدّماً جدّاً. ولكنّها ما تزال جميلة جدّاً. مشيتها سَلِسَة، وسلوكها رشيق. ولا شيء مِن التثاقُل الذي يَظهَر عادة على امرأة تُوشِك أن تضع وليدها. الوجه فقط قد تغير.

الآن هي "امرأة"، بينما في السابق، في زمن البِشارة كانت شابّة فتيّة، ذات وجه هادئ وديع: وجه طفل بريء. ومنذ أن كانت في منزل أليصابات، في لحظات ولادة المعمدان، أصبَحَ وجهها أكثر صفاء، فقد نَضَجَ جمالها. أمّا الآن، فإنّه الوجه الساكن إنّما المطبوع بطابع الوقار اللطيف لامرأة بلغت كمالها بالأمومة.

لقد أصبَحَت مريم الآن بحقّ "المرأة" الممتلئة وقاراً ونِعمة. حتّى ابتسامتها، فقد تفتَّحَت بعذوبة مهيبة. كم هي جميلة!

يَدخُل يوسف. يبدو أنّه عائد مِن البلدة، لأنّه يَدخُل مِن الباب الخارجي وليس مِن باب المَشغَل. ترفع مريم رأسها وتبتسم له، كذلك يوسف يُبادِلها الابتسامة، إلّا أنّه يبدو مُتعَباً قَلِقاً. تُلاحِظ مريم ذلك، وتتساءل ماذا هناك. ثمّ تَنهَض وتأخذ المعطف الذي ينزعه يوسف وتضعه على كرسيّ.

يَجلس يوسف قرب الطاولة. يَسند عليها مرفقه، ورأسه مُستَنِد إلى يده، بينما هو يتلمّس لحيته باليد الأخرى قَلِقاً.

تسأله مريم: «ألديكَ ما يجعلكَ تعاني؟ هل أستطيع التخفيف عنكَ؟»

«أنتِ عزائي على الدوام يا مريم، ولكنّ همّي في هذه المرّة كبير... لأجلكِ.»

«لأجلي أنا، يا يوسف؟ ماذا هناك؟»

لقد أَلصَقوا مَنشوراً على باب الكنيس. إنّه أمر بإحصاء كلّ الفلسطينيّين. يجب الذهاب للاكتتاب في مكان الأصل. فيجب علينا نحن أن نذهب إلى بيت لحم...»

«آه!» تُقاطِعه مريم وهي تضع يدها على صدرها.

«هذا يثيركِ، أليس كذلك؟ إنّه قاس، أنا أعرف.»

«لا يا يوسف، ليس هذا. إنّني أفكّر... أفكّر في الكتاب المقدّس: راشيل أُمّ بنيامين وزوجة يعقوب التي منها سيُولَد الكوكب: المخلّص. راشيل مدفونة في بيت لحم، وقد كُتِبَ: "وأنتِ يا بيت لحم إفراتا، أنتِ الأصغر في قضاء يهوذا، ولكن منكِ يَخرُج المَلِك". المَلِك الموعود به لذريّة داود سيُولَد هناك...»

«أتعتقدين... أتعتقدين أن الزمن قد حان؟ آه! كيف سنعمل؟» يوسف حائر تماماً. إنه يَنظُر إلى مريم نظرة إشفاق.

تُلاحِظ مريم ذلك فتبتسم. إنّها تبتسم لنفسها أكثر منها له، ابتسامة تبدو وكأنّها تقول: «إنّه رجل بارّ ولكنّه إنسان. يرى الأمور كإنسان. يفكّر كإنسان. أَشفِقي عليه يا نفسي واجعليه يُحاكِم الأمور بالروح.» ولكنّ صلاحها وطيبتها يدفعانها لطمأنته. إنّها لا تكذب، ولكنّها تسعى

إلى تسليته في كُربَتِه. «لا أعرف يا يوسف. الموعد قريب، ولكن ألا يمكن للربّ تأخيره لانتشالكَ مِن قلقكَ؟ إنّه قادر على كلّ شيء، فلا تخف.»

«ولكنّ السفر؟... مَن يدري أيّ ازدحام سيكون! هل سنجد مأوى لائقاً؟ هل سنجد الوقت للعودة؟ وإذا اضطررتِ للولادة هناك فما العمل؟ لا بيت لنا... ولم نعد نعرف أحداً...»

«لا تخف، فإن كلّ شيء سيسير على ما يرام. إنّ الله يجعل الحيوان الذي على وشك الولادة يَجِد ملجأ. أفتريده أن يجعل مسيحه لا يَجِد مأوى؟ فلنثق به. أليس كذلك؟ فلنتوكلّ عليه دائماً. وكلّما كانت التجربة كبيرة كلّما توجَّبَت زيادة الثقة والاتكال. وكمِثل طفلين فلنضع يدينا في يده كأب. وهو يُرشِدنا. فلنترك أنفسنا تماماً بين يديه. انظُر كيف أوصَلَنا إلى هنا بحبّ. إنّه أب، وهو الأفضل بين الآباء، أفلا يُعيرنا انتباهه؟ فلنكن أبناءه وخدّامه ولنتمّم مشيئته. لا يمكن أن يصيبنا أيّ مكروه. حتّى هذا المنشور هو وفق مشيئته. إذ مَن يكون قيصر إذن؟ إنّه أداة في يدي الله. منذ اللحظة التي قرَّرَ الآب فيها الصفح عن الإنسان، فقد حَدَّدَ مُسبَقاً الأحداث كي يُولَد مسيحه في بيت لحم. إنّها المدينة الأصغر في يهوذا، ولم تكن بعد موجودة، ومع ذلك فمجده كان قد أُعلِن آنذاك. كان يجب أن يتحقّق هذا المجد. فكلام الله لا يعرف الكذب -وسيكذب إن وُلِد المسيح في أيّ مكان آخر- وها هو أحد السلاطين قد نُصِّبَ بعيداً عن هنا، وقد غَزانا، وهو يريد أن يعرف عدد التابعين له، الآن بالذات، بينما العالم في سلام... آه! ما قيمة تعبنا القليل إذا ما فكّرنا بروعة لحظة السلام هذه، يا يوسف؟ فَكِّر بالأمر: زمن تنتفي فيه البغضاء مِن العالم! هل توجد ساعة أكثر سعادة لبزوغ "النجمة"، حيث النور إلهيّ والفاعليّة فداء؟ آه! لا تخف يا يوسف. إذا لم تكن الطرقات آمنة، وإذا كان الحشد يجعل السفر صعباً، فالملائكة ستُدافِع عنّا وتحرسنا. ليس لأجلنا، بل لأجل مَلِكها. وإذا لم نجد ملجأ فستأوينا تحت أجنحتها. لن يصيبنا أذى. لا يمكن أن يحدث شيء: فالله معنا.»

يَنظُر إليها يوسف ويستمع إليها بنشوة. تزول أخاديد جبهته، وتعود الابتسامة. يَنتَصِب دون سأم ودون حزن. يبتسم. «مباركة أنتِ يا شمس نفسي! أنتِ المباركة تعرفين أن تري كلّ شيء بنور النعمة التي تملأكِ! فلا نضيعنّ الوقت إذن. علينا الرحيل بأقصى سرعة و... العودة بأسرع وقت لأن كلّ شيء هنا جاهز لـ... لـ...»

«لابننا يا يوسف. هكذا يجب أن يبدو في نَظَر العالم، تذكّر. لقد أحاط الآب قدومه بسريّة، وليس لنا نحن أن نميط اللّثام. هو، يسوع، سيَفعَل ذلك عندما يحين الوقت.»

لا يمكن وصف جمال وجه ونظرة وقوام وصوت مريم عندما تقول: "يسوع"... إنّها النشوة. وعلى منظر هذه النشوة تنتهي الرؤيا.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

45– (أن نحبّ يعني إرضاء مَن نحبّ بما يتجاوز الإحساس والمنفعة)

1944 / 05 / 04

تقول مريم:

«لن أضيف الشيء الكثير، فكلامي أصبَحَ عِبرة.

إنّي ألفت انتباه العروسات إلى نقطة هامّة. ارتباطات كثيرة قد انحَلَّت بسبب خطأ النساء اللواتي لا يتحلّين بهذا الحبّ الذي هو كلّ شيء: لُطف، عطف، رعاية وَدودَة، وعزاء للزوج. إنّ الرجل لا تُرهِقه المعاناة الجسمانيّة التي تُرهِق كاهل المرأة، إنّما يُرهِقه ثِقل كلّ الهموم المعنويّة: ضرورة العمل، القرارات الحاسمة، المسؤوليّة تجاه كلّ السلطات الشرعيّة وتجاه عائلته ذاتها... آه! كم مِن الأشياء لا تُرهِق الرجل! وكم هو كذلك بحاجة إلى السلوان! أمّا الأنانيّة فتكمن في أن تزيد المرأة على كاهل الرجل المُتعَب والمُحبَط والمُنتَقَص قدره والمَهموم، ثِقل شكاواها غير المجدية وأحياناً غير الصحيحة وغير العادلة. كلّ ذلك لأنّها أنانيّة. فهي لا تحبّ.

الحبّ ليس البحث عن إرضاء الأحاسيس أو الاهتمامات الشخصيّة. إنّما الحبّ هو إرضاء مَن نحبّ بتجاوز الإحساس والمنفعة، هو أن نمنَح روحه المساعدة التي تحتاجها ليستطيع المحافظة على جناحيه مفتوحتين في سماوات الرجاء والسلام.

نقطة أخرى ألفت انتباهكم إليها. لقد تكلّمتُ عنها سابقاً، ولكنّي أُلحّ عليها: الثقة بالله. فالثقة تُلخِّص في ذاتها كلّ الفضائل الإلهيّة. والتحلّي بالثقة يعني التحلّي بالإيمان. التحلّي بالثقة يَفتَرِض الرجاء. التحلّي بالثقة يعني اختبار الحبّ. ففي حبّ شخص والرجاء والإيمان به تكمن الثقة. وغير هذا فلا. الله يستحقّ مثل هذه الثقة التي يجب أن تكون ثقتنا نحن. فإذا كنّا نَمنَحها لأناس مساكين، قادرين على عدم الاستجابة، فلماذا نحجبها عن الله الذي لا يُقصِّر معنا أبداً؟

الثقة هي أيضاً تواضُع. يقول المتكبّر: "أنا أكتفي بذاتي. أنا لا أثق بهذا لأنّه عاجز، كاذب ومغرور" أمّا المتواضع فيقول: "أنا أثق به. ولماذا لا أثق به؟ لماذا ينبغي لي أن أفكّر بأنّني أفضل منه؟" وبإدراك أكثر يتكلّم هكذا عن الله: "لماذا ينبغي لي ألّا أَثِق بمَن هو صالح؟ لماذا ينبغي لي أن أفكّر أنّني أستطيع الاكتفاء بذاتي؟" الله يُعطي ذاته للمتواضع ولكنّه يَبتَعِد عن المتكبّر.

الثقة هي أيضاً طاعة. والله يحبّ المطيع. والطاعة تعني أن نتعرّف على بعضنا كأبناء له وأن نعرف الله أباً لنا. ولا يستطيع الأب سوى أن يحبّ عندما يكون أباً حقيقيّاً. والله هو أبونا الحقيقيّ، وهو أب كامل.

النقطة الثالثة التي أريدكم أن تتأمّلوا بها، وهي ترتكز دائماً على الثقة. لا يمكن أن يَحدُث شيء دون إذن الله. هل أنتَ قادِر؟ فأنتَ كذلك لأنّ الله قد سَمَحَ به. هل أنتَ خاضِع للسلطة؟ فأنتَ كذلك لأنّ الله قد سَمَحَ به.

اعْمَل إذاً أيّها القادر على ألّا ترتكب بِقُدرَتك شرّاً. فسيكون ذلك دائماً "شرّكَ" حتّى ولو كان في البداية شرّ الآخرين. لأنّه إن سَمَحَ الله فلا يَسمَح بكلّ شيء، وإذا ما تجاوَزتَ الحدود فإنّه يضربكَ ويحطّمكَ. مِن ناحيتكَ، يا مَن أنتَ مجرّد فاعل، اجتهِد في أن تجعَل مِن هذا الظَّرف الذي هو ظَرفكَ مغناطيساً يَجذب إليكَ الحماية السماويّة. ولا تَلعَن أبداً. دع ذلك لله. فله، هو ربّ كلّ الناس، له وحده أن يُبارِك أو يَلعَن مخلوقاته.

اذهبي بسلام.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

46- (السـفر إلى بيت لحم)

1944 / 05 / 05

أرى طريقاً عريضة، هناك جمع غفير. حمير ذاهبة مُحمَّلَة أمتعة وأُناساً. وحمير عائدة. والناس المُمتَطية تَهمِز مطاياها، ومَن يسير منهم على أقدامه يحثّ الخطى لأنّ الطقس بارد.

الهواء نقيّ وجاف، السماء صافية، إلاّ أنّ كلّ شيء يبدو بالمظهر الدقيق ليوم شتويّ حقيقيّ. القرية العارية تبدو أَوسَع. عُشب المراعي قصير وقد أحرَقَته رياح الشتاء. وفي تلك المراعي تبحث القطعان عن القليل مِن الغِذاء، وتَطلب الشمس التي تُولَد ببطء. يلتصق خرفانها الواحد بالآخر لأنّها هي أيضاً تشعر بالبرد. تثغو رافعة أفواهها ناظرة إلى الشمس كأنّها تقول لها: «بسرعة، بسرعة، كم الطقس بارد!» وتَظهَر على الأرض تموّجات تبدو أكثر فأكثر وضوحاً. إنّه منظر هضبة حقيقيّ. هناك منخَفَضات عشبيّة ومنحدرات بوديان صغيرة وقِمم. والطريق تمرّ في الوسط وتتّجه إلى الجنوب الشرقيّ.

مريم على حمارها الرماديّ متدثّرة بمعطفها السميك. وفي مقدّمة السرج، كما كان الأمر يوم السفر إلى الخليل، الصندوق المحتوي على الحاجات الأكثر ضرورة. ويوسف إلى جانبها يسير ممسكاً باللجام سائلاً إيّاها بين الفينة والأخرى «هل أنتِ متعَبَة؟»

فتنظر إليه مريم مبتسمة وتقول: «لا». وفي المرة الثالثة تُضيف: «أنتَ بالأحرى الذي تمشي على قدميكَ، قد تكون تَعِبتَ.»

«آه! أنا، بالنسبة لي هذا لا يهمّ. ولكنّني أفكّر، لو أنّني وجدتُ حماراً آخر لكان مِن الممكن أن تكوني مرتاحة أكثر وكنّا استطعنا الذهاب بشكل أسرع. ولكنّني لم أَجِد. كلّ الناس

بحاجة للمطايا في هذا الوقت. إنّما تشجعي! فقريباً سنصل إلى بيت لحم. فوراء هذا الجبل توجد إفراتا.»

يَظلّان صامِتَين. والعذراء، عندما لا تعود تتكلّم، يبدو أنّها تختلي في صلاة داخليّة. تبتسم بلطف لفِكرة تُراوِدها، وعندما تتطلّع إلى الجموع يبدو أنّها لا تُميّز بين رجل وامرأة، عجوز أو راعٍ، غنيّ أو فقير، إنّما هي ترى ما في ذاتها فقط.

يسألها يوسف: «هل تشعرين بالبرد؟» ذلك لأنّ الريح تهبّ.

«لا، شكراً.»

إلّا أن يوسف لا يقتَنِع فيجسّ رِجليها اللتين تتدلّيان على كشح الحمار، رِجليها اللتين تنتعلان صندلاً وهما لا تكادان تتجاوزان ثوبها الطويل. ربما وَجَدَهما بارِدَتَين، فهو يهزّ رأسه، ويأخذ غطاء (حرام) كان يحمله وَرباً على كتفيه، ويغطّي به ساقي مريم حتّى صدرها بشكل تبقَى فيه يداها في الدفء تماماً تحت الغطاء والمعطف.

يَلتقيان بِرَاعٍ يقطع الطريق مع قطيعه الذي يَنقله مِن مرعى على اليمين إلى آخر على اليسار. فينحني يوسف ليَهمس في أذنه بشيء ما. يُجيبه الراعي بإشارة تدلّ على الموافقة. فيأخذ يوسف الحمار ويقوده خلف القطيع إلى المرعى حيث يأخذ الراعي مِن خُرْجه وعاء كبيراً ويَحلب نعجة كبيرة ضِرعاها مليئان، ويُعطي الوعاء ليوسف الذي يقدّمه إلى مريم.

فتقول مريم: «ليبارككما الله، أنتما الإثنين، أنتَ لمحبّتكَ، وأنتَ لطيبتكَ وكرمكَ. سوف أصلّي مِن أجلكَ.»

«أتأتيان مِن بعيد؟»

يُجيب يوسف: «مِن الناصرة».

«وإلى أين وجهَتكُما؟»

«إلى بيت لحم».

«إنّه لَسَفر طويل بالنسبة إلى امرأة في هذه الحال. أهي زوجتكَ؟»

«نعم إنّها زوجتي».

«أيوجد مَن تَحِلّان عنده؟»

«لا».

«الأمر يَبعَث على القلق، فبيت لحم مكتظّة بأناس أتوا مِن كلّ صوب للاكتتاب أو للذهاب إلى أمكنة أخرى لنفس المَسعى. لستُ أدري إذا كنتما سَتَجدان مأوى. هل تَعرِفان المكان؟»

«ليس كثيراً.»

«إذاً!... سأُعَلّمكَ... مِن أجلها (ويَقصد مريم) اقصدا النَّزل. سيكون ممتلئاً. ولكنّني أحدّده لكما ليكون بمثابة نقطة علّامة. إنّه في الساحة الكُبرى. تذهبان إليها مِن الطريق الرئيسيّة. لا يمكن أن تُخطِئا. هناك نبع ماء قرب النَّزل الكبير والمنخَفِض ذي البوّابة الكبيرة. سيكون مكتظّاً. وإذا لم تَجِدا مكاناً في النَّزل وفي البيوت، فامضيا خلف النَّزل باتّجاه القرية. هناك إسطبلات في الجبل يستخدمها الباعة المتوجّهون إلى أورشليم ليَضَعوا فيها حيواناتهم عندما لا يَجِدون مكاناً في النَّزل. إنّها إسطبلات في الجبل، تُدرِكان ذلك: إنّها رطبة، باردة، وبدون أبواب، ولكنّها تبقى ملجأ، لأنّ المرأة... لا تستطيع البقاء في الطريق. قد تَجِدا هناك مكاناً فيه قَشّ لتناما، وكذلك مكاناً للحمار. وليرافقكما الله.»

تُجيب مريم: «ليهبكَ الله الفرح». ويقول يوسف بدوره: «ولترافقكَ السلامة».

ويُعاوِدان سلوك طريقهما. ويَظهَر منخَفَض أكبر مِن المنحَدَر الشديد الذي اجتازاه. والمنخَفَض محاط مِن الأعلى ومِن الأسفل بمنحدرات، وهناك بيوت وأيضاً بيوت، إنّها بيت لحم.

«ها نحن على أرض داود يا مريم. الآن ستستريحين. إنّكِ تبدين لي مُرهَقة جداً...»

«لا. كنتُ أفكّر... أفكّر...» وتُمسِك مريم بيد يوسف وتقول له بابتسامة مُشرِقة: «أعتقد حقيقة أنّ الأوان قد حان.»

«يا إله الرحمة! كيف سنتصرّف؟»

«لا تخف يا يوسف. لا تستسلم للانفعال. انظُر كم أنا هادئة!»

«ولكن... هل تتألّمين كثيراً؟»

«آه! لا. فأنا ممتلئة فَرَحاً. إنّه لَفَرح عظيم وجميل لا يُقاوَم، لدرجة أنّ قلبي يخفق بشدّة، بشدّة ويقول لي: "إنّه يُولَد! يُولَد!" يقولها مع كلّ خَفقة. إنّه صغيري الذي يَدقّ على باب قلبي ويقول لي: "ماما ها أنا ذا لأعطيكِ قبلة الله". يا له مِن فَرَح يا يوسف!»

ولكنّ يوسف ليس فَرِحاً. إنّه يُفكّر بضرورة إيجاد ملجأ ويَحثّ الخُطى. يَطرق الباب تلو الباب، يسألهم المأوى. لا فائدة فالكلّ مشغول. يَصِلان إلى النَّزل. إنّه مُكتظّ، حتّى تحت الأروقة الريفيّة التي تحيط بباحة الدار الكبيرة، بأناس يُخيّمون.

يَترك يوسف مريم على الحمار داخل الدار، ويَخرج يُفتّش في البيوت الأخرى. ثمّ يعود خائباً. لا يوجد مكان. وغَسَق الشتاء المبكّر بدأ يَنشر شِراعه. يتوسّل يوسف إلى صاحب النَّزل، يتوسّل إلى مُسافِرين. إنّهم رجال بكامل صحّتهم وهي امرأة على وشك الولادة. ليكن لديهم رحمة. لا شيء. يَنظُر إليه أحد الفرّيسيّين الأغنياء باحتقار سَافِر، وعندما تدنو مريم يبتعد عنها كما لو

كانت مصابة بالبرص. فيَنظر إليه يوسف وقد احمرّ وجهه مِن الغيظ، فتضع مريم يدها على قبضة يوسف لتهدئته وتقول: «لا تلحّ، فلنذهب. الله سوف يتدبّر الأمر.»

يَخرُجان ويسيران بمحاذاة جدار النّزل. يَسلكان درباً مُتراكِبة فيما بينها وبين بيوت فقيرة. يَدوران حول النّزل. يبحثان حتّى يَجِدا أحد الكهوف، إنّها بالأحرى أقبية أكثر منها إسطبلات لكثرة انخفاضها ورطوبتها. وما كان مقبولاً منها قد شُغِل. يوسف مُنهَك.

يَهتف عجوز مِن الخلف: «أو هيه! أيّها الجليلي! هناك في أقصى المكان تحت تلك الأطلال، يوجد كوخ قد لا يكون وَصَلَ إليه أحد.»

يَدنوان مِن ذاك الكوخ. إنّه في الحقيقة جُحر. فوسط أنقاض منزل متهدِّم، هناك ملجأ، توجَد وراءه مغارة، هي حفرة في الجبل أكثر منها مغارة، يمكن القول بأنّها أساسات لبناء قديم كان مسقوفاً بأشياء مدعومة بجذوع شجر غليظة بعض الشيء.

لكي يَرَى بشكل أوضح، حيث إنّ النور فيها خافِت، يُخرِج يوسف بعض الصوفان **(مادة تَخرُج مِن قلب الشجر، رخوة، تَقدَح فيها النار)** وقدّاحة، ويُشعِل مصباحاً صغيراً يُخرِجه مِن الخُرْج الذي كان يتمنطق به، ويَدخُل. يستقبله خُوَار بالتحية. «تعالي يا مريم، إنّها فارغة إلّا مِن ثور.» ويبتسم يوسف «أفضل مِن لا شيء!»

ترتَجِل مريم وتَدخُل.

يُثَبِّت يوسف المصباح على مسمار في أحد الجذوع المستخدَمة كدعامة. أمّا القُبّة فقد كانت مغطّاة بخيوط العنكبوت، والأرض مِن التراب المُداس ومُصدّعة بثقوب وحصى وفضلات وغائط ومفروشة بسوق التبن. وفي الداخل ثور يتلفّت ويَنظُر بعينيه الكبيرتين والهادئتين، بينما يتدلّى العلف مِن فمه. هناك مقعد كبير وحَجَران كبيران في زاوية قرب صَدع يشير السواد الذي يغطّي هذه الزاوية إلى أنّها مكان إشعال النار.

تَدنو مريم مِن الثور، وقد كانت تشعر بالبرد، فتضع يديها على عنقه لتَشعُر بالدفء. يَخور الثور ويستسلم. يبدو أنّه قد أدرَكَ، حتّى عندما أزاحه يوسف إلى مكان أبعَد ليأخذ مِن القش كميّة أكبر إلى المعلَف فيَجعَل منه سريراً لمريم. والمعلَف مضاعَف: المكان الذي يأكل منه الثور، وآخر أعلى، وهو بمثابة رفّ توجد عليه المؤونة مِن العَلَف.. هذا ما أخذه يوسف وقد تَرَكَه الثور يَفعل. كما هيّأ مكاناً آخر للحمار التَّعِب والجائع، والذي باشَرَ فوراً بالأكل. ثمّ يَكتَشِف يوسف دلواً مقلوباً وكثير البعج، ويَخرُج إلى حيث يمرّ في الخارج نهر، ليعود بالماء للحمار. ثمّ يَستَحوِذ على حُزمة مُشَكَّلَة مِن الأغصان موضوعة في إحدى الزوايا ويُحاول كَنس الأرض. يَفرش بعدها القشّ ويَصنَع منه سريراً جانب الثور، في الزاوية الأكثر جفافاً والأكثر حماية. ولكنّه يَجِد القشّ رطباً فيتنهّد ويُشعِل النار، وبصبر الراهب، يَأخذ يُجفّف القشّ قبضة إثر قبضة، بإمساكه إيّاه قريباً مِن النار.

تَجلس مريم على مقعد مُتعَبة، تَنظُر وتبتسم. ها قد انتهى. تَجلس مريم براحة على القشّ الطريّ مُسنِدة كتفيها على جذع. ويُكمِل يوسف... الأثاث، وذلك بمدّ معطفه الذي يقوم مقام الخيمة، على الفتحة المستخدَمة كمَدخل. إنّه مأوى نسبيّ جدّاً. بعدها يُقدّم خبزاً وجبناً للعذراء ويعطيها الماءَ مِن قُربَة معه لتشرب. بعد ذلك يقول لها: «نامي الآن وسأسهر أنا لكي لا تنطفئ النار. يوجد حطب لحسن الحظ. نأمل أن يدوم اشتعالها. وسأدَّخر الزيت للمصباح.

تطيع مريم وتتمدّد، ويغطّيها يوسف بمعطفها ذاته والحرام الذي كان يغطّي قدميها.

«ولكن، أنتَ... ستشعر بالبرد.»

«لا يا مريم، سأبقى قرب النار. حاولي أن تستريحي. وغداً ستسير الأمور بشكل أفضل.»

تُغمِض مريم عينيها دون أن تَظهَر بأنّها تصلّي. ويوسف ينزوي في ركنه على مقعد مع دقاق الحطب إلى جانبه، لا يوجد منها إلّا القليل. لا أعتقد أنّها ستدوم طويلاً.

كانت المواقع على الشكل التالي: مريم إلى اليمين، وكتفاها صوب الباب، وهي نصف مخبّأة بجذع شجرة وبجسم الثور الذي أقعى (أي جَلَسَ القُرفصاء، وتقال للحيوان فقط) في المهاد؛ ويوسف إلى اليسار يتّجه صوب الباب، وبالتالي فهو بالوَرِب، ووجهه صوب النار وكتفاه نحو مريم. وهو يَدور بين الفينة والفينة لِيَنظُر إليها ويراها مُستَكينة كما لو كانت نائمة. كان يَستَخدِم الأغصان قليلاً، قليلاً، ويرميها واحدة فواحدة في النار لكي لا تنطفئ، ولتُضيء، ولكي يدوم هذا القليل مِن الحطب. لم يبق سوى ضوء النار، وهو طوراً حيويّاً وطوراً يخبو، إذ إنّ زيت المصباح يكاد يَنفذ، وفي شبه العتمة هذه يمكن التفريق فقط بين بياض الثور ووجه ويدي يوسف. أمّا الباقي فلم يكن سوى كتلة تندَمِج في كتلة الظلّ.

تقول مريم: «**لن يُقال لكم المزيد، فالرؤيا تتحدّث عن نفسها. ولكم أن تستَخلِصوا منها عِبَر المحبّة والتواضع والطهارة التي تَنجم عنها. استريحي، استريحي وأنتِ تَسهَرين كما سهرتُ أنا في انتظار يسوع. سوف يأتي حاملاً لكِ السلام.**»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

47- (ميلاد يسـوع ربّنـا)

06 / 05 / 1944

ما زلتُ أرى داخل هذا الملجأ الحجريّ الفقير، حيث وَجَدَ يوسف ومريم ملاذاً يُشارِكون به الحيوانات المصير.

النار الخفيفة تَغفو مِثل حارِسها. ترفع مريم رأسها بهدوء مِن فِراشها وتَنظُر فترى يوسف وقد تدلّى رأسه على صدره كما لو كان يُفكّر، واعتَقَدَت أنّ التعب قد تغلَّبَ على إرادته الطيّبة بالبقاء متيقّظاً، وتبتسم ابتسامة لطيفة، وتَجلس مُحدِثَة مِن الضجة ما يقلّ عن الذي تُحدِثه فراشة على زهرة، ثمّ تجثو. إنّها تصلّي بابتسامة مُشرِقة على وجهها. تصلّي ويداها ممدودتان، ليس بالضبط على شكل صليب، إنّما كفّاها متّجهتان إلى الأمام نحو الأعلى. ولم يَظهَر عليها التعب مِن هذا الوضع الشاقّ. ثمّ تَسجُد فيُلامِس وجهها العَلَف في صلاة عميقة جدّاً. صلاة طويلة.

يتنبّه يوسف فيَجِد النار شِبه مُطفَأة والإسطبل في شِبه ظُلمَة. يَرمي قَبضَة مِن القشّ فتعود النار لتتأجّج، ثمّ يُضيف أغصاناً أكثر غلاظة، ثمّ أكثر غلاظة، ذلك أنّ البرد لاذِع، إنّه برد الليلة الشتويّة الساكنة الذي يَختَرِق كلّ الأمكنة في هذه الأنقاض. يوسف المسكين القريب مِن الباب -لِنُسَمِّ الفتحة التي يُحاوِل سدّها بمعطفه هكذا- يُفتَرَض أنّه تجمّد مِن البرد. يُقَرِّب يديه مِن النار ويَنزَع حذاءه ليُدني قدميه منها كذلك. وعندما تشتعل النار بشكل جيّد ويَسطَع نورها، يلتَفِت فلا يرى شيئاً، ولا حتّى بَياض وشاح مريم الذي يمتدّ ناصعاً على العَلَف العاتم. فيَنهَض ببطء ويدنو مِن المَرقَد.

يسألها: «ألا تنامين يا مريم؟» ويُكرّر السؤال ثلاث مرات إلى أن تتنبّه وتجيبه: «إنّني أصلّي.»

«ألستِ تحتاجين شيئاً؟»

«لا يا يوسف.»

«حاولي أن تنامي قليلاً، أن تستريحي على الأقلّ.»

«سأحاول، ولكنّ الصلاة لا تُتعِبني.»

«سلاماً يا مريم.»

«سلاماً يا يوسف.»

تعود مريم إلى وضعيّتها. أمّا يوسف فَلِكي لا يَغلب عليه النوم يجثو قرب النار ويصلّي. يصلّي ويداه تغطّيان وجهه. لا يرفعهما إلّا حينما يريد تلقيم النار وثمّ يعود إلى صلاته الحارّة. يُخيّم الهدوء فلا يُسمَع شيء سوى طقطقة الخشب وصوت حوافر الحمار التي تضرب الأرض بين الفينة والفينة. تنزَلِق حُزمة مِن ضوء القمر عَبرَ صدع مِن السقف وتبدو وكأنّها صفيحة فضيّة غير ماديّة تبحث عن مريم. تتطاول رويداً رويداً مع تصاعُد القمر إلى أن تَبلُغ إليها. وها هي على رأس التي تصلّي، تحيطها بهالة مِن البياض الناصِع الزاهي.

ترفع مريم رأسها وكأنّها تنادي السماء، وتجثو مِن جديد. آه! كم هو جميل هذا المكان! وتَرفَع رأسها الذي يبدو مُشرِقاً بضوء القمر الأبيض، وتتجلّى بابتسامة لا بشريّة. ماذا ترى؟ ماذا تسمَع؟ ماذا تختَبِر؟ ما مِن أحد غيرها يمكنه أن يقول ما الذي كانت تراه وتسمَعه وتختَبِره في ساعة

أمومتها الساطعة. أتنبّه فقط إلى أنّ الأنوار حولها تنمو، تنمو وتنمو حتّى لكأنّها هابطة مِن السماء، وتنبَعِث مِن الأشياء الفقيرة المُحيطة بها، بل إنّها تنبَعِث منها هي بشكل خاص.

ثوبها اللازورديّ الداكن يغدو الآن ذا لون أزرق ونعومة سماويّة، وجهها ويداها تبدو قد أصبَحَت بلون لازورديّ، كما لو أنّها تحت وهج سفير (أو زفير، وهو حجر كريم) واسع ساطع. هذا اللون يُذكّرني، ولو بشكل أقلّ، بالذي اكتَشَفتُه في رؤيا الفردوس المقدّس وكذلك في رؤيا وصول المجوس. إنّها تنتشر دائماً باطّراد على الأشياء وتكسوها وتُطهّرها وتَنقل إليها تألّقها.

ينبَعِث النور باطّراد مِن جسم مريم، وتمتصّ نور القمر حتّى لكأنّها تَجذب إليها كلّ ما يأتي مِن السماء. مع ذلك فهي مُستَودَع النور، وهي التي يُفترَض فيها إعطاء هذا النور للعالم. وهذا النور الإلهيّ المُشعّ والأزليّ، غير المقاوَم والذي لا يُقاس والذي سيُعطَى للعالم، يُعلِن عن نفسه بفجر وقرع أجراس وإيقاظ نور جَوقة جُزيئات ضوئيّة تَكبر وتمتدّ مثل مدّ صاعِد، صاعِد بتلافيف عظيمة مِن البخور، وتهبط مثل سيل جارف ينتشر كالشراع...

القُبّة المغطّاة بالصدوع وخيوط العنكبوت، والأنقاض ببروزاتها، تبدو مُتوازِنة بشكل عجائبيّ، إنّها سوداء داخنة منفردة، ومع ذلك تبدو قُبّة قاعة مَلَكيّة، كلّ حجر فيها سبيكة فضّة، وكلّ صَدع لَمَعان خَزَف، وكلّ نسيج عنكبوت مظلّة عرش مُرصّعة بالفضّة والماس. وعظاءة كبيرة مسترخية بين حجرين كبيرين، تبدو وكأنّها عَقد زمرّد نسيَتهُ هنا إحدى المَلِكات؛ سرب مِن الوطواط خامل يبثّ نور العقيق الثمين. والعَلَف المتدلّي مِن المذود العالي لم يعد عشباً، إنّما خيوط مِن الفضّة ترتعش في الهواء برشاقة شعر طويل مُستَرسِل.

المذود السفليّ، بخشبه السميك، أصبَحَ سبيكة فضّة بُنيّة. الجدران مغطّاة بحرير مقصّب حيث يختفي بياض الحرير تحت توشية اللآلئ البارزة. أمّا الأرض... تُرى ماذا أصبَحَت الأرض

الآن؟ كريستال مضيء بنور أبيض. تبدو النتوءات كأنّها ورود مُضيئة مرميّة على الأرض تعبيراً عن الإجلال؛ والثقوب كؤوس ثمينة ينبَعِث منها الأريج والعطور.

تتوهّج الأنوار باستمرار حتّى لم تعد تتحمّلها عين. وتغيب العذراء فيها كأنّها غارقة في وِشاح نور متوهّج... لتنبَعِث منه وهي **الأُمّ**.

نَعَم، عندما أصبَحَت عيناي تتحمّلان النور، رأيتُ مريم مع ابنها المولود بين يديها، وَليداً صغيراً ورديّاً ربيلاً يتحرّك ويتخبّط بيديه السمينتين مِثل برعم وردة، ورِجلين صغيرتين تتماشيان مع قلب وردة. يَصيح بصوت مرتَجِف تماماً مثل صوت حَمَل مولود حديثاً، فاتحاً فاه الأحمر مثل توت الغابة، مُظهِراً لسانه الصغير يُلاطِم سقف حلقه الورديّ، يُحرّك رأسه الصغير الأشقر لدرجة تَخاله معها دون شعر، رأس صغير مُدوَّر، تَحمله أُمّه في باطن أحد كفّيها بينما هي تَنظُر إلى ابنها وتُعيده، باكية وضاحكة معاً، ثمّ تنحني لتَطبَع عليه قُبلة، ليس على الرأس البريء، بل في منتصف الصدر الذي يَكمن تحته قلبه الصغير الذي يخفق ويخفق مِن أجلنا... هنا يَسكُن القلب الذي سيُجرَح يوماً. وأُمّه تُضمِّد مُسبَقاً هذا الجرح بقُبلة المنزّهة عن العيب الطاهرة.

الثور الذي أيقَظَه النور يَهبّ مُحدِثاً جلجلة كبيرة بحوافره ويَخور. والحمار يرفع رأسه وينهق. لقد أيقَظهُما النور، إلّا أنني أُفَضِّل التفكير بأنهما أرادا تحية خالقهما بالأصالة عن نفسيهما وبالنيابة عن كلّ الحيوانات.

ويوسف أيضاً، وكَمَن هو في حالة انخطاف، كان يصلّي بحرارة أكبر بحيث كان مُنسَلِخاً عن كلّ ما يُحيط به، ويهتزّ حين يرى النور يتسرّب بين أصابعه التي يُغطي بها وجهه. يَكشف عن وجهه، يَرفَع رأسه ويَدور. الثور الواقف يَحجب مريم عنه، ولكنّها تناديه: «يوسف، تعال.»

يَهرَع إليها، ثمّ يتوقّف أمام المشهد مشدوهاً مِن جَلاله، يكاد يَقع على ركبتيه في المكان الذي هو فيه. إلّا أنّ مريم تلحّ: «هلمّ يا يوسف.» وتَستَنِد بيدها اليسرى على القش حاملة باليد

اليمنى الطفل الذي تضمّه إلى قلبها، تَنهَض وتتوجّه صوب يوسف الذي كان يمشي بتردّد مأخوذاً بين رغبة التقدّم والخوف مِن كونه غير جدير بذلك.

ويلتقي العروسان عند نهاية المفرَش، ويَنظر واحدهما إلى الآخر وهما يبكيان مِن السعادة. تقول مريم: «هلم نُقدِّم يسوع للآب.»

وبينما يجثو يوسف، وتَنتَصِب مريم واقفة بن العارضتين اللتين تحملان القُبّة، وتَرفَع مولودها بين يديها وتقول: «ها أنا ذا. مِن أجله، أيّها الإله، قد قُلتُ لكَ كَلِمَتي. ها أنا ذا لأتمّم مشيئتكَ. ومعه أنا مريم ويوسف عروسي. ها نحن عَبداكَ يا ربّ. فلتتمّ فينا في كلّ ساعة وكلّ ظرف مشيئتكَ لمجدكَ وحبّكَ.» ثمّ تنحني مريم وتقول: «خذه يا يوسف.» وتُعطيه الوَلَد.

«أنا! لي أنا! آه! لا! لستُ أهلاً!» وكان الخوف يملأ يوسف وهو يتلاشى أمام فكرة وجوب لمس الله.

إلّا أنّ مريم تلحّ وهي تبتسم: أنتَ تستَحِقّ ذلك بحقّ. ما مِن أحد يستحقّ ذلك أكثر منكَ. فَلِأجل هذا اختارَكَ الله. خُذه يا يوسف، أَمسِكه ريثمّا أبحث عن الأقمِطة.»

يوسف أَحمَر كالأرجوان، يمدّ يديه ويأخُذ بُرعم الجسد الصغير الذي يَصرُخ لأنّه يَشعُر بالبرد. يَأخُذه بين ذراعيه وفي نيّته أن يحمله بإجلال بعيداً عنه، لكنّ ذلك لم يَدُم، فقد ضمَّهُ إلى قلبه وانفَجَر بالبكاء: «آه! ربّي! وإلهي!» وينحني ليقبّل قدميه الصغيرتين فيحسّ بهما باردتين، فيَجلِس على الأرض ويضمّه إلى صدره، وبثوبه الكستنائيّ وبيديه يَبذل كلّ ما في وِسعه ليغطّيه ويدفئه وليحميه مِن صقيع الليل. لقد أراد أن يذهب إلى جهة النار، ولكن هناك تيّار هواء يَدخُل مِن الباب. مِن الأفضل البقاء حيث هو. بل الأفضل أن يذهب بين الحيوانين اللذين سيحميانه مِن تيّار الهواء ويمنحانه القليل مِن الدفء. ويذهب ليقف بين الثور والحمار وظهره إلى الباب،

وينحني على المولود الجديد ليجعل له مِن صدره كوخاً، جدرانه رأس رماديّ بأذنين طويلتين ووجه كبير أبيض ومِنخَرَين يُدخّنان وعينين طيّبتين رطبتين.

تَفتح مريم الصندوق وتَسحَب الفُوَط والأقمِطة وتذهب قرب النار لتدفئها. ثمّ تذهب صوب يوسف لتَلُفّ الصغير بالأقمشة المُسَخَّنة ثمّ تحمي رأسه الصغير بوشاحها وتقول: «أين سنضعه الآن؟»

يَنظُر يوسف حوله ويفكّر... ثمّ يقول: «انتَظِري، لِنُبعِد الحيوانين قليلاً مع عَلَفهما، ولِنُنزِل القشّ مِن المذود العالي ولنضعه هنا في الداخل. حافّة المذود ستحميه مِن الهواء، والعَلَف سيكون له بمثابة الوِسادة، والثور يدفئه بِنَفَسه. الثور أفضل فهو أكثر صبراً وهدوءاً.» ويُباشِر يوسف العمل بينما مريم تُهَدهِد طفلها وهي تضمه إلى قلبها مُسنِدَة خدّها على رأسه الصغير لتُدفّئه.

يذكي يوسف النار دون تبديد الحطب ليحصل على لهب جميل. إنّه يُدَفّئ القشّ ويجفّفه قليلاً، قليلاً ويضعه على صدره ليمنع عنه البرد. ثمّ، حين يَحصَل على كمّية كافية مُكَدَّسة ليَصنَع منها فِراشاً للطفل، يَذهَب إلى المِذود ويرتّبه ليجعَل منه مَهداً. ثمّ يقول: «لقد أصبَحَ جاهزاً، والآن يلزمنا غطاء يحميه مِن وَخز القش ولكي نغطيه...»

فتقول مريم: «خُذ معطفي.»

«ستشعرين بالبرد.»

«آه! هذا لا يهمّ! فالغطاء خَشِن جدّاً، والمعطف ناعم ودافئ. أنا لستُ أشعر بالبرد أبداً. إنّما هو فلا يُعانين بعد.»

يأخُذ يوسف المعطف الفضفاض مِن الصوف اللين الأزرق الداكن ويُرتّبه مضاعَفاً على القشّ مع ثَنية تتدلّى خارج المِذود. أوّل سرير للمخلّص أصبَحَ جاهزاً.

والأُمّ، بمشيتها الناعمة المُتموِّجة، تَحمِله وتَضَعه فيه، وتُغطّيه بثَنية المعطف التي تجعلها كذلك حول رأسه العاري المُنغَرِس في القشّ وهو بالكاد مَحميّ مِن الوَخز بوِشاح مريم الرقيق. ولم يبق دون غطاء سوى الوجه الصغير السمين مثل القَبضة، والإثنان منحنيان على المِذود وهما متألِّقان يَنظُران إليه وهو ينام لأوّل مرة. فدفء الأقمطة والقشّ يوقِف بكاءه ويَجلب النوم لعيني يسوع العذب.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

48- (أنا، مريم، قد افتديتُ المرأة بأمومتي الإلهيّة)

1944 / 05 / 06

تقول مريم:

«لقد وعدتُكِ بأن سيأتي بنفسه حاملاً لكِ السلام، هل تذكرين ذاك السلام الذي كان يغمركِ يوم الميلاد؟ عندما رأيتِني مع طفلي؟ عندها كان زمن السلام بالنسبة لكِ. أمّا الآن فزمن الآلام هو. وأنتِ مع ذلك تَعلَمين هذا: بالألم نكسب السلام وكلّ نعمة لنا وللقريب. يسوع الإنسان عاد بعد عذاب الآلام الفظيعة يسوع الإله. لقد عاد هو السلام. السلام في السماء مِن حيث أتى ومِن حيث يَنشُر الآن سلامه على الذين يحبّونه في العالم. ولكنّه في ساعات الآلام، كان، وهو سلام العالم، محروماً مِن هذا السلام. لم يكن ليتألّم لو كان يمتلكه، وكان ينبغي له أن يتألّم، وأن يتألّم بالكامل.

أنا، مريم، افتديتُ المرأة بأمومتي الإلهيّة. ولكنّ ذلك لم يكن سوى بداية فِداءِ المرأة. فَبِرَفضي كلّ اتّصال بشريّ بنذري البتوليّة، استبعَدتُ كلّ إشباع جسديّ، مُستحقِّة بذلك نعمة الله. إنّما لم يكن ذلك كافياً. فخطيئة حوّاء كانت فعلاً كشجرة بأغصان أربعة: الكبرياء، الطمع، الشراهة، والفجور. وكان ينبغي أن تُقطَع هذه الأغصان الأربعة قبل أن تُعَقَّم الشجرة حتّى جذورها.

فَبِتَواضعي حتّى أعماق ذاتي انتصرتُ على الكبرياء. لقد تواضعتُ أمام جميع الناس. لستُ أتكلّم عن تواضُعي أمام الله، فإنّه فريضة إليه تعالى واجبة على جميع مخلوقاته. وكَلِمَتُهُ كان يمتلكها. وقد كان ينبغي لي، أنا المرأة، أن أحصَل عليها. ولكن هل فَكَّرتِ بكلّ صنوف الهوان التي تحمَّلتُها مِن الناس وبدون الدفاع عن نفسي بأيّة طريقة؟

حتّى يوسف الذي كان بارّاً مستقيماً، أداني في قلبه. أمّا الآخرون، غير البَرَرَة فقد أخطأوا بالنميمة على حَملي، وأتت إشاعة كلامهم مِثل سيل مُرّ يتحطّم على شرفي كامرأة. هذه كانت

أولى الإهانات التي لا تُحصى والتي خبّأتها لي حياتي كأُمّ ليسوع وللجنس البشريّ. مَهانة الفقر، إذلال اللاجئة، إهانات اتّهامات الأهل والأصدقاء الذين كانوا يَجهَلون الحقيقة فاتّهَموا سلوكي كأُمّ تجاه يسوع بالضعف، عندما أَصبَحَ شابّاً، إهانات خلال سنوات الكرازة الثلاث، إهانات فظيعة لا تُوصَف ساعة الجلجلة، إهانات إلى حدّ معرفة أنّه لم يكن لديَّ ما أشتري به مَوضِعاً وطيوباً لدفن ابني.

لقد انتصرتُ على جشع الأبوين الأوّلين بأن تنازلتُ مسبقاً عن ابني.

لا تتخلّى أُمّ عن ابنها قطّ إن لم تكن مُكرَهة على ذلك، حتّى ولو كانت تنتمي بقلبها إلى الوطن، إلى الحبّ الزوجيّ أو إلى الله ذاته، فإنّها تتوتّر ضدّ هذا التفريق. هذا طبيعيّ. فالولد ينمو في الأحشاء الوالِديّة، ولا يمكن أبداً أن يُقطَع تماماً الرباط الذي يجعل شخصه متّحداً بشخصها. حتّى حينما تُقطَع القناة الحيويّة للحبل السرّيّ، فإنّه يبقى دائماً هناك عَصَب ينطلق مِن قلب الأُمّ، عَصَب روحيّ، أكثر حيويّة وأكثر حساسيّة مِن العَصَب المادّيّ، والذي يتفرّع على قلب الابن. ويتمّ الإحساس به يتمطّى حتّى يُحدِث الألم إذا كان حبّ الله أو حبّ إنسان أو الواجب الوطنيّ يُبعِد الابن عن أُمّه. ويَنسَحِق وهو يتمزّق إذا ما انتَزَعَ الموت الابن عن أُمّه.

وأنا قد تنازلتُ عن ابني منذ اللحظة التي حصلتُ فيها عليه. قدَّمتُه لله، مَنَحتُكم إيّاه. وأنا قد انسَلَختُ عن ثمرة أحشائي لأصلح خطيئة حوّاء عن الثمرة المُختَلَسة مِن الله.

لقد انتصرتُ على الشراهة، شراهة المعرفة وشراهة المتعة بقبولي عدم معرفة إلّا ما يريدني الله أن أعرفه، دون سؤال نفسي أو سؤاله عن غير ما قيل لي. لقد آمنتُ دون البحث عن أيّ شيء.

لقد انتصرتُ على شراهة المتعة إذ رفضتُ كلّ إشباع حسّيّ. وقد وطأتُ جسدي بقدمي، الجسد أداة الشيطان، فوضعتُه مع الشيطان تحت كعبي لكي أجعل منهما لي سُلّماً أقتَرِب به مِن

السماء. فالسماء هدفي! حيث يوجَد الله، جوعي الوحيد، الجوع الذي لا يُعتَبَر شراهة، بل ضرورة مُبارَكَة مِن الله الذي لا يريد أن يرى فينا شهيّة إلّا له وحده.

انتصرتُ على الفجور، وهو الشراهة التي وَصَلَت حدّ النَّهَم. بالفعل، إنّ كلّ رذيلة لا تُكبَح تقود إلى رذيلة أكبر. فشراهة حوّاء المُدانَة قادَتها إلى الفجور. لم يَكفِها أن تُشبع ذاتها فقط، فأرادت دفع خطيئتها حتّى الإفراط. لقد عرفت الفجور وعَلَّمَتهُ لشريكها. أمّا أنا فقد قَلَبتُ المفاهيم، وبدل الهبوط صعدتُ على الدوام. وبدل أن أَجُرَّ إلى الأسفل فقد سَحَبتُ دائماً نحو القمم، شريكي الذي كان رجلاً نزيهاً وقد جعلتُ منه ملاكاً.

منذ أن حصلتُ على الله ومعه غناه اللامتناهي، أسرعتُ في التجرّد بقولي: "لتكن مشيئتكَ لأجله وبِهِ". عفيف هو ذاك الذي يملك السيطرة ليس فقط على الجسد، ولكن على الأفكار والعواطف. كان عليّ أن أكون عفيفة لأُحيل إلى لا شيء قلّة حياء الجسد والقلب والروح. لم أتخلَّ عن هذه السيطرة عندما لم أَقُل عن ابني الذي كان لي وحدي على الأرض كما كان لله وحده في السماء: "هذا لي، فأنا أريده".

مع ذلك لم يكن هذا كافياً ليُعيد للمرأة السلام المفقود بحوّاء. هذا السلام قد حصلتُ عليه لكم عند أقدام الصليب، وذلك عند رؤيتي الذي رأيتُه يُولَد، يموت. عند شعوري بأحشائي تتمزّق مع صرخات ابني الذي كان يحتضر. لقد أُفرِغتُ مِن كلّ أنوثة: لم أعد جسداً، بل ملاكاً. فمريم، العذراء المتّحدة بالروح كعروسة ماتت في تلك اللحظة. وبَقِيَت أُمّ النعمة، تلك التي، بآلامها المبرّحة، أَنجَبَت لكم النعمة وأعطتكم إيّاها. الأنثى التي أَعَدتُ تكريسها، امرأة ليلة الميلاد، نالت عند أقدام الصليب الوسيلة التي تُصبِح بها خليقة السماوات.

لقد فعلتُ ذلك لأجلكنّ برفضي كلّ إشباع حتّى المقدس منه. ومنكنّ أنتنّ اللواتي تحولتنّ بواسطة حوّاء إلى إناث لا تزيد رِفعة عن شريكات الحيوانات، جعلتُ منكنّ، شريطة رغبتكنّ بذلك، قدّيسات الله. لقد بلغتُ هذه القِمّة مِن أجلكنّ. لقد حملتُكن مثل يوسف إلى الأعالي.

صخرة الجلجلة بالنسبة لي هي جبل الزيتون. هناك نلتُ قوّة الدّفع، لأحمل إلى السماوات نَفْس المرأة المُكرَّسة الجديدة، بنفس الوقت مع جسدي، الذي تمجَّدَ بِحَمله كلمة الله، وألغيتُ مِن ذاتي حتّى آخر أثر مِن حوّاء، آخر جَذر مِن تلك الشجرة ذات الأغصان السامّة الأربعة، والجذر المُنغَرِس في الأحاسيس التي قادت البشريّة إلى السقوط، والتي تعضّ أحشاءكنّ حتّى نهاية الدهور وحتّى آخر امرأة. فَمِن المكان الذي أتألّق فيه بإشعاع الحبّ أناديكن وأدلّكن على الدواء لتنتصرن على ذواتكنّ: نِعمة ربّي ودم ابني.

وأنتِ، كَلِمَتي، أريحي نفسكِ في نور هذا الفجر الأوّل ليسوع لتكون لكِ القوّة أثناء الإماتات الجسديّة التي لن تكوني مُعفاة منها. لأنّنا نريدكِ هنا، هنا حيث يتمّ الوصول عن طريق الألم، لأننا نريدكِ هنا حيث كلّما كان تَحَمُّل الألم أكثر بُغية الحصول على النعمة للعالم كلّما كان الارتقاء أعلى...

اذهبي بسلام، أنا معكِ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

49- (عِبـادة الـرُّعاة)

07 / 05 / 1944

أَكتُب بحضور يسوع معلّمي. مِن أجلي، كلّ شيء مِن أجلي، عائِد مِن أجلي، منذ زمن. ستقولون: « ولكن كيف؟ منذ شهر تقريباً عُدتِ لترَي وتَسمَعي، وتقولين إنّكِ نلتِ ذلك أخيراً بعد طول زمن؟» فأجيبُ ما قُلتُه مرّات كثيرة شفهيّاً وكتابيّاً.

أن أرى شيء، وأن أسمع شيء آخر، خاصّة وأن أرى وأسمع مِن أجل الآخرين مُختَلِف عن أن أرى وأَسمَع لنفسي، حصراً لنفسي. في الحالة الأولى أنا شاهِدة ومُردِّدة لما أرى وأَسمَع، ولكن إذا كانت هذه الأشياء تمَنحني الفرح فذلك أنّها على الدوام هي الأشياء التي تُسبّب لكم فَرَحاً عظيماً. وهو في الحقيقة فَرَح خارجيّ. الكلمات تُعبِّر بشكل سيّئ عمّا أُحِسُّ به تماماً. ولكنّي لا أعرف أن أُعبِّر بأحسن مِن ذلك. الخلاصة، أريد القول إنّ فَرَحي يُشبه فَرَح مَن يقرأ كتاباً جميلاً أو يُشاهِد مسرحيّة جميلة، فيتأثّر بها ويتذوّقها ويُعجَب للتناغم الذي فيها ويُفكّر: «كم هو جميل لو أكون مكان هذه الشخصيّة!» بينما في الحالة الثانية، عندما يكون الاستماع والرؤية لذاتي أنا، حينئذ تكون هذه الشخصيّة هي أنا. فالكلمة التي أَسمَع هي لي، والوجه الذي أرى هو لي. فالأمر هو أنّني أنا وهو. أنا ومريم. أنا ويوحنّا. أحياء حقيقيّون، واقعيّون، قريبون جدّاً. ليس قبالتي كما لو أنّني أشاهد فيلماً، إنّما بجانب سريري، يتنقّلون في الغرفة أو يَستَنِدون إلى المفروشات أو يجلسون أو يَقِفون كأشخاص أحياء، إنّهم ضيوفي. وهذا ما هو مختلف تماماً عن الرؤيا مِن أجل الجميع. فقصارى القول: كلّ هذا كان «لي أنا».

فاليوم، وحتّى أمس منذ بعد الظهر، يسوع هنا، بثوبه العاديّ مِن النسيج الصوفيّ الأبيض، بياضه قريب مِن العاج، وهو مختلف تماماً بثقله ولونه، عن الثوب الناصع، وهو يبدو مِن كتّان غير مادّيّ شديد البياض لدرجة تَحسَبه معها مصنوعاً مِن خيوط النور التي تغطّيه في السماء. إنّه هنا بيديه الجميلتين، الطويلتين والنحيفتين، ببياض عاج قديم، بوجهه الوسيم الطويل والشاحب حيث تتألّق عيناه المُهَيمِنتان والعَذبَتان وكأنّهما مِن السفير الداكن بين حاجِبَين كثيفين بلون الكستناء المُشِعّ بالأشقر

الأصهب. إنّه هنا بشعره الجميل الطويل الأشقر والناعم، الأكثر حيويّة في الأجزاء المضاءة والأكثر تعتيماً في أعماق الطيّات. إنّه هنا! إنّه هنا! يَبتسم لي ويَنظر إليَّ أكتُب عنه، كما كان يفعل في فياريجيو (Viareggio)... وكما لم يفعل منذ الأسبوع العظيم المقدّس، مُسبِّباً لي كلّ هذا الحزن الذي أصبَحَ حرارة مرتفعة، وحتّى شِبه يأس عندما أُضيف إلى الألم الذي انتابَني لكوني حُرِمتُ منه، ألم حرماني مِن العيش على الأقلّ حيث رأيتُه واستطعتُ القول: «هنا استَنَدَ، وهنا انحنى ليضع يده على رأسي.» وهنا حيث توفّي أهلي. آه! مَن لم يختبر ذلك لا يستطيع إدراكه! لا، ما مِن سبب يدعو للمطالبة بالاستمتاع بكلّ هذه الهبات. إنّنا نَعلَم جيّداً أنّها هبات مجّانيّة، لا نستحقّها ولا نستطيع المطالبة باستمراريّتها عندما تُوهَب لنا. نعرف ذلك جيّداً. وكلّما أُعطيَت لنا كلّما تلاشينا في التواضع، عارِفين بؤسنا المُنَفِّر في مقابل الجمال اللامتناهي والغِنى الإلهيّ الذي يَهِبنا ذاته.

ولكن ماذا تقول أيّها الأب؟ أفلا يرغب الابن في رؤية أبيه وأُمّه؟ ألا ترغَب امرأة في رؤية زوجها؟ وعندما يَحجبهم الموت أو غياب طويل عن أنظارهم أفلا يَجِدون عزاء في ممارسة حياتهم حيث عاشوا؟ وإذا اضطرّوا لمغادرة المكان، أفلا يتألّمون ألماً مضاعفاً لأنّهم فَقَدوا كذلك المكان حيث شارَكَهم الغائب الحبّ؟ هل يُلامون على معاناتهم مِن هذا الألم؟ لا. وأنا؟ أليس يسوع هو أبي وعروسي؟ إنّه أعَزّ، إنّه أحَبّ إليَّ كثيراً مِن أب ومِن عروس! ولطالما هو كذلك، فاحكُموا بحسب الطريقة التي تحمَّلتُ فيها موت والدتي. لقد تألّمتُ، فهل تَعلَمون؟ وكذلك بكيتُ لأنّني كنتُ أحبّها رغم طبيعتها. ولكن رأيتُم كيف تجاوَزتُ هذا الموقف لأنّ يسوع كان هنا، وقد كان أغلى وأحَبّ مِن أُمّي. يجب أن أقول ذلك. لقد تألّمتُ، وأتألّم الآن أكثر لموت أُمّي الذي مضى عليه ثمانية أشهر، ولم أشعر حينذاك بألم مثله. هذا لأنّني في الشهرين الأخيرين كنتُ بدون يسوع الذي لي، دون مريم التي لي، وحتّى الآن يكفي أن يَتركاني لحظة حتّى أشعُر أكثر مِن أيّ وقت مضى بحزني كيتيمة مريضة، وأعود لأغرَق في الألم البشريّ المُرّ لهذه الأيّام غير البشريّة.

أكتُب تحت أنظار يسوع، إذاً فأنا لا أُبالِغ ولا أُغالِط. هذا في الأصل ليس أسلوبي. ولكن حتّى ولو كنتُ كذلك، فسيستحيل أن أبقى تحت هذا النَّظَر. كتبتُ هذا في هذا المكان حيث لا عادة لأن أفعَل، إذ بالنسبة لرؤى مريم فأنا لا أُقاطِعها بإظهار ذاتي المسكينة. إنّني أعرف مُسبَقاً أنّه يتوجب عليَّ

متابعة إظهار أمجادها. أَفَلَم تكن أمومتها في كلّ الأحيان إكليل مجد؟ أنا مريضة جدّاً والكتابة تُسبّب لي متاعِب جَمّة. إنّني كُتلَة أشلاء بشريّة. ولكن عندما يتعلّق الأمر بالتعريف بها لتُصبح محبوبة أكثر، فأنا لا ألوي على شيء. أأشعُر بألم في كتفي؟ أيضعُف قلبي؟ أيؤلمني رأسي؟ أترتفع حرارتي؟ لا يهمّ! فلتكن مريم معروفة، كُلّية الجمال والحنان، كما أراها بصلاح الله وصلاحها، وهذا يكفيني.

فيما بعد أرى امتداداً للقرية واسعاً. والقمر في سمت الرأس، وكان يسير بهدوء في سماء مُرصَّعة بالنجوم التي ظَهَرَت وكأنّها أحجار ماس مغروسة في مظلّة عرش كبيرة مِن المخمل الأزرق الداكن. وفي وسطها يضحك القمر بوجهه الأبيض الذي تتدفّق منه أنهار مِن الأنوار الحَليبيّة، تُضفي على المشهد صبغة بيضاء. والأشجار التي تَعرَّت مِن أوراقها بَدَت أكبر وعاتمة في هذا البياض، بينما الجدران التي لاحَت هنا وهناك تُشبه اللبن. وبيت صغير في البعيد يبدو وكأنّه كتلة مِن المرمر الأبيض. إلى اليمين أرى مكاناً مُغلَقاً مِن جهتين بسياج مِن العلّيق، ومِن الجهتين الأخريين بجدار منخفض عريض. وذاك الجدار يَحمل سقفاً، مُشكّلاً نوعاً مِن العنابر داخل السور، وقد بُنِيَ قسم منه بناء، والقسم الآخر مِن الخشب القابل لأن يُنزَع في الصيف ليتحوّل إلى رواق. مِن هذا المكان يَنطَلق بين الفينة والأخرى ثغاء متقطّع ومُختصَر. قد تكون النعاج تحلم أو تحسب أنْ قد اقترب بزوغ الفجر بسبب ضوء القمر. إنّه نور مُفرِط في شدّته وهو يزداد وكأنّ الكوكب يقترب مِن الأرض أو يتوهّج بسبب حريق مُبهَم.

يتقدّم أحد الرعاة إلى العتبة، يرفع يده إلى مستوى جبهته ليحمي عينيه ويَنظر إلى الجوّ. يبدو أنّ لا بدّ مِن الاحتماء مِن نور القمر، ولكنّه قويّ لدرجة أنّه يُبهِر، خاصّة ذاك الذي ينبَعِث مِن زريبة، هي في العادة مُظلِمة. كلّ شيء هادئ، ولكنّ هذا النور مُدهِش. ينادي الرّاعي رفاقه، يتوجّهون جميعاً صوب الباب. حشد مِن الرجال ذوي الشعر الكثيف ومِن أعمار مختلفة، فمِنهم المراهق ومنهم الأشيب، والكلّ يُعلِّق على هذا الحدث الغريب، والأصغر سناً منهم خائفون، خاصّة وَلَد عمره اثني عشر عاماً، فقد أَخَذَ يبكي جالباً لنفسه سخرية الشيوخ.

يقول له أكبرهم: «ممَّ أنتَ خائف؟ إنّكَ حقّاً أبله. ألا ترى أنّ الجوّ في سكون؟ ألم ترَ أبداً ضوء قمر؟ هل قضيتَ عمركَ تحت رداء أُمّكَ مثل صوص تحت قرقة حاضنة؟ ولكنّكَ سترى أموراً كثيرة. أنا مثلاً، كنتُ ذاهباً ذات مرّة باتّجاه جبال لبنان، بل أبعد أيضاً. وكنتُ أصعد، ذلك أنّي كنتُ شابّاً لا يُتعِبني السير، وقد كنتُ آنذاك غنيّاً... وذات ليلة رأيتُ نوراً حسبتُه إيليا عائداً بعربته النارية، وكانت السماء متوهِّجة، وعجوز –والعجوز كان هو– قال لي: "حَدَث كبير سيقع في العالم". بالنسبة لنا كان الحَدَث وصول جنود روما. آه! إن حييتَ فسترى...»

إلّا أنّ الراعي الصغير لم يعد يَسمَعه. يبدو أنّه لم يعد خائفاً. بالفعل، ها هو يترك العتبة مُنسَلّاً مِن خلف ظهر أحد الرعاة مفتول العضلات حيث كان يحتمي، ويَخرُج إلى الحظيرة الموجودة جانب العنبر. يَنظر إلى الجوّ ويسير كالمُروبَص (الذي يسير أثناء نومه) أو كما لو كان خاضعاً لتنويم مغناطيسيّ مِن قِبَل شيء يسيطر عليه كلّياً. وفي لحظة يَصرخ: «آه!» ويتصلّب في مكانه، ذراعاه مفتوحتان قليلاً، والآخرون يَنظر واحدهم إلى الآخر بتعجّب.

يقول أحدهم: «ماذا أصاب هذا الأبله؟»

ويقول الآخر: «سأعيده غداً إلى أُمّه. لا حاجة بي إلى مجنون يحرس النعاج.»

عندئذ يقول العجوز الذي تكلَّمَ سابقاً: «لنذهب، ولِنرَ، قبل أن نحكم. نادوا الآخرين النيام وهاتوا عصيّكم. قد يكون هناك حيوان شرّير أو قُطّاع طُرق...»

يَعودون، يُنادون الرعاة الآخرين ويَخرُجون جميعاً بمشاعل وهراوات، ويَلحَقون بالصبيّ.

يُهَمهِم وهو يبتسم: «هنا، هنا، فوق الشجرة، انظروا هذا النور القادم، كأنّه يتقدّم على شعاع القمر. ها هو يقترب. كم هو جميل!»

«أنا لا أرى سوى نور قويّ قليلاً.»

«أنا أيضاً.»

ويقول الآخرون: «أنا أيضاً.»

فيقول آخر، وقد عرفتُهُ، إنّه الراعي الذي قَدَّم الحليب لمريم: «لا. إنّي أرى شيئاً يشبه الجسم.»

ويَهتف الولد: «إنّه... إنّه ملاك! ها هو يَهبط ويَدنو... إلى الأرض! اركعوا أمام ملاك الله!»

هتاف: «آه!» طويل ومُبجَّل يَصدر عن مجموعة الرعاة الذين يُسقِطون ووجوههم إلى الأرض. ويبدون متأثّرين بالظهور على قَدر كِبَر سنّهم. أمّا الأكثر شباباً فقد رَكَعوا ونَظَروا إلى الملاك الذي يقترب باستمرار، إلى أن يتوقّف في الجوّ باسِطاً جناحيه الكبيرين، بياض اللآلئ في بياض القمر الذي يُغَلِّفه، فوق جدار السور.

«لا تخافوا، فأنا لا أحمل لكم سوءاً، بل إنّني أحمل إليكم نبأ فرح عظيم لشعب إسرائيل ولكلّ شعوب الأرض.» وكان الصوت الملائكي مِثل قيثارة مُتناغِمة تُرافِق أصوات الشحارير.

«اليوم وُلِدَ المخلّص في مدينة داود.» عند هذه الكلمات يبسط الملاك جناحيه أكثر ويرفرف كما بارتعاش الفرح. ويَظهَر وابل مِن شرارات الذهب والأحجار الكريمة تتدفّق منه. وقوس قزح حقيقيّ كان يَرسم قوس نصر فوق الحظيرة الفقيرة.

«...المخلّص الذي هو المسيح.» ويتألّق الملاك بنور أكثر بريقاً. وجناحاه المتوقّفتان الآن والمبسوطتان صوب السماء يبدوان كشراعين ثابتين فوق سفير البحر، يَبدُوان كشعلتين تتصاعدان حارّتين.

«...المسيح، الربّ!» ويطوي الملاك جناحيه النورانيّين ويكتسي شبه رداء مِن الماس فوق ثوب مِن اللآلئ، وينحني كما للعبادة بِيَدَين مضمومتين إلى القلب، والوجه الذي يتلاشى منحنياً على الصدر في ظلّ قمّة الجناحين المطويّين. لم يَعُد يُرى منه سوى شكل مُتطَاوِل ومُنير. ويَظلّ ثابتاً طيلة فترة: المجدلة (Gloria).

ولكن ها هو يتحرّك، يُعاوِد فتح جناحيه ويَرفَع وجهه حيث يتدفّق النور بابتسامة فردوسيّة ويقول:

«مِن هذه العلامات ستعرفونه: "في إسطبل فقير، خلف بيت لحم سَتَجِدون طفلاً مقمّطاً ومُضجعاً في مذود للبهائم، لأنّه لم يوجد سقف في مدينة داود يأوي الماسيا".» ولدى قوله هذا يُصبِح مَظهَر الملاك جادّاً، بل حزيناً.

ولكنّ جَمهَرَة تُقبِل مِن السماء -آه! يا لها مِن جَمهَرة!- جمهور ملائكة يشبهونه، مرقاة ملائكة يَنزلون بابتهاج، يَحجبون القمر بنورهم الفردوسي. يَتجمّعون حول الملاك المُبشِّر وهم يُرفرِفون بأجنحتهم، ويَنشرون عطوراً، بتناغُم موسيقيّ تتداخل فيه أجمل أصوات الخليقة كلّها، ولكنّها مُرتَقية إلى كمال الرخامة. إذا كان اللون هو سعي المادة لتصبح نوراً، فهنا النَّغَم هو سعي الموسيقى لِتُعَبِّر للناس عن جمال الله، وسماع هذا النَّغَم هو التعرّف على الجنّة حيث كلّ شيء هو تناغُم الحبّ الممنوح مِن الله، والذي ينتَشِر ليُمتّع الطوباويّين ويرتدّ منهم إلى الله ليقول له: «نحن نحبّكَ!»

تنتَشِر «المجدلة» الملائكيّة بموجات تمتدّ أكثر فأكثر على القرية الهادئة، وكذلك النور. أمّا العصافير فقد توحَّدَ غناؤهم لتحيّة باكورة النور هذه، والنعاج تُطلِق ثغاءها لهذه الشمس السابقة لأوانها. أمّا أنا فكما راودتني الفكرة في المغارة سابقاً عن الثور والحمار، كذلك أودُّ هنا الاعتقاد بأن الحيوانات تُحيّي خالقها القادم ليحبّها كإنسان، وبالأكثر كإله.

يتضاءَل الإنشاد، وكذلك الأنوار، بينما تَصعَد الملائكة إلى السماوات... ويعود الرعاة إلى ذواتهم.

«هل سَمِعتُم؟»

«أنذهب لنرى؟»

«والحيوانات؟»

«آه! لن يصيبها شيء. فلنذهب مطيعين لكلمة الله!...»

«ولكن أين سنذهب؟»

الآن يتكلّم الراعي الذي كان قد أعطى الحليب لمريم: «ألم يَقُل إنّه وُلِد اليوم وإنّه لم يجد له مكاناً في بيت لحم؟ إذاً تعالوا، أنا أعرف. لقد رأيتُ المرأة وقد تألّمتُ لأجلها. لقد دللتُها على مكان لها لأنّني قَدَّرتُ أنّها لن تجد مأوى، وقد أعطيتُ الرجل حليباً ليقدّمه لها... إنّها فَتيّة وجميلة. المفروض أنّها طيّبة كالملاك الذي كَلَّمَنا. هلمّوا، هلمّوا. فلنأخذ حليباً وجبناً وحِملاناً وجلود نعاج مدبوغة. إنّهم فقراء جدّاً و... مَن يدري كَم يعاني مِن البرد هذا الذي لستُ أجرؤ على ذِكر اسمه! وعلى التفكير كذلك بأنّني تكلّمتُ إلى أُمّه كما إلى زوجة مسكينة!...

يَمضون إلى عنبَر، يَخرُجون منه بعد قليل، منهم مَن يَحمل آنية حليب، ومنهم مَن يَحمل جبناً مدوّراً مغلّفاً ضمن شبكة، ومنهم مَن يَحمل سِلالاً وحَمَلاً يثغو، ومنهم جلود نعاج مصنوعة.

يقول راعي الحليب: «أنا سآخذ نعجة وضَعَت حَمَلاً منذ شهر، حليبها ممتاز، سوف يَنفَعهما إن كانت المرأة في حاجة إليه. كانت تبدو لي طفوليّة، وشاحبة جدّاً!... لون الياسمين في ضوء القمر.» ثمّ يقودهم.

يَمضون تحت أنوار القمر والمشاعِل بعد إقفال العَنبر والسور. يَمضون عن طريق المَسالِك الريفيّة عبر أسوار مِن العلّيق العارية بفعل الشتاء. يَدورُون حول بيت لحم، ويَصِلون إلى الإسطبل عبر طريق تختلف عن تلك التي سَلَكَتها مريم، لقد أتوا مِن الوجهة المعاكسة. وهكذا لم يمرّوا بالمغارات الأكثر ترتيباً، ولكنّهم يَجِدون مباشرة المأوى الذي يَبحَثون عنه. يَقترِبون مِن الفتحة.

«ادخُل!»

«أنا لا أجرؤ.»

«ادخُل أنتَ.»

«لا.»

«انظُر على الأقل.»

«أنتَ يا ليفي، قد رأيتَ الملاك أوّلاً، هذا يعني أنّكَ أكثر صلاحاً مِنّا، فانظُر.»

في الحقيقة، كانوا قد عامَلوه في البداية كمجنون... ولكنّهم الآن بحاجة إليه، لأنّ الفتى يجرؤ على ما لا يجرؤون عليه هُم.

يتردَّدَ الفتى أوّلاً، ولكنّه يقرّر بعدئذ. يدنو مِن المأوى، يُبعِد المعطف قليلاً... ويتوقّف مشدوهاً.

يسألونه بصوت منخفض قَلِقين: «ماذا ترى؟»

«إنّني أرى امرأة فتيّة وجميلة، ورجلاً منحنياً على مذود، وأَسمَع... أَسمَع طفلاً يبكي، والمرأة تقول له بصوت... آه! يا له مِن صوت!»

«ماذا تقول؟»

«إنّها تقول: "يسوع، يا صغيري! يسوع يا حبّ والدتكَ! لا تبكِ يا بني!" إنّها تقول: "آه! ليتني أستطيع القول لكَ: خُذ الحليب يا صغيري! ولكنّني لم أَحصل عليه بعد!" إنّها تقول: "أنتَ تشعر بالبرد يا حبيبي، القشّ يؤلمكَ بوخزه. يا له مِن ألم لأُمّكَ أن تسمعكَ تبكي هكذا! دون تَمكُّنها مِن التخفيف عنكَ." إنّها تقول: "نَم يا روحي! إنّ قلبي لينفطر لدى سماعكَ ورؤية دموعكَ." إنّها تُقَبّله وتُدَفّئ قدميه الصغيرتين بيديها. إنّها تنحني وتخفض يديها على المذود.»

«نادِ! نبّههم لوجودكَ!»

«أنا لا. بل بالأحرى أنتَ الذي قُدتَنا وتَعرِفها.»

يَفتَح الراعي فمه ويَقتَصِر على نحنحة قويّة مُحدِثاً صوتاً.

يلتَفِت يوسف ويُقبِل صوب الباب: «مَن أنتم؟»

«نحن رعاة نحمل لكم الغذاء والصوف. أتينا لتقديم فروض العبادة للمخلّص.»

«ادخُلوا.»

يَدخُلون إلى الإسطبل الذي أُضيء بنور المشاعِل. والكبار منهم يَدفَعون الصغار أمامهم.

تلتَفِت مريم وتبتسم، ثمّ تقول: «تعالوا، هلمّوا!» وتَدعُوهم باليد وبابتساماتها، وتُمسِك بالوَلَد الذي رأى الملاك وتَسحَبه إليها قرب المذود. ويَنظُر الولد مُشرِقاً فَرَحاً.

ويتقدّم الآخرون الذين دعاهم يوسف حاملين هداياهم. ويضعونها عند أقدام مريم مع كلمات مُختَصَرة ومتأثِّرة. ثمّ يَنظرون برفق إلى الطفل الذي يبكي ويبتسمون متأثّرين وسعداء.

يقول أحدهم، وهو الأكثر شجاعة: «إليكِ أيّتها الأُمّ، إنّه ناعم ونظيف، لقد صنعتُه للطفل الذي سيولد لنا قريباً، ولكنّي أُقدّمه لكِ. ضعي ابنكِ في هذا الصوف الناعم الدافئ.» ويُقدّم لها جِلد نعجة، جِلداً جميلاً ذا جزّة صوف طويل وناصع البياض.

تَرفَع مريم يسوع وتلفّه به، وتُريه للرّعاة الذين يَركَعون على قَشّ الأرض ويَنظُرون إليه بنشوة.

ثمّ يتشجّعون ويقترح أحدهم: «يجب إعطاؤه جرعة حليب، أو الأفضل جرعة ماء وعسل. إنّما ليس لدينا عسل. هذا ما نعطيه عادة للمواليد الجدد، فعندي سبعة أولاد وأصبَحَت لي خبرة في ذلك...»

«هاكِ الحليب، خذي سيدتي.»

«لكنّه بارد، ينبغي أن يكون ساخناً. أين إيلي؟ فالنعجة معه.»

مِن المفروض أن يكون إيلي هو رجل الحليب، ولكنّه ليس هنا، فقد ظلّ واقفاً خارجاً ويَنظُر مِن خلال صدع، وقد تاه في ظلمة الليل.

«مَن قادَكم إلى هنا؟»

«ملاك قال لنا أن نأتي، وإيلي قادنا، ولكن أين هو الآن؟»

ثغاء النعجة يفضح أمره.

«تقدّم إننا بحاجة إليكَ.»

يَدخُل مع النعجة وقد اعترَته الخشية مِن أن يكون الأكثر لفتاً للانتباه.

فيقول يوسف وقد تعرَّفَ عليه: «أهذا أنتَ؟» وتبتسم مريم قائلة له: «إنّكَ لَرَجُل طيب.»

يَحلبون النعجة، وبِطَرَف فوطة مبلّلة بالحليب المُزبِد تمسح مريم شفتي الصغير الذي يبدأ مص هذه العذوبة الدسمة. يبتسم الجميع، ويبتسمون أكثر عندما يغفو يسوع في دفء الصوف وطرف الوشاح ما يزال بين شفتيه.

«ولكن لا يمكن أن تبقوا هنا، فالمكان بارد ورطب، وثمّ... مع رائحة الحيوانات هذه، لا يمكن أن يُعقَل هذا... و... لا يُعقَل هذا مِن أجل المخلّص.»

فتُجيب مريم بتنهيدة كبيرة: «أعرف ذلك، إنّما ليس لنا مكان في بيت لحم.»

«تشجّعي يا امرأة. سوف نبحث لكِ عن منزل.»

ويقول رجل الحليب إيلي: «سأُكَلّم سيدتي. إنّها طيّبة وستستقبلكم حتّى ولو اضطُرَّت للتنازل لكم عن غرفتها. سأُكَلّمها عند طلوع النهار. إنَّ بيتها مليء، ولكنّها ستجد لكم فيه مكاناً.»

«للصغير على الأقلّ. فأنا ويوسف لا يهمّ إن بقينا هكذا على الأرض. إنّما مِن أجل الصغير...»

«لا تغتمّي يا امرأة، فأنا أُفكّر في ذلك. سوف أُحَدِّث أناساً كثيرين بما قيل لنا. لن ينقصكم شيء. أمّا الآن فتَقَبَّلوا منا ما يمكن أن يقدّمه لكم فقرنا. إنّنا رعاة.»

يقول يوسف: «نحن أيضاً فقراء ولا يمكننا تعويضكم.»

«آه! نحن لا نريد! حتّى ولو كنتم قادِرين، فنحن لا نريد ذلك! الربّ قد كافَأَنا، لقد وَعَدَ بالسلام لكلّ الناس. كان الملائكة يقولون: "السلام للناس ذوي الإرادة الحسنة". أمّا لنا نحن فقد أعطاناه لأنّ الملاك قال لنا إنّ هذا الوَلَد هو المخلّص، المسيح، الربّ. نحن فقراء وجَهَلَة، صحيح، ولكنّنا نَعلَم أن الأنبياء قالوا إنّ المخلّص سيكون أمير السلام. وقد قال لنا بأن نُقدّم فروض العبادة

له، فَمَنَحَنا بذلك سلامه. المجد لله في أعالي السماوات، والمجد لِمَن هو مسيحه! ومبارَكَة أنتِ أيّتها المرأة التي حمَلتِهِ في أحشائكِ! أنتِ قدّيسة لأنّكِ كنتِ مستَحِقَّة لأن تحمِليه! مُرينا كملكة، فنحن سوف نَسعَد بخدمتكِ. ماذا يمكننا فعله لأجلكِ؟»

«أحِبّوا ابني واحفظوا دائماً هذه الأفكار في قلوبكم.»

«ولكن ألا رغبة لكِ في شيء لأجلكِ أنتِ؟ أليس لكِ أهل تودّين إخبارهم بأن ابنكِ قد وُلِد؟»

«نعم لي أهل. ولكنّهم بعيدون عن هنا، إنّهم في الخليل...»

يقول إيلي: «أنا أذهَب إليهم. مَن هُم؟»

«زكريّا الكاهن، ونسيبتي أليصابات.»

«زكريّا، آه! أنا أعرفه جيّداً. إنّني أذهب إلى جباله صيفاً، فهناك توجد مراعٍ خصبة وجميلة، وأنا صديق راعيه. عندما أرى أنّ الأمور هنا قد ترتّبت سأمضي إلى زكريّا.»

«شكراً لكَ يا إيلي.»

«عفواً. إنّه لَشَرف كبير لي، أنا الراعي المسكين، أن أذهب لأتحدّث إلى الكاهن وأقول له: "لقد وَلِدَ المخلّص".»

«لا. بل ستقول له: "إن مريم الناصريّة نسيبتكَ تقول: إنّ يسوع قد وُلِد. وتودُّ لو تأتي إلى بيت لحم".»

«سوف أقول له هذا.»

«وليكافئكَ الله على ذلك. سأذكُركَ، سأذكركم جميعاً...»

«سوف تُحَدِّثين ابنكِ عنّا؟»

«نعم.»

«أنا إيلي.»

«أنا ليفي.»

«وأنا صموئيل.»

«وأنا يونا.»

«وأنا اسحق.»

«وأنا طوبيا.»

«وأنا يوناثان.»

«وأنا دانيال.»

«وأنا سمعان.»

«وأنا اسمي يوحنا.»

«أما أنا فأُدعى يوسف وأخي بنيامين، ونحن توأمان.»

«سوف أتذكر أسماءكم.»

«يجب أن نذهب... لكنّنا سنعود... وسنأتي بآخرين للعبادة!...»

«كيف نعود إلى الحظيرة تاركين هذا الصغير؟»

«المجد لله الذي أظهَرَهُ لنا!»

ويقول ليفي بابتسامة ملائكيّة: «دعينا نُقَبِّل ثوبه.»

تَرفَع مريم يسوع بهدوء مع بقائها جالسة على القشّ وتُقَدِّم القدمين الصغيرتين الملفوفتين بالقماش ليقبّلوهما. وقد كان المُلتَحون أوّل مَن مسحوا دموعهم، فالجميع تقريباً تَدمَع عيونهم. وعندما يضطرّون للذهاب يَخرُجون سائرين للخلف تاركين قلوبهم قرب المذود.

هكذا تنتهي الرؤيا بالنسبة لي: مريم جالسة على القشّ والطفل على صدرها، أمّا يوسف الذي يستَنِد بمرفقيه على حافة المذود فيَنظُر ويتعبّد.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

50- (عند الرُّعاة توجد كلّ الصفات اللازمة ليكونوا عابِدي الكلمة)

07 / 05 / 1944

يقول يسوع:

«اليوم، أنا مَن يتكلّم. إنّكِ متعَبة جدّاً، ولكن اصبري قليلاً أيضاً. إنّها أمسية خميس الجسد. بإمكاني أن أحدّثكِ عن الإفخارستيا وعن القدّيسين الذين أصبَحوا رُسُل العبادة لها، كما حدّثتُكِ عن القدّيسين الذين كانوا رُسُل القلب الأقدس. إلّا أنّني أريد الآن أن أحدّثكِ عن أمر آخر، وعن فئة أخرى مِن عابِدي جسدي الذين هُم بالنسبة إليه روّاد هذه العبادة. إنّهم الرُّعاة، أوائل عابِدي جسدي ككلمة الله المتجسّد. لقد قلتُ لكِ ذلك مرّة، وقد قيل كذلك عن طريق كنيستي: إنّ القدّيسين الأبرار هُم شهداء المسيح الأوائل. والآن أقول لكِ إن:

الرَ◌ُعاة هُم أوائل عابِدي جسد الله. ففيهم توجد كلّ المميزات اللازمة ليكونوا عابِدي جسدي، النفوس الإفخارستية:

إيمان متيقِّن: لقد آمنوا بكلام الملاك بشكل سريع وأعمى.

السـخـاء: إنّهم يُقدّمون كلّ ما يَكنزونه للربّ.

التواضـع: يتقرّبون مِن الأشخاص الأكثر فقراً بشريّاً منهم، ببساطة وبحركات لا ذلّ فيها ويُعلِنون أنفسهم خدّاماً لهم.

الرغبـة: وما لم يستطيعوا تقديمه منهم تفنّنوا في تأمينه سريعاً وبنخوة شُجاعة.

سرعة الطاعة: ترغب مريم في إخبار زكريّا، فيذهب إيلي فوراً ولم يؤجّل ذلك إلى وقت لاحق.

الـحــبّ: أخيراً لم يستطيعوا الابتعاد عن المِذود، وأنتِ قلتِ: "يتركون قلوبهم هناك"، فجاء التعبير مُلائِماً.

ولكن ألا ينبغي التصرّف هكذا حتّى مع سرّي؟ (Sacrement).

شيء آخر، أقوله لكِ وحدكِ: لاحِظي لمن أَظهَرَ الملاك نفسه أولاً، ومَن الذي استحقَّ اختبار مشاعر المودّة عند مريم. إنّه الفتى ليفي. فالله يُظهِر نفسه لمن يمتلك نفس طفل، كما يُظهِر له أسراره. إنّه يَسمَح له بسماع الكلمات الإلهيّة وكلمات مريم. ومَن يمتلك نفس طفل يمتلك كذلك جرأة ليفي المقدّسة ويقول: "دعيني أُقَبِّل ثوب يسوع". يقولها لمريم، لأنّ مريم هي التي تعطيكم يسوع دائماً، هي حاملة الإفخارستيا، هي كأس القربان الحيّ.

مَن يذهب إلى مريم يَجدني. ومَن يطلبني منها يَنلني بواسطتها. فابتسامة أُمّي حين تَطلُب منها إحدى المخلوقات: "أعطيني يسوعكِ، ولأحبّه"، تجعل السماء تُشِعّ بألق حيّ وسعيد على قَدر ما تملك هي مِن الفرح.

قولي لها إذن: "اجعليني أُقَبِّل ثوب يسوع، اجعليني أُقَبِّل جراحه." وتجاسري كذلك أكثر وقولي لها: "أريحي رأسي على قلب يسوعكِ لأغرُف منه الغبطة."

تعالي واستريحي، مثل يسوع في المهد بين يسوع ومريم.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

51- (زيارة زكريّا)

08 / 05 / 1944

أرى غُرفة طويلة، حيث شاهدتُ لقاء المجوس مع يسوع وسجودهم له. أدركتُ أنّني في البيت الذي استضافهم، وحيث أقامَت العائلة المقدّسة. وأُشاهِد وصول زكريّا.

لم تكن أليصابات بصحبته. لقد هَرَعَت صاحبة المنزل خارجاً لاستقبال الضيف الذي وَصَل. وقادَته قُرب باب منخفض وقَرَعَت ثمّ انسَحَبَت بتحفُّظ. يَفتَح يوسف ويَهتف بتعجّب فرحاً لرؤيته زكريّا، يُدخِله إلى الغرفة الصغيرة الضيّقة وكأنّها دهليز: «مريم تُرضِع الصغير الآن، انتظر قليلاً، اجلس، حتماً أنتَ مُتعَب.» ويَجلس الضيف على السرير ويَجلس بقربه.

أَسمَع يوسف الذي يسأله عن أخبار يوحنّا، فيجيبه زكريّا: «إنّه يكبر شديداً مثل مهر. إلّا أنّه يعاني الآن مِن أسنانه، لهذا لم نشأ اصطحابه، فالطقس بارد جدّاً، وكذلك أليصابات لم تأت لأنّها لا تستطيع تركه دون رضاعة. إنّها متأسّفة ولكنّ الطقس قاس جدّاً!»

يُجيب يوسف: «بالفعل، الطقس بارد جدّاً.»

«الرجل الذي أرسلتُماه لي قال إنّكما لم تَجِدا لكما منزلاً أثناء الولادة. مَن يدري مِقدار ما عانيتُما.»

«نعم، في الحقيقة قد عانينا كثيراً. ولكنّنا كنّا خائفَين أكثر منّا متألّمَين. كنا خائفَين مِن أن يؤدّي ذلك إلى إيذاء الطفل... لقد اضطررنا إلى المكوث في مكاننا في الأيّام الأولى، لم يكن ينقصنا شيء، لأنّ الرُّعاة حَمَلوا البُشرى إلى أهل بيت لحم، وكثيرون منهم حَمَلوا لنا الهدايا. ولكنّ الذي كان ينقصنا هو بيت، غرفة في حالة جيّدة، وسرير... وكان يسوع يبكي كثيراً، خاصّة في

الليل، بسبب الرياح التي تَدخُل مِن كلّ الجهات. كنتُ أُشعِل النار قليلاً، قليلاً جدّاً لأنّ الدخان كان يهيج السعال لدى الطفل، وكان البرد مستمرّاً. كان هناك حيوانان يَمنَحانه القليل جدّاً مِن الدفء، خاصّة مِن الجهة التي تَندَفِع منها الريح. لم يكن لدينا ماء ساخن لنغسله، ولا فوط (أقمطة) جافّة للتغيير له. آه! لقد عانى كثيراً! ومريم تألَّمَت لرؤيته يعاني، وأنا أيضاً كنتُ أُعاني... يمكنكَ أن تتخيّل مدى معاناتها وهي أُمّه. كانت تعطيه حليبها ودموعها، حليبها وحبّها... أمّا الآن فالحال هنا أفضل. كنتُ هيّأتُ مهداً مريحاً جدّاً، وكانت مريم قد وَضَعَت عليه فراشاً وثيراً. إلّا أنّه في الناصرة! آه! لو كان وُلِد هناك، لكان الوضع مختلفاً كثيراً!»

«ولكن كان ينبغي أن يُولَد المسيح في بيت لحم. فالأنبياء كانوا قد أَعلَنوا ذلك.»

لدى سماعهما يتكلّمان تَدخُل مريم. كانت ترتدي الصوف الأبيض بالكامل. فهي قد نَزَعَت الثياب الداكنة التي كانت ترتديها أثناء السفر وفي المغارة. وهي ترتدي الآن ثوباً أبيضاً بأكمله كما رأيتُها في مرّات أُخرى. كان رأسها عارياً وهي تحمل يسوع نائماً بين ذراعيها، وقد شبع مِن حليبها، وهو في أقمطته البيضاء.

يَنهَض زكريّا باحترام وينحني بإجلال، ثمّ يدنو ويَنظُر إلى يسوع مع أسمى علائم الاحترام. إنّه ينحني ليس لرؤيته بشكل أفضل، إنّما لكي يُعَبِّر عن ولائه. تُقَدِّمه مريم له ويأخذه زكريا بِسِمات عبادة كثيرة، حتّى لَيبدو وكأنّه يَحمل بيت القربان المقدّس. إنّه بالحقيقة يحمل القربان بين ذراعيه، القربان المُقَدَّم الذي ستتمّ التضحية به عندما سيُمنَح للناس غذاء حبّ وفِداء.

يُعيد زكريّا يسوع لمريم، ويَجلسون جميعاً ويُعيد زكريّا ذِكر السبب الذي مِن أجله لم تأتِ أليصابات، وكم هي متأثرة لذلك. «لقد هيَّأَت خلال الأشهر الأخيرة غيارات لابنكِ المبارك، وقد حَمَلتُها لكِ. إنّها في العربة تحت.»

يَنهَض، يَخرُج، ثمّ يعود حاملاً صرّة كبيرة وأخرى صغيرة، يساعده يوسف في فتح الصرة الكبيرة والأُخرى، ويُخرِج هداياه منهما: غطاء صوف ناعماً منسوجاً يدويّاً، بياضات وثياباً صغيرة. ومِن الصرّة الثانية يُخرِج عسلاً وطحيناً أبيض ناصعاً وزبدة وتفّاحاً لمريم وفطائر عَجَنَتها وخَبَزَتها أليصابات، وأشياء أخرى كثيرة تنمّ عن عاطفة أمومة مِن النسيبة العارِفة للجميل تجاه الأُمّ الفتيّة.

«ستقول لأليصابات إنّني ممتنّة لها كثيراً وأنا ممتنّة لكَ كذلك... كنتُ سأُسَرّ كثيراً برؤيتها، ولكنّني أُقَدِّر ظروفها. وكذلك كنتُ أرغب كثيراً رؤية يوحنّا الصغير...»

«سَتَريانه في الربيع، سوف نأتي لنراكم.»

فيقول يوسف: «الناصرة بعيدة جداً.»

«الناصرة؟ ولكن عليكم البقاء هنا. يجب أن ينمو الماسيا في بيت لحم. إنّها مدينة داود، والباري تعالى جَعَلَه يأتي بواسطة إرادة قيصر ليُولَد في أرض داود، أرض يهوذا المقدّسة. فلماذا تأخذانه إلى الناصرة؟ وأنتما تعلَمان كيف يُعامِل اليهود الناصريّين. يجب أن يكون هذا الطفل في المستقبل مخلّص شعبه، كما يجب ألّا تَحتَقِر العاصمة مَلِكها لأنّه يَخرُج مِن منطقة يَحتَقِرها. وأنتما تَعرِفان مثلي كم المجمّع شديد الحساسيّة، وكم أبناء الطبقات الرئيسيّة الثلاث مُتحَذلِقون... وثمّ، هنا ستكونون قريبين منّي فأستطيع مساعدتكم قليلاً، وأتمكّن مِن وَضع كلّ ما أملك، ليس فقط ماديّاً، بل إنما كلّ المميّزات المعنويّة التي لي، في خدمة هذا المولود الجديد. وعندما يُصبِح في سنّ الإدراك سأكون سعيداً بأن أكون معلّماً له مثل ابني لأنال الحقّ، عندما أَكبُر، بأن يباركني. يجب أن نُفكّر في عَظَمَة مصيره، وأنّه لهذا السبب يجب أن يُقَدَّم للعالم بكلّ الامتيازات التي تجعَله يسيطر على الموقف بسهولة. وهو، بكلّ تأكيد، سيمتلك الحكمة، إنّما الفائدة الوحيدة التي يَجنيها مِن كون أحد الكَهَنَة هو معلّمه، هي أنّ ذلك يجعله مقبولاً بسهولة لدى الفرّيسيّين المتطلِّبين والكَتَبَة. وهذا يُسهّل عليه رسالته.»

تَنظُر مريم إلى يوسف، وكذلك يوسف يَنظُر إلى مريم. ومِن فوق رأس الطفل البريء الذي ينام متورّد الخدّين ولا يلوي على شيء، كان تَبادُل الأسئلة الصامت. وهذه الأسئلة كانت مطبوعة بالحزن، فمريم تُفكّر ببيتها الصغير ويوسف يُفكّر بعمله. وهنا يجب البدء مِن الصفر في بناء كلّ شيء في مكان كانوا فيه منذ أيّام مجهولين. وهنا لا يوجد أيّ شيء مِن الحاجيّات العزيزة والثمينة التي بَقِيَت هناك، والتي صُنِعَت بكثير مِن الحبّ للصغير.

ثمّ تقول مريم: «ولكن كيف العمل؟ فلقد تَرَكْنا كلّ شيء هناك. يوسف قد عَمِل كثيراً مِن أجل يسوعي دون أن يُوفِّر جهداً أو مالاً. لقد كان يعمَل مِن أجله ليلاً ليعمَل في النهار مِن أجل الآخرين ليكسب ما يشتري به مِن الخشب أحلاه ومِن الصوف أنعمه ومِن الكتان أنصعه بياضاً ليُهيّئ ما يليق بيسوعي. وكذلك رمَّمَ وقام بأعمال البناء ليُضفي على البيت ترتيباً جديداً بحيث تتّسع غرفتي للمهد الذي سيبقى حتّى يكبر يسوع فتتّسع فيما بعد للسرير، ذلك أنّ يسوع سيبقى معي إلى أن يتجاوز سنّ الفتوّة.»

«بإمكان يوسف أن يمضي فيَجلب كلّ ما تركتموه.»

«وأين سنضعه؟ أنتَ تَعلَم يا زكريّا أنّنا فقراء ولسنا نملك سوى البيت والشغل، وكلاهما يُساعِداننا في كسب ما نُسَيِّر به أمور معيشتنا دون أن نجوع. وهنا قد نجد عملاً... ولكن يَجدر بنا أن نُفكّر بالمنزل. فهذه المرأة الطيّبة لا يمكنها أن تستضيفنا كلّ العُمر؛ وأنا لا يمكنني أن أفرض على يوسف تضحيات أكثر مِن تلك التي رَضِيَ أن يتحمّلها حتّى الآن مِن أجلي.»

«آه! أنا! بالنسبة لي لا يهمّ. فأنا أُفكّر فقط في ألم مريم، في معاناتها لعدم تمكُّنها مِن العيش في بيتها...»

وتَرقرَقَت دمعتان كبيرتان في عيني مريم.

«أظنّ أنّ هذا البيت، مِن المفروض أن يكون عزيزاً على قلبها للغاية، كالفردوس، بسبب المعجزة التي تمّت فيه... إنّني قليل الكلام ولكنّني أُدرِك الكثير! وإن لم يكن هذا فلن يشغل بالي أيّ أمر لأنّني قويّ البنية وفتيّ وقادر على عمل ضعف ما كنتُ أعملُه وأتدبّر كلّ الأمور. هذا إذا لم تكن مريم تتألّم كثيراً... وإذا قلتَ إنّ التصرّف بهذا الشكل هو الجيد والسليم... فبالنسبة لي... ها أنذا. وسأعمل ما يبدو لكَ الأصحّ. يكفيني أن يكون الأكثر نفعاً ليسوع.»

«إنّ هذا سيَخدم مصلحته بالتأكيد. فَكِّرا فيه وسَتَجِدان الدواعي.»

تَعتَرِض مريم قائلة: «ويُقال كذلك إنّ ماسيا سيُدعى ناصريّاً...»

«هذا صحيح، ولكن على الأقلّ، طالما لم يَبلغ بعد سنّ الرشد، فَدَعوه يكبر في اليهوديّة. فلقد قال النبيّ: "وأنتِ يا بيت لحم إفراتا، ستكونين الأعظم، لأنّه منكِ يَخرُج المخلّص". ولم يتحدّث عن الناصرة. قد تكون هذه التسمية قد أُطلِقَت عليه لستُ أدري لأيّ سبب. ولكنّ موطنه هو هذا.»

«أنتَ قلتَ أيّها الكاهِن، ونحن... نحن... بِأَلَمٍ نَسمَع كلامكَ... ونعطيكَ الحقّ. ولكن يا له مِن ألم!... متى سأرى ذلك البيت الذي فيه أصبحتُ أُمّاً؟» وتبكي مريم بهدوء. وقد أدركتُ مدى غَمّها. آه! نعم لقد أدركتُه!

وبالنسبة لي تنتهي الرؤيا عند بكاء مريم.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

52– (يوسف يحمي كذلك النفوس المكرَّسة)

08 / 05 / 1944

بعد ذلك تقول لي مريم:

«لقد أدركتِهِ، أنا أعلَم، ولكنّكِ سوف ترينني أبكي بشكل أشدّ أيضاً. فأنا الآن أرفع روحكِ بجعلكِ تَرَين قداسة يوسف. لقد كان رجلاً، يعني أنّه لم يكن يمتلك سوى قداسته كمُساعد لروحه. بالنسبة لي، فقد كانت لي كلّ نِعَم الله ضمن ظروفي كمنزَّهة عن الخطيئة. لم أكن أعرف أنّي كنتُ كذلك، إنّما في قرارة نفسي كانت منابِع نشاط، وكذلك كان هناك ما يهبني قوى روحيّة. أمّا هو فلم يكن منزّهاً عن الخطيئة، بل كان يحمل في ذاته الإنسانيّة بعبئها الثقيل، وكان عليه مع كلّ هذا الثقل أن يرتقي إلى الكمال، فكان ذلك يكلّفه جهداً متواصلاً مع استخدام كلّ مقدراته ليحصل على إرادة الوصول إلى الكمال، وأن يكون مقبولاً لدى الله.

آه! يا عروسي القدّيس! قدّيس في كلّ شيء حتّى الأكثر تواضُعاً في الوجود. قدّيس لعفّته الملائكيّة، قدّيس لنزاهته كإنسان، قدّيس لصبره وحرارته في العمل، لصفائه الثابت دائماً، لزُهده، لكلّ شيء. وتتلألأ قداسته كذلك في هذا الحَدَث. يقول له كاهِن: "يَحسن أن تُقيم هنا". وعلى الرغم مِن معرفته المسبقة بالتعب الكبير الذي ينتظره، يقول: "بالنسبة لي، لا يهمّ. أفكّر في معاناة مريم. وإن لم يكن هذا، فلستُ أقلق بشأن نفسي، يكفي أن يكون هذا في مصلحة يسوع". يسوع، مريم: حُبّاه الملائكيّان. لم يحبّ غيرهما على الأرض، عروسي القدّيس، وقد كرَّسَ نفسه بالكامل كخادِم لهذا الحبّ.

لقد جُعِلَ شفيعاً للعائلات المسيحيّة وللعمّال وكذلك لفئات كثيرة. إنّما ينبغي أن لا يكون شفيعاً للمحتضرين والأزواج والعمّال فقط، بل لكلّ النفوس المكرَّسة لله كذلك. ومَن ذا الذي،

بين المكرِّسين ذواتهم في هذا العالم لخدمة الله، مهما يكن، قد كرَّسَ نفسه مثله لخدمة إلهه، راضياً بكلّ شيء، مُتنازِلاً عن كلّ شيء، مُتحمِّلاً كلّ شيء، مُتمِّماً كلّ شيء بسرعة وفرح وعن طِيب خاطِر على الدوام كما فَعَلَ هو ذلك؟ لا يوجد أحد.

وهناك أمر آخر جعلتُكِ تلاحظينه، بل أمران. زكريّا كان كاهناً ويوسف لم يكن كذلك، إنّما انظري كم كان روحه، وهو الذي لم يكن كاهناً، متّجهاً صوب السماء أكثر مِن الكاهن. زكريا يفكّر بشريّاً، ويُفسِّر ما كُتِب كذلك بشريّاً، وهذه ليست المرّة الأولى التي يفعلها فيها، إنّه ينقاد كثيراً للحسّ البشريّ الجيّد. لقد عُوقِب لذلك، ولكنّه عاد فَوَقَع في المطبّ ذاته، حتّى ولو كان أقلّ جسامة. لقد قال بشأن ولادة يوحنّا: "كيف يكون هذا إذا كنتُ أنا طاعناً في السن وزوجتي عاقراً؟" ويقول الآن: "لتمهيد الطريق أمام يسوع يجب أن ينمو هنا". وعلى هذا الأساس مِن الكبرياء الذي يظلّ عند الطبقة الراقية، يفكّر أنّه يستطيع هو أن يكون ذا منفعة ليسوع. ليس ذا منفعة كما يريدها يوسف بكونه خادماً له، إنّما بكونه معلّماً له... لقد غَفَرَ الله له لِحُسن نيّته، ولكن هل كان "المعلّم" في حاجة إلى معلِّمين؟

لقد حاولتُ أن أجعله يرى النور في النبوءات. ولكنّه كان يَظن نفسه أَعلَم منّي، وقد واءَمَ مُداخَلَته بطريقته. لقد كان بإمكاني الإصرار وإفحامه. ولكن -وهنا الملاحظة الثانية التي جعلتُكِ تلاحظينها- ولكنّي احترمت الكاهِن بسبب مقامه وليس بسبب عِلمه.

تُنار بصيرة الكاهِن عادة مِن قِبَل الله بشكل دائم. قلتُ "عادة" لأنّ ذلك يكون حينما يكون كاهِناً حقيقيّاً. فليس الثوب هو الذي يجعل شخصيّته مقدّسة، بل النَّفْس. للحُكم على كاهن أنّه كاهن حقيقيّ، يجب الحُكم على ما يَخرُج مِن نفسه. فكما قال يسوعي: مِن النَّفْس تخرج الأشياء التي تُقدِّس أو التي تُفسِد: التي تُظهِر بالكامل طريقة تصرّف شخص. لذا فحين يكون أحدهم كاهناً حقيقيّاً فإنه يكون مُلهَماً دائماً مِن الله. بينما الآخرون الذين هم غير ذلك فيجب أن نحمل لهم محبّة فائقة الطبيعة وأن نصلّي لأجلهم.

ولكنّ ابني قد جعلكِ في خدمة هذا الفداء ولستُ أُلحّ. كوني سعيدة بتألّمكِ ليزداد عدد الكَهَنَة الحقيقيّين. بينما أنتِ، فلتتّكئي على كلمة مَن يرشدكِ، آمني وأطيعي نصائحه.

الطاعة تُنقِذ دائماً، حتّى ولو كانت النصيحة التي نتلقّاها غير كاملة مِن جميع جهاتها. لقد رأيتِ ذلك: لقد أطعنا وكُنّا في ذلك سعيدين. في الحقيقة إنّ هيرودس قد اقتَصَرَ على ذبح أطفال بيت لحم ومحيطها، ولكن ألم يكن باستطاعة الشيطان أن يجعله يمدّ سيل جرائمه إلى أبعد مِن ذلك كثيراً، وأن يَدفَع كلّ الشخصيّات ذوات النفوذ في فلسطين إلى جريمة مُشابِهة لمحو مستقبل مَلِك اليهود؟ كان يستطيع ذلك. وقد كان هذا ممكن الحدوث في الأزمنة الأولى للمسيح، عندما لَفَتَت المعجزات انتباه الجموع ونَظَر ذوي النفوذ. فلو حدث ذلك، كيف كنا سنستطيع اجتياز كلّ فلسطين لنأتي مِن الناصرة البعيدة إلى مصر، الأرض التي كان يلجأ إليها اليهود المضطَهَدون، والسفر مع مولود صغير وأثناء هيجان الاضطهاد؟ لقد كان الهروب مِن بيت لحم أسهل حتّى ولو كانت المعاناة بنفس الدرجة. فالطاعة تُنقِذ دائماً. تذكّري ذلك. واحترام الكاهِن هو على الدوام علامة الكمال المسيحيّ.

الويل -وقد قالها يسوع- الويل للكَهَنَة الذين يَفقدون الشعلة الرسوليّة! والويل لمن يظنّ نفسه ذا سلطة على احتقارهم! ففعليّاً هم الذين يقدِّسون ويوزِّعون الخبز الحقيقيّ النازل مِن السماء. وهذا الاحتكاك يجعلهم قدّيسين، مثل كأس مقدّسة، حتّى ولو لم تكن شخصيّتهم كذلك. إنّهم يستجيبون لله في ذلك. أمّا أنتم فلا تنظروا إلّا إلى مقامهم ولا تهتمّوا بالباقي. لا تكونوا أكثر تشدّداً مِن ربّكم يسوع، الذي يترك السماء بأمر منهم وينزل ليرفَع بأيديهم. تعلّموا منه، وإذا كانوا عمياناً، إذا كانوا صُمّاً، إذا كانت نفوسهم مشلولة، وأفكارهم مريضة، وإذا كانوا مصابين بجُذام الأخطاء التي تتنافى ورسالتهم، وإذا كانوا لعازر في القبر، فاطلُبوا يسوع ليشفيهم ويردّ لهم الحياة.

اطلبيه بصلاتكِ وألمكِ أيّتها النفوس الضحيّة. فإنّ إنقاذ نفس يعني تهيئة مكان للذات في السماء سلفاً. إنّما إنقاذ نفس كهنوتيّة يعني إنقاذ عدد كبير مِن النفوس، لأنّ كلّ كاهِن قدّيس هو

كالشَّبَكة التي تجتذِب النفوس إلى الله. وإنقاذ كاهِن يعني تقديسه، تقديسه مِن جديد يعني جَعله شبَكَة روحانيّة. وكلّ غنيمة له تُضيف إلى إكليلكم الأبديّ بريق نور جديد.

اذهبي بسلام.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

53– (تقدمة يسوع إلى الهيكل)

1944 / 02 / 01

أرى شخصين يُغادِران منزلاً متواضعاً جدّاً. أُمّاً فتيّة جدّاً تهبط مِن سلّم خارجيّ صغير، وبين ذراعيها طفل بالقماط الأبيض.

لقد تعرّفتُ عليها، إنّها أُمّنا. إنّها ذاتها شاحبة، شقراء، رشيقة ولطيفة جدّاً في كلّ تحركاتها. إنّها ترتدي ثوباً أبيضاً ومعطفاً لازوردياً فاتحاً يلفّها، وعلى رأسها وشاح أبيض. وهي تحمل طفلها بعناية فائقة. وعند أسفل السلّم الصغير ينتظرها يوسف إلى جانب حمار رماديّ. وكان يرتدي ثوباً كستنائيّاً فاتحاً ومعطفاً باللون ذاته. وقد كان يَنظر إلى مريم ويبتسم لها. وعندما تَصِل إلى جانب الحمار، ينقل اللجام إلى اليد اليسرى ويأخذ منها الطفل النائم بهدوء للحظة، ريثما تستقرّ مريم جيّداً على السرج، ثمّ يُعيد إليها يسوع، ويَنطَلِقان.

يَسير يوسف إلى جانب مريم وهو يمسك بلِجام المطيّة جاعلاً إيّاها تسير بشكل سويّ ودون أن تكبو. ومريم تضمّ يسوع إلى صدرها خشية أن يؤذيه البرد، وهي تلفّه بطيَّة معطفها. يتكلّم الزوجان قليلاً جدّاً، ولكنّهما يبتسمان لبعضهما في أغلب الأحيان.

الطريق ليست نموذجيّة، وهي تمتدّ عبر قرية عَرَّاها الشتاء. يُقابِلهما بعض المسافرين أو يُقاطِعونهما، ولكنّ ذلك نادِر الحدوث.

ثمّ تَظهَر بعض المنازل، وجدران تُسَوِّر المدينة، يَدخُل العروسان مِن أحد الأبواب، ثمّ يَشرَعان بالمسير في شوارع المدينة غير المنتظمة. يصبح السير أكثر صعوبة، إنْ بسبب حركة السير التي تجعل

المطيّة تقف في كلّ لحظة، وإنْ بسبب الحجارة والتشقّقات التي تعترضها فتُسبِّب اهتزازات مستمرّة تُزعِج مريم والطفل.

الطريق ليست مستوية، إنّها تصعد قليلاً، وهي ضيّقة بين المنازل العالية ذات المداخل الضيّقة جدّاً والمنخفضة والنوافذ القليلة جدّاً المُطِلّة على الشارع. في الأعلى تَظهَر السماء بين البيوت والسطوح قِطَعَاً لازورديّة متعدّدة، وفي الأسفل في الشارع، هناك أناس يَصرخون ويتقابلون وآخرون يسيرون أو يركبون الحمير أو يَجرّون حميراً محمَّلة، وآخرون يسيرون خلف قافلة جِمال مزدحمة. وفي أحد الأمكنة تمرّ دوريّة مِن الجنود الرومان مُحدِثة الكثير مِن جَلَبَة النِّعال والسلاح، ثمّ يحتجبون خلف قنطرة تجتاز شارعاً ضيّقاً وكثير الحجارة.

يَنعَطِف يوسف إلى اليسار ليسلك طريقاً أعرض وأجمل. أرى السور ذا الشرفات الذي أعرفه في آخر الشارع.

تترجَّل مريم قرب الباب حيث يوجد نوع مِن الملاجئ للحمير. أقول "ملجأ" لأنّه عبارة عن عنبر أو بالأحرى ملجأ مغطى ومفروش بالقشّ، توجد فيه أوتاد متّصلة بحلقات لربط ذوات الأربع. يُعطي يوسف أحد الغلمان بعض الدراهم فيجري لشراء بعض العلف، ثمّ يسحب دلواً مِن الماء مِن بئر بدائيّ في إحدى الزوايا ليقدّمه للحمار.

ثمّ يلحق بمريم ليَدخلا معاً داخل سور المعبد. يتوجّهان بادئ ذي بدء صوب رواق يتواجد فيه أولئك الناس الذين ضربهم يسوع بالسوط فيما بعد بشكل عنيف: بائعو اليمام والحِملان والصيارفة. يشتري يوسف زوج حمام أبيض. لم يُبدِّل أبداً عملة ممّا يشير إلى أنّه أصبَحَ لديه كلّ ما يَلزَم.

يتوجّه يوسف ومريم صوب باب جانبيّ، يُرتَقى إليه بثماني درجات، كذلك كانت كلّ الأبواب بحيث إنّ كتلة الهيكل كانت مرتفعة عن الأرض المحيطة. لهذا الباب ردهة كبيرة تشبه

المداخل الرئيسيّة لبيوتنا في المدينة، تقريباً للأذهان، ولكنّها أكبر وأكثر زينة. وعلى اليمين واليسار يوجد هنا نوعان مِن الهياكل، أي أنّ مستطيلين مبنيّان، ولم ألحظ في البداية ما الفائدة منهما. إنّهما مثل حوضين قليلي العمق حيث ينخفض الداخل عن الحافّة الخارجيّة المرتفعة بضعة سنتيمترات.

لستُ أدري إذا كان يوسف هو الذي طَلَبَ: ذلك أنّ كاهِناً يَهرَع إليهما. تُقدِّم له مريم طيري الحمام المسكينين، فأدركتُ آنذاك مصيرهما وأشحتُ بوجهي. أُلاحِظ تزيينات الباب الثقيل جدّاً، والسقف والبهو. يبدو لي مع ذلك أنّني أرى بطرف عيني الكاهِن يرشّ مريم بالماء. ينبغي أن يكون هذا ماء إذ إنّني لم أرَ بُقَعاً على ثوبها. ثمّ إنّ مريم التي أعطت الكاهِن، مع طيري الحمام، قبضة دراهم (لقد نسيتُ قول ذلك) تَدخُل مع يوسف إلى الهيكل، بالمعنى الصحيح، يصحبهما الكاهِن.

أَنظُر إلى كلّ الجهات. إنّه مكان مليء بالتزيينات، منحوتات رؤوس ملائكة، أغصان وتزيينات على طول العواميد وعلى الجدران والسقف. أمّا النور فيدخل مِن خلال نوافذ طويلة وغريبة الشكل، ضيّقة وطبيعيّة بدون زُجاج، ومتوضِّعة على الجدار بشكل مُنحَرِف، أظنّه لمنع المطر مِن التسرّب للداخل.

تَصِل مريم إلى مكان معيّن تقف عنده، وعلى بضعة أمتار منها توجد درجات أخرى في أعلاها نوع آخر مِن الهياكل، ويليه إنشاء آخر.

أتنبّه إلى أنّني كنتُ أظنّ نفسي في الهيكل: على العكس، لقد كنتُ داخل الأبنية المحيطة بالهيكل بالمعنى الصحيح، أي قدس الأقداس حيث لا يمكن لأحد الدخول سوى الكَهَنَة. وما كنتُ أظنّه الهيكل، لم يكن سوى ردهة مُغلَقَة وهي تحيط بالهيكل حيث يوجد تابوت العهد مِن جهاته الثلاث. لستُ أدري ما إذا كنتُ قد وُفِّقتُ في التعبير، ذلك أنّني لستُ معماريّة أو مهندسة.

تُقَدِّم مريم الطفل الذي استيقَظَ وهو يجيل نظره البريء حوله، ويَنظُر إلى الكاهِن بدهشة، نظرة طفل لم يتجاوز الأيّام المعدودة. فيأخذه هذا الأخير بين ذراعيه ويرفعه بذراعين ممدودتين ووجهه صوب الهيكل وهو واقف أمام هيكل فوق الدَّرَجَات. ثمّ ينتهي الطقس الدينيّ ويُعاد الطفل إلى أُمّه ويمضي الكاهِن. كان هناك أناس فضوليّون يَنظُرون، يَبرز مِن بينهم عجوز قصير القامة مُنحَنٍ ويسير بصعوبة متّكئاً على عكّاز، يُفتَرَض أنّه طَعَنَ كثيراً في السنّ، أظنُّه تجاوَزَ الثمانين. فيدنو مِن مريم ويَطلب منها أن تعطيه الطفل للحظة. وتُلبّي مريم طلبه مبتسِمة.

إنّه سمعان، وقد كنتُ، على الدوام، أعتَقِد أنّه مِن السلك الكهنوتيّ، ولكنّه في الحقيقة على عكس ذلك، إنّه مجرّد مؤمِن بسيط، ويمكن تخمين ذلك مِن ثوبه. يأخذ الطفل ويُقَبِّله. يبتسم له يسوع بملامح الرضيع غير الواضحة. يبدو أنّه يتأمّله بفضول، لأنّ العجوز القصير القامة يبكي ويضحك في الوقت ذاته، ودموعه تُشَكِّل على وجهه رسوماً مُرَصَّعة تَلِج تجاعيده لتَسقُط على لحيته الطويلة البيضاء التي يمدّ يسوع يديه إليها. هو يسوع، ولكنّه يظلّ الطفل الصغير الذي يثير انتباهه كلّ شيء يتحرّك أمامه، ويجعله يمسك به بشكل عفويّ ليرى ما هو. يبتسم يوسف ومريم وكذلك الأشخاص الموجودون الذين يُثنون على جمال الطفل.

إنّني أسمَع كلمات العجوز القدّيس، وأرى نظرة الدهشة على محيّا يوسف، وتأثُّر مريم، وتفاعلات الجمع الصغير مِن الأشخاص الموجودين، فالبعض متأثِّرون ومندَهِشون مِن كلام العجوز، والبعض الآخر يَضحَكون ضحكة جنونيّة. ومِن بين هؤلاء يوجد رجال ملتحون وأعضاء متغطرسون مِن المجمع اليهوديّ الذين يهزّون رؤوسهم. إنّهم يَنظُرون إلى سمعان بشَفَقة ساخِرة، فلا بدّ أنّهم يعتقدون دون شكّ أنّ سنّه الكبير قد أفقده عقله.

وتخبو ابتسامة مريم بشحوب بالغ حين يُعلِن لها سمعان عن الألم. ورغم معرفتها، فقد اختَرَقَت كلماته نفسها، وتقترب مِن يوسف أكثر لتجد عزاء لها؛ وتضمّ ابنها إلى صدرها بشغف. وكنفس عطشى ترتوي بكلمات حنّة التي، كامرأة، تُشفِق على آلام مريم وتَعِدها بأنّ الأزلي سَيُلَطِّف ساعة

الألم بإعطائه لها قوّة فائقة الطبيعة: «أيّتها المرأة، إنّ الذي مَنَحَ شعبه المخلّص، لن يَبخل في إعطائكِ ملاكه ليمسح دموعكِ. لم يُقَصِّر الربّ يوماً في مدّ يد العون لنساء إسرائيل العظيمات، وأنتِ أكثر مِن يهوديت ويائيل، فسوف يمنحكِ إلهنا قلباً ذهبيّاً نقيّاً جدّاً لمقاومة بحر الآلام الذي به ستصبحين أعظم امرأة في الخليقة كلّها، الأُمّ. وأنتَ أيّها الصغير اذكرني ساعة انبعاثكَ.»

وهنا تتوقّف الرؤيا بالنسبة لي.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

54- (العِبَر التي تنبثق مِن المشهد السابق)

1944 / 02 / 02

يقول يسوع:

«عِبرَتان تلائمان الجميع قد انبثَقَتا عن الوصف الذي أعطيتيه.

<u>**العِبرة الأولى**</u>: لا تنكشف الحقيقة للكاهِن الغارق في الطقوس وروحه غائبة، إنّما هي تنكشف للمؤمن البسيط.

كان ينبغي للكاهِن المتّصل دائماً بالألوهة، الملتزم بالعناية بكلّ ما يرتبط بالله، المكرَّس لكلّ ما هو سام بالنسبة لكائن بشريّ، أن يرى فوراً ماهيّة الطفل الذي قُدِّم إلى الهيكل في ذلك الصباح. ولكن لكي يستطيع أن يراه كان لا بدّ له مِن روح متيقّظة، وليس فقط ثوباً يغطّي روحاً قد تكون ميتة، أو أقلّه نائمة. إنّ روح الله قادر لو أراد أن يُدوّي أو يُحرِّك مثل البرميل أو الهزّة الأرضيّة حتّى الروح الأكثر انغلاقاً. يستطيع ذلك. ولكن بما أنّه في العادة روح نظام، وبما أنّه نظام الله في جميع الناس وفق طريقته بالتفاعل، فإنّه ينتشر ويتكلّم، لستُ أقول حيث يُقابِل استحقاقاً كافياً لاستقبال فيضه -إذ سيكون عدد الحاصلين على هذه النعمة ضئيل جدّاً، وكذلك أنتِ فلن تتمتّعي بأنواره- ولكن حيثما يَجِد ما يكفي مِن "الإرادة الطيبة" لاستقطاب هذا الفيض.

كيف تَظهَر هذه الإرادة الطيّبة؟ بحياة، على قدر الإمكان، متأتّية بأكملها مِن الله، بالإيمان والطاعة والطهارة والمحبّة والجود والصلاة، ليس **بالممارسات الظاهريّة** بل **بالصلاة**. فالفرق بين الليل والنهار أقلّ مِن الفرق بين الممارسات والصلاة. إنّ الصلاة هي اتّحاد الروح مع الله حيث نَخرج منها منتَعِشين ومصمِّمين على أن نكون دائماً أكثر اتّحاداً بالله. أمّا الممارسات الظاهريّة فهي عادة معيّنة ذات أهداف مختلفة ولكنّها دائماً أنانيّة. تُبقيكم كما أنتم أو حتّى بزيادة خطيئة كذب وكَسَل.

كانت لسمعان هذه الإرادة الطيّبة. لم تستثنيه الحياة مِن المَضايق ولا التجارب، ولكنّه لم يفقد إرادته الطيّبة. تقلُّبات السنين لم تُنقِص أو تُزَعزِع إيمانه بالربّ وبوعوده، وكذلك لم تَكبَح إرادته الطيّبة عن أن يبقى أكثر استحقاقاً لله على الدوام. وقبل أن تُغمَض عينا خادم الله الأمين عن نور الشمس في انتظار انفتاحهما على شمس الله المشعّة في السماوات المنفَتِحة لصعودي بعد الشهادة، أَرسَلَ الله له شعاعاً مِن روحه الذي قاده إلى الهيكل ليرى النور ذاته الآتي إلى العالم.

"يقوده الروح القدس". هكذا يقول الإنجيل المقدّس. آه! لو يعرف الناس أيّ صَديق كامل هو الروح القدس! أيّ مُرشِد! أيّ معلّم! لو كانوا يحبّونه ويُناشِدون حُبّ الثالوث الأقدس هذا، نور النور هذا، نار النار هذا، وهذا الذكاء، هذه الحكمة! كم سيصبحون أكثر اطّلاعاً على ما هو ضروريّ أن يعرفوه!

انظري يا ماريا، انظروا يا أبنائي. لقد انتَظَرَ سمعان حياة بطولها قبل أن "يرى النور"، قبل أن يَعرف أنّ وعد الله قد تمّ. ولكنّه لم يَشكّ يوماً، كما لم يَقل يوماً لنفسه: "مِن غير المجدي أن أُواظِب على الرجاء والصلاة"، ولقد واظَبَ، فنال أن "يرى" ما لم يره الكاهِن وأعضاء المجمع اليهوديّ المتكبّرون والعميان: ابن الله، الماسيا، المخلّص في جسد هذا الطفل الذي مَنَحَهُ دفئاً وابتسامة. لقد نال ابتسامة الله كمكافأة أولى على حياته الشريفة والتقيّة عبر شفتيّ، شفتيّ طفل.

العِبرة الثانية: أقوال حنّة. هي الأخرى نبيّة، وقد رأت فيَّ، أنا المولود حديثاً، الماسيا. وهذا، وإن تكن قد مُنِحَت نعمة النبوّة، أمر طبيعي بالنسبة لها. ولكن اسمعي، بل اسمعوا ما تقوله لأُمّي مدفوعة بالإيمان والمحبّة. واتَّخِذوا منه منارة لروحكم التي ترتجف في زمن الظلمات هذا، إبّان عيد النور.

"إنّ الذي أعطى مخلّصاً لا يمكن أن تنقصه القُدرة على أن يَهِب ملاكه ليمسح دموعكِ، دموعكم". فكِّروا أنّ الله قد وَهَبَ ذاته كي يتلاشى عمل الشيطان في النفوس. أفلا يمكنه الآن التغلّب على الشياطين الذين يُنهِكونكم؟ ألا يستطيع مسح دموعكم بأن يجعل الشياطين تهرب

ويُعيد سلام مسيحه؟ فلماذا لا تطلبون منه ذلك بإيمان؟ بإيمان حقيقيّ لا يُرَدّ، تتلاشى أمامه، مع ابتسامة، قسوة الله الذي أغظتموه بخطاياكم الكثيرة جدّاً، على الرغم مِن أنّ المغفرة تأتي حاملة معها العون الذي هو نتيجتها وبَرَكتها، التي هي قوس قزح هذه الأرض الغارقة في طوفان دم أردتموه أنتم؟

فكِّروا: الآب، بعد أن عاقَبَ الناس بالطوفان، قال لنفسه ولشيخه الوقور (نوح): "لن ألعن الأرض بعد بسبب الناس، لأنّ مشاعر وأفكار القلب البشريّ تنحدر نحو الشرّ منذ الشباب. لن أُعاقِب أيّ كائن حيّ كما قد فعلتُ". وظلّ أميناً لكلمته ولم يعد يُرسِل الطوفان، إنّما أنتم فكم مرّة قلتم لأنفسكم وقلتم لله: "لو خَلصنا هذه المرّة، لو تُخلِّصنا فلن نفتعل الحروب أبداً، قطعيّاً". ومِن ثمّ ألَمْ تفعلوا دائماً ما هو أرهَب؟ وكم مرّة كنتم كاذبين وبدون احترام للربّ ولكلمتكم؟ ومع ذلك فالربّ يمدّكم بمعونته، مرّة أخرى إذا ما دعاه جَمع كبير مِن المؤمنين بإيمان وبحبّ لا يُقاوَم.

أنتم جميعاً، يا مَن عددكم ضئيل جدّاً لِتُعَدِّلوا كفّة ميزان الجموع التي تُذكّي غضب الله على الدوام، ظَلّوا مُخلِصين لله بالرغم مِن تهديدات الساعة الحاضرة الرهيبة التي تزداد مِن لحظة لأخرى. ارموا بقلقكم أمام أقدام الله، وهو سيعرف أن يُرسِل لكم ملاكه كما أرسَلَ المخلّص إلى العالم.

لا تخافوا. ظلّوا متّحدين بالصليب. فلقد انتَصَرَ دائماً على أحابيل الشيطان الذي، بشراسة الناس وأحزان الحياة، يعمل على جرف القلوب التي لا يعرف أن يأخذها بطريقة أخرى إلى اليأس، يعني إلى الابتعاد عن الله.

--------------- (عودة إلى الفهرس) ---------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

55– (هَدهَدة العذراء)

28 / 11 / 1944

لقد حلمتُ هذا الصباح حُلماً ممتعاً. فقد كنتُ لا أزال في سحابة النوم عندما سمعتُ صوتاً نقيّاً يغنّي بلطف أغنية هَدهَدة بطيئة، قد تَحسبها نشيداً ميلاديّاً لكثرة ما بدت بطيئة وبأسلوب ما قبل الكلاّسيكية. لقد تتبّعتُ هذا الموضوع وهذا الصوت الذي مَنَحَني سعادة متنامية، وأعاد لي صفاء ذهني بتأثير تماوجه العذب. أخيراً استيقظتُ وأدركتُ. قلتُ: «السلام لكِ يا مريم، يا ممتلئة نعمة!» إذ كانت الأُمّ هي التي تُنشِد، وأخَذَت تُنشِد بشكل أقوى بعد أن قالت لي: «وسلامي لكِ كذلك. تعالي وكوني سعيدة!»

رأيتُها في منزل بيت لحم، في الغرفة التي تَشغلها، أثناء هَدهَدة يسوع لينام. وكان في الغرفة نول الحياكة وأعمال خياطة مريم. يبدو أنّ مريم قد قَطَعَت عملها لترضع الطفل، وتُغيّر قمطه أو بالأحرى فوطه، ذلك أنّ عمره قد بَلَغَ أشهراً، ستّة أو ثمّانية أشهر ليس أكثر على ما أظنّ. وقد كان في حسبانها أن تعود إلى العمل بعد أن ينام الطفل.

كان الوقت مساء. والغَسَق المتقدّم تماماً كان قد جَعَلَ السماء ساكنة وموشّاة بندف ذهبيّة. كانت قطعان تعود إلى حظائرها وهي ما تزال تأكل آخر أعشاب حقل مُزهِر وتثغو رافعة فمها.

تأخَّر الطفل في النوم. يبدو أنّه مضطَرِب كما لو كانت أسنانه تؤلمه أو هي مِن آلام الطفولة الأولى.

كتبتُ النشيد، قدر استطاعتي، في ظلمة هذه الساعة التي بالكاد، بالكاد صباحيّة، على قُصاصة ورق، والآن أعيد كتابته هنا.

«أيّتها الغيوم المذهَّبَة التي تبدو كقطعان الربّ. في الحقل الممتلئ بالزهور قطيع آخر يَنظُر. ولكن لو كنتُ أملك كلّ القطعان التي على الأرض، فالحَمَل الأغلى بالنسبة إليَّ هو دائماً أنتَ. نم، نم، نم... ولا تعد تبكي...

ألف نجمة متلألئة هناك في السماء تَنظُر. حدقتاكَ العذبتان، آه! لا تَدَعهُما تدمَعان. عيناكَ اللتان هُما مِن السفير هما نجمتا قلبي. ودموعكَ ألمي! آه! لا تبكِ بعد. نم، نم، نم، نم... ولا تعد تبكي...

كلّ الملائكة المتألّقة التي في الفردوس، جَعَلَت مِن أنفسها إكليلاً لكَ أنتَ البريء، لتستمتع بوجهكَ. ولكنّكَ تبكي وتريد أُمّكَ. تريد الماما، الماما، الماما... التي هي هنا حولكَ لتقول لكَ "دودو"، دودو، دودو، دو... نم، نم، نم، نم... ولا تعد تبكي...

ها هي السماء الورديّة، إنّه الفجر يعود. والماما لم تسترح بعد لكي لا تدعكَ تبكي. إن استيقَظتَ تقول "ماما" فأجيب "ابني". وعندما أُقَبِّلكَ فالحبّ والحياة هما ما سوف أمنحكَ مع الحليب. نم، نم، نم... ولا تعد تبكي...

لا تستطيع أن تبقى دون أُمّكَ حتّى ولو كنتَ تحلم بالسماء. تعال، تعال! سأجعلكَ تنام تحت وشاحي. صدري وسادتكَ، وذراعاي مهدكَ. لا تخشَ شيئاً! فأنا إلى جانبكَ. نم، نم، نم، نم... ولا تعد تبكي...

سأكون معكَ دائماً، فأنتَ حياة قلبي. إنّه ينام... وكأنّي به زهرة موضوعة على الصدر. إنّه ينام... توخّوا الهدوء التامّ! قد يكون يرى الأب القدّوس... وهذه الرؤيا تمسح دموع يسوعي العذب... *ينام، ينام، ينام، ينام، ولم يعد يبكي...*»

أقول إن ظُرفَ هذا المشهد غير معقول. فهو ليس سوى أُمّ تُهدهِد لطفلها. ولكن أيّ أُمّ وأيّ طفل! فيمكن إذاً التّصوُّر أيّة نعمة وأيّ حُبّ وأيّة طهارة وأيّة سماء يتضمّنهم هذا المشهد الصغير الكبير واللذيذ الذي مجرّد ذكراه تُمتعني، والذي يبقى، لتثبت حقيقته، النَّغَم الذي أُرَدِّده لأُسمِعكم إيّاه أنتم أيضاً، إلّا أنّني لستُ أمتَلِك الحنجرة الفضيّة والصوت النقيّ الذي لمريم، صوت العذراء الخام!... بل إنّني أبدو مثل أكورديون خَرِب. لا يهمّ. سوف أبذل قصارى جهدي. يا لها مِن مسرحيّة رعويّة جميلة تغنّي حول مغارة الميلاد!

كانت الأُمّ في البداية تؤرجِح المهد الخشبيّ ببطء. ثمّ حين رأت أنّ يسوع لم يهدأ، أَخَذَته على ركبتيها وهي جالسة قرب النافذة المفتوحة جانب المهد، وأَخَذَت تؤرجحه بهدوء على إيقاع النشيد. كرَّرَت النشيد والأرجحة مرّتين حتّى أغمض يسوع الصغير عينيه، وهو يدير وجهه صوب صدر أُمّه، وينام هكذا طامراً وجهه الصغير في دفء صدرها، يده مستندة على صدر أُمّه قرب خدّه الورديّ، والأخرى مستسلمة على ثديها. ووشاح مريم كان يغطّي مولودها الصغير المقدّس. ثمّ قامَت مريم بِحِيطة لا متناهية ووَضَعَت يسوع في المهد. غَطّته بقطع خفيفة، ومدَّت وشاحاً يقيه مِن الذباب والهواء، وجَلَسَت تتأمّل كنزها النائم.

كانت يدها على قلبها والأخرى مستندة على المهد مُستعدّة للأرجحة إذا ما أوشَكَ الطفل على الاستيقاظ، وكانت تبتسم، مُشرِقة، مُنحنية قليلاً على المهد، بينما كان الظلام والسكون يَهبطان على الأرض، ويُخيّمان على الغرفة البتوليّة الصغيرة.

يا له مِن سلام! يا له مِن جمال! إنّني مفتونة!

ليست رؤيا توحي بالعَظَمَة، وقد يُحكَم عليها بأنّها لا جدوى منها ضمن مجموع بقيّة الرؤى لأنّها لا تُظهِر شيئاً له خصوصيّته. أنا أعرف ذلك. إلّا أنّها بالنسبة لي نعمة حقيقيّة. فأنا أُقيّمها على هذا الأساس، إذ إنّها تبعَث في نفسي التي يخترقها الحبّ هدوءاً ونقاء وكأنّها تُخلَق مِن جديد بيدي الأُمّ. أظنُّها مِن هذا المُنطَلَق ستعجبكم أنتم أيضاً. إنّنا صغار جدّاً. وهذا أفضل! بذلك نُعجِب يسوع.

وأمّا الآخرون، علماء كانوا أم مُعَقَّدين، فليُفكّروا بما يحلوا لهم، مُعتَبِرين إيّانا "طفوليّين" فليس لنا أن نهتمّ بكلّ هذا. أليس كذلك؟

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

56- (سُجود المجوس الثلاثة)

28 / 02 / 1944

الذي يُخطِرني داخليّاً يقول لي:

«سمّي هذه التأملات التي ستَحصَلين عليها والتي سوف أقدّمها إليكِ: "أناجيل الإيمان" إذ إنّها، بالنسبة إليكِ وإلى الآخرين، ستأتي لتَضَع قُدرة الإيمان وثماره في النور، وتثبّتكم في إيمانكم بالله.»

أرى بيت لحم صغيرة وبيضاء بأكملها، مُجتَمِعة مثل فراخ صيصان جائعة تحت ضوء النجوم. هناك شارعان رئيسيّان يتقاطعان عموديّاً، الواحد قادم مِن ما قبل البلدة، وهي الطريق الرئيسيّة التي تمتدّ إلى ما بعد المدينة، والآخر يَقطَع المدينة عرضيّاً ولكنّه لا يتجاوزها. وطُرُق أخرى صغيرة تقطع هذه البلدة الصغيرة دون أيّ أثر لمخطّط إجمالي كما يُستَدَلّ مِن ذلك، ولكنّها تتكيّف مع الأرض مُختَلِفة المستويات، والبيوت الموزَّعة هنا وهناك حسب ظروف الأرض وأهواء البنّائين، فمنها ما يتّجه إلى اليمين ومنها إلى اليسار، وأُخرى تنحرف حسب الطريق التي تحدّها فتضطرّها إلى الظهور بمظهر الشريط الذي يمتدّ بتعرّجات بدل أن تكون طريقاً مستقيمة تصل مكاناً بآخر دون انحراف. وبين مرحلة وأخرى هناك ساحة قد تكون سوقاً أو ينبوع ماء، أو ربّما بَقيَت مساحات بينيّة لا يمكن البناء عليها، وذلك بسبب الأبنية التي انتَصَبَت كيفما اتّفق.

في المكان الذي يبدو لي وجوب التوقّف عنده بشكل خاصّ، هناك بالتحديد واحدة مِن الساحات غير المنتَظَمة. كان ينبغي أن تكون مربّعة أو أقلّه مستطيلة. إنّما هي على شكل شِبه مُنحَرِف غريب الشكل تستطيع معه القول بأنّه مثلّث حادّ الزوايا مُنحَرِف مِن الرأس. الضلع الأول، أي قاعدة المثلّث بناء عريض ومُنخَفِض، إنّه البناء الأكبر في البلدة. مِن الخارج له جدار أملس وعار بالكاد فُتِحَت فيه بوّابتان، وهما الآن مغلقتان تماماً. في الداخل، على العكس، توجد

نوافذ كثيرة في الطابق الأوّل تطلّ على فناء دار مربّع الشكل، بينما في الأرضيّ هناك أروقة تُحيط بساحات مفروشة بالقشّ والفَضَلات مع فسقيّات لإرواء الأحصنة والحيوانات الأخرى. وعلى أعمدة الأروقة القرويّة توجد حلقات لربط الحيوانات، وعلى أحد الجوانب هناك عَنبَر كبير لإيواء القطعان والمطايا. فأدركتُ أنّه نَزل بيت لحم.

وعلى طَرَفين آخَرَين مِن نفس الامتداد هناك منازل كبيرة وبيوت صغيرة، منها ما أُلحِقَت به حديقة، ومنها ما لم تُلحَق، لأنّ بينها ما واجِهته تطلّ على الساحة، ومنها ما هو خلفيّ. على الجانب الآخر الأكثر ضيقاً، في المقابل، خان القوافل، وهناك منزل وحيد له سلّم خارجي صغير في منتصف الواجهة، يَنفذ إلى الطابق الأوّل. وهي جميعها مُغلَقة لأنّ الوقت ليل، ولا يوجد إنسان في الطريق بسبب الوقت.

أراها تتنامى، تلك الضياء الليليّة، الهابطة مِن السماء، مرصّعة بالنجوم الجميلة جدّاً، مِن سماء الشرق الحيويّة والكبيرة، حتّى لتبدو قريبة جدّاً وأنّ مِن السهل الوصول إليها ولمسها، هذه الزهور التي تَلمَع على مخمل القبّة السماويّة. رَفَعتُ عينيَّ لأتحقّق مِن مصدر ازدياد النور هذا، وإذا بنجمة بحجم غير عاديّ، مِثل قمر صغير، تتقدّم في سماء بيت لحم، فتبدو باقي النجوم وكأنّها تتوارى لتفسح لها المجال لتمرّ، مثل الوصيفات في خدمة المَلِكَة، وكذلك كان أَلَقها يفوقها جميعاً ويجعلها تختفي. مِن هذه الكُرة التي تبدو كسفير ضخم مُنار مِن الداخل بشمس، ينبَعِث ذَنَب مُنير، تذوب فيه، تحت هيمنة نور السفير، ألوان الزبرجد الأشقر والأخضر وأَلَق عين الهرّ (حجر كريم كثير الألوان) الأغبش وأنوار الياقوت الدمويّة، وتوهّجات الجمز العذبة (الجمز هو أكسيد السيليكون المتبلوِر، وهو مِن الأحجار الكريمة). كلّ الأحجار الكريمة التي على وجه الأرض كانت تذوب في هذا الذَّنَب الذي يجتاز السماء بحركة سريعة ومُتماوِجة كما لو كان حيّاً. ولكنّ اللون الذي يُهيمِن هو هذا اللون الذي يبدو وكأنّه يَهطل مِن كرة النجمة: اللون الفردوسيّ للسفير

الشاحب الذي يَهبط ليضفي لون اللازورد الفضّيّ على المنازل والطرقات وأرض بيت لحم، مهد المخلّص.

لم تَعُد الآن المدينة الفقيرة التي لم تكن بالنسبة لنا سوى تجمّع طُرُقات، بل هي أصبَحَت مدينة خياليّة مِن حكايات الساحرات حيث كلّ شيء مِن الفضّة، أمّا ماء النبع والفسقيّات فمثل الماس السائل.

مع ألق السطوع الأكثر حيويّة، توقّفَت النجمة فوق المنزل الصغير الموجود في الناحية الضيّقة مِن الساحة الصغيرة. لم يَرَها سُكّان المنزل، ولا حتّى سُكّان بيت لحم لأنّهم جميعاً نيام في البيوت المغلقة. حينئذ سَرَّعَت النجمة خفقان نورها، واهتزّ ذيلها وزاد تأرجُحه مُشَكِّلاً أنصاف دوائر في السماء التي أُنيرَت بكاملها بفعل شَبَكة النجوم هذه التي جَذَبَتها، شَبَكة الأحجار الكريمة هذه التي تنعكس على بقيّة النجوم بألف لون، كما لتُشارِكها كلمة فرحة.

لقد سَبح البيت الصغير في نار هذه الجواهر السائلة. سطح الشرفة الصغيرة، السلّم الصغير ذو الأحجار الداكنة، الباب الصغير، لقد كان كلّه عبارة عن سبيكة فضّة خالِصة موشّاة بغبار ماس وجواهر. لم يكن لأيّ قصر مَلَكي ولن يكون سلّم خارجي مماثل لهذا المعدّ ليَستقبل خُطى الملائكة، لتستخدمه الأُمّ التي هي أُمّ الله. فقدماها قدما عذراء منزَّهة عن كلّ عيب تستطيعان أن تدوسا هذا البياض المُشرِق، قدماها المُعدَّتان لتدوسا دَرَجات عرش الله.

ولكن العذراء لا تعرف شيئاً عن هذه الروعة الفاتنة. إنّها تَسهَر قُرب مهد ابنها وتصلّي. وفي نفسها تألُّق تَجاوَزَ ذلك الذي جَمَّلَت به النجمة الأشياء.

مِن الطريق الرئيسيّة تتقدّم قافلة: أحصنة مسرَّجة وأُخرى تُقاد باليد، جِمال بِسَنَم وأُخرى بِسَنَمين. بعضها مُمتَطى والبعض الآخر مُحمَّل. صوت حوافرها المُصطَدِمة بحجارة سَيل يشبه صوت مياه جارية. عند وصولها إلى المكان، تَوقّف الجميع. وتحت إشعاع النجمة بَدَت القافلة

بتألّق خياليّ. زينات المطايا الفاخرة جدّاً، ثياب الفرسان، الوجوه، الحُمولة، الكلّ يتألّق مُذكِّياً ومُوحِّداً البريق الصرف للمعادن، للجلود، للحرائر، للأحجار الكريمة وللفرو، مع بريق النجمة. شَعَّت عيونهم وابتسَمَت أفواههم لأنّ تألُّقاً آخر قد أُضرِمِ في قلوبهم: ألق فرح فائق الطبيعة.

بينما يتوجّه الخدّام صوب خان القوافل مع الحيوانات، يَترجّل ثلاثة أشخاص مِن القافلة مِن على مطاياهم الفخمة التي يقودها خادم إلى مكان آخر ويتوجّهون إلى البيت على أقدامهم. هنا، يَسجدون، جِباههم إلى الأرض، مُقَبّلين التراب. إنّهم أشخاص ثلاثة مِن ذَوي النفوذ كما تُشير ملابسهم الفاخرة جدّاً. أحدهم، وهو ذو بشرة داكنة، ما أن تَرَجّل مِن على جَمَل حتّى تَلَفَّح بكامله بثوب فاخر مِن الحرير الأبيض، بينما جبينه مُمَنطَق بحلقة مِن المعدن الثمين، وعلى خَصره نطاق ثمين يتدلّى منه خنجر أو سيف وقد زَيَّنَت مِقبضه أحجار كريمة. والاثنان الآخران، وقد ترجّلا مِن على حصانين رائعين، فقد كان أحدهما يرتدي لباساً مخطّطاً جميلاً للغاية ويَغلب عليه اللون الأصفر. هذا اللّباس مصنوع مثل "بُرنُس" طويل مزيّن بقبّعة وبحبل، ويبدو كلّ شيء مصنوعاً مِن الصياغة السلكيّة الذهبيّة على قدر ما كان مزيّناً بالحواشي الذهبيّة. وأمّا الثالث فإنّه يرتدي قميصاً مِن الحرير مُنتَفِخاً يَبرُز عن بنطال طويل وعريض محصور عند القدمين، وهو يتلفّح بوشاح ناعم جدّاً، وهو يبدو كحديقة حقيقيّة مُزهِرة بقدر ما كانت زاهية تلك الألوان التي كان مُزَيَّناً بها بالكامل، وعلى رأسه عمامة مُثبّتة بسلسلة مُرصَّعة بفصوص ماس.

بعد تبجيل البيت الذي يَقطن فيه المخلّص، يَنهَضون ويَقصدون الخان حيث يَقرَع الخدّام ويُفتَح لهم.

هنا تتوقّف الرؤيا.

تُعاوِد بعد ثلاث ساعات بمشهد سُجود المجوس ليسوع.

هو النهار. شمس جميلة تتألّق في سماء بعد الظهر. أحد خدّام المجوس الثلاثة يجتاز الساحة ويرتقي سلّم البيت الصغير. يَدخُل. يَخرُج. ويعود إلى النَّزل.

يَخرُج المجوس الثلاثة، وكلّ منهم يتبعه خادمه الخاصّ. يَجتازون الساحة. يَلتَفِت المارّة القليلون جدّاً لِيَنظروا إلى الشخصيّات المهيبة الذين يمرّون ببطء شديد وفخامة. كانت ربع ساعة قد مرّت بين مجيء الخادم ومجيء الثلاثة، ممّا أعطى سكّان البيت الفرصة للاستعداد لاستقبال الضيوف.

إنّهم يرتدون ثياباً فاخرة أكثر مِن الليلة السابقة. فالحرائر تتلألأ، والأحجار الكريمة تلمع، خصلة كبيرة مِن الريش النفيس قد نُثِرَت عليها حراشف أكثر قيمة تَبرق على رأس الذي يَحمل العمامة.

يَحمِل أحد الخدّام صندوقاً مُطَعَّماً بالنقوش المعدنيّة مِن الذهب المشغول. والثاني يحمل كأساً مشغولة بشكل ناعم جدّاً، مغطّى بغطاء مِن الذهب المنقوش. أمّا الثالث فيحمل نوعاً مِن الجِرار كبيرة وقصيرة، وهي مِن الذهب كذلك، ولها غطاء بشكل هَرَميّ، وفي قمّته ماسة مصقولة. يُفتَرَض أن تكون تلك الأشياء ثقيلة، ذلك أنّ الخدّام يُعانون مِن حَمِلها، خاصّة ذاك الذي يحمل الصندوق.

يرتقي الثلاثة السلّم ويَدخُلون. يَلِجون غرفة مِن جهة الطريق تطلّ على ما خلف البيت، فالحديقة الخلفيّة تُرى مِن خلال نافذة مفتوحة للشمس. تُفتَح أبواب مِن الجدارين الآخرين، يَنظُر منها أصحاب المنزل. رجل وامرأة وأولاد أربعة بأعمار مختلفة.

مريم جالسة والطفل على صدرها، ويوسف واقف إلى جانبها. إلّا أنّها عندما ترى المجوس الثلاثة يَدخُلون تقف وتنحني. إنّها ترتدي الأبيض، وهي جميلة جدّاً بثوبها الأبيض الذي يكسوها مِن أسفل العنق حتّى القدمين، ومِن الكتفين حتّى الكفّين الناعمين، جميلة جدّاً ورأسها مُكَلَّل بضفائر شقراء، ووجهها قد أضفى عليه الموقف المؤثّر لوناً ورديّاً زاهياً، وعيناها تبتسمان بنعومة،

وفمها الذي يُفتَح لِيُحَيّي: «الله معكم.» ويبقى المجوس الثلاثة حائِرين للحظة. ثمّ يتقدّمون، ويجثون عند قدميها ويرجونها أن تجلس.

هُم لا. لم يَجلسوا رغم دعوة مريم ويَظلّون جاثين على ركبهم متّكئين على أعقابهم. وخلفهم يجثو كذلك الخدّام الثلاثة. إنّهم خلف العَتَبَة مباشرة، وقد وَضَعوا أمامهم الأغراض التي كانوا يحملونها. ويَنتَظِرون.

يتأمّل الحكماء الثلاثة الطفل. يبدو لي أن عمره يتراوح بين تسعة أشهر وسنة، وذلك حسب وعيه وقوّته. يَستَنِد على صدر أُمّه. يبتسم ويناغي مثل عصفور صغير. إنّه يرتدي الأبيض مثل أُمّه، مع صندل صغير في قدميه. ثوب صغير بسيط تَخرج منه قدماه اللتان تتحرّكان، اليدان الربيلتان اللتان تريدان الإمساك بكلّ شيء، وخاصّة الوجه الصغير الفائق الجمال حيث تلمع عيناه اللازورديّتان الداكنتان، والفم الذي يُشكّل غمّازتين على جانبيه عندما يبتسم ويَكشف عن أولى أسنانه الصغيرة. شعره القصير يبدو مثل غبار الذهب لشدّة لمعانه ونعومته.

يتكلّم كبير الحكماء باسمهم جميعاً، فيشرح لمريم أنّهم في ليلة مِن ليالي كانون الأوّل الماضي رأوا نجماً جديداً أضاء في السماء بتألُّق غير عادي. ولم تكن الخرائط السماويّة قد حَمَلَت يوماً هذا النجم في رسوماتها، كما لم تُشِر إليه. ولم يكن اسمه معروفاً، بل لم يكن له اسم مُطلَقاً. لقد خُلِقَ مِن قلب الله، وأزهَرَ ليُعلِن للعالم حقيقة مباركة، سِرّاً مِن الله. ولكنّ الناس لم يكترثوا له لأنّ نفوسهم كانت غارقة في الوحل. لم يَرفَعوا أنظارهم إلى الله ولم يكونوا يعرفون قراءة الكلام الذي يُسطّره: –فليكن مباركاً إلى الأبد– مع نجوم النار على قبّة السماء.

هُم، قد رأوه، وجَهدوا في إدراك صوته، زاهِدين عن طيب خاطر بالقليل مِن النوم الذي يمنحونه لأعضائهم، ناسين الأكل، غارقين في دراسة الأبراج وارتباطات النجوم، الزمن، الفصول وحسابات الأزمنة القديمة؛ والترتيبات النجوميّة هذه بَاحَت لهم باسم وسِرّ النجم، اسمه: «ماسيا». سِرّه: «إنّه هو ماسيا الآتي إلى العالم». وقد قَطَعوا المسافات ليَسجدوا له دون معرفة الواحد منهم

بالآخرين. وبعد أن عَبَروا جبالاً واجتازوا صحارى ووِدياناً وأنهاراً، وسافَروا ليلاً، اتّجهوا صوب فلسطين لأنّ النجم كان يسير بهذا الاتّجاه. ومِن أصقاع ثلاثة مختلفة مِن العالم كان كلّ منهم يسير بهذا الاتّجاه، إلى أن التقوا معاً قُرب البحر الميت. لقد جَمَعَتهم إرادة الله هناك، ومعاً ساروا متفاهِمِين، وعلى الرغم مِن أن كلّاً منهم يتكلّم بلغته الخاصّة، فقد كان يُدرِك ويتمكّن مِن التكلّم بلغات البلاد التي يجتازها بمعجزة مِن الأزليّ.

ذَهَبوا معاً باتّجاه أورشليم، لأنّ ماسيا كان ينبغي أن يكون مَلِك أورشليم، مَلِك اليهود. إلاّ أنّ النجم اختفى في سماء تلك المدينة. لقد أَحَسّوا بقلوبهم تنفَطِر ألماً وكانوا يتفحّصون أعماق ذواتهم لمعرفة ما إذا كانوا فَقَدوا عطف الله واحترامه. ولكن بعد التأكّد مِن سلامة ضمائرهم ونواياهم، ذَهَبوا للقاء الملك هيرودس ليَسألوه عن القصر الذي وُلِد فيه مَلِك اليهود الذي أتوا ليَسجدوا له. والمَلِك، بعد أن جَمَعَ رؤساء الكَهَنة والكَتَبَة، سألهم أين يُمكِن أن يُولَد الماسيا. فأجابوه: «في بيت لحم قضاء يهوذا.»

سَاروا باتّجاه بيت لحم، وعاد النجم يَظهَر لهم بعد أن تجاوَزوا المدينة المقدّسة، وفي المساء السابق كان قد ازداد تألُّقاً. كانت السماء قد أُضيئَت بِنور وَهّاج، ثمّ توقَّف النجم جامِعاً نور باقي النجوم في إشعاعه فوق هذا البيت. فأَدرَكوا أنّه في هذا المكان يوجد المولود الإلهيّ. وها هم الآن يَسجدون له، ويُقدّمون له هداياهم المتواضعة، وفوق كلّ شيء، قلوبهم التي لم تتوقّف عن حمد الله على نِعمته التي وَهَبَهم إيّاها، وعن محبّة ابنه الذي يَرَون فيه الإنسانيّة المقدّسة. ومِن ثمّ سيعودون ليُخبِروا المَلِك هيرودس لأنّه هو أيضاً كان يَرغَب في السجود له.

«إليكِ الذهب الذي يليق بِمَلِك أن يَقتَنيه، هذا هو البخور الذي يليق بإله، وهذا، يا أيّتها الأُمّ هو المُرّ، لأنّ ابنكِ المولود، الذي هو إله وكذلك إنسان، سوف يَعرِف بجسده وحياته كإنسان المرارة وقانون الموت الذي لا يمكن تحاشيه. ونحن، بمحبّتنا، كنّا نودُّ عدم البوح بهذه الكلمات، كما نريد التفكير بأنّ جسده أزليّ مثل روحه. ولكن، أيّتها المرأة، إذا كانت خرائطنا

وخاصّة نفوسنا لم تُخطئ، فإنّه، أي ابنكِ، هو المخلّص، مسيح الله، ولهذا السبب ينبغي له، ليُخَلِّص الأرض، أن يَحمل خطايا العالم التي إحدى عقوباتها الموت. وهذا الراتنج هو لتلك الساعة، لكي لا يعرف جسده تَفَسُّخ الفساد، ويُحافِظ على سلامته حتّى القيامة. ولكي يَذكرنا بهذه الهبات ويخلّص خدّامه بأن يمنحهم ملكوته. وفي الوقت الحاضر، لكي نحصل على التقديس، فلتُقَدِّم الأُمّ ابنها الصغير إلى حُبّنا، وبتقبيلنا قدميه فلتحلّ علينا البَرَكة السماويّة.»

مريم، التي تجاوَزَت الخوف الذي سَبَّبَه كلام الحكماء، وأَخفَت خلف ابتسامة منها حزن الدعوة المأتميّة، تُقَدِّم الطفل، وتضعه بين ذراعي أكبرهم سنّاً الذي يقبّله ويتقبّل مداعباته ثمّ يَدفعه إلى الآخرين.

يبتسم يسوع ويلعب بسلاسل وأهداب الثلاثة. إنّه يَنظُر بفضول إلى صندوق المجوهرات المفتوح والمليء بمادة صفراء برّاقة. ويَضحك لرؤيته الشمس تُشكّل قوس قزح بملامستها ماسة غطاء المُرّ.

ثمّ يُعيد الثلاثة الطفل إلى أُمّه ويَنهَضون، وتَنهَض مريم كذلك. يَأمر أصغر المجوس سنّاً خادمه بالخروج، ويَنحَنون كلّ مِن جهته، ويتكلّم الثلاثة قليلاً. لا يستطيعون اتّخاذ قرار مغادرة هذا البيت. فتَظهَر في عيونهم دموع التأثّر. في النهاية يتوجّهون صوب الباب يُرافِقهم يوسف ومريم.

أراد الطفل النزول وإعطاء يده الصغيرة للأكبر سنّاً بين الثلاثة. ثمّ يمشي ويده في يد أُمّه والأُخرى في يد المجوس الذي ينحني ليُرافقه. خُطى يسوع ما تزال خُطى طفل غير واثقة، ويَضحك بينما يَضرب بقدمه الشريط المضيء الذي تُشَكِّله الشمس على الأرض.

لدى وصولهم إلى العَتَبَة –مع العِلم أنّ الغرفة على مدى طول المنزل– يَأخذ المجوس الثلاثة فرصة أخيرة ويَجثون وهم يُقَبِّلون قدميّ يسوع. ومريم المنحنية على الطفل تأخذ يده الصغيرة

وتقودها في إشارة بَرَكَة على رأس كلّ مِن المجوس. إنّها إشارة صليب خَطَّتها أصابع يسوع الصغيرة التي قادتها مريم.

ثمّ يَهبط الثلاثة السلّم. لقد أصبَحَت القافلة هنا جاهزة وتنتظر. رصيعات لجامات الأحصنة تتلألأ تحت الشمس المائلة للمغيب. وتَجَمَّع الناس في الساحة الصغيرة لرؤية هذا المشهد غير المألوف.

يَضحك يسوع وهو يُصفّق بيديه الصغيرتين. ترفعه أُمّه وهي متّكئة على درابزين الشرفة العريض، وتُمسِكه ويدها على صدره لتقيه مِن السقوط. ويَنزل يوسف مع الثلاثة ويمسك بالرّكاب لكلّ منهم، بينما يمتطون الحصان أو الجَمَل.

أصبَحَ الآن الجميع، خدّام ومعلّمون، جاهزين على مطاياهم. تُعطَى إشارة الانطلاق، وينحني الثلاثة حتّى يُلامِسوا أعناق مطاياهم في تحية مُبالَغ فيها، وينحني يوسف، ومريم كذلك وهي تأخذ بقيادة يد يسوع في حركة وداع وبَرَكَة.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

57- (تأمُّلات في إيمان المجوس)

28 / 02 / 1944

يقول يسوع:

«والآن؟ ماذا أقول لكِ الآن أيّتها النفوس التي تشعر بأنّ إيمانها يموت؟

لم يكن لدى حكماء الشرق هؤلاء ما يؤكّد لهم الحقيقة. لا شيء فائق الطبيعة، لم يكن لهم سوى حساباتهم الفلكيّة وعَمَلهم الفكريّ التأمّليّ الذي جَعَلَته حياتهم النزيهة كاملاً. ومع ذلك فقد كان لديهم الإيمان. الإيمان بكلّ شيء. الإيمان بالعِلم، الإيمان بضمائرهم والإيمان بالجّود الإلهيّ. بالعِلم اعتَقَدوا بدلالة النجم الجديد الذي لم يكن ممكناً أن يكون إلّا "ذاك" الذي تنتظره البشريّة منذ قرون: الماسيا. بالضمير حَصَلوا على الإيمان بالصوت ذاته الذي بتلقّيه "الأصوات" السماويّة قال لهم: "إنّما هي النجمة التي تحدّد مجيء الماسيا". وبصلاحهم كان لهم الإيمان بأنّ الله لم يخدعهم، وبما أنّ نواياهم كانت سليمة، فقد ساعَدَهم الله بكلّ الوسائل لبلوغ هدفهم.

ولقد نجحوا، هُم وحدهم مِن بين عدد كبير مِن الناس الذين يدرسون الدلالات، لقد فَهِموا هذه الإشارة، لأنّهم وحدهم الذين كانت في نفوسهم الرغبة المتلهّفة لمعرفة كلمات الله بِنِيَّة مستقيمة، حيث كانوا يفكّرون في أعماقهم أن يُقَدِّموا لله دون تأخير كلّ تسبيح وتمجيد وإكرام.

لم يكونوا يفتّشون عن منفعة شخصيّة. وأكثر مِن ذلك فلقد تحمَّلوا مشقّات السفر ومصاريفه دون أن يَطلبوا أيّ تعويض بشريّ. لقد طَلَبوا فقط أن يذكرهم الله ويخلّصهم في الأبديّة. كما وأنّهم لم يفكّروا بأيّة مكافأة بشريّة في المستقبل، وكذلك حين قرّروا السفر لم يكن لديهم أيّة اهتمامات بشريّة. أمّا أنتم فكنتم سَتُبدون ألف عذر: كيف العمل لأقوم برحلة طويلة كهذه في

بلدان وبين شعوب بلغات مختلفة؟ هل يُصدّقونني أم يَسجنونني كجاسوس؟ ماذا سيُقَدَّم لي مِن عون لاجتياز الصحارى والأنهار والجبال؟ والحرارة؟ ورياح الهضاب العالية؟ والحرارة التي تهيمن على مناطق المستنقعات؟ والأنهار الفائضة بسبب الأمطار؟ والغِذاء المختلف؟ واللغات المختلفة؟ و... و... و... " وهكذا تفكّرون، بينما هم لم يفكّروا بهذه الطريقة. لقد قالوا بجُرأة صادِقة مقدّسة: "أنتَ أيّها الإله، تقرأ ما في قلوبنا وترى إلى أيّة نهاية نسير. نضع أنفسنا بين يديكَ. امنَحنا الفرح فائق البشر بسجودنا لأقنومكَ الثاني المتجسّد لمجد العالم".

كان هذا كافياً. وغذّوا السير مِن الأصقاع البعيدة. سَلاسل جبال منغوليّة لا يحلّق فوقها سوى النسور والعُقبان حيث كلَّمَهم الله بجَلَبة الرياح والعواصف، وكَتَبَ كلمات سريّة على صفحات الثلج التي لا نهاية لها. مِن الأراضي التي يُولَد فيها النيل ويجري، وَريد الربوع السماويّة إلى قلب البحر الأبيض المتوسّط اللازورديّ. فما استطاعت قمم ولا غابات ولا رمال محيطات جافة، وهي أكثر خطورة مِن المحيطات المائيّة، الوقوف في وجه مسيرتهم. والنجمة تَلمَع في لياليهم، مانعة عنهم النوم. عندما يبحث أحدنا عن الله فينبغي للعادات الحيوانيّة أن تتخلّى عن ضِيق الصدر والمَطالب الفائقة البشر.

قادهم النجم مِن الشمال، مِن الشرق ومِن الجنوب، وبمعجزة إلهيّة تقدَّمَ أمام الثلاثة ليَصِل بهم إلى النقطة ذاتها. وكذلك بمعجزة أخرى يجمعهم بعد مسيرات طويلة في نفس المكان. وبمعجزة أخرى أيضاً يمنحهم نعمة الفهم والإفهام كما في الفردوس حيث اللغة واحدة: لغة الله. سابِقِين بذلك حكمة العنصرة.

لقد اجتاحَتهم لحظة خوف واحدة عندما غاب النجم. عندئذ، متواضِعِين لأنّهم حقيقة عُظَماء، لم يُفكّروا أنّ ما جرى كان بسبب شرور الناس، وأنّ سكّان أورشليم الفاسدين لا يستحقّون رؤية النجم. بل لقد فكّروا بأنّهم هم أنفسهم فَقَدوا عطف الله واحترامه، وقد تفحَّصوا ذواتهم مرتجِفين ونادمين وهم مستعدّون لطلب الغفران.

ولكنّ ضمائرهم طَمأَنَتهم. فنفوسهم التي تعوَّدَت التأمّل، وضمائرهم حسّاسة جدّاً. ولقد صَفَت بالانتباه المتواصِل، بتأمّل باطني مُرَكَّز جَعَلَ مِن باطنهم مِرآة تعكس أدقّ آثار الأحداث اليوميّة. لقد جَعَلوا منها معلِّمة، صوتاً يُنَبِّه ويُسمِع صوته، لا أقول لأقلّ الهفوات، إنّما لمجرّد نظرة بسيطة صوب الانحراف أو الخطأ بحقّ ما هو إنسانيّ، بما يخصّ مجاراة الأنا. وكذلك حين يَقِفون في مواجهة هذه المعلّمة، هذه المِرآة الجادّة الواضحة، فإنّهم يعرفون أنّها لا تكذب، فهي تُطمئِنهم الآن ويستعيدون شجاعتهم.

"آه! ما أعذب معرفة أنّ لا شيء فينا مخالف لإرادة الله! والعِلم بأنّه يَنظر بعطف إلى نفس الابن البارّ ويباركها. مِن هذا الشعور يأتي نموّ الإيمان والثقة والرجاء، وقُدرة النَّفْس والصبر. في هذه الأثناء هي العاصفة. ولكنّها ستمضي لأنّ الله يحبّني ويعرف أنّني أحبّه ولن يبخل بمدّ يد العون لي مرّة أخرى". هكذا يتكلّم الذين يمتلكون السلام، السلام المتأتّي مِن ضمير مستقيم يوجِّه بسلطان مطلَق كلّ حركة مِن تصرّفاتهم. لقد قلتُ إنّهم كانوا "متواضعين لأنّهم في الحقيقة عظماء". أمّا في حياتكم فعلى العكس؛ ماذا يحدث؟ تَجِد أحدهم، ليس لأنّه عظيم، بل لأنّه عنيف ويَستمدّ قُدرته مِن تَضافُر تأثيره مع عبادتكم الغبيّة للأصنام، تراه لذلك ليس متواضعاً على الإطلاق. كذلك تَجِد مِن البؤساء المساكين مَن، بفعل كونه كبير خدّام شخصيّة لها وزنها، أو حاجب مكتب شخصيّة ما، أو موظفاً في دائرة حكوميّة، أو أحد أتباع مَن يوفّر له مكانة معينة، يتّخذ وضعيّة نصف آلهة، وأمثاله يَبعَثون على الشفقة!...

هُم، الحكماء الثلاثة، كانوا فعلاً عظماء. بفضيلتهم فائقة الطبيعة في المقام الأوّل، وثمّ بضميرهم، وأخيراً بثرائهم. إلاّ أنّهم يَعتَبِرون أنفسهم لاشيء: غباراً على غبار الأرض بالنسبة لله تعالى الذي يَخلق العوالم بابتسامة ويَنثرها مثل الحبوب مع أطواق مِن النجوم، ليُشبع بها نَظَر الملائكة.

ولكن إذا كانوا يعتَبِرون أنفسهم لا شيء تجاه الله تعالى الذي خَلَقَ الكوكب الذي يعيشون عليه، وقد مَنَحَه تنوّعاً غير عاديّ بترتيبه، وهو النحّات اللامتناهي في العَظَمَة للأعمال التي بلا حدود، فهنا، بلمسة إصبع مَنَحَه إكليلاً مِن هضاب ناعمة، وهناك هيكل قباب وقمم تبدو مثل فقرات العمود الفقريّ للأرض، وهذا الجسم الذي بغير قياس، والذي يمتلك الأنهار كأوردة والبحيرات كأحواض والمحيطات كقلب والغابات كثَوب والغيوم كوِشاح، والمجمّدات المتبلوِرة كزينة، والزمرّد والفيروز وعين الهرّ والحومة **(زمرد مصري)** مِن كلّ شكل كأحجار كريمة، وجميعها مثل جوقة كبيرة ترتّل مع الغابات والرياح التسابيح لربّها.

ولكنّهم، بكلّ حكمتهم، يَشعرون بأنفسهم مثل العَدَم أمام حضور الله الذي منه تأتيهم الحكمة، والذي مَنَحَهم نَظَراً أكثر نفوذاً مِن عيونهم ليَروا الحقائق: عيون النَّفْس التي تعرف القراءة في الأشياء، قراءة الكلمات التي لم تكتبها يد إنسان، إنّما فِكر الله هو الذي نَقَشَها.

ولكنّهم يَعون تلاشيهم كمالِكي الكنوز: فهي ذرات إذا ما قورِنَت بكنوز مالِك الكون الذي يَنشر المعادن والأحجار الكريمة في النجوم والكواكب، وثروات لا تنفذ في قلوب الذين يحبّونه.

ولدى وصولهم أمام منزل متواضع في أكثر مدن يهوذا وضاعةً، لم يهزّوا رؤوسهم قائلين: "غير معقول". ولكنّهم يَحنون ظهورهم، يجثون، ويتواضعون، خاصّة في قلوبهم، ويَسجدون. فهنا، خلف هذا الجدار الوضيع يتواجد الله. هذا الإله الذي تَضَرَّعوا إليه دائماً وهم لا يَجسرون مطلقاً على التأمّل في أن يَحصَلوا، ولو مِن بعيد، على إمكانيّة رؤيته، ولكنّهم يَبتَهِلون إليه مِن أجل خير الجنس البشريّ، و"خيرهم" الأبديّ. آه إنّهم كانوا يتمنّون فقط إمكانيّة رؤيته ومعرفته وأن يكون في حياتهم حيث لا يعود فجر ولا غَسَق.

إنّه هنا، خلف هذا الجدار الوضيع. بدون شكّ، إنّ قلبه الطفوليّ الذي هو مع ذلك قلب الله، يحسّ بخفقات قلوب هؤلاء الثلاثة الذين يَصرخون جاثين على غبار الطريق: "قدّوس، قدّوس،

قدّوس، مبارك الربّ إلهنا، المجد له في أعالي السموات، والسلام لخدّامه. المجد، المجد، المجد والبركة." هذا ما كانوا يطلبونه بقلب يرتعش بالحبّ. وأثناء الليل والصباح الذي تلاه، يتهيّئون بالصلاة الأكثر حرارة للاتّصال بالإله الطفل. ولم يَذهَبوا إلى هذا الهيكل الذي هو صدر العذراء الذي يحمل القربان الإلهيّ كما تذهبون أنتم إليه ونفوسكم مُفعَمة بالاهتمامات البشريّة.

إنّهم يَنسون النوم والطعام، وإذا ما ارتدوا أجمل الثياب، فهذا ليس على سبيل الغرور الإنسانيّ، إنّما لتبجيل مَلِك الملوك. ففي بلاط الملوك يَدخُل الوُجَهاء مرتدين أفخر الثياب، إذن لماذا لا يذهبون هم أيضاً لرؤية هذا المَلِك بثياب العيد؟ وأيّ عيد بالنسبة إليهم أهمّ مِن هذا العيد؟

آه! في بلادهم البعيدة جدّاً جدّاً كان ينبغي أن يتبرّجوا للناس المساوين لهم ليُعايدوهم ويُكرّموهم. فمِن العدل إذن أن يَرموا عند أقدام المَلِك الأعظم البرفير والجواهر، الحرائر والريش الثمين، أن يضعوا عند قدميه الصغيرتين العذبتين نُسُج الأرض وجواهرها وريشها ومعادنها -كلّ ما صَنَعَه هو- حتّى تَسجد أشياء الأرض هذه، هي أيضاً، لخالقها. وسوف يكونون سعداء لو طَلَبَ منهم هذا الطفل أن يتمدّدوا على الأرض ليكونوا سجّادة حيّة لخطواته الطفوليّة وأن يسير فوقها، وهو الذي تَرَكَ النجوم مِن أجلهم، غباراً، غباراً، غباراً.

إنّهم مُتواضِعون وكرماء، مُطيعون "لأصواته" تعالى، التي أَمَرَت أن تُحمَل الهدايا للملك المولود حديثاً، فَحَمَلوا بأنفسهم هذه الهدايا. لم يقولوا: "إنّه غنيّ ولا حاجة به إليها. إنّه إله ولا يعرف الموت". لقد أطاعوا. وكانوا هُم أوّل مَن يُغيثون فَقر المخلّص. كم سيكون هذا الذهب مفيداً للذين سيكونون في الغد فارّين! وكم سيكون المُرّ ذا مغزى كبير لمن سيُحكم عليه قريباً بالموت! وكم سيكون هذا البخور درءاً له مِن نتانة فسق الناس التي تَحتَدِم حول طهارته اللامتناهية ويتنشّقها.

إنّهم مُتواضِعون، كُرَماء، مُطيعون ومحترمون الواحد مِن الآخر: فالفضائل تَلِد دائماً فضائل أخرى. بعد تلك التي تتوجّه إلى الله تأتي التي تتوجّه إلى القريب. إنّه الاحترام الذي يُصبِح محبّة. لقد أُسنِد الكلام باسم الجميع إلى أكبرهم سنّاً، فيتقبّل كذلك هو أوّلاً قبلة الربّ ويقوده مِن يده. ذلك أنّ باستطاعة الآخرين أن يَرَوه فيما بعد، أمّا هو فإنّه مُسنّ. لا بل إنّ اليوم الذي يعود فيه إلى الله قريب جدّاً. وسوف يرى المسيح بعد موته المُفجِع وسيتبعه ضمن عِداد المخلَّصين، عندما يعود إلى السماء. ولكنّه لن يراه ثانية على هذه الأرض، لذا، وكزاد لرحلته، تبقى له حرارة اليد الصغيرة التي استسلَمَت ليده المتجعّدة.

لم يكن أحد مِن الآخرين يحسده، بل على العكس، فقد كان احترامهم لذاك المُسنّ يتنامى. لقد استحقّ ذلك أكثر منهم، وعلى مدى فترة زمنيّة طويلة، والإله الطفل يَعلَم ذلك. لم تكن كلمة الآب قد سُمِعَت بعد، ولكنّ حركته كلمة. فلتكن مباركة كلمته المنزهة التي حدّدت الكبير كمفضّل لديه.

ولكن، يا أبنائي، هناك عبرتان أيضاً يمكن استخراجهما مِن هذه الرؤيا.

سلوك يوسف الذي يعرف البقاء في "مكانه"، حاضراً كحارس وحافظ للطهارة والقداسة ولكنّه لا يغتَصِب حقّاً. إنّها مريم، مع يسوعها، التي تتقبّل الهدايا، وإليها يُوجَّه الكلام. يسعد يوسف مِن أجلها ولا يهتمّ لكونه شخصيّة ثانويّة. إنّ يوسف رجل بارّ. **إنّه البارّ**. ويبقى بارّاً على الدوام، حتّى في مثل هذه الساعة. فأبخرة الاحتفال لم تَصعَد إلى دماغه. إنّه يَظلّ مُتواضِعاً ومستقيماً وبارّاً.

سعيد هو بالهدايا. إنّما ليس مِن أجله. ولكنّه يفكّر أنّ بإمكانه، بواسطة هذه الهدايا، توفير حياة أسهل لزوجته وللطفل. ليست لدى يوسف رغبة بالثراء، فهو عامِل، وسيظلّ يَعمَل. إنّما ليوفِّر "لهما"، لحُبَّيه، قليلاً مِن اليُسر والراحة. لا هو ولا المجوس يَعلَمون أنّ هذه الهدايا ستنفع في الهرب وحياة المنفى حيث سيتبدّد هذا الثراء مثل غيوم تُطارِدها الرياح، وكذلك في العودة إلى

الوطن. إذاً فَهُم سيفقدون كلّ شيء. العملاء والأثاث، لن يَجِدوا سوى جدران بيتهم التي حماها الله، إذ في هذا المكان قد اتَّحَدَ بالعذراء واتَّخَذَ لنفسه جسداً.

إنّ يوسف مُتواضِع، فحتى مع كونه حارس لله ولتلك التي هي أُمّ الله وعروسته تعالى، فقد أمَسَكَ بالرِّكاب لأتباع الله هؤلاء. إنّه نجّار فقير لأنّ قسوة العالم قد بَدَّدَت إرث داود مِن ممتلكاتهم المَلَكيّة. ولكنّه يبقى مِن أصل ملوكي، وله طِباع الملوك. فمِن أجله أيضاً قيل: "إنّه مُتواضِع لأنّه في الحقيقة عظيم".

آخِر عِبرة، وهي عذبة ومُعَبِّرة.

إنّها مريم التي تأخذ بيد يسوع الذي لم يكن يعرف بعد أن يبارك، وتقودها في الحركة المقدّسة.

دائماً هي مريم التي تأخذ بيد يسوع وتقودها، حتّى الآن كذلك. الآن يَعرف يسوع أن يبارك، إنّما أحياناً تَسقُط يده المختَرَقَة تَعِبَة ومُثبَطَة عزائمها، لأنّ البركة لا تفيد. إنّكم تَنقضون بركتي. وتعود لتَسقُط كذلك لعدم استحقاقكم لأنّكم تلعنونني. حينئذ تحتوي مريم هذا السُّخط وهي تُقَبِّل هذه اليد. آه! يا لقُبلة أُمّي! مَن يستطيع مقاومة هذه القُبلة؟ ثمّ تأخذ أصابعها الناعمة قبضتي بحبّ آمِر وتُرغِمني على أن أُبارِك. فأنا لا أستطيع أن أردّ أُمّي، إنّما يجب العبور مِن خلالها لتجعلوها المحامية عنكم.

إنّها مَلِكَتي قبل أن تكون مَلِكَتكم، وحبّها لكم يمتلك مِن الغفرانات ما لا يعرفه حبّي نفسه. وهي، بدون كلام، بلآلئ دموعها ودعوة صليبي الذي جَعَلَتني أرسم إشارته في الهواء، تُرافِع عنكم وتَحثني: "أنتَ المخلِّص، فخلِّص!"

هذا هو، يا أبنائي "إنجيل الإيمان" في رؤيا مشهد المجوس. تأمّلوا واقتدوا مِن أجل خيركم.

الجمعة 3 آذار (مارس) 1944

يقول يسوع:

«اكتبي هذا فقط. منذ أيّام كنتِ تقولين إنّكِ تموتين دون رؤية إشباع رغبتكِ بزيارة الأماكن المقدّسة تتحقّق. إنّكِ تَرَينَها، وكما كانت حين قدَّستُها بوجودي. أمّا الآن، وبعد عشرين قرناً مِن الانتهاكات، بحقد أو بحبّ، فلم تعد أبداً كما كانت. إذاً، فأنتِ في الوقت الحاضر تَرَينها، بينما الذي يذهب إلى فلسطين لا يراها. لا تَحزَني.

أمر آخر: تشتكين مِن أن الكُتُب التي تتحدّث عنّي، بعضها يبدو لكِ بلا طعم أبداً، الآن، بينما كنتِ في السابق تحبّينها كثيراً. وهذا أيضاً يأتي مِن الظروف التي وَجَدتِ نفسكِ فيها. فكيف تريدين أن تَظهَر لكِ الأعمال الإنسانيّة أكثر كمالاً، بينما أنا أهتمّ في إظهار حقيقة الوقائع لكِ أنتِ؟ هذا الانطباع يمكن أن يَحدُث حتّى مع الترجمات الجيّدة. إنّها تُشوّه دائماً قوّة الجملة الأصليّة. الوصف البشريّ للأمكنة كما للوقائع هو "ترجمة"، ولأجل ذلك، هو دائماً ناقص، غير دقيق، ليس في الكلام والوقائع وحسب، بل إنّما في المشاعر كذلك. خاصّة وأنّ العقلانيّة قد خَرَّبَت الحياة التي يُعَبَّر عنها فيها. كذلك عندما أَهِب أحداً أن يرى ويعرف، فإنّ كلّ وصف آخر يبدو بارداً، مُقصّراً، غير مرضيّ، ومنفِّر.

ثالثاً: إنّه يوم الجمعة، أريد أن تعيشي آلامي مِن جديد. أريد ذلك منكِ اليوم، أن تعيشيها مِن جديد في نفسكِ وجسدكِ. هذا يكفي. تحمّلي الآلام بسلام وحبّ. أباركِكِ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

58– (الهــروب إلــى مصــر)

09 / 05 / 1944

أرى بالروح المشهد التالي:

الوقت ليل. ويوسف يغفو على وسادته في غرفته الصغيرة نائماً نوماً هادئاً، نوم مَن يرتاح بعد عمل كثير أنجَزَهُ بشرف وعناية.

أراه في عتمة الغرفة التي يتخلّلها خيط نور قمريّ يَلِج مِن فتحة في النافذة غير المغلقة جيّداً، بل هي بالكاد مُنفَرِجة، كما لو كان يوسف يشعر بالدفء في هذا المكان الصغير، أو كما لو كان هو يريد هذا الخيط مِن النور ليستطيع ضبط نفسه مع الفجر فينهض سريعاً. إنّه ينام على جنب ويبتسم في نومه لستُ أدري لأيّة رؤيا أو أيّ حلم. إنّ الابتسامة ما لَبِثَت أن تحوَّلَت إلى جَزَع. يتنهّد عميقاً كما لو كان كابوساً، ثمّ يَهُبُّ مِن النوم قافِزاً.

يَجلس على السرير، يَفرك عينيه ويَنظر حوله. يَنظر إلى النافذة مِن حيث يَدخُل خيط النور. الظلمة دامسة، ولكنّه يتوصّل إلى الثوب الممدّد في أسفل السرير، ويرتديه فوق قميص أبيض بأكمام قصيرة كان يلبسه وهو ما يزال جالساً على السرير. يكشف الغطاء ويُنزِل قدميه إلى الأرض ويبحث عن صندله ويَلبسه ويَربط شريطه. يَنهض ويتوجّه صوب الباب المقابل لسريره، وليس الذي إلى جانبه ويؤدّي إلى الغرفة التي استَقبَلوا فيها المجوس. يقرع بهدوء، بالكاد تك – تك بأطراف أصابعه.

قد يكون أدرَكَ أنّه دُعِيَ إلى الدخول، ذلك أنّه يفتح الباب بحذر ويعيد إغلاقه دون جَلَبَة. وقبل أن يتوجّه إلى الباب يُشعِل مصباح زيت صغيراً بشعلة واحدة ليستنير به. يَدخُل إلى غرفة

أكبر قليلاً مِن غرفته حيث يوجد مرقد منخفض وإلى جانبه مهد، وفيها قنديل مضاء، بحيث تبدو شعلته الصغيرة التي تتراقص في زاوية منها وكأنّها نجمة صغيرة، منيرة، ضعيفة ومُذَهَّبة، تسمح بالرؤية دون إزعاج نوم النائم.

ولكنّ مريم لا تنام. إنّها تجثو إلى جانب المهد بثوبها الناصع وتصلّي، تسهر على يسوع الذي ينام بهدوء. يسوع الذي ما يزال بالعمر الذي رأيتُه به في رؤيا المجوس. إنّه طفل في ما يقارب السنة، جميل ورديّ وأشقر ذو رأس صغير جميل وشعر مُقَصَّب، وهو غارق في الوسادة، ويده المغلقة على عنقه.

يسألها يوسف بصوت منخفض مندهشاً: «ألا تنامين؟ لماذا؟ أوليس يسوع في حالة جيّدة؟»

«آه! لا! إنّه جيّد. أنا أصلّي. ولكنّني سأنام بعد ذلك. لماذا أتيتَ يا يوسف؟» تتكلّم مريم وهي جاثية كما كانت.

يتكلّم يوسف بصوت منخفض جدّاً، لكي لا يُوقِظ الطفل، إنّما بحماس: «يجب أن نرحل مِن هنا، وفوراً. أعِدّي الصندوق والكيس، وضعي فيهما كلّ ما تستطيعين، وسأجهّز الباقي. سأحمل أكثر ما يمكنني حمله... وسنهرب مع الفجر، بل حتّى قبل ذلك. إنّما يجب أن أتحدّث إلى صاحبة المنزل...»

«ولكن لماذا هذا الهروب؟»

«سأشرح لكِ فيما بعد. إنّه مِن أجل يسوع. ملاك قال لي: "خُذ الصبيّ وأُمّه واهرب إلى مصر". فلا تضيعي الوقت. سأجهّز كلّ ما أستطيع.»

لا حاجة للقول لمريم بأن لا تضيع الوقت. فما أن سَمِعَتهُ يتكلّم عن الملاك، عن يسوع وعن الفرار، حتّى أدرَكَت أنّ خطراً يحيق بابنها. فقَفَزَت واقفة ووجهها أكثر شحوباً كالشمع، واضعة يدها على صدرها بقلق. وبَدَأَت تسير بسرعة وخفة، وترتّب الثياب في الصندوق وفي كيس كبير مَدَّته على سريرها الذي لم يُمس. إنّها قلقة ولكنّها لم تفقد دقّة التفكير، إنّها تقوم بكلّ شيء بعَجَلَة إنّما بترتيب. ومِن وقت لآخر، بينما تمرّ قرب المهد تَنظُر إلى الطفل النائم غير عالم بشيء.

وبين الفينة والفينة يُدخِل يوسف رأسه مِن الباب المنفَرج قليلاً ليسألها: «هل أنتِ في حاجة إلى مساعدة؟»

وتجيبه مريم دائماً: «لا، شكراً.»

فقط عندما امتلأ الكيس وأصبَحَ ثقيلاً، نادت يوسف ليساعدها في إغلاقه ورفعه عن السرير. ولكنّ يوسف لا يريد أن يساعده أحد، ويتصرّف منفرداً بحمله الصرّة الطويلة وأخذها إلى غرفته.

تسأله مريم: «هل عليّ أخذ الأغطية الصوفيّة؟»

«خذي كلّ ما يمكن أخذه، لأنّ الباقي سنخسره. إنّما خذي كلّ ما تستطيعين. سوف ينفع لأنّ... لأنّنا سوف نضطرّ إلى البقاء بعيداً مدّة طويلة، يا مريم!...»

أثناء قوله هذا يبدو يوسف حزيناً جدّاً، أمّا مريم فيمكننا تصوُّر ما هي عليه. إنّها تطوي، وهي تتنهّد، أغطيتها وأغطية يوسف الذي يربطها بحبل.

«سوف نترك البُسط والحُصر»، قالها وهو يربط الأغطية. «حتّى ولو أخذتُ ثلاثة حمير، فلن أستطيع أن أُحَمّلها كثيراً، لأنّنا سنقطع مسافات طويلة ومُنهِكة، قسماً منها عبر الجبال والقسم الآخر في الصحارى. غطّي يسوع جيّداً لأنّ الليالي ستكون باردة جدّاً في الجبال والصحارى. لقد

أخذتُ معي هدايا المجوس، فستنفعنا هناك. سوف أدفع كلّ ما معي لأشتري الحمارين. لن نتمكّن مِن إرسال الثمن مِن هناك، لذا فسأدفع نقداً. سأذهب قبل الفجر. أَعلَم أين أجدهما. أمّا أنتِ فأنهي تجهيز كلّ شيء.» ويَخرُج.

تُلملِم مريم أشياء أخرى، وبعد أن تَنظُر إلى يسوع، تَخرُج وتعود وبيدها ثياب صغيرة تبدو أنّها ما تزال رطبة، قد تكون غَسَلَتها في الليل، تطويها وتلفّها ضمن قطعة قماش وتضعها مع الباقي. لا شيء بعد. تلتفت فترى في إحدى الزوايا لعبة صغيرة ليسوع: نعجة صغيرة منحوتة مِن الخشب. تلتقطها مريم وهي تبكي وتُقَبِّلها. فالخشب يحمل آثار أسنان يسوع الصغيرة، والأذنان عليهما آثار عض كثيرة، تُداعِب مريم هذه اللعبة المنحوتة مِن الخشب الأبيض والتي لا قيمة ماديّة لها، ولكن قيمتها بالنسبة لها كبيرة جدّاً، ذلك أنّها تروي قصّة عطف يوسف على يسوع وتحكي لها عن الطفل، فتضمّها إلى بقيّة الأغراض في الصندوق المُقفَل.

الآن حتماً لم يعد ينقص شيء. فقط يسوع في مهده. تفكّر مريم بأنّه ينبغي إعداد الطفل جيّداً. تذهب إلى المهد وتحرّكه قليلاً لإيقاظ الصغير. ولكنّه يئنّ للحظة ثمّ يدور ويتابع نومه، تُداعِب مريم بلطف خصلات شعره، يفتح يسوع فمه ليتثاءب. تنحني مريم وتقبّل خده. يستيقظ يسوع، يفتح عينيه. يرى أُمّه ويبتسم، ثمّ يمد يديه إلى صدرها.

«نعم يا حُبّ أُمّكَ. نعم الحليب. قبل الموعد المعتاد... ولكنّكَ جاهز دوماً لترضع مِن والدتكَ يا حَمَلي المقدّس الصغير!»

يبتسم يسوع ويلهو بتحريك قدميه الصغيرتين خارج الأغطية، وخافقاً بيديه بنوع مِن الفرح الطفوليّ الذي يَخلب النَّظَر. يَسند قدميه على بطن أُمّه ويتقوّس ليسند رأسه على صدرها. ثمّ يعود فيرمي بنفسه إلى الخلف ويضحك ممسكاً بالحبال التي تُقفِل ثوب مريم في محاولة لفتحها. إنّه يبدو جميلاً جدّاً بقميصه الكتّاني، ربيلاً ورديّاً مثل زهرة.

تنحني مريم، وبينما هي هكذا مِن وراء المهد لرعايته، تبكي وتضحك في الوقت ذاته، في حين يُناغي الطفل بكلمات ليست كالكلمات، كلمات كلّ الأطفال، حيث نُميّز بوضوح فقط كلمة "ماما". ويَنظُر إليها مندهشاً لرؤيتها تبكي. يمدّ يده إلى الدموع المتلألئة، التي تجوب خدي مريم وتُبلّلهما، وهو يُداعِبها، ثمّ، وبسلوكه العذب هذا، يعود ليستند على صدر أُمّه مشدوداً إليه وهو يُداعِبه بيده الصغيرة.

تُقبِّل مريم شعره، وتأخذه وتَجلس لِتُلبِسه. ها هو قد لبس الثوب الصوفيّ الصغير وصندلاً صغيراً في قدميه. تُقدِّم له ثديها فيرضع يسوع حليب أُمّه بشهيّة، وعندما يبدو له أن اليمينيّ لم يعد يُدرّ إلّا القليل مِن الحليب، يَنتَقِل إلى اليساريّ ويبتسم، وبعد أن يفعل ذلك يَنظُر إلى والدته. ثمّ ينام ورأسه على صدر مريم، وخدّه الورديّ المدوّر على ثدي أُمّه.

تَنهَض مريم مِن جديد بهدوء وتضعه على مفرش سريرها. تغطّيه بمعطفها. تذهب إلى المهد وتطوي الأغطية الصغيرة، وتتساءل ما إذا كان ينبغي لها أن تأخذ الفِراش الصغير. إنّه صغير جدّاً! بإمكانها أخذه. وتضعه مع الوسادة قرب الأمتعة التي هي الآن على الصندوق. وتبكي فوق المهد الفارغ. مسكينة هي هذه الأُمّ المضطَهَدة بابنها!

يعود يوسف: «هل أنتِ جاهزة؟ ويسوع كذلك؟ هل أخذتِ أغطيته ومرقده الصغير؟ إنّنا لا نستطيع حمل المهد، إنّما فليكن له فراشه على الأقلّ، هذا الصغير المسكين الذي يَسعون إلى قتله.»

تَصرخ مريم: «يوسف!» بينما تتعلّق بذراعه.

«نعم يا مريم، إلى قتله! هيرودس يريد قتله... لأنّه خائف منه... مِن أجل سلطانه المَلَكيّ يخاف هذا الوحشُ الدّنِس مِن هذا البريء. لستُ أدري ماذا سيفعل عندما يَعلَم أنّه هَرَب. ولكن حينئذ سوف نكون بعيدين. لستُ أظنُّ أن انتقامه أثناء البحث سوف يمتدّ إلى الجليل. إنّه مِن

الصعب جداً اكتشاف كوننا جليليّين، وأصعب مِن ذلك أنّنا مِن الناصرة، ومَن نحن بالتحديد. إلّا إذا ساعَدَه الشيطان ليشكره على كونه خادمه الأمين. إنّما... إذا ما حصل هذا... فسيساعدنا الله مِن جهته. لا تبكي يا مريم. أن أراكِ تبكين يُعذّبني أكثر مِن وجوب الرحيل إلى المنفى بكثير.»

«سامحني يا يوسف! لستُ أبكي مِن أجلي ولا مِن أجل الممتلكات القليلة التي أفقدها. بل مِن أجلكَ... لقد اضطررتَ حتّى الآن أن تضحّي كثيراً! والآن ستجد نفسكَ دون عمل، دون بيت! كم أُسبّب لكَ مِن المتاعب يا يوسف!»

«كَم؟ لا يا مريم. أنتِ لا تُسبّبين لي شيئاً أبداً. بل إنّكِ تعزّينني دائماً. لا تفكّري بالغد. إنّنا نملك كنوز المجوس. سوف يساعدوننا في البداية. ثمّ سأجد عملاً. فالعامل الشريف والقدير يُدبّر شؤونه حالاً. رأيتِ هنا. لم أكن أجد الوقت الكافي لإنجاز الأعمال كلّها.»

«أَعرف، ولكن مَن يشفيكَ مِن حنينكَ إلى الوطن؟»

«وأنتِ مَن يشفيكِ مِن حنينكِ إلى منزلكِ الغالي جدّاً على قلبكِ؟»

«إنه يسوع. فبامتلاكه يكون لي ما كنتُ أملكه هناك.»

«وأنا كذلك، بامتلاكي يسوع، فإنّي أمتلك بلدتي التي كنتُ أتمنّى العودة إليها منذ أشهر. إنّني أمتلك إلهي. أترين، إنّني لم أفقد شيئاً ممّا هو غال على قلبي فوق كلّ شيء. وحتّى ولو اضطررنا إلى عدم رؤية هذه السماء وهذه الحقول، وتلك الأغلى، حقول الجليل، فسيكون لنا كلّ شيء، لأنّنا نمتلكه، هو. تعالي يا مريم، فالفجر بدأ يَبزغ، وقد حان الوقت للسلام على المُضيفة وتحميل أمتعتنا. سيسير كلّ شيء بشكل جيّد.»

تَنهَض مريم مُطيعة، وتتدثّر بمعطفها، بينما يُجهّز يوسف الصرّة الأخيرة ويَحملها وهو يَخرُج.

ترفع مريم الطفل بلطف. وتَلفّه بوشاح وتضمّه إلى قلبها. تَنظُر إلى الجدران التي آوتهم شهوراً وتتلمّسها بيدها. مغبوط المنزل الذي استحقَّ أن تحبّه مريم وتُباركه!

تَخرُج، تَعبُر الغرفة الصغيرة التي كانت ليوسف، وتَدخُل إلى الغرفة الأخرى. تُقَبِّلها صاحبة المنزل وتُسَلِّم عليها وقد انهَمَرَت دموعها. وتَرفَع طرف الوشاح وتُقَبِّل الطفل النائم بهدوء مِن جبهته. ويَهبطون السلّم الخارجي الصغير.

كانت الخيوط الأولى لنور الفجر تسمح فقط بتمييز الأشياء. وفي شِبه العتمة هذه تُرى المطايا الثلاث. على الأقوى منها تُحَمَّل الأمتعة، وعلى الأُخرَيَين سرجان. يهتم يوسف بترتيب الصندوق والصرر بشكل جيّد على بردعة الحمار الأول. أرى عدّة النجارة موضوعة ومربوطة على أعلى الكيس. ومِن جديد وداع ودموع، ثمّ تمتطي مريم الحمار بينما صاحبة المنزل تحمل يسوع قرب عنقها وتُقَبِّله للمرة الأخيرة قبل إعادته إلى أُمّه. ويمتطي يوسف كذلك صهوة حماره بعد أن يربطه بالذي يَحمِل الأمتعة ليتفرّغ للإمساك بلجام حمار مريم.

يبدأ الهروب بينما كانت بيت لحم ما تزال تحلم بمشهد المجوس الخارق، وتنام بسكينة غافلة عما ينتظرها.

هذه كانت نهاية الرؤيا.

—————————— (عودة إلى الفهرس) ——————————

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

59- (كان الألم رفيقنا الأمين، وقد اتَّخَذَ مختلف الأشكال وكلّ الأسماء)

09 / 05 / 1944

يقول يسوع:

«وهكذا أيضاً هذه المجموعة مِن الرؤى. بكلّ سكينة مع الأحبار المتشدّدين، فقد سَبَقَ وأريناكِ مَشاهِد مما سَبَقَت وعاصَرَت وتَلَت مجيئي إلى هذا العالم، ذلك ليس لأجلها هي؛ فهي معروفة بما فيه الكفاية، إنّما بشكل خاصّ لأنّ معالِمها قد تبدَّلَت بما طَرَأَ عليها مِن إضافات عبر القرون، ودائماً بسبب هذا الأسلوب البشريّ في رؤية الأمور التي، لكي يتمّ تمجيد الله بشكل أفضل، تَجعَل غير حقيقيّ ما كان أجمل لو تُرِك على حقيقته -لأجل هذا كان ذاك مغفوراً- ذلك أنّ إنسانيّتي وإنسانيّة مريم لا تكون منقوصة، وكذلك ألوهتي وعَظَمَة الآب وحبّ الثالوث الأقدس، بهذه الطريقة في رؤية الأمور على حقيقتها، إنّما على العكس، فاستحقاقات والدتي وتَواضُعي الكامل تتألّق، وكذلك صلاح الربّ الأزليّ الكلّيّ القُدرة. وإنّما أريناكِ هذه المشاهد لإمكانيّة تطبيق المعنى الفائق الطبيعة الذي يَنبَعِث منها عليكِ وعلى الآخرين، ومَنحكِ هذا كقاعدة حياة.

الوصايا العشر هي الشريعة، وإنجيلي هو العقيدة التي تجعل تلك الشريعة أكثر وضوحاً وأكثر تحبُّباً لاتِّباعها. فهذه الشريعة وهذه العقيدة كافيتان لتجعلا مِن الناس قدّيسين.

إنّكم متورّطون جدّاً بإنسانيّتكم التي تُسيطِر عليكم بشكل مُبالَغ فيه، والتي تسيطر أيضاً على روحكم بحيث لا تستطيعون اتّباع طُرُقه التي يُعيّنها لكم، وتَقَعون، أو بالأحرى تتوقّفون مُثبَطة عزائمكم. تقولون لأنفسكم وللذين يريدونكم أن ترتقوا برواية أمثال الإنجيل: "ولكنّ يسوع، ولكن مريم، إنّما يوسف (وهكذا لكلّ القدّيسين) لم يكونوا مثلنا، لقد كانوا أقوياء. لقد تعزّوا مباشرة في

آلامهم، وحتّى في هذا القليل مِن الألم الذي تحمَّلونَه لم يكونوا يُحِسّون بالأهواء، لقد كانوا آنئذ كائنات غريبة عن الأرض".

هذا القليل مِن الألم! في مأمن مِن الأهواء!

الألم، بالنسبة لنا، كان الصديق الوفيّ، ولقد اتَّخَذَ كلّ الأسماء وجميع الأشكال على اختلاف أنواعها. "الأهواء"، لا تَستَخدِموا كلمات غير مُلائِمة في تسمية الرذائل التي تُضلّلكم "بأهواء". بل سَمّوها، وبصراحة، "رذائل"، وعلاوة على ذلك، رئيسيّة.

وهذه أيضاً، لا يمكن اعتبار أنّنا كنّا نجهلها. فلقد كانت لنا عيون وآذان لنرى ونَسمَع، وكان الشيطان يجعل هذه الرذائل تَلمَع أمامنا وحولنا بإظهارها بالفعل بكلّ قذارتها، كما كان أيضاً يجرّبنا بتلميحاته. ولكن بما أنّ الإرادة كانت تَنزَع في النيّة إلى أن نكون مَرضيّين لدى الله، فهذه القذارة وهذه التلميحات، بدلاً مِن أن تُحَقّق هدفها الذي وَضَعَه الشيطان نصب عينيه، فقد أدّت إلى التأثير العكسيّ. وكلّما كان يَجِدّ في مطاردتنا، كنّا نلتجئ إلى نور الله بالنفور مِن الظلمات الموحلة التي كان يُقدّمها لعيون جسدنا وروحنا.

أمّا الأهواء، بالمعنى الفلسفيّ لها، فلم نكن نجهلها فينا. لقد كُنّا نحبّ بل نهوى وطننا، بلدتنا الصغيرة الناصرة، أكثر مِن كلّ مدن فلسطين. لقد اجتاحَتنا مشاعر الحنين إلى منزلنا وأهلنا وأصدقائنا. فلماذا لم يكن ينبغي لنا أن نَختَبرها؟ إلاّ أنّنا لم نجعل مِن أنفسنا عبيداً لها، ذلك أنّ لا شيء يمكنه أن يكون معلّماً لنا غير الله. ولكنّنا جَعَلْنا منها رفاقاً صالحين.

أُمّي صَرَخَت عندما عادت إلى الناصرة، بعد حوالي أربع سنوات، صرخة فرح وهي تَدخُل إلى بيتها، وأَخَذَت تُقَبّل الجدران حيث "النَّعَم" التي قالتها كانت قد فَتَحَت أحشاءها لتستقبِل بذرة الله فيها. ويوسف صافَحَ بفرح أهله وأولاد إخوته المتزايدين عدداً وحجماً؛ ولقد استمتَعَ بملاحظته مواطنيه وقد تذكّروه وقَصَدوه مباشرة لكفاءته. وأنا كنتُ حسّاساً للصداقات، فتألّمتُ

مِن خيانة يهوذا وكأنّها صَلبٌ وجدانيّ. وأكثر مِن ذلك، فلا أُمّي ولا يوسف جَعَلا حبّ البيت يتقدّم على إرادة الله.

وأنا لم أُمسِك الكلمات، عندما كان يتوجّب عليَّ قولها، الكلمات القابلة لأن تَجلب لي حقد اليهود أو عداوة يهوذا. لقد كنتُ أعلَم أنّ الفضّة كانت كافية لربطه فيَّ؛ ليس فيَّ كَفَادي، إنّما كغنيّ. وأنا الذي كَثَّرَ الخبزات، قد كان بإمكاني جعل الفضّة تفيض لو أردتُ -وقد كنتُ فعلاً قادراً على ذلك- إلّا أنّني لم أكن قد جئتُ لأحقّق إشباعات بشريّة لأحد، وخاصّة للذين كنتُ قد دَعَوتُهم. كنتُ أُبَشِّر بالتضحية، بالتجرّد، بحياة العفّة وبالتواضع الأصيل. فأيّ معلّم كنتُ سأكونه، وأي عادل بارّ، لو كنتُ أعطيتُ أحداً فضّة لأتملّق طَمَعه وأحاسيسه باعتبارها الطريقة الوحيدة للتمسّك به؟

في مملكتي يُصبِح المرء "عظيماً" حينما يَجعَل نفسه "صغيراً"، والذي يريد أن يُصبِح "عظيماً" في عيون العالم، فهو غير قادر على التملّك في مملكتي؛ إنّه قشّ لفراش الشياطين. ذلك أنّ العَظَمَة الدنيويّة تُناقِض شريعة الله.

يدعو العالم "عُظماء" أولئك الذين يعرفون أن يَستَحوِذوا لأنفسهم على مراكز جيّدة بوسائل هي غالباً غير مشروعة. ولكي يَصِلوا إلى هذه المراكز يَستَخدِمون القريب سلّماً يدوسونه بأرجلهم ليرتقوا هم. يُسمّي العالم "عُظماء" أولئك الذين يَعرفون أن يَقتُلوا لكي يَملكوا، أن يَقتُلوا معنويّاً أو جسديّاً: الذين يَغتَصِبون المَراكِز أو يجتاحون البلاد ويَغتَنون هم أنفسهم بتجريد الآخرين مِن ثرواتهم الخاصّة أو الجماعيّة. وغالباً ما يَمنَح العالم لقب "عُظماء" لمجرمين. لا. "فالعَظَمَة" لا تنسجم مع الإجرام. إنّها تُقيم في الصّلاح والبرّ، في الشرف وفي الحبّ والاستقامة. انظروا إلى عُظمائكم، أيّة فاكهة مسمومة يُقدِّمون لكم، إنّهم يقطفونها بالفساد الشيطانيّ مِن حديقتهم الداخليّة!

الرؤيا الأخيرة -بما أنّني أريد التحدّث عنها دون التوقّف عن الكلام في أمور أخرى لن يُجدي نفعاً عرضها على عالم لا يريد سماع الحقيقة التي تخصّه- هذه الرؤيا الأخيرة تُوَضِّح نقطة

خاصّة وَرَدَت مرّتين في إنجيل متّى، جملة تكرَّرَت مرّتين: "قُم، خُذ الصبيّ وأُمّه وارحل إلى مصر" (2 / 13) "قُم، خُذ الصبيّ وأُمّه وارجع إلى أرض إسرائيل" (2 / 20) ورأيتِ أن مريم كانت وحدها في غرفتها مع الطفل.

لقد هاجَمَها كثيراً أولئك الذين، لكونهم وحلاً ونتانة، لا يتقبّلون أن يستطيع مخلوق بشريّ مثلهم أن يكون كَنَفاً ونوراً، بتوليّة مريم بعد الولادة وعفّة يوسف. لقد انحَطّوا بنفسهم المُفسَدَة للغاية، بنفسهم المذلولة للجسد لدرجة أنّهم أصبَحوا عاجزين عن التفكير بأنّ إنساناً يستطيع احترام امرأة بأن يرى فيها الروح لا الجسد، وأن يرتقي لدرجة الحياة في جوّ فائق الطبيعة، راغباً ليس في ما هو جسديّ، بل في ما هو إلهيّ.

إذاً، لهؤلاء المتنكِّرين للجمال الفائق، لهذه الديدان العاجزة عن أن تُصبِح فراشات، لهذه الزواحف المتمرِّغة في لعاب الشهوات، العاجزة عن إدراك جمال الزنبقة، أنا أقول إنّ مريم كانت واستمرَّت عذراء، وإنّ النَّفْس وحدها هي التي اقتَرَنَت بيوسف، كما أنّ روحها فقط هي التي اتَّحَدَت بروح الله، وبِفِعله حَبَلَت بالوحيد الذي حَمَلَت به: أنا، يسوع المسيح، الابن الوحيد لله ولمريم.

هذا ليس تقليداً أزهَرَاً فيما بعد بسبب احترام الطوباويّة التي هي أُمّي إلى حدّ العشق. إنّها حقيقة وقد عُرِفَت منذ الأزمنة الأولى.

لم يُولَد متّى في القرون التالية. بل لقد كان مُعاصِراً لمريم. ومتّى لم يكن جاهلاً مسكيناً، أو مُستَوحِشاً ساذَجاً وقابلاً لتصديق أيّة قصّة. لقد كان مُحَصِّلاً للضرائب (جابياً) كما تُسمّونه الآن، عشّاراً كما كنّا نُسمّيه آنذاك. وكان يَعرِف أن يَنظُر ويَسمَع ويُدرِك ويميّز الحقيقة مِن الباطل. فمتّى لم يَعلَم بالأمور عن طريق قيل عن قال، وإنّما عن طريق أشخاص شَمَلَتهم الأحداث. لقد استقى معلوماته مِن فم مريم حيث حُبّه للمعلّم وللحقيقة دَفَعَه ليطلب المعلومات منها شخصيّاً.

لا أظنّ هؤلاء الناكرين لحصانة مريم يُفكِّرون بأنّها استطاعت الكذب. فأهلي أنفسهم كانوا يستطيعون تكذيبها لو كان لها أبناء آخرون. فيعقوب ويوضاس وسمعان ويوسف كانوا هم أيضاً مُعاصِرين لمتّى. لقد كان مِن السهل على هذا الأخير أن يُقابِل الروايات، لو كانت وُجِدَت عدة روايات. ذلك أنّ متّى لم يقل أبداً: "قُم خُذ امرأتكَ". بل قال: "خُذ الصبيّ وأُمّه". وكان قَبلَها قد قال: "عذراء مخطوبة ليوسف" و "يوسف عروسها".

فلا يأتينّي هؤلاء الناكرون ليقولوا لي إنّها كانت طريقة كلام اليهود كما لو أنّ عِبارة "امرأة" كانت تخلّ بالشرف. لا، أيّها المُتنكِّرون للطهارة. مِن العبارات الأولى للكتاب المقدس نقرأ مرّات كثيرة، وفي فصول مختلفة: "...وعَرَفَ امرأته". ذلك أنّ قبل إتمام الزواج بالدخول تُسمّى "مخطوبة" (Compagne) وفيما بعد "زوجة (امرأة)" (Femme). وقد كان هكذا بالنسبة لزوجات أبناء آدم. كذلك لسارة المسمّاة "زوجة ابراهيم"، "سارة زوجتكَ" و "خُذ زوجتكَ وابنتيكَ" قيل ذلك للوط. وفي سفر راعوت كُتِب: "المؤابيّة زوجة محلون"، وفي سفر الملوك الأول: "كان لألقانة امرأتان". وأيضاً "وعَرف ألقانة حنّة زوجته". وأيضاً: "فيبارك العالي ألقانة وزوجته". وكذلك في سفر الملوك قيل: "بتشابع زوجة أوريّا الحتّي أصبحَت زوجة داود وأنجَبَت له وَلَداً". وماذا نقرأ في سفر طوبيا، سفر اللازورد الذي ترتّله الكنيسة في أعراسكم لتنصحكم بأن تتقدّسوا في الزواج؟ نقرأ: "إذ حين وَصَلَ طوبيّا برفقة زوجته وابنه". وأيضاً: "نجح طوبيا في الهرب مع زوجته وابنه".

وفي الأناجيل، أي في زمن المسيح حيث بالنتيجة كان يُكتَب باللغة المعاصِرة، المعاصِرة لذاك الوقت، وحيث بالنتيجة لم يكن هناك مجال لاحتمال إمكانيّة الخطأ في الكتابة، فلقد قيل بالتحديد في الفصل الثاني والعشرين مِن إنجيل متّى: "...وتزوَّج الأول ومات ولم يكن له نسل فترك امرأته لأخيه". وفي مرقس، الفصل العاشر: "مَن طَلَّق امرأته". ولوقا يدعو أليصابات "امرأة زكريّا" أربع مرّات متتالية، وفي الفصل الثامن: "حنّة امرأة قوزى".

كما تَرَون، فهذه التسمية لم تكن لفظاً محظوراً على الذين يتّبعون طرق الربّ، أو لفظاً نَجِساً يجب عدم نطقه، وأكثر من ذلك عدم كتابته حيث يكون الموضوع يخصّ الله وأعماله البديعة. والملاك بقوله: "الطفل وأُمّه"، يُبيّن لكم أنّ مريم كانت الأُمّ الحقيقيّة ليسوع دون أن تكون امرأة يوسف. وستبقى أبداً ***عروسة يوسف العذراء.***

هذه هي العِبرة الأخيرة مِن هذه الرؤى. إنها هالة نور تتألّق على رأس مريم ويوسف، العذراء التي لم تُمسّ والرجل العفيف البارّ، الزنبَقَتين اللتين تَرَعرَعتُ بينهما وأنا لا أَسمَع غير الكلام العَطِر والطاهر.

لكِ، يا يوحنّاي الصغير، أستطيع أن أتكلّم عن الألم الذي مَزَّق مريم المُنتَزَعة مِن بيتها ووطنها، ولكنّ ذلك لا يحتاج إلى كلام، تعرفين ماذا يعني ذلك. أعطيني ألمكِ، فأنا لا أريد سوى ذلك. إنّه أعظم مِن أيّ شيء تُعطينيه. اليوم يوم الجمعة، ماريا: فكّري بآلامي وآلام مريم في الجلجلة لتستطيعي حمل صليبكِ. السلام وحبّنا يَبقَيان معكِ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

60- (العائلة المقدَّسة في مصر)

25 / 01 / 1944

الرؤيا العذبة للعائلة المقدَّسَة. إنّها في مصر. لا يمكن الشكّ في ذلك، فأنا أرى الصحراء وأحد الأهرامات.

إنّي أرى بيتاً مُوَشَّحاً بالبَياض، هو عبارة عن طابق أرضيّ فقط، بيتاً مُتواضِعاً لأناس فقراء جدّاً. جدرانه بالكاد مطليّة ومكسوّة بطبقة واحدة مِن الكلس. لهذا المنزل الصغير بابان، الواحد إلى جانب الآخر، إنّهما مَدخَلان لغرفتين وحيدتين لم أَدخُلهما بعد. السَّكن وسط أرض صغيرة رمليّة مُسوَّرة بقصب مغروس في الأرض ليُشكّل دفاعاً واهياً ضدّ اللصوص. إنّه لا يفيد إلّا ضد كلب أو قطّة شاردة. ولكن، بالفعل، مَن ذا الذي يَخطر له على بال أن يسرق مكاناً يبدو جليّاً أنّ لا أثر للغنى فيه؟

على سور القصب عَرَّشَت بعض النباتات المتسلّقة، جاعلة السور أكثر سماكة وأقلّ بؤساً، وتبدو لي أنّها مِن اللبلاب المتواضع. في طرف واحد فقط توجد شجيرة ياسمين مُزهِرة ودَغل مِن الورد مِن النوعيّة الصغيرة. أمّا الأرض فمُعتَنى بها بصبر رغم كونها قاحلة وجافّة ومُتواضِعة، لتُصبِح حديقة صغيرة. أرى خضراوات هزيلة جدّاً في بعض المساكب الصغيرة في الوسط تحت شجرة ضخمة لم أستطع تمييز نوعيّتها، وهي تُظلّل الأرض المحروقة بالشمس، وكذلك المنزل. ولقد رُبِطَت إلى هذه الشجرة عنزة بيضاء وسوداء، وهي تقضم وتجترّ أوراق بعض الأغصان الملقاة على الأرض.

وهنا على حصيرة ممدودة على الأرض كان الطفل يسوع. يبدو لي ابن سنتين إلى سنتين ونصف على الأكثر. يلعب بقطع خشبيّة منحوتة تُشبِه النّعاج أو الخيل مع شرائط مِن الخشب الأبيض. وهو يحاول بيديه الربيلتين الصغيرتين وضع هذه الأطواق الخشبية في رِقاب الحيوانات.

إنّه طيّب باسم. إنّه جميل جدّاً. رأس صغير ذو شعر ذهبيّ مُقصَّب بمجمله، عيناه مُتّقدتان لامعتان لازورديّتان غامقتان، مِن الطبيعيّ ألاّ يكون التعبير دقيقاً، ولكنّني أعرف لون عينيّ يسوع: إنّهما قطعتا سفير عاتمتان جميلتان جدّاً. وهو يرتدي قميصاً طويلاً ذا لون أبيض، يستخدمه كجلباب، تَصِل أكمامه حتّى المرفق. هو الآن حافي القدمين، وحذاؤه الصغير على الحصيرة وقد تحوَّلَ بين يديه إلى لعبة، وهو يَقطره بحيواناته التي تجرّه بالسير كما لو كانت عربة صغيرة. إنّه صندل بسيط جدّاً: نعل وسيران (رباطان)، أحدهما مِن الرأس والآخر مِن الكعب. والذي مِن الرأس يتفرّع فيما بعد في مكان ما، فيَدخُل قسم منه في فتحة مِن سير (رباط) العقب ليشتبك مع القسم الآخر مُشكّلاً حَلَقة حول عنق القدم.

على مسافة قريبة منه كانت السيّدة العذراء، وهي كذلك في ظلّ الشجرة، تَنسج على نول ريفيّ وتُراقِب الطفل. أرى يديها الناعمتين البيضاوين تروحان وتجيئان مع رمي المكّوك على اللحمة، والقدم المُحتَذِية بصندل تُحرّك الدوّاسة. إنّها ترتدي جلباباً بنفسجيّاً مائلاً إلى الورديّ مثل لون زهرة الخبّيزة. رأسها عارٍ، وبذلك أستطيع ملاحظة شعرها الأشقر المفروق إلى خصلتين على رأسها ثمّ تجدلان بشكل بسيط وتنزلان بلطف على العنق. أكمام ثوبها طويلة وضيّقة. لا زينة أخرى غير جمالها وتعبير وجهها العذب، لون بشرتها، لون شعرها وعينيها، شكل وجهها، كلّ شيء كما أراه في العادة. وهي تبدو هنا شابّة في العشرين مِن عمرها. بعد قليل تَنهَض وتنحني على الطفل تُلبِسه حذاءه وتربط له السير (الرباط) بعناية. ثمّ تُداعِبه وتَطبَع قبلة على رأسه وعينيه. يُتعتِع الطفل بكلام فتُجيبه، ولكنّني لم أفهم الكلام. ثمّ تعود إلى نولها لتمدّ قطعة قماش على السداة واللحمة وتأخذ الكرسي الذي كانت تجلس عليه إلى داخل المنزل. ويتبعها الطفل بِنَظَره دون إزعاجها عندما تتركه وحيداً.

يبدو أنّ العمل قد انتهى لأنّ المساء قد حلّ. بالفعل، فإن الشمس تغيب على الرمال العارية، وكأنّ حريقاً حقيقيّاً يجتاح السماء كلّها خلف الهرم البعيد.

تعود مريم لتأخذ يسوع مِن يده وتُنهِضه مِن على الحصيرة. والطفل يطيع دون مقاومة. وبينما تلملم الأُمّ الألعاب والحصيرة وتُدخِلها إلى البيت، كان هو يركض، يُهروِل بساقيه الصغيرتين باتّجاه العنزة الصغيرة، ويلفّ ذراعيه حول عنقها. تثغو العنزة وتحكّ ثغرها بكتفيّ يسوع.

تعود مريم مرّة أخرى وهي تضع وشاحاً طويلاً على رأسها وتحمل بيديها جرّة. تأخذ يسوع بيده ويتوجّهان معاً صوب الواجهة الأخرى للمنزل وهما يَدوران حوله.

أَتبَعهُما وأنا أَنظُر بإعجاب إلى هذه اللوحة. السيدة العذراء التي تضبط خطواتها على خطوات الطفل، والطفل الذي يُهروِل إلى جانبها. فأرى الأعقاب الورديّة التي تصعد وتهبط على رمال الدرب، مع الظُّرف الخاصّ بمسيرة الأطفال. أشير هنا إلى أن الجلباب لا يصل إلى القدمين، ولكنّه يصل فقط إلى منتصف بطّة الساق. إنّه شديد النظافة، بسيط جدّاً، محصور عند الخصر بحبل أبيض.

أرى السياج في واجهة البيت الأماميّة مقطوعاً بحاجز ريفي مُشَبَّك. تفتحه مريم وتَخرج إلى الشارع. إنّه شارع فقير في طرف مدينة أو بلدة تتّصل بالريف. إنّه درب رمليّ فيه منزل صغير فقير آخر مثل هذا مع حديقة صغيرة مُتواضِعة. لا أرى فيه أحداً. تَنظُر مريم إلى جهة المدينة، وليس باتّجاه القرية، كما لو كانت تنتظر أحداً، ثمّ تتّجه صوب بركة أو بئر موجود على مسافة بضعة عشر متراً إلى الأعلى وتُضفي عليه بعض النخلات ظلاً مستديراً. كما أرى الأرض في هذا المكان مُغطّاة بعشب أخضر.

وهنا أرى رجلاً يَصِل عبر الطريق الأماميّة، وهو ليس كبيراً جدّاً ولكنّه قويّ. أتعرّف عليه، إنّه يوسف وهو يبتسم. إنّه أكثر شباباً ممّا رأيتُه عليه في رؤيا الفردوس. يبدو في سنّ لا يتجاوز الأربعين. شَعر اللحية كثيف وأسود، البَشَرة سمراء برونزية والعينان قاتمتان؛ وجه نزيه ورضيّ، وجه يوحي بالثقة؛ لدى رؤيته مريم ويسوع يحثّ الخطى، كان يحمل على كتفه الأيسر مِنشاراً ومِسحجاً،

وفي يده أدوات أخرى مِن أدوات مهنته، تبدو مختلفة عن أدوات هذا العصر إنما ليس كثيراً. يبدو كأنّه عائد مِن عمل لدى شخص ما.

يرتدي ثوباً بلون يتراوح بين لون البندق ولون الكستناء، هو ليس طويلاً جدّاً -يَصِل إلى ما فوق الكاحل بقليل- والأكمام تَصِل إلى المرفق. يتمنطق بحزام جلدي كما يبدو لي. إنّها هيئة عامل حقيقيّ. ويحتذي صندلاً تتقاطع سيوره (أربطته) عند الكاحلين.

تبتسم مريم، ويُطلِق الطفل صرخات فرح ويمدّ يده الحرّة. وعندما يلتقي الثلاثة ينحني يوسف ليقدّم للصبيّ ثمرة تبدو مِن شكلها ولونها أنّها تفّاحة. ثمّ يمدّ ذراعيه. فيترك الصبي أُمّه ويَتَلَملَم بين ذراعي يوسف حانياً رأسه في تجويف كتفه ويأخذ يقبّله ويتلقّى منه القبلات. حركة مفعمة بالعاطفة المُمتِعة.

لقد فاتني القول بأنّ مريم قد أسرَعَت بأخذ الأدوات مِن يوسف لتتركه حرّاً في معانقة الطفل.

ثمّ يعود يوسف، الذي كان قد قَرفَص ليكون على مستوى يسوع، ليَنهَض ويستعيد الأدوات بيده اليسرى، أمّا بذراعه اليمنى فيشدّ يسوع الصغير إلى صدره القوي، ويتوجّه صوب البيت، بينما تمضي مريم إلى النبع لملء الجرة.

لدى دخوله مِن سور البيت، يُنزِل يوسف الطفل إلى الأرض ويُدخِل نول مريم ثمّ يَحلب العنزة. ويسوع يُراقِب هذه العمليّات بانتباه، ويَنظُر إلى يوسف الذي يُدخِل العنزة إلى تحصينة مبنيّة في إحدى زوايا البيت.

يُقبِل الليل، وأرى لون الغَسَق الأحمر الذي يتّخذ صبغة بنفسجيّة فوق الرمال، حيث يبدو الجوّ، بفعل الحرارة، وكأنّه يهتزّ. ويبدو الهرم كذلك أكثر قتامة.

يَلِج يوسف غرفة في البيت، مِن المفروض أن تكون مَشغَلاً ومطبخاً وغرفة طعام معاً. يُعتَقَد أنّ الأخرى قد خُصّصت للاستراحة. ولكنّني لم أدخل إليها. هناك على الأرض موقد مشتعل، ودائماً في هذه الغرفة، توجد طاولة نجارة، وطاولة صغيرة وكراسي صغيرة ورفوف وُضِعَت عليها بعض الأواني وقنديلا زيت. وفي إحدى زواياها نول مريم. إنّها مرتّبة جدّاً جدّاً ونظيفة جدّاً جدّاً. إنّه مَسكَن فقير جدّاً ولكنّه نظيف للغاية.

هذا ما لاحَظتُه: في كلّ الرؤى المتعلّقة بحياة يسوع البشريّة لاحَظتُ أن يسوع، وكذلك مريم ويوسف ويوحنا، يرتدون دائماً ثياباً بحالة جيّدة ونظيفة، شَعرهم معتنى به دون مُبالَغَة، الثياب بسيطة، والتسريحة بسيطة، إنما بصفاء يجعلهم متميّزين.

تعود مريم مع الجرّة. ويُغلَق الباب مع الليل الذي يهبط بسرعة. تُنار الغرفة بقنديل يُشعِله يوسف ويضعه على طاولة النجارة حيث ينحني ليعمل أيضاً أعمالاً بسيطة بينما تهيّئ مريم العشاء. والنار كذلك تضيء الغرفة. ويسوع يُمعِن النَّظَر في ما يعمله يوسف مُسنِداً يديه على الطاولة رافعاً رأسه.

ثمّ يَجلسون إلى الطاولة بعد أن يُصَلّوا. طبعاً هُم لا يرسمون إشارة الصليب، ولكنّهم يُصَلّون. يوسف يُصَلّي ومريم تُجيب. ولكنّي لم أفهم شيئاً. قد يكون مزموراً، إلّا أنّه يُتلى بلغة أجهَلُها تماماً.

ثمّ يَجلسون. القنديل الآن على الطاولة. تأخذ مريم يسوع إلى صدرها وتسقيه حليب العنزة. هي تغمس فيه قطعاً مِن خبز أسود في ظاهره وداخله. قد يكون خبز شيلم أو خبز شعير، ذلك لأنّه خبز أسمر ويُصدِر أصواتاً كثيرة. يأكلّ يوسف الخبز مع الجبن، قليل مِن الجبن مع كثير مِن الخبز. ثمّ تُجلِس مريم يسوع على كرسيّ صغير في مواجهتها، وتجلب خضاراً مطهوّة -يبدو لي أنّها مطهوة بالماء ومُبَهَّرة كما نفعلها نحن عادة- تأكل منها بعد أن يَسكب يوسف. أمّا يسوع فيأكل تفّاحته بهدوء ويبتسم مُظهِراً أسنانه الصغيرة البيضاء. تنتهي الوجبة بزيتون أو بلح: لستُ أُدرِك جيّداً؛ فالزيتون زاه جدّاً، والبلح قاس جدّاً. لا وجود للنبيذ. إنّها وجبة أناس فقراء. إلّا أنّ السلام

الذي يتم تنفّسه في هذه الغرفة عظيم جدّاً. لا يمكن لرؤية مسكن ثريّ لأحد الملوك أن تُحقّق لي متعة كهذه. يا له مِن وِفاق متآلف متناغم!

لم يتكلّم يسوع هذا المساء ولم يَشرَح لي المشهد. إنه يُعلّمني مِن خلال الرؤيا التي يهبنيها، وهذا كلّ شيء. فليكن مباركاً على الدوام وبهذا الشكل.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

61- (في هذا البيت يُراعَى النظام)

26 / 01 / 1944

يقول يسوع:

«الأمور التي تَرَينَها هي درس يُعطى لكِ وللآخرين. درس في التواضع وفي الخضوع وفي الوفاق الكامل، درس مُقترَح لكلّ العائلات المسيحيّة وبشكل خاصّ للعائلات المسيحيّة في هذا الزمن الخاصّ والأليم.

لقد رأيتِ بيتاً متواضعاً فقيراً. والمؤلم في الأمر أنّه منزل فقير في بلد غريب.

كثيرون هُم المؤمنون "المُقبِولون" الذين يُطالِبون بحياة ماديّة سهلة، تَقيهم أدنى المعاناة، حياة مُزدَهِرة وسعيدة، وذلك فقط لأنّهم يُصَلّون ويتقبّلونني في الإفخارستيا، لأنّهم يُصَلّون ويتناولون مِن أجل احتياجاتهم "الخاصّة" وليس مِن أجل احتياجات النفوس المُلِحّة ومجد الله، (بالفعل، إنّه لَمِن النادر جدّاً ألّا نكون أنانيّين في صلواتنا).

يوسف ومريم كانا يمتلكانني أنا، الإله الحقيقيّ، كابن لهما. ومع ذلك لم يكن لهما حتّى حدّ الإشباع المتواضِع لكونهما فقيرَين جدّاً، بينما في وطنهما، في بلدهما، كانا معروفَين، أو على الأقلّ كان لهما بيت صغير "يخصّهما"، ولم يكن لأحد صِلة في مسألة سكنهما؛ في بلدهما كان مِن السهل عليهما تأمين العمل وسُبُل العيش، لأنّهما كانا معروفَين، وبسببي أنا أصبَحا لاجِئَين في مناخ مختلف وفي بلد مختلف، بلد كئيب جدّاً إذا ما قورِن بِقُرى الجليل اللطيفة، وكذلك مع لغة وعادات مختلفة، ووسط أناس لا يعرفونَهما، ولديهم تلك الريبة المعتادة التي لدى الشعوب تجاه اللاجئين والمجهولين.

لقد حُرِموا مِن مفروشات بيتهم الصغير المريحة والعزيزة، مِن كثير كثير مِن الأشياء الصغيرة المتواضعة والضروريّة، التي لم تكن لتبدو كذلك هناك، بينما هنا، مع هذا العَوَز الذي يحيط بهم، تبدو جميلة جدّاً، مثل تلك الكماليّات التي تضفي على البيوت الفارهة عذوبة خاصّة. إنّهما يشعُران بالحنين إلى وطنهما وإلى بيتهما، وأفكارهما تذهَب إلى تلك الأشياء المتواضعة هناك، وإلى البستان الصغير، أو إلى ما قد لا يَحسب له أحد حساباً، إلى الكرمة والتينة وإلى المزروعات الأخرى المفيدة. إنّهما في عَوَز تأمين الغذاء اليومي، والثياب والنار، خاصّة لي أنا الطفل الذي لا يمكن إطعامي مما هو جائز لهما. وفوق كلّ ذلك آلام كثيرة في القلب، بالحنين، وبالترقُّب لما ينتظرهما غداً، في ريبة الناس المتعنّتة بهما، خاصّة في الفترات الأولى، إذ لا أحد يَقبَل بسهولة عروض عمل مِن مجهولين.

ومع ذلك فقد رأيتِ كيف يهيمن في هذا المسكن الصفاء والابتسامة والوِئام، وبِتآلف مشترَك تجري محاولة جعله أكثر جمالاً، حتّى البستان الفقير، لكي يصبح كلّ شيء مشابهاً للبيت الذي تُرِك، بل وحتّى أكثر راحة. لم تكن هناك سوى فكرة واحدة: تلك التي مِن أجلي، أنا المقدّس، أن تصبح الأرض الغريبة أقلّ بؤساً بالنسبة لي أنا الآتي مِن الله. إنّه حبّ المؤمنين والأهل الذي يتبدّى بألف اهتمام؛ ها هي العنزة التي تَتطلّب إضافة ساعات كثيرة مِن العمل، واللُّعَب الصغيرة المنحوتة مِن القطع الخشبيّة الزائدة، والفواكه المشتراة لي وحدي، بينما هما يَحرمان نفسيهما مِن لقمة غذاء.

أيّها الأب الأرضيّ الحبيب، كم كنتَ محبوباً مِن الله، مِن الله الآب السماويّ، ومِن الله الابن الذي أصبحَ مخلّصاً على الأرض!

في ***هذا البيت*** لا يوجد أناس عصبيّو المزاج، شديدو الحساسيّة، ذَوو ملامح شرسة، ولا وجود لمَلامات متبادلة كذلك، ولا حتّى تجاه الله الذي لا يُسبغ عليهما وضعاً مادياً جيّداً. فيوسف لا يُلقي باللائمة على مريم لكونها السبب في الخسائر التي مُنِيَ بها، ومريم مِن جهتها لا

تلوم يوسف لعدم معرفته توفير وضع جيّد أفضل لها. إنّهما يتحابّان بقداسة وهذا كلّ ما في الأمر. ولا اهتمام لأحدهما بمصلحته الشخصيّة، إنّما بالمصلحة المشتركة. فالحبّ الحقيقيّ لا يعرف الأنانيّة. والحبّ الحقيقيّ عفيف على الدوام، حتّى ولو لم يكن كاملاً في هذا المجال بقدر حبّ عروسين بتولين.. فالعفّة المتّحدة بالمحبّة تجرّ وراءها موكباً مِن الفضائل الأُخرى وتُحَقِّق لشخصين يحبّان بعضهما بعفاف، الكمال الزوجيّ.

حُبّ أُمّي ويوسف كان كاملاً. لقد كان يَحمِل على اكتساب الفضائل الأخرى، وخاصّة محبّة الله المبارَك في كلّ حين، حتّى ولو كانت إرادته المقدّسة تُضني الجسد والقلب؛ فلقد كان الروح عند هذين القدّيسَين أكثر حيويّة ويسود على كلّ شيء. لقد كان ذلك الروح هو الذي يجعلهما يُعَظِّمان الربّ بشكره على اختياره إيّاهما كحارِسَين لابنه الأزليّ.

<u>في هذا البيت كانت الصلاة</u>. ضمن البيوت الحاليّة، الصلاة قليلة الوجود جدّاً. في مَطلع النهار وفي الغَسَق، في بداية العمل ولدى الجلوس إلى المائدة، فلا يخطر على بال أحد الربّ الذي أَذِن بيوم جديد أو أَذِن بإمكانيّة الوصول إلى مساء جديد، الربّ الذي بارَكَ أتعابكم وأَذِن بأن يُوَفَّر لكم هذا الطعام وهذه النار وهذه الثياب وهذا السقف، وكذلك كلّ هذه الأشياء الضروريّة في وضعكم البشريّ. فكلّ شيء "جيد" على الدوام حين يأتي مِن الله الصالح. حتّى ولو كانت هذه الخيرات فقيرة وقليلة، فالحبّ هو الذي يمنحها الطّعم والقيمة، الحبّ الذي يجعلكم تَرَون في الخالق الأزليّ الأب الذي يحبّكم.

<u>في هذا البيت كان التقشّف</u>. وكان سيبقى كذلك حتّى ولو لم يكن المال قليلاً. لقد كانت غاية الطعام استمرار الحياة، ولم تكن يوماً لإشباع الشّراهة وجَشَع النَّهَم وشهوات الشّرِهين الذين يبتلعون الأطعمة حتّى التُّخمة، ويُبذِّرون ممتلكاتهم على منتجات باهظة الثمن دون أن يفكّروا في الذين لا يجدون كفايتهم أو يُضطرّون لأن يُحرَموا منها، دون التفكير بأنّهم في اعتدالهم يمكنهم أن يُوفِّروا على الكثيرين ألم الجوع.

في هذا البيت العمل محبوب. إنّه محبوب حتّى ولو كان المال موجوداً بوفرة. لأنّ في العمل يطيع الإنسان أوامر الله، ويَهرب مِن الرذيلة التي مثل العشقة (نبات مُعَرّش يشبه اللبلاب) الدَّبِقَة تُطوّق وتَخنق العاطلين عن العمل الذين يُشبِهون أكواماً هامدة. الغذاء جيّد، والراحة لذيذة والقلب يرضى عندما نعمل جيّداً، كما تُقَدَّر لحظة الاستراحة بين عمل وآخر. والرذيلة في جميع أوجهها لا يمكنها الدخول إلى بيت أو في روح مَن يحبّ العمل. وبما أنّها لا تَنبت فيهما فإن العطف ينمو وكذلك التقدير والاحترام المتبادَل. وفي مناخ الطهارة تتعاظم التَّساميات الحنونة التي تخلق في المستقبل عائلات تُزهِر فيها القداسة.

في هذا البيت يسود التواضع. وأيّ درس في التواضع للمتكبِّرين منكم. فَمِن وجهة نظر بشريّة كان لدى مريم ألف ألف سبب لتتكبّر وتجعل قرينها يَسجد لها. فهناك الكثير من النساء اللواتي يفعلن ذلك لأنّ ثقافتهنّ أوسع وعائلتهن أكثر نُبلاً وثروتهنّ تفوق ثروة أزواجهنّ. أمّا مريم، وهي عروسة وأُمّ الله، فهي تَخدم قرينها، ولا تطلب أن تُخدَم، وكذلك هي تَكُنُّ له الكثير مِن العاطفة. ويوسف الذي وَجَدَه الله أهلاً هو سيّد هذا البيت، وهو الأهل بحقّ ليكون رأس البيت ويتقبّل مِن الله حراسة الكلمة المتجسّد وعروسة الروح الأزليّ، ومع ذلك فهو يسهَر باهتمام بالغ على تخفيف وطأة الأتعاب والأشغال عن مريم. إنّه يتحمّل أعباء البيت الأكثر تواضعاً ليوفّر على مريم العناء، وثمّ، كما يستطيع، وبالقدر الذي يستطيع، يُحاوِل إرضاءها، ويتفنّن في جعل المسكَن عَمَليّاً أكثر، وأن يجعل الحديقة الصغيرة أكثر بهجة بالزهور.

في هذا البيت يُحترَم الترتيب فائق الطبيعة والوجدانيّ والمادّيّ. الله هو السيّد المُطلَق وله العبادة والحبّ. وهذا هو الترتيب الفائق الطبيعة. يوسف هو سيّد العائلة وله يُقَدَّم العطف والاحترام والطاعة. وهذا هو الترتيب الوجدانيّ. والبيت عطيّة مِن الله وكذلك الثياب والمفروشات، وفي كلّ هذه الأمور تَظهَر عناية الله، هذا الإله الذي يَمنَح النِّعاج صوفها والطيور ريشها والحقول خُضرتها، وكذلك يمنَح العلف للحيوانات الداجنة، والحبوب والأوراق للطيور، وهو الذي يَنسج ثياب زنابق

الوادي. فالمأوى والملبَس والمفروشات نتلقّاها كلّها بامتنان ونحن نبارِك اليد الإلهيّة التي وفّرتها، وذلك بمعاملتها باحترام كعطايا مِن عند الربّ، دون النظر إليها باشمئزاز لكونها مُتواضِعة، ودون تخريبها مستغلّين العناية الإلهيّة. وهذا هو الترتيب المادّيّ.

لم تُدرِكي معنى الكلمات المتبادَلَة في حِوار الناصرة، ولا كلمات الصلاة، إلّا أن مَشهَد مجريات الأمور أعطى درساً عظيماً. فتأمّلوا فيه أنتم يا مَن تُعانون كثيراً مِن تقصيركم أمام الله في الكثير مِن الأمور، ومنها أيضاً تلك التي لم يُقَصِّر بها العروسان القدّيسان اللذان هما أُمّي وأبي.

أمّا أنتِ فكوني سعيدة في تذكّركِ يسوعِ الصغير. ابتسمي وأنتِ تفكّرين بخطواته الطفوليّة الصغيرة. فبعد قليل سوف تَرَينَه يسير تحت وطأة صليبه، وستكون رؤيا الدموع.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

62- (الدرس الأول في العمل ليسوع)

21 / 03 / 1944

أرى يسوع يَظهَر، لطيفاً مثل شعاع شمس في يوم مُمطِر، طفلاً عمره حوالي الخمس سنوات، إنّه أشقر وفاتن بثوبه البسيط الأزرق السماويّ الذي يَصِل إلى منتصف بطّات الساقين الربيلتين. وهو يَلعَب في الحديقة الصغيرة بالتراب. هو يَجمَعه أكواماً يَزرَع فيها أغصاناً صغيرة وكأنّه يجعل منها غابة مُصغَّرة؛ ويَجعَل دروباً باستخدام الحصى، ثمّ أراه يريد صنع بحيرة صغيرة عند أسفل تلك التلال الصغيرة. ولكي يتوصّل إلى ذلك يأخذ طبقاً يَدفن قاعه في الأرض حتّى الحافة، ثمّ يَسكب فيه الماء بواسطة وعاء يُغَطِّسه في بركة للغسيل أو لريّ الحديقة. ولكنّه لا يتوصّل إلّا إلى ترطيب ثوبه وبخاصة الأكمام. فالماء يتسرّب مِن الطبق المثقوب أو ربّما المشقوق و... تبقى البحيرة جافة.

يَظهَر يوسف عند العتبة، ويبقى بعض الوقت يَنظر صامتاً إلى عمل الطفل ويبتسم. إنّه لَمَشهد مُبهِج يبعث على الابتسام. ثمّ لكي يضع حدّاً لتبلّله يناديه. فيلتفت يسوع، وحين يَرَى يوسف يركض نحوه ويداه ممدودتان. يمسح يوسف بطرف ثوبه القصير اليدين الصغيرتين المتّسختين ويُقَبِّل يسوع. ويَدور بين الاثنين حوار عذب.

أخَذَ يسوع يشرح عمله ولعبته والصعوبات التي تعترضه أثناء التنفيذ. كان يريد صنع بحيرة مثل بحيرة جنّسارت (مما يقودني إلى الاعتقاد بأنّهما قد كَلَّماه عنها أو ربما أَخَذاه إليها.) أراد صنع نموذج مُصغَّر عنها ليلعب. هنا كانت طبريّا وهناك مجدلة وأبعد قليلاً كفرناحوم. وهذه الطريق تمرّ بقانا وتقود إلى الناصرة. كان يريد وضع بعض المراكب في البحيرة: هذه الأوراق هي مَراكِب للوصول إلى طرف الشاطئ الثاني. إنّما الماء يَهرب...

كان يوسف يَنظُر بإمعان ويهتمّ كما لو كان الأمر جادّاً. ثمّ يقترح عليه صنع بحيرة صغيرة في الغد، ولكن ليس بطبق شَرِم، إنّما ببركة خشبيّة كان يوسف قد علّمه صنعها. ففي هذه الأثناء تماماً كان قد جَلَبَ له أدوات عمل صغيرة مصنوعة خصّيصاً له لكي يستطيع تَعلُّم استخدامها دونما تعب.

فيقول يسوع وهو يبتسم: «وهكذا سأساعدكَ.»

«هكذا ستساعدني وستصبح نجّاراً ماهراً. تعال لتراها.»

يَدخُلان إلى المشغَل. ويريه يوسف مطرقته الصغيرة ومنشاراً صغيراً ومفكّات كذلك صغيرة مع مسحج صغير، جميعها كانت موضوعة على طاولة نجارة صغيرة، طاولة تُناسِب طول يسوع الصغير.

«انظر: مِن أجل عمليّة النّشر، يُوضَع الخشب مع ضغطه بهذه الطريقة، ثمّ يؤخذ المنشار بهذا الأسلوب مع الانتباه لكيلا يُلامِس الأصابع، ويتمّ النّشر. حاول...»

يبدأ الدرس. ويعلو يسوع احمرار بفعل الجهد الذي يبذله، يضغط على شفتيه، يَنشر بانتباه ثمّ يَسحَج القطعة الخشبيّة الصغيرة التي وإن كانت متعرّجة قليلاً، فإنّها تبدو له جميلة، ويُثني عليه يوسف ويعلّمه العمل بصبر وحبّ.

تعود مريم. بالتأكيد كانَت قد خَرَجَت مِن البيت. تقف في الباب وتَنظُر. لم يَرَياها لأنّهما يُديران ظهريهما للباب. تبتسم مريم وهي ترى حماس يسوع الذي يستَخدِم المسحج، والحنان الذي يحيطه به يوسف أثناء تدريبه.

ولكن كان ينبغي ليسوع أن يُحِسَّ بهذه الابتسامة. فيلتفت ويرى أُمّه ويركض إليها مع قطعته الخشبية نصف المسحوجة ويريها إيّاها. تُظهِر مريم ليسوع إعجاباً وتنحني لتقبّله وترفع له شعره

المشعّث وتمسح عرق وجهه، وتُنصِت بكلّ عطف إلى يسوع الذي يَعِدها بأن يصنع لها مقعداً صغيراً ليوفّر لها راحة أكثر أثناء عملها. ويقف يوسف قرب طاولة النجارة الصغيرة، يداه على خاصرتيه، يَنظر ويَبتسم.

لقد حَضَرتُ أوّل درس في العمل ليسوعي الصغير، وقد تسرَّبَ إلى أعماقي كلّ سلام هذه العائلة المقدّسة.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

63- (لم أشأ التخلّص مِن قواعد النموّ بِصَخَب)

21 / 03 / 1944

يقول يسوع:

«لقد واسيتكِ، يا روحي، برؤيا عن طفولتي الصغيرة السعيدة في فقرها، لأنّها مُحاطَة بعطف هَذَين القدّيسَين، أعظم قدّيسَين عَرِفهُما العالم.

قيل إنّ يوسف كان مربّياً لي. بالطبع، ولكونه رجلاً لم يستطع إرضاعي مثل مريم التي غذّتني بحليبها، إلّا أنّه أَهلَكَ ذاته في العمل ليوفّر لي الخبز والأغذية المقوّية. كان لديه تجاهي حنان أُمّ حقيقيّة. لقد تعلّمتُ منه -ولم يكن لدى أيّ صبيّ على الإطلاق معلّم أفضل منه- كلّ ما يجعل مِن الطفل رجلاً، رجلاً عليه كسب قوْته.

وإن يكن ذكائي كابن الله كاملاً، إلاّ أنّه ينبغي التفكير والاعتقاد بأنّني لم أشأ التخلّص مِن قواعد النموّ بصَخَب. بهبوطي إذن بكمال فِكري الإلهيّ إلى مستوى الإدراك البشريّ، فقد خَضَعتُ إلى الاحتياج إلى معلّم، إلى أن يكون لديَّ معلّم إنسان. وإن كنتُ بالتالي قد تعلّمتُ بسرعة، فهذا لا ينفي عنّي أنّني وضعتُ نفسي تحت تصرّف رجل، ولا ينفي كذلك فَضل هذا الرجل في إمداد فِكري الصغير بالمَعارِف الضروريّة للحياة.

لن أنسى الأوقات العذبة التي قضيتُها إلى جانب يوسف الذي قادَني، وكأنّنا نلعب، لأن أُصبِح قادراً على العمل، لَم ولَن أنساها حتّى وأنا في السماء الآن. وعندما أعود لأرى أبي الشكليّ والحديقة الصغيرة والمَشغَل المليء بالدخان، يبدو لي أنّني أرى أُمّي تهلّ بابتساماتها التي تجعل المسكن رائعاً وتُفعِمني سروراً.

كَم على العائلات أن تتعلّم مِن كمال هَذَين العروسين اللذين يتحابّان كما لم يتحابّ اثنان غيرهما!

لقد كان يوسف هو السيد. لم تُناقَش سُلطته في العائلة، بل لم تكن قابلة للمناقشة. فكانت أمامها تنحني سُلطة عروس وأُمّ الله، وكان ابن الله يَخضَع لها. كلّ ما كان يوسف يُقرّر عمله كان جيّداً، دون مناقشة، ولا معارضة ولا مقاومة. لقد كانت كلمته الشَّرع الصغير المتَّبع عندنا. ورغم ذلك، يا لتواضعه! إنّه لا يُسيء استخدام السُّلطة مطلقاً، ولا حتّى كانت لديه إرادة غير صائبة مستمدّة مِن السُّلطة. وكانت العروسة مُستَشارَته اللطيفة، وهي وإن كانت بتواضُعها العميق تَعتَبر نفسها خادمة قرينها، فقد كان هو يستفيد مِن حكمة الممتلئة نعمة، ومِن النور الذي يقوده في كلّ الظروف.

وكنتُ أنا أنمو مثل زهرة تحميها شجرتان كبيرتان وارِفَتان، بين حبّين يتشابكان فوق رأسي لِيَحمياني ويُحباني.

لا، فطوال فترة شبابي التي كانت تجعلني أَجهَل العالم، لم أكن أفتقد الجنّة، فالله الآب والروح الإلهي لم يكونا غائِبَين، لأنّ مريم كانت ممتلئة منهما، والملائكة كانت تقطن هناك لأنّ ما مِن شيء كان يُبعِدها عن هذا البيت. يمكنني القول إنّ أَحدها كان متجسّداً، إنّه يوسف. ذلك أنّ نفسه كانت ملائكيّة مُتحرِّرة مِن ثِقل الجسد، وكان اهتمامه مُنصبّاً فقط على خدمة الله ومهامّه، وعلى حبّه كما يحبّه السيرافيم. نَظرَة يوسف! هادئة نقيّة، مثل نور نجمة تَجهَل شهوات الأرض. لقد كان راحتنا وقُوَّتنا.

يَتصوّر الكثيرون أنّني لم أتألّم كبشر عندما انطَفَأَت نظرة هذا القدّيس الذي كان يَسهَر على بيتنا. حتّى وإن كنتُ إلهاً وأَعلَم أنّ مصير يوسف ستكون تلك السعادة، وإن كنتُ لهذا السبب لم أكتئب مِن رحيله، وهو الذي، بعد إقامة قصيرة في اليمبس سيَفتَتِح السماء كإنسان، مع ذلك فقد بكيتُ في المنزل الذي حُرِمَ مِن وجوده العَطوف. بكيتُ الصديق المختفي. أفما كان ينبغي

لي البكاء على هذا القدّيس الذي كان قريباً منّي جدّاً، وعلى هذا القلب الذي طالما غفوتُ عليه صغيراً جدّاً والذي أحاطَني بحبّه طوال سنين كثيرة؟

أخيراً، أُظهِر للأهل كيف عَرِف يوسف، دون الاستعانة بمؤهِّل تربوي، أن يجعل منّي عامِلاً ماهِراً.

ما إن بلغتُ السنّ التي تجعلني قادراً على استخدام الأدوات، حتّى بدأ لا يتركني أتعفّن في البطالة، لقد كان يدفعني إلى العمل جاعلاً مِن حبّي لمريم المُساعِد الأوّل في تشجيعي على هذا العمل. إعداد حاجات تستفيد منها الماما، هكذا كان يُرَسِّخ في ذهني الاحترام الواجب للأُمّ الذي مِن المفروض أن يكون لدى كلّ ابن. وعلى هذا الأساس مِن الاحترام والحبّ، كان يَستَنِد في تنشئة نَجَّار المستقبل.

أين هي الآن العائلات التي تُحبِّب العمل لشبّانها الصغار، لتُعلّمهم إرضاء أهلهم؟ الأولاد الآن طُغاة في البيت. يَنمون قُساة، لا مُبالين، يتصرّفون بجَلَف مع أهلهم، يَعتَبرونهم خدّاماً لهم، بل عبيداً. لا يحبّونهم، ونصيبهم مِن حبّهم قليل. فبِجعلكم مِن أبنائكم ذوي طبع حادّ ومزاج عصبيّ تَنفَصِلون عنهم بتغيُّب مُخجِل.

إنّهم أبناء كلّ العالم. إلّا أنّهم لا ينتمون إليكم يا أهل القرن العشرين. إنّهم في الأغلب أبناء المربّية والمعلّمة وينتمون إلى الكلّية إذا كنتم أغنياء. أو إلى الرفاق والشارع والمدرسة إذا كنتم فقراء. لم يَعودوا لكم. أنتنّ أيّتها الأُمّهات، تلدنهم فقط وانتهى الأمر. وأنتم أيها الآباء لا يُشكّلون بالنسبة إليكم سوى هَمّاً إضافيّاً. ولكن الابن ليس فقط كائناً مِن جسد. إنّه فِكر وقلب وروح. كونوا على يقين إذاً أنّ لا أحد غير الأب والأُمّ له الحقّ وعليه واجب تهذيب هذا الفِكر وهذا القلب وهذا الروح.

لقد وُجِدَت العائلة ولا بد مِن وجودها. فلا توجد نظريّة أو تطوُّر يستطيع أن يقف في وجه هذه الحقيقة دون التسبّب بالخراب. فَمِن عائلة تتفكّك، لا يمكن أن يتأتّى في المستقبل غير رجال ونساء مُفسِدين على الدوام ويتسبّبون بأعظم الخراب. والحقّ أقول لكم إنّه مِن الأفضل أن لا يعود هناك زواج ولا أطفال على الأرض مِن أن تُوجَد عائلات أقلّ ارتباطاً كما هي الحال في قبائل القِرَدة، عائلات لا تكون مَدارس للفضيلة والعمل والحبّ والدّين، بل فوضى يعيش فيها كلّ لذاته مثل مسنّنات مَغلوطة تنتهي جميعها بالتهشّم.

حَطِّموا، فَكِّكوا. وثمار هذا التفكّك، في أكثر المجتمعات قداسة، تَرَونها وتطالكم. استمرّوا إذاً، إذا أردتم. ولكن لا تتذمَّروا إذا أصبَحَت الأرض جحيماً، أو جحر وحوش تَفتَرِس العائلات والدول. وإذا كنتم تريدون ذلك: فليكن لكم.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

64- (مريم معلّمة يسوع ويوضاس ويعقوب)

29 / 10 / 1944

يقول يسوع:

«تعالي يا محبوبتي الصغيرة وانظري. ويدكِ في يدي، عودي إلى الوراء، إلى سنيّ طفولتي. وكلّ ما سترينه ينبغي أن يكون مُدرَجاً ضمن إنجيل طفولتي، حيث أودُّ أن تُدرَج كذلك رؤيا إقامة العائلة في مصر. سوف تُورِدينها حسب الترتيب التالي: العائلة في مصر، ثمّ الدرس الأوّل في عمل يسوع الطفل، ثمّ المشهد الذي سَتَصِفينه الآن، بعد ذلك مشهد سنّ الرشد (موعده اليوم 25 / 11) وفي النهاية مشهد يسوع بين أحبار الهيكل في عيد الفصح الثاني عشر بالنسبة له. ولستُ أريكِ مشهد اليوم هكذا بدون سبب. بل على العكس، فإنّكِ ستُلقين الأضواء على تفاصيل تخصّ سنيّ حياتي الأولى، وكذلك على العلاقات مع أهلي والأقارب. إنّها هديّتي لكِ في عيد امتلاكي إيّاكِ، أنتِ التي تُحسّين سلام بيت الناصرة يعبر إلى أعماقكِ عندما ترينه. اكتبي.»

أرى الغرفة التي يتناولون فيها الطعام عادة، وحيث تقوم مريم بأعمال النسيج أو الخياطة. هذه الغرفة هي المجاورة لمَشغَل يوسف الذي يُسمَع فيه صوت عمله النشيط والمُجِدّ. أمّا هنا فعلى العكس يسود هدوء وسكون. تخيط مريم شرائط قماش صوفيّ. وهي التي نَسَجَتها بنفسها بالتأكيد. إنّ عرض القطعة منها حوالي النصف متر، وطولها ضِعف ذلك. ومِن المفروض أنّها مُعَدَّة مِن أجل معطف ليوسف. مِن الباب المفتوح على الحديقة، تُرَى الأسيجة التي ينتَشِر عليها الأقحوان بلون اللازورد البنفسجيّ الذي يُسمّى عموماً "ماري" أو "سماء ذات نجوم" لستُ أعرف العبارة الخاصّة بها في علم النبات. إنّها مُزهِرة، فينبغي إذن أن يكون الخريف. ومع ذلك فالأوراق ما زالت تحتفظ باخضرارها الجميل الكثيف، والنَّحلات التي أُسنِدَت خليّتاها إلى الجدار المشمس، تطير وهي تطنّ وترقص في ضوء الشمس، مِن الكرمة إلى التينة ثمّ إلى شجرة رمّان مليئة بالثمّار

المُكَوَّرة وقد انشقت بسبب زيادة النضج مُظهِرَة كما عقوداً مِن الياقوت السكّري المصفوف بداخل علبة مصاغ حمراء وخضراء وفي جزء منها صفراء.

يَلعَب يسوع تحت الأشجار مع طفلين في مثل سنّه تقريباً: شعرهما مجعّد وليسا أشقرين. أحدهما أسمر بحقّ: رأس حَمَل أسود يزيد إظهار بياض بشرة الوجه المُدوَّر حيث فُتِحَت عينان بلون اللازورد الضارب إلى البنفسجيّ، جميلتان جدّاً. والثاني شعره أقلّ تجعُّداً، كستنائيّ داكن، عيناه كستناويّتان. لون بشرته أكثر سُمرة ولكنّه يميل إلى الورديّ عند الخدّين. ويبدو يسوع برأسه الأشقر بين الشعرين الداكنين وكأنّ له آنئذ هالة مُضيئة. إنّهم يَلعَبون معاً مَرِحِين بعربات صغيرة توجد عليها... بضائع متنوّعة: أوراق، حصى، شرائط وقطع خشبيّة. يَلعَبون لعبة الباعة. ويسوع هو الزبون الذي يشتري احتياجات والدته، يحمل لها آناً حاجة وآناً أخرى. ومريم تتقبَّل مشترياته بابتسامة.

بعد ذلك يَقتَرِح أحد الولدين تغيير اللعبة: «لنقم بالهجرة عبر مصر. يسوع سيكون موسى، أنا هارون، وأنتَ... مريم.»

«ولكنّني صبيّ!»

«لا يهم! ومع ذلك فلتكن أنتَ مريم، ولتَرقُص أمام العِجل الذهبيّ الذي سيكون هذا القفير.»

«أنا لا أرقص. أنا رجل ولا أريد أن أكون امرأة. ثمّ أنا مؤمن ولا أريد الرقص أمام الصَّنم.»

هنا يتدخل يسوع: «لا نلعبنّ هذا المشهد. ولنختر غيره: لحظة اختيار يشوع كخليفة لموسى. وهكذا لا يعود لمشكلة خطيئة عبادة الأصنام الشنيعة وجود، وسَيُسرّ يوضاس لكونه رجلاً وخليفتي، ألستَ مسروراً لذلك؟»

«نعم، يسوع، إنّما ينبغي لكَ حينئذ أن تموت، لأن موسى يموت بعدها، ولا أريدكَ أن تموت، أنتَ يا مَن تحبني كثيراً.»

«ينبغي لجميعنا أن نموت... إنّما أنا، قبل أن أموت، سأبارك إسرائيل. وإن لم يكن أمامي غيركما، فحين أبارككما أبارك إسرائيل كلّها.»

الاقتراح مقبول، ولكن هناك مسألة تَطرَح نفسها: بعد أن يكون شعب إسرائيل قد مشى طويلاً جدّاً، هل يكون ما يزال يمتلك العربات التي خَرَجَ بها مِن مصر؟ هنا تختلف الآراء، فيَهرَع الجميع إلى مريم: «أُمّي، أنا أقول بأنّ الإسرائيليّين كانوا لا يزالون يمتلكون العربات، يعقوب يقول لا، أمّا يوضاس فلا يعرف مَن منّا يقول الحقّ. فهل تعرفين أنتِ ذلك؟»

«نعم يا بنيّ، فقد كانت العربات ما تزال مع الشعب المُهاجِر. وكان كلّما توقَّفَ يُجري الإصلاحات عليها. وقد كان الأكثر ضُعفاً يركبون العربات، وعليها تُحمّل المواد الغذائيّة، وكلّ الأشياء الضروريّة لشعب كثير العدد. إلاّ تابوت العهد فهو الوحيد الذي كان يحمله بشر. وكلّ ما عداه على العربات.»

يُحَلّ الخلاف، ويمضي الأطفال إلى آخر الحديقة، ومِن هناك يتوجّهون صوب البيت وهم يُرتِّلون المزامير. يسوع في المقدمة وهو يُرَتِّل المزامير بصوته الفضّيّ. وخلفه يسير يوضاس ويعقوب حامِلَين عربة نقل صغيرة مغطّاة تُمثّل تابوت العهد. ولكن بما أنّهم كانوا مضطرّين إلى لعب دور الشعب إلى جانب دَورَيّ يشوع وهارون، فقد نَزَعا حزاميهما ورَبَطا العربات الصغيرة بساقيهما، وساروا هكذا جادّين كممثلين حقيقيّين. يمشون تحت العريشة كلّها، ويمرّون إلى جانب باب الغرفة حيث تُوجَد مريم، ويقول يسوع: «ماما، حيّي تابوت العهد الذي يمرّ.» تقف مريم مبتسمة وتنحني باتّجاه ابنها الذي يمرّ متلألئاً في هالة مِن الشمس.

ثمّ يجتاز يسوع المنحَدَر الذي هو بمثابة الحدود للبيت، أو بالأحرى للحديقة. وهناك، فوق المغارة يَقِف ويُخاطِب... إسرائيل. يَنطق بأوامر ووعود الله، ويُقَدِّم يشوع كقائد ويدعوه إليه،

فيَصعَد يوضاس بِدَوره إلى المُنحَدَر فيشجّعه ويباركه. ثمّ يَأخذ لوحاً (ورقة تين كبيرة) ويَكتب النشيد ويَتلوه، ليس كلّه، إنّما جزءاً لا بأس به، ويبدو وكأنّه يتلوه مِن الورقة. بعدئذ يودِّع يشوع الذي يعانقه وهو يبكي، ويَصعَد إلى الأعلى، بالتحديد إلى قمة المنحدر. هناك يبارك إسرائيل كلّها، أي الولدَين الساجدَين إلى الأرض، ثمّ يتمدّد على العشب القصير، يُغمض عينيه و... يموت. كانت مريم قد ظلّت عند العتبة مبتسمة، إلّا أنّها عندما تُشاهِده مُمدّداً بلا حَراك، تصيح: «يسوع، يسوع، انهض! لا تبق هكذا! فأُمّكَ لا تريد أن تراكَ ميتاً!»

يَنهَض يسوع مبتسماً، يركض نحو مريم ويُقبّلها، ويَصِل يعقوب ويوضاس ويِنالا نصيبيهما أيضاً مِن ملاطفة مريم.

يسأل يعقوب: «كيف بإمكان يسوع أن يتذكّر كلّ هذا النشيد الطويل جدّاً والصعب جدّاً، وكلّ هذه التبريكات؟»

تبتسم مريم وتُجيب ببساطة: «إنّ لديه ذاكرة ممتازة، وهو شديد الانتباه والتركيز عندما أقرأ.»

«وأنا أيضاً أنتبه جيّداً في المدرسة، إلّا أنّني لا ألبث أن أنام، مع كلّ هذه المناحات... إذاً، ألن أتعلّم أبداً؟»

«سوف تتعلّم، كُن مطمئناً.»

يُقرَع الباب، فيجتاز يوسف الحديقة والغرفة بسرعة ويَفتَح، «السلام لكما، حلفا ومريم!»

«ولكَ السلام والبركة.»

إنّه أخو يوسف مع زوجته. وفي الشارع تقف عربة ريفيّة رُبِطَ إليها حمار قويّ.

«هل كان سفركما مريحاً؟»

«رائعاً. والأولاد؟»

«إنّهم في الحديقة مع مريم.»

ولكنّ الوَلَدين يَركضان آنئذ ليُسَلِّما على والدتهما، وكذلك تَصِل مريم ممسكة يسوع بيدها. وتتعانق القريبتان.

«هل كانا لطيفَين؟»

«عاقِلَين جدّاً ولطيفين. هل كلّ الأهل بخير؟»

«الجميع بخير، ويُرسِلون لكم مِن قانا كلّ هذه الهدايا. عنباً وتفّاحاً وجبناً وعسلاً و... يوسف؟ لقد وجَدتُ تماماً ما كنتَ تريده ليسوع. إنّه على العربة في هذه السلّة الضخمة المُكوَّرة.» وأَخَذَت زوجة حلفا تضحك، وتنحني على يسوع الذي يَنظُر إليها وهو يُحملِق. تُقَبّله مِن عينيه اللازورديّتين وتقول له: «هل تعرف ماذا عندي لكَ؟ احزر.»

يُفكّر يسوع ولا يَجِد إجابة. أشكّ في أنّه فَعَلَها متعمّداً ليَمنح يوسف فرحة جعلها تبدو مفاجأة له. بالفعل، يعود يوسف حاملاً سلّة مُكوَّرة. يضعها على الأرض أمام يسوع، يَقطَع الحبل الذي يُثبّت الغطاء. يزيحه... ونعجة صغيرة بيضاء، ندفة رغوة حقيقيّة تَظهَر نائمة على مُفتَرَش مِن القشّ النظيف.

وما كان مِن يسوع إلّا «آه!» بدهشة وافتتان. وكاد يتهافت على الحيوان الصغير عندما التَفَتَ إلى يوسف المنحني إلى الأرض، فهَرَعَ إليه يعانقه ويقبّله ويشكره.

يَنظُر أبناء العم إلى الدابّة الصغيرة بإعجاب. تستيقظ، وبينما هي تَرفَع فمها الصغير الورديّ تثغو باحثة عن أُمّها. تَخرُج مِن السلة وتُقَدَّم لها قبضة نفل، تقضمها وهي تجيل حولها عينيها العذبتين.

فطَفَقَ يسوع يقول: «لي أنا! لي أنا! شكراً يا أبي!»

«أهي تعجبكَ كثيراً؟»

«آه! كثيراً! بيضاء نظيفة... رخلة (**أنثى الحمَل**)... آه!» ويضع ذراعيه حول عنق النّعجة. ويَضَع رأسه الأشقر على رأس الدابة الصغيرة ويَبقَى هكذا سعيداً.

يقول حلفا لولديه: «ولكما أيضاً جَلَبتُ اثنتين، إنما سوداوين. فأنتما لستما مرتَّبَين مثل يسوع، ولو كانتا بيضاوين فلن تعرفا أن تحافظا عليهما نظيفتين. سوف تكونان قطيعكما، تُحافِظان عليهما معاً، وهكذا لن تبقيا تتسكّعان في الشوارع كالشقيّين وترشقان الحجارة.»

ويركض الولدان إلى العربة ليريا النّعجتين السوداوين لا البيضاوين.

يبقى يسوع مع نعجته، يحملها إلى الحديقة، ويُقدّم لها ماء لتشرب، وتتبعه كما لو كانت تعرفه منذ زمن. ويَشرع يسوع يناديها بعد أن أطلَقَ عليها اسم "ثلج" والنعجة تجيبه وهي تثغو فَرِحَة.

يَجلس الضيوف إلى الطاولة، وتُقدِّم مريم لهم الخبز والزيتون والجبن، وتجلب كذلك إبريق شراب التفّاح أو نبيذ العسل، لستُ أعلم: أرى السائل زاهياً، زاهياً تماماً. يتحادثون فيما بينهم بينما يلعب الأولاد بالنّعجات الثلاث التي أراد يسوع ضَمَّها ليُقدّم إلى الأخريين الماء ويُطلِق عليهما الأسماء: نعجتكَ يوضاس سوف نسمّيها "نجمة" لأنّ لها إشارة على جبهتها. ونعجتكَ "شعلة" لأنّ لها لون أنواع مِن شعلات الخلنجات المائتة...»

«مفهوم.»

يَدخُل الكبار في نقاش، وها هو حلفا يتكلّم: «آمُل أن أكون بذلك قد حللتُ مشكلة مشاجرات الأولاد. إنّكَ أنتَ يا يوسف مَن أوحى لي بالفكرة. قلتُ لنفسي: "أخي يريد نعجة ليسوع ليلهيه قليلاً. سآخذ اثنتين لهذين الولدين فأضبطهما قليلاً وأختصر الأخذ والرد مع بقيّة الأهالي فيما يخصّ الرؤوس والرُّكَب المسحوجة. فقليلاً في المدرسة وقليلاً مع النعجتين وأكون قد

نجحتُ في ضبطهما". إنّما عليكَ أنتَ أيضاً إرسال يسوع هذه السنة إلى المدرسة. فلقد بَلَغَ السن.»

فتقاطعه مريم قائلة: «لن أُرسِل يسوع أبداً إلى المدرسة» فيندهش الجميع لرؤيتها تتكلّم هكذا، وتتكلّم قبل يوسف.

«لماذا؟ على الصبي أن يدرس ليكون أهلاً، عندما يحين الوقت، أن يخضَع لامتحان سنّ الرشد...»

«سوف يتعلّم الصبيّ، ولكنّه لن يذهب إلى المدرسة. هذا قرار.»

«ستكونين الوحيدة في إسرائيل التي تتصرف هكذا.»

«سأكون الوحيدة، ومع ذلك سأتصرّف هكذا. أليس كذلك يا يوسف؟»

«في الحقيقة، إنّ يسوع ليس في حاجة إلى أن يذهب إلى المدرسة. لقد تَرَعرَعَت مريم في الهيكل، وهي الآن كحَبر حقيقيّ في معرفة الشريعة. سوف تكون معلّمته. إنّها إرادتي كذلك.»

«إنكما تُفسِدان هذا الصبيّ.»

«لا يمكنكَ قول ذلك. إنّه أفضل طفل في الناصرة. هل سَمِعته يوماً يبكي أو يتصرّف بنزوة أو يرفض إطاعة أمر أو يُقلّل مِن احترام أحد؟»

«مِن هذه الناحية، لا. ولكن هذا سوف يَحصَل إذا ما استمرّ إفساده.»

«لسنا نُفسِد الأطفال هكذا، بل إنّما نحفظهم إلى جانبنا. إنّنا نحبّهم بذكاء وبقلب طيّب. وهكذا نحن نحبّ يسوعنا، وبما أنّ مريم مُثقَّفة أكثر مِن معلّم المدرسة، فهي التي ستكون معلّمة يسوع.»

«وعندما يَبلغ سنّ الرجولة، سيكون امرأة صغيرة تخيفه ذبابة.»

«لا. لن يكون كذلك. فمريم امرأة قويّة وهي تعرف أن تربّيه تربية رجوليّة. وأنا أيضاً لستُ ضعيفاً، وأستطيع أن أعطيه أمثلة في الرجولة. فيسوع لا عيب فيه جسديّاً أو فكريّاً. سوف ينمو إذن مستقيماً وقويّاً بجسده وروحه. كُن مطمئناً يا حلفا، فلن يسيء إلى شرف العائلة. على كلّ حال هذا قرار، وكفى.»

«مريم قرّرَت، وأنتَ...»

«وإن يكن ذلك صحيحاً؟ أليس جميلاً أن يكون لشخصين يتحابّان نفس التفكير، والإرادة ذاتها، وبالتبادُل يتبنّى الأوّل وجهة نظر فيتقبّلها الآخر؟ إذا ما أرادت مريم أموراً مُخالِفة للصواب فسأقول: "لا". إنّما الأمور التي تطلبها مليئة حكمة، لذا فأنا أؤكّدها وأتقبّلها بل أتبنّاها. نحن متحابّان مثل أوّل يوم لنا، وسنظلّ هكذا ما حيينا. أليس كذلك يا مريم؟»

«نعم يا يوسف؛ وإذا ما مات أحدنا دون الآخر، وأرجو ألّا يَحدُث ذلك، فلنحبّ بعضنا كذلك.»

يُداعِب يوسف رأس مريم كما لو أنّها ما زالت طفلة وهي تنظر إليه بعين وادِعة وعطوفة.

تتدخّل زوجة الأخ: «إنّكما على صواب. آه! لو كنتُ قادِرة على التعليم! في المدرسة يتعلّم أولادنا ما هو خيّر وما هو شرير، بينما في البيت يتعلّمون ما هو خيّر فقط. ولكنّني لا أعرف... إذا كانت مريم...»

«ماذا تريدين يا عزيزتي؟ لا تنزعجي مِن قَولها. تعرفين أنّني أحبّكِ وأُسعَد حين أستطيع إرضاءكِ.»

«كنتُ أقول... يعقوب ويوضاس يكبران يسوع قليلاً. وهما يذهبان الآن إلى المدرسة... إنّما فيما يتعلّق بمعرفتهما!... فعلى العكس، إنّ يسوع قد أَصبَحَ يعرف الشريعة جيّداً!... كنتُ أرغَب... أو بالأحرى هل ترغبين أن يحضرا أيضاً مع يسوع عندما تُدَرِّسينه؟ أظنّهما سيُصبِحان

أفضل وأكثر ثقافة. إنهّم أبناء عم في الأصل، ويحبّون بعضهم كإخوة... وسأكون أنا سعيدة جدّاً!...»

«إذا شاء يوسف ذلك، وكذلك زوجكِ، فأنا على استعداد، إذ إنّ الكلام لواحد أو لثلاثة سواء. وإعادة كلّ الكتاب شيء مُفرِح. فليأتيا.»

الأولاد الثلاثة الذين كانوا قد دَخَلوا بهدوء، سَمِعوا وباتوا ينتظرون القرار.

يقول حلفا: «سوف يجعلانكِ تملّين يا مريم.»

«لا! فمعي هما طيّبان على الدوام. ألن تكونا لطيفين إذا ما علّمتُكما؟»

يَركض الاثنان إلى جانبها، أحدهما إلى يمينها والآخر إلى يسارها، ويَضَعان ذراعيهما حول عنقها، ورأسيهما على كتفيها ويَعِدانها أجمل الوعود.

«دعهما يُجرّبان، يا حلفا، ودعني كذلك أُحاوِل. أعتقد أنّكَ لن تندم. سوف يأتيان يومياً في الساعة السادسة. هذا يكفي، ثق تماماً. أنا أعرف فنّ التعليم دون تعب، فالأولاد نَستَميلهم ونلهيهم في الوقت ذاته. علينا أن نَفهَمهُم، وأن نحبّهم، وأن نكون محبوبين منهم، فنحصل منهم على كلّ شيء. وسوف تحبّانني، أليس كذلك؟»

فتأتي الإجابة قُبلتين كبيرتين.

«أترى؟»

«أرى. ولم يبق ما أقوله سوى "شكراً". أمّا يسوع فماذا سيقول حين يرى أُمّه تهتمّ بالآخرين؟ ماذا تقول يا يسوع؟»

«أقول ما قيل بالنسبة للحكمة: "مغبوطون الذين يجلسون بقربها ويسمَعونها والذين يبنون سُكناهم قرب سُكناها". ومغبوط هو مَن يكون صديق أُمّي، وأكون سعيداً إذا كان مَن أُحبّهم أصدقاءها.»

تلك نهاية الرؤيا.

ويقول يسوع:

«وأصبَحَت مريم معلّمتي ومعلّمة يعقوب ويوضاس. لهذا كنّا نحبّ بعضنا كإخوة أكثر مِن القرابة، متّحِدين بالعِلم والتربية مثل أغصان ثلاثة لجذع واحد. أُمّي ليس هناك حَبر مثيلاً لها في إسرائيل. أُمّي، هذه العَذبة، كرسيّ الحكمة والعِلم الحقيقيّ، كانت تُلقّننا دروساً في حياة الدنيا وفي حياة السماء. أقول "تُلقّننا" لأنّني كنتُ تلميذها، لا أختلف عن ابنيّ عمّي. وقد قُلِبَ الدلو على سرّ الله في وجه فضول الشيطان، كي يُصان هكذا تحت مَظاهر حياة مشتركة.

هل تمتّعتِ بهذا المشهد اللذيذ؟ ابقي الآن بسلام. يسوع معكِ.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

65- (تحضير ثياب سنّ الرّشد ليسوع)

25 / 11 / 1944

لقد حصلتُ منه على وعد. كنتُ أقول له: «كم يسعدني أن أرى الاحتفال ببلوغكَ سنّ الرّشد!» وهو يقول: «سوف أُريكِ ذلك حين نتمكّن مِن أن نكون "فيما بيننا" دون أن يُشَوَّش السرّ. سوف تُصنِّفين هذه الرؤيا بعد رؤيا أُمّي، معلّمتي المدرسيّة ومعلّمة يوضاس ويعقوب التي أريتُكِ إيّاها سابقاً. سوف ترتّبينها بين هذا المشهد ومشهد المناقشة في الهيكل.»

19 / 12 / 1944

أرى مريم منحنية فوق وعاء أو بالأحرى "جاط" مِن الفخّار. إنّها تَمزج شيئاً يُخَلِّف دخاناً في الهواء البارد والساكن والذي يملأ حديقة الناصرة.

المفروض أنّ الوقت شتاء. إذ ما عدا شجرات الزيتون، فقد كانت جميع الأشجار عارية، هياكل عظميّة حقيقيّة. وفي الأجواء سماء صافية جدّاً، حتّى الشمس حلوة، إنّما هي لا تُلطّف ريح الشتاء التي تهزّ الأغصان العارية وتجعلها تتخبّط فيما بينها، كما تجعل أوراق الزيتون الخضراء الرماديّة تتماوج.

ترتدي السيّدة العذراء ثوباً كستنائيّاً يميل إلى السّواد، وقد عَلَّقَت في الجهة الأماميّة قماشاً سميكاً على شكل مِئزَر يحمي الثياب. تُخرِج مِن الإجّانة (وعاء خشبيّ لغسيل الثياب) العصا التي كانت تُحرِّك بها المُحتَوى، وأرى نقطة بلون أحمر جميل تَسقُط. تُلاحِظ مريم ذلك، فتبلّل إصبعها بالنقاط التي تَسقُط وتُجرّب اللون على المِئزَر. إنّها تبدو راضية.

أثناء عملها تَدخُل مريم زوجة حلفا، قادمة مِن مَشغَل يوسف، فتتصافحان وتتحادثان.

تسأل زوجة حلفا: «هل نجح؟»

«آمُل ذلك.»

«لقد تأكَّدَ لي أنّ هذا اللون هو نفسه الصباغ المستعمل في روما. لقد أُعطِيَ لي لأنّكِ أنتِ التي تقومين بهذه الأشغال. ويقال إنّ في روما ذاتها لا يوجد مَن يُوشي مثلكِ. يُفتَرَض أنّك تُمَقمِقين عينيكِ وأنتِ تقومين بذلك العمل...»

تبتسم مريم وتقوم بحركة برأسها وكأنّها تقول: «هذا لا شيء على الإطلاق!»

تَنظُر زوجة حلفا قبل أن تُقَدِّم إلى مريم شلل الصوف الأخيرة. يا لغزلكِ لها! تبدو وكأنّها شَعر لشدّة دقّتها وانتظامها. إنّكِ تعملين كلّ شيء بدرجة الكمال... وبسرعة فائقة! هل ستكون هذه الأخيرة أفتح؟»

«نعم، فهي للثوب. أمّا المعطف فداكن أكثر.»

تعمل المرأتان في الوعاء، ثمّ تُخرِجان الشلل التي أصبَحَت بلون الأرجوان الجميل، وتُسرِعان لتغطيسها في حوض ماء بارد جدّاً تحت نبع صغير يسيل ماؤه مُحدِثاً صوت ضحكات بسيط، تغسلان، تغسلان ثمّ تُمدّدان الشلل على قصبات عُلِّقَت بين غصني شجرة.

تقول زوجة حلفا: «سوف تجفّ جيّداً وبسرعة في هذا الهواء.»

فتقول القدّيسة مريم: «هلمّي بنا نمضي إلى يوسف، فالنار مشتعلة هناك، وأنتِ قد تكونين بَردتِ. لقد كنتِ طيّبة جدّاً بمساعدتكِ إيّايَ. لقد أنهيتِ العمل بسرعة وبأقلّ تعب؟ أشكركِ.»

«آه! مريم، لم أفعل شيئاً! كوني إلى جانبكِ، فهذا عيد. ثمّ... كلّ هذا الشغل مِن أجل يسوع. وهو عزيز عليَّ جدّاً، ابنكِ!... يبدو لي أنّني أنا أيضاً أُمّه، إذا ما ساعدتكِ مِن أجل احتفاله ببلوغ سنّ الرّشد.»

تَدخُل المَرأتان إلى المَشغَل العابق برائحة الخشب المسحوج الخاصة بمشاغل النجّارين.

تتوقّف الرؤيا قليلاً.

... تعود أثناء انطلاق يسوع ابن الاثنتي عشرة سنة إلى أورشليم.

يبدو جميلاً جدّاً وقد نما جيّداً، حتّى لتحسبه الأخ الأصغر لأُمّه الشابّة. لقد وَصَلَ إلى كتفها، وشعره الأشقر المجعّد لم يعد قصيراً كما في سِنيّ حياته الأولى، ولكنّه يتدلّى إلى ما تحت أذنيه، فتحسبه خوذة مِن الذهب منقوشة بكاملها بتقصيباته المُشرِقة.

كان يرتدي الأحمر. لون الياقوت الأحمر الزاهي الجميل. ثوباً طويلاً يَصِل إلى الكاحلين، ولا يَكشف سوى عن قدمين تنتعلان صندلاً. الثوب يجعل الحركة حرّة بأكمامه الطويلة والعريضة. وعند العنق وأطراف الأكمام والأرداف كانت هناك تزيينات منسوجة، لوناً على لون، جميلة جدّاً...

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

66- (الانطلاق مِن الناصرة للاحتفال ببلوغ يسوع سنّ الرّشد)

20 / 12 / 1944

أرى يسوع يَدخُل مع أُمّه إلى غرفة -ماذا أسمّيها؟- غرفة الطعام في الناصرة.

يسوع وَلَد جميل، ابن اثنتي عشرة سنة، كبير، متين جدّاً، قويّ دون بدانة.

إنّه يَبدو أكبر مِن عمره الحقيقيّ بسبب بُنيته. وهو الآن كبير لدرجة أنّه أصبَحَ على مستوى كتفي أُمّه. إنّه ما زال يحتفظ بوجهه المدوّر الورديّ كما كان أيّام طفولته، وجهه الذي نَحف بفعل الشباب وسنّ الرجولة، وأصبَحَ بلا لون شاحباً بعض الشيء، وبالكاد مصبوغاً بالأصفر الورديّ.

عيناه، عيناه كذلك ما تزالان كعيني طفولته. عينان كبيرتان مفتوحتان جيداً مع وميض فرح ممزوج بنظرة جادّة. لن يعودا فيما بعد مفتوحتين كما هما الآن... سيُغلقهما الجفنان نصف إغلاق ليَحجبا فساد العالم العظيم عن الطُّهر والقداسة. ولن تعودا كذلك إلاّ أثناء اجتراح المعجزات، فتُفتَحان وتُضيئان حتّى أكثر مِن الآن... لطرد الشياطين والموت، لشفاء مرضى الجسد والروح. ومع ذلك لن تعودا بهذا الوميض مِن الفرح الممزوج بالنّظرة الجادّة... فالموت والخطيئة كانا قريبين جدّاً منه ومعهما اليقين المُعاش بعدم جدوى تضحيته بسبب المقاومة الإراديّة مِن البشر. لم يكن كذلك سوى في بعض مِن أوقات الفرح النادرة بسبب وجوده مع نفوس مُخَلَّصَة تحيط به، خاصّة مع كائنات نقيّة، بشكل خاصّ الأطفال، حيث تجعل تلك الإحاطة نَظَرَه المقدّس المليء بالطيبة والصلاح يُشرِق فرحاً.

لكنّه الآن مع أُمّه في بيته، قُبالة القدّيس يوسف الذي يبتسم بحبّ، وكذلك ابني عمه اللذين يَنظران إليه بإعجاب، ومريم زوجة عمه حلفا التي تُداعِبه... إنّه سعيد. ذلك أنّ يسوعي في حاجة إلى الحبّ ليكون سعيداً. وها هو الآن يمتلك هذا الحبّ.

إنّه يرتدي ثوباً ناعماً مِن الصوف الأحمر الأرجوانيّ الفاتح، أملس ليّناً منسوجاً بكامله مِن قماش ناعم الملمس، مكتظّ عند العنق ومِن الأمام، وعند أطراف الأكمام الطويلة والفضفاضة مِن الثوب الطويل إلى الأرض وَشي (نقش)، ليس على شكل حاشية إضافيّة، بل إنّما منسوج بلون داكن على الثوب الأحمر الزاهي الذي لا يَظهَر منه سوى القدمين اللتين تنتعلان صندلاً جديداً مُتقَن الصّنع، فهو لم يعد ذلك النّعل العاديّ بشريطيه المتصالِبَين. يُفتَرَض أن يكون الثوب مِن صنع أُمّه، لأنّ زوجة حلفا تَنظُر إليه بإعجاب وتمدحه. لقد أصبَحَ شعره الأشقر الجميل داكناً أكثر ممّا كان عليه عندما كان يسوع فتى صغيراً، مع انعكاسات نحاسيّة في التلافيف التي تُحدِثها تقصيباته وهو يتدلّى إلى ما تحت أذنيه. لم يعد شعر الطفولة المجعّد والقصير والخفيف. ولم يُصبِح بعد شعر البالغ المُتماوِج المتدلّي إلى كتفيه حيث ينتهي بلفائف ناعمة، إلاّ أنّه يميل إلى ذاك اللون وذاك الشكل.

تقول مريم: «هو ذا ابننا». وفي الوقت ذاته تَرفَع يُمناها المُمسِكة بيسرى يسوع. تبدو وكأنّها تُقَدِّمه للجميع وتؤكّد أبوّة ذلك البارّ الذي يبتسم. وتضيف: «بارِكه يا يوسف قبل الانطلاق إلى أورشليم، لم تكن البركة الشعائريّة ضروريّة عند ذهابه إلى المدرسة، أوّل خطوة في الحياة. بينما الآن، وهو يذهب إلى الهيكل ليُعلَن على الملأ بلوغه السنّ، فباركه وباركني معه. ذلك أنّ بركتكَ... (ويختنق صوت مريم بنشيج) تمنحه القوّة وتمنحني الشجاعة للانفصال عنه عمّا قريب...»

«سوف يكون يسوع لكِ على الدوام، يا مريم. فالشكليّات لن تُبدّل شيئاً مِن علاقاتنا، ولن أزاحمكِ على ابننا العزيز جدّاً على قلبينا. فما مِن إنسان يستحقّ أن يقوده في الحياة أكثر منكِ، يا قدّيستي.»

تنحني مريم وتأخذ يد يوسف وتقبّلها. إنّها عروسته. وكم هي عطوفة ومحترِمة لشريك حياتها!

يتقبّل يوسف بوقار بادرة الاحترام والحبّ هذه، ولكنّه بعدئذ يرفع اليد التي قَبَّلَتها ويضعها على رأس عروسته قائلاً لها: «نعم، أباركِكِ، كوني مبارَكَة ويسوع معكِ. تعاليا يا فرحيَّ الوحيدين،

يا شرفي وهدف حياتي.» يبدو يوسف بمظهر احتفاليّ. وحين يمدّ ذراعيه، وكفّاه باتّجاه الأرض، على الرأسَين المنحنيَين، الأشقرَين المتشابهَين والقدّيسَين، يَنطق بكلمات البركة: «ليحفظكما الربّ ويباركِكما. وليرأف بكما ويمنحكما السلام. وليمنحكما الربّ بركته.» ثمّ يقول: «لقد آن الأوان. لنمضِ. إنّه الوقت المناسب للسفر.»

تأخذ مريم غطاء كبيراً بلون أحمر رمّانيّ داكن، وتغطّي به جسد ابنها. كم هي تُداعِبه أثناء قيامها بذلك!

يَخرُج الجميع، ويُغلِقون الأبواب، ويَسيرون. هنالك مسافرون آخرون يتوجّهون إلى المكان ذاته. خارج البلدة، تنفصل النساء عن الرجال. بينما يذهب الأولاد مع مَن يرغبون، ويسوع يبقى مع والدته.

يسير المسافرون، وهم في أغلب الأحيان يُرَتِّلون المزامير عبر القرى الجميلة جدّاً، في أحلى يوم مِن أيّام الربيع. رطوبة الحقول والقمح، والاخضرار حيث بدأَت الزهور تتفتّح. تراتيل الرجال عبر الحقول وعلى الطرقات. تغريد العصافير التي تتحابّ بين الأوراق. السواقي الصافية حيث تَنظر زهور الأنهار إلى نفسها في مرآتها. حِملان تقفز إلى جانب أُمّهاتها... سلام وبهجة تحت أجمل سماء في نيسان (أبريل).

هكذا تنتهي الرؤيا.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

67- (امتحان رشد يسوع في الهيكل)

21 / 12 / 1944

الهيكل في أيّام العيد. تَدخُل الجموع وتَخرُج مِن أبواب السّور، يجتازون الساحات والردهات والأروقة، يختفون في هذا البناء أو ذاك المُقام على مستويات مختلفة حيث تنتشر كُتَل الهيكل.

ها هُم جماعة يسوع يَدخُلون كذلك وهُم يُرَتِّلون المزامير بصوت خافت. جميع الرجال أوّلاً ومِن ثمّ النساء. وقد انضمّ إليهم أناس آخرون، مِن الناصرة ربّما أو ربّما أصدقاء مِن أورشليم. لستُ أدري.

بعد السجود إليه تعالى، -ليتني أُدرِك جيّداً أين يفعل الرجال ذلك- (وتقف النساء في مكان أخفض قليلاً)، يترك يوسف المكان مع ابنه ويجتاز الساحات مِن جديد، إنّما بالاتّجاه المعاكس. يدور في المكان ويَلِج قاعة كبيرة لها مظهر مُجمَّع. لستُ أفهم جيّداً هل كان يوجد في الهيكل مجامع؟ ثمّ يتحدّث إلى لاويّ، ويغيب هذا الأخير خلف ستار مخطّط ليعود بعد ذلك مع كَهَنَة مُسنّين. أظنّهم كَهَنَة. إنّما هم بالتأكيد معلِّمون في علوم الشريعة، فهم إذاً مكلَّفون بامتحان المؤمنين.

يُقَدِّم يوسف يسوع، وكانا قبلاً قد انحنيا انحناءة كبيرة أمام عشرة أحبار اتَّخَذوا أماكنهم بوقار على كراسي خشبيّة مرتفعة. فيقول: «هو ذا ابني. لقد بَلَغَ منذ ثلاثة أقمار واثني عشر يوماً السنّ الذي يحدّده الشّرع لبلوغ سنّ الرّشد. ولكنّني أرغَب في أن يُصبِح راشداً بحسب تعاليم إسرائيل. أرجوكم الأخذ بعين الاعتبار أنّ بنيته تُظهِر أنه خَرَجَ مِن الطفولة ولم يعد صغيراً. وأرجوكم امتحانه برفق وعدل لتَحكُموا بما أؤكد هنا، أنا أبوه، بأنّه حقيقيّ. لقد هيّأتُه لهذه الساعة لاستحقاق كونه ابن الشريعة التي سيتلقّاها. إنّه يَعرف الأحكام والتقاليد والقرارات وعادات

القرطاس والطلاسم. إنّه يُجيد تِلاوة الصلوات والتبريكات اليومية. فهو يستطيع إذن، بمعرفته للشريعة ذاتها ولفروعها الثلاثة: "هيلاسيا" و "ميدراسك" و "آكادا"، أن يتصرّف كرجل. لأجل ذلك أَرغَب في التحرّر مِن مسؤوليّة تصرّفاته وأخطائه. فليكن منذ الآن مسؤولاً وفق الأحكام، ويَأخذ على عاتقه تَبِعات تقصيره بها. امتَحِنوه.»

«سوف نفعل. اقترب أيّها الصبيّ. ما اسمكَ؟»

«اسمي يسوع بن يوسف الناصريّ.»

«ناصريّ... هل تعرف القراءة إذن؟»

«نعم أيّها الحاخام، أعرف قراءة الكلمات، ما كُتِبَ منها وما اختبأ بين الكلمات ذاتها.»

«ما الذي تريد قوله؟»

«أريد القول بأنّني أُدرِك كذلك معنى المَثَل أو الرمز المستتر خلف الظاهر، مثل اللؤلؤة التي لا تُرى، لكنّها موجودة ضمن الصَّدَفة الضخمة المغلقة.»

«إجابة غير مألوفة، وهي حكيمة جدّاً. نادراً ما نسمع ذلك مِن بالغ، وثمّ مِن طفل... وفوق كلّ ذلك ناصريّ!»

لقد شدَّ انتباه العشرة حتّى لم تعد عيونهم تحيد لحظة عن هذا الطفل الأشقر الجميل الذي يَنظر إليهم واثقاً مِن نفسه، إنّما دون مجابهة، ولكن دون خوف.

«إنّكَ تُشَرِّف معلّمكَ الذي هو، بكلّ تأكيد، عالِم كبير.»

«حكمة الله تستوطن قلبه المستقيم.»

«ولكن اسمعوا! ما أسعدكَ أباً لهكذا ابن!»

يوسف الذي في صدر القاعة يبتسم وينحني.

يُدفَع ليسوع بلفائف ثلاث مختلفة، ويُقال له: «اقرأ ما في اللفافة ذات الشريط الذهبي.»

يَفتَح يسوع اللفافة ويقرأ. إنّها الوصايا العشر. إنّما بعد الكلمات الأولى يَأخذ منه أحد الحُكّام اللفافة قائلاً: «أَكمِل غيباً.» فيتلوها يسوع بثقة كبيرة حتّى لتحسبه يقرأها. وكان في كلّ مرة ينطق اسم الربّ ينحني انحناءة كبيرة.

«مَن عَلَّمَكَ هذا؟ ولماذا تقوم به؟»

«لأنّ هذا الاسم قدّوس، ويجب أن نلفظه مصحوباً بكلّ دلالات الاحترام الداخليّة منها والخارجيّة. فإذا كان الماثلون أمام مَلِك، هو ليس كذلك إلاّ لزمن قليل، ينحنون، وهو ليس سوى غبار. فأمام مَلِك الملوك، ربّ إسرائيل العالي، الحاضر حتّى ولو لم يره سوى الروح، يجب أن تنحني كلّ المخلوقات التابعة له بخضوع أزليّ.»

«أحسنتَ! ننصحكَ أيّها الرجل بأن تُتلمذ ابنكَ على يد هيليل أو جملائيل. إنّه ناصريّ... ولكنّ إجاباته تُؤمِل بأن يُصبِح حَبراً كبيراً جديداً.»

«لقد بَلَغَ ابني السنّ، وهو سيفعل ما يشاء. بالنسبة إليّ، إذا ما أراد ذلك بشكل جادّ فلن أمانع.»

«اسمع أيّها الصبيّ. لقد قلتَ: "تذكّر تقديس الأعياد. ولكن ليس أنتَ فقط، إنّما ابنكَ وابنتكَ وخادمكَ وخادمتكَ كذلك، وحتّى الحيوانات القَيِّمة قيل بعدم شغلها أيام السبت". إذاً قُل لي: إذا باضت دجاجة بيضة أو إذا وَضَعَت نعجة حَمَلاً يوم السبت، فهل يُسمَح باستخدام ثمرة أحشائها، أم بالأحرى يجب اعتباره مُنكَراً؟»

«أَعلَم أنّ حاخامِين كثيرين –آخرهم سياماي، وهو ما يزال حيّاً– يؤكّدون أنّ بيضة يوم السبت لم تحترم الأحكام. ولكنّني أظنّ أنّ الإنسان يختلف عن الحيوان أو الذي يقوم بعمل حيوانيّ كالوضع. فلو أرغَمتُ حيواناً على الشُّغل، أتحمّل أنا خطيئته لأنّني استخدَمتُ نفسي لإجباره على العمل تحت ضغط السّوط. إنّما لو باضت دجاجة بيضة نمت في مبيضها، أو إذا وَضَعَت نعجة يوم السبت لأنّ الأوان قد حان ليرى حَمَلها النور، فلا؛ إنّ هذا العمل ليس خطيئة لا في ذاته ولا في عينيّ الله، إذ لا البيضة ولا الحَمَل اللذين أتيا يوم السبت قد تلطّخا بالخطيئة.»

«لماذا إذاً؟ طالما كلّ عمل يتم أثناء السبت هو خطيئة؟»

«لأنّ الحَمْل والولادة متعلّقان مباشرة بإرادة الله الذي نَظَّمَهُما بحسب قوانين وَضَعَها لكلّ خليقته. فالدجاجة لا تقوم بغير الطاعة لهذا القانون الذي يُحدّد مسبقاً عدد الساعات بعد التَّشكُّل التي ستكون البيضة بعدها كاملة وجاهزة للإباضة. وكذلك النّعجة لا تقوم بغير الطاعة لهذا القانون الموضوع مِن قِبَل الذي صَنَعَ كلّ شيء. لقد رَتَّبَ الخالق أن تطيع النّعاج غرائزها مرّتين في العام، مرّة عندما تُقبِل بسمة الربيع إلى الحقول المُزهِرة، وأخرى عندما تفقد الأشجار أوراقها، ويَعصر البرد صدر البشر، وذلك كي تعطي في المرحلة التالية الحليب واللحم والجبن المغذّي في الأشهر الأكثر تعباً بسبب جني المحاصيل، أو الأكثر قفراً بسبب الصقيع. فإذا وَضَعَت نعجة حَمَلها عندما يحين الوقت، فيمكن اعتبار وَليدها مقدّساً حتّى للهيكل لأنّه ثمرة طاعة للخالق.»

«بالنسبة لي، فأنا أتوقّف عن امتحانه لأنّ حكمته تفوق حكمة البالغين.»

«لا. فلقد قال كذلك إنّه قادر على فهم الرموز أيضاً، فلنستمع إليه.»

«ليتلُ لنا مزموراً والتبريكات والصلوات.»

«وأيضاً الأحكام.»

«نعم اتلُ "المدراش" (Les midrasciot).» (طريقة تعلّم الشّرائع، ومنها كلمة مدرسة)

يَعرض يسوع برباطة جأش مجموعة مِن «لا تفعل هذا... لا تَقم بذاك...» ولو كان ينبغي لنا تحمُّل كلّ هذه القيود، نحن المتمرِّدين، أؤكّد لكم أنّ لا أحد سيخلص...

«يكفي. افتح اللفافة ذات الشريط الأخضر.»

يَفتَح يسوع ويَشرَع بالقراءة.

«بعد ذلك، بعد ذلك.»

يطيع يسوع.

«يكفي، اقرأ واشرح لو بدا لكَ وجود رمز.»

«في كلام الكتاب المقدّس نادراً ما لا يوجد، إنما نحن الذين لا نُحسِن اكتشافه وتطبيقه. أقرأ: سِفر الملوك الرابع، الفصل الثاني والعشرون، الآية العاشرة: "وأخبَرَ شافان الكاتب المَلِك وقال: لقد دَفَعَ إليَّ حلقيا الكاهِن سفراً وقرأته أمام المَلِك. فلما سَمِعَ المَلِك كلام شريعة الربّ مَزَّق ثيابه ثمّ أعطى... "»

«تجاوز الأسماء.»

«"هذا الأمر: اذهبوا واسألوا الربّ لي وللشعب ولجميع يهوذا مِن جهة كلام هذا السفر الذي وُجِد، لأنّه عظيم هو غضب الربّ الذي اضطَرَم علينا لأجل أنّ آباءنا لم يَسمَعوا لكلام هذا السفر ليَعمَلوا بكلّ ما كُتِب علينا..."»

«هذا يكفي. لقد جرى هذا منذ قرون كثيرة قبلنا. فما الرمز الذي تَجِده في مجريات هذه الأخبار التاريخية القديمة؟»

«أرى أن لا نحدّ في زمن ما هو أزليّ. فأزليّ هو الله وكذلك نَفْسنا. وأزليّة هي العلاقات بين الله والنَّفْس. وما أوجب آنذاك العقوبات هو ذاته يُوجِبها الآن. ونتائج الخطأ تبقى ذاتها.»

«ما الذي تريد قوله؟»

«لم تعد إسرائيل تعرف الحكمة المتأتّية مِن الله. فمِنه، وليس مِن البشر المساكين، يجب طَلَب النور، وما مِن نور بدون البرارة والاستقامة والإخلاص لله. إذاً: نحن نخطئ والله في غضبه يُعاقِب.»

«ألم يعد لدينا عِلم؟ ولكن ماذا تقول أيّها الصبيّ؟ والأحكام الستّمائة والثلاثة عشر؟»

«تُوجَد أحكام ولكنّها ليست سوى حبر على ورق. نحن نعرفها ولكنّنا لا نضعها مَوضع التطبيق. إذن فنحن لا نعرفها. والرمز هو ذاك: كلّ إنسان في كلّ زمن هو في حاجة إلى سؤال الربّ لمعرفة مشيئته فيلتزم بها لكي لا يَجلب لنفسه غضبه.»

«الوَلَد كامل. حتّى فخ السؤال المُخادِع لم يهزّ إجابته. فلنأخذه إلى المجمع الحقيقيّ.»

يَنتَقِلون إلى قاعة أوسع وأكثر زينة. وهنا أوّل ما قاموا به هو قص شعره. ويأخذ يوسف التقصيبات. ثمّ يقومون بتزنير ثوبه الأحمر بحزام طويل يلف خصره عدّة مرات. ثمّ يُعلِّقون له رايات على جبهته وذراعيه وعلى معطفه، مثبّتين إيّاها بأنواع مِن الدبابيس. ثمّ يُرَتِّلون مزامير بينما يُمجّد يوسف الربّ بصلاة طويلة ويَستَنزِل كلّ البركات على الابن.

ينتهي الاحتفال ويَخرج يسوع مع يوسف ليعودا إلى المكان الذي أتيا منه، حيث يجتمع رجال العائلة ويشترون حَمَلاً ليُقَدَّم، ومِن ثمّ مع التقدمة المذبوحة يُلاقون النساء.

تُقبِّل مريم يسوعها حتّى لتحسبها لم تره منذ سنوات. إنّها تَنظُر إليه الآن وهو يرتدي الثوب وشعره شعر رجل، إنّها تُداعِبه.

يَخرجون جميعاً. تلك هي النهاية.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

68- (نِقاش يسوع مع علماء الهيكل)

28 / 01 / 1944

أرى يسوع مُراهِقاً، مُرتدياً جلباباً، يبدو لي مِن الكتّان الأبيض يَصِل حتّى القدمين، ومُلتَحِفاً فوقه بقطعة مستطيلة حمراء زاهية. رأسه عار وشعره طويل يَصِل إلى منتصف أذنيه، وهو داكن أكثر مما رأيتُه عليه عندما كان صغيراً. إنّه صبيّ قويّ، حجمه كبير بالنسبة إلى سنّه، ولكنّ وجهه هو بحقّ وجه طفوليّ.

يَنظر إليّ ويبتسم مادّاً ذراعيه. إنّها ابتسامة تشبه تلك التي رأيتُها عندما أصبَحَ بالِغاً: عذبة مع كونها جادّة. إنّه وحيد. لستُ أرى شيئاً آخر في هذه الآونة. إنّه يَستَنِد على جدار صغير على طريق ضيّقة صاعدة-هابطة، طريق حجريّة ينخفض وسطها فتتحول أيّام الشتاء إلى مجرى ماء. وهي الآن جافّة لأنّ النهار جميل.

يتهيّأ لي أنّني أقترب مِن الجدار وأنظُر إلى ما حوله وما تحته كما يفعل يسوع. أرى مجموعة منازل متجمّعة دونما ترتيب. منها ما هو عال، ومنها ما هو منخفض، وتتّجه إلى كافة الاتّجاهات. هذا يشبه -التشبيه فقير ولكنّه صحيح تماماً- قبضة حصى بيضاء مُلقاة على أرض قاتمة. الطرق والدروب فيها تَظهَر كأوردة وسط هذا البياض. وهنا وهناك تشمَخ أشجار بين الجدران. منها ما هي مُزهِرة ومنها ما هي مكسوّة بأوراق جديدة. يُفتَرَض أنّه الربيع.

إلى اليسار، بالنسبة إليّ أنا التي أنظُر، هناك تجمّع سكني كبير قائم على ثلاثة صفوف مِن الأرصفة المغطّاة بالأبنية. ثمّ أبراج وساحات وأروقة يشمَخ في وسطها بناء شاهق، عظيم وثريّ جدّاً، ذو قبب مدوّرة تلمع في الشمس كما لو كانت مغطّاة بمعدن، ربما نحاس أو ذهب. وكلّ

ذلك مُحاط بسور ذي شرفات على شكل M كما لو كانت حصناً. ويُشرِف على هذا التجمع الكبير برج بارز أعلى منه، يتطاول فوق طريق ضيّقة، تحسبه حارساً صارماً.

يُحدِّق يسوع بهذا المكان، ثمّ يعود ليسند ظهره مِن جديد إلى الجدار، كما كان سابقاً، ثمّ يَنظُر إلى أَكَمَة صغيرة مقابِلة للتجمُّع، أَكَمَة مغطّاة بالبيوت حتّى قاعدتها، وما بعد القاعدة عار. أرى طريقاً تنتهي هناك بِقَوس تليها طريق مرصوفة بالحجارة الرباعيّة غير المنتظمة والمجتمعة بشكل سيّئ. الحجارة ليست كبيرة جدّاً مثل حجارة الطريق القنصليّة الرومانيّة، ولكنّها بالأحرى تشبه الحجارة الكلاسّيكيّة لأرصفة فياريجيو (Viareggio) القديمة (لستُ أدري إذا ما كانت قائمة بعد) ولكنّها مجموعة بشكل سيّئ. إنّها طريق سيّئة. أصبحَ وجه يسوع جادّاً لدرجة أنّني شَرَعتُ أبحث في تلك الأَكَمَة عن سبب هذه الكآبة. ولكنّني لم أَجِد شيئاً مميّزاً. إنّه مرتَفَع عار، وهذا كلّ شيء. بالمقابل أضعتُ يسوع. فعلاً، عندما استدرتُ لم يعد هناك. وغفوتُ مع هذه الرؤيا.

عندما استيقظتُ مع ذكرى هذه الرؤيا في القلب، وبعد استعادة قليل مِن القوّة والهدوء، ذلك أنّ الناس جميعهم نيام، وجدتُ نفسي في مكان لم أره مِن قبل، فيه ساحات وينابيع وبيوت أو بالأحرى هي أجنحة أكثر ممّا هي بيوت. إنّها تبدو بالفعل أجنحة أكثر منها بيوتاً. هناك جمع غفير يرتدون الزيّ اليهوديّ القديم، وأصوات كثيرة. وعندما نظرتُ حولي، تنبّهتُ إلى أنّني داخل هذا التجمّع الذي كان يسوع يَنظُر إليه. أرى بالفعل السّور ذا الشرفات الذي يحيط بها، والبرج الذي يُشبه الخفير، وكذلك البناء الضخم الذي ينتصب في الوسط، والذي تستند إليه الأروقة الجميلة جدّاً والواسعة، حيث تُوجَد جموع كثيرة، منهم مَن يهتمّ بأمر ومنهم مَن يهتمّ بآخر.

تنبّهتُ إلى أنّني داخل أسوار هيكل أورشليم. أرى فريّسيّين بثيابهم الطويلة المُتماوِجة، وكَهَنة بأثواب كتّان مع صفيحة مِن معدن ثمين على قمّة الصدر وعلى الجبهة وفي أماكن أخرى، وهي تلمع هنا وهناك على الأثواب الفضفاضة البيضاء المحصورة عند الخصر بحزام ثمين. ثمّ هناك آخرون

بأقلّ زركشة يُفتَرَض أنّهم ينتمون إلى السلك الكَهَنوتيّ وهم محاطون بتلاميذ أصغر سنّاً. أرى أنّهم علماء في الشريعة.

أجد نفسي تائهة وسط كلّ هذه الشخصيّات دون أن أَعلَم سبب وجودي بينهم. أدنو مِن مجموعة مِن الأحبار حيث بَدَأَت مناقشة لاهوتيّة، وتقترب كذلك جموع غفيرة.

بين العُلماء هناك مجموعة على رأسهم جملائيل مع عجوز شبه أعمى يُسانِده أثناء المناقشة، وأَسمَعه يناديه هيليل، ويبدو أنّه أستاذ أو قريب لجملائيل، لأنّ هذا الأخير يعامله بثقة واحترام. لمجموعة جملائيل نظرة أرحَب مِن مجموعة أخرى، وهي الأكثر عدداً، ويقودها سياماي، وتتّصف بالتشدّد البغيض والرجعيّ، وهي التي يُسَلِّط عليها الإنجيل الضوء.

جملائيل، تُحيط به مجموعة هامّة مِن التلاميذ يتحدّث عن مجيء ماسيا، مُعتَمِداً على نبوءة دانيال ليَدعَم مقولة أنّه يجب أن يكون ماسيا قد وُلِد. بالفعل، منذ ما يزيد عن العشر سنوات تقريباً اكتَمَلَت الأسابيع السبعون المحدّدة. إذا ما بُدِئ بالعد منذ لحظة إعادة بناء الهيكل. ويُجابِهه سياماي مؤكّداً أنّه لو كان صحيحاً أنّ الهيكل قد أعيد بناؤه، فليس أقلّ صحة أنّ استعباد إسرائيل مستمرّ في التزايد، وأن السلام الذي كان مُفتَرَضاً أن يجلبه ذاك الذي أسماه الأنبياء "أمير السلام" بعيد جدّاً عن التحقّق في العالم، وخاصّة في أورشليم المضطَهَدة مِن قِبَل عدوّ يجرؤ على بسط سيطرته حتّى سور الهيكل، حيث يُشرِف برج أنطونيا المليء بالجنود الرومان الجاهزين ليَقمَعوا بالسيف كلّ انتفاضة وطنيّة.

تمتدّ المناقشة المليئة بالجَدَل العقيم. كلّ معلّم يُظهِر عِلمه، ليس لكسب الجولة ضدّ مُنافِسه بقدر ما يكون ذلك لفرض إعجاب السامعين به. ولقد كانت هذه النيّة جليّة.

مِن مجموعة المؤمنين المتراصّة يَبرز صوت طفوليّ نَديّ: «الحقّ إلى جانب جملائيل.»

يتحرّك الجمع ومجموعة الأحبار ليَبحَثوا عن الذي قاطَعَهم. إنّما لا حاجة إلى البحث، فهو لا يختبئ. ها هو يَظهَر ويقترب مِن مجموعة الحاخامِين. أتعرّف على يسوعي المُراهِق. إنّه واثق مِن نفسه وصريح، وعيناه تشعّان ذكاء.

يسألونه: «مَن أنتَ؟»

«أنا ابن لإسرائيل، أتيتُ أتمّم ما تفرضه الشريعة.»

إجابتُه الجريئة الواثقة جَعَلتهُ جذّاباً ويستحقّ ابتسامات الاستحسان والحفاوة. فاهتَمّوا بالإسرائيليّ الصغير.

«ما اسمكَ؟»

«يسوع الناصريّ.»

تقلّ الحفاوة عند جماعة سياماي. ولكن جملائيل، وبحفاوة أكثر، يُتابِع النقاش بنفس الوقت مع هيليل. أو بالأحرى هو جملائيل الذي يقول للعجوز باحترام: «سَل الصبيّ.»

فيسأله هيليل: «علامَ تبني تأكيدكَ؟»

(سوف أَضَع الاسم في مَطلَع كلّ إجابة لأوجز وأجعلها أكثر وضوحاً).

يسوع: «على النبوءة التي لا يمكن أن تخطئ بالزمن. وعلى الدلالات التي رافَقَتها عندما حان موعد تحقيقها. صحيح أنّ قيصر يسيطر علينا، ولكن العالم كان مستكيناً جدّاً وفلسطين هادئة جدّاً عندما انتهت الأسابيع السبعون، حتّى أمكن لقيصر أن يأمر بإجراء إحصاء في ممالكه. لم يكن ليستطيع ذلك لو أنّ حرباً كانت مشتعلة في إمبراطوريّته، أو أنّ ثورة كانت قائمة في فلسطين. وبما أنّ الزمن كان قد تمّ هكذا فستتمّ الفترة الأخرى، الأسابيع الإثنان والستون وزيادة واحد منذ إكمال بناء الهيكل، لكي يُكرَّس الماسيا وتتحقّق تتمّة النبوءة في الشعب الذي لم يَقبَلهُ.

هل يمكنكم الشكّ في ذلك؟ هل تَذكُرون النجم الذي رآه حكماء الشرق، والذي تَوَضَّع تماماً في سماء بيت لحم قضاء يهوذا، وأنّ النبوءات والرؤى منذ يعقوب وما تلاه تُحدّد هذا المكان كمُختار لاستقبال ولادة الماسيا ابن ابن ابن يعقوب عَبْر داود الذي كان مِن بيت لحم؟ ألا تَذكُرون بلعام؟ "نجم يُولَد مِن يعقوب". حكماء الشرق الذين فَتَحَت الطهارة والإيمان عيونهم وآذانهم قد رأوا النجم وعرفوا اسمه: "ماسيا"، وأتوا ليَسجدوا للنور الذي أضاء العالم.»

يَنظُر إليه سياماي ممتقعاً: «أتقول إنّ ماسيا قد وُلِد في زمن النجم في بيت لحم إفراتا؟»

يسوع: «لقد قلتُ ذلك.»

سياماي: «إذاً فَلَم يعد له وجود. ألا تَعلَم أيّها الصبيّ أن هيرودس قد قَتَلَ الأطفال الذكور مِن ابن يوم حتّى سنتين في بيت لحم وما يحيط بها؟ أنتَ الذي تعرف الكتاب جيّداً ويجب أن تعرف هذا جيّداً: "صراخ يعلو... راحيل تبكي على بَنيها". وديان بيت لحم وتلالها تَقَبَّلَت عويل راحيل المائتة، وبقي هذا العويل يملؤها. وقد رَدَّدَته الأُمّهات على أطفالهنّ المقتولين. وبينهنّ بكلّ تأكيد كانت أُمّ ماسيا.»

يسوع: «أنتَ تخطئ أيّها العجوز. فبكاء راحيل قد تبدَّل بـ "أوشعنا". لأنّ راحيل الجديدة التي وَلَدَت "ابن الآلام" مَنَحَت للعالم الابن المفضّل للآب السماوي، ابن يمينه، الذي اختير ليجمع الشعوب تحت سيادته ويحرّرها مِن العبوديّة الرهيبة.»

سياماي: «وكيف ذلك إذا كان قد قُتِل؟»

يسوع: «ألم تقرأ ما كُتِبَ عن إيليا؟ لقد رُفِع في عربة مِن نار. ***والربّ الإله، ألا يستطيع إنقاذ عمانوئيل ليكون ماسيا شعبه؟*** وهو الذي شقَّ البحر أمام موسى ليصل إلى إسرائيل أرضه بقدمين جافّتين؟ ***ألم يكن باستطاعته أن يأمر الملائكة فتنقذ ابنه، مسيحه مِن وحشيّة الإنسان***؟ الحقّ أقول لكَ: ***المسيح حيّ بينكم وعندما تأتي ساعته سوف يَظهَر بقدرته.*** » وعندما قال يسوع تلك الكلمات

التي أَشَرتُ إليها، كان صوته يُجَلجِل ويملأ المكان، عيناه تلمعان أكثر مِن المعتاد، وبما أنّه كان متأثّراً بالقُدرة والوعد فقد مَدَّ ذراعه ويده اليمنى كما للقَسَم. إنّه طفل ولكنّه وَقور وقار رجل كهل.

هيليل: «مَن لَقَّنَكَ هذا الكلام أيّها الصبيّ؟»

يسوع: «روح الله. ليس لي معلّم بشريّ. وما تَسمَعونه مِن شفتيَّ ما هو إلا كلام الله.»

هيليل: «تعال بيننا لأراكَ عن قُرب أيّها الصبيّ! لقد أُنعِش رجائي باحتكاكه بإيمانكَ، ونفسي تستضيء بشمس نَفْسكَ.»

وأُجلِسَ يسوع على كرسي مرتفع بين جملائيل وهيليل، وأتوا إليه بلُفافات ليَقرأها ويَشرحها. إنّه امتحان في القانون والشريعة. فتدافَعَت الجموع لتستمع.

ويَقرأ يسوع بصوته الطفوليّ: «"تَعزَّ يا شعبي. تَحدَّثوا إلى قلب أورشليم، وَاسوها فإنّ عبوديتها قد انتهت... صوت صارخ في البرية: أعِدّوا طريق الربّ... حينئذ يَظهَر مجد الربّ..."»

سياماي: «انظر أيّها الناصريّ! هنا يجري الكلام عن العبوديّة التي انتهت. ولم نكن في يوم عبيداً كما نحن الآن. وكذلك الكلام عن سابق. أين هو؟ إنّكَ تهذي!»

يسوع: «أقول لكَ إنَّ السابق يدعوكَ أنتَ أكثر مِن الآخرين، أنتَ وأمثالكَ. وإلّا فلن ترى مجد الربّ ولن تفهم كلام الله، لأنّ الدناءة والكبرياء والنّفاق يحجبون عنكَ الرؤية والإنصات.»

سياماي: «أهكذا تتكلّم مع معلّم؟»

يسوع: «هكذا أتكلّم وهكذا سوف أتكلّم حتّى الممات. ***ذلك أن فوق مصلحتي هي مصلحة الربّ وحبّ الحقّ الذي أنا ابنه***. وأُضيف لكَ أيّها الحاخام إنّ العبوديّة التي يتكلّم عنها النبيّ والتي

أتكلّم عنها أنا أيضاً ليست تلك التي تظنّها أنتَ، والمَلِك كذلك ليس الذي تُفكّر فيه أنتَ. إنّما على العكس، فباستحقاقات ماسيا يتحرّر الإنسان مِن عبوديّة الشرّ الذي يفصله عن الله، وشخصيّة المسيح تنطَبِع على النفوس المُحَرَّرة مِن كلّ نِير، والخاضعة لِمُلكه الأزليّ. كلّ الأمم تنحني، يا ذريّة داود، أمام البذرة المولودة منكَ والصائرة شجرة تغطّي الأرض كلّها وترتفع إلى السماء. كلّ فم في السماء وعلى الأرض يمجّد اسمه، وكلّ ركبة تجثو أمام المقدَّس مِن الله، أمير السلام، ذلك الذي تنتشي منه كلّ نفس تَعِبة وتَشبَع به كلّ نفس جائعة، القائد القدّوس الذي يُقيم رابطة بين السماء والأرض، ليست كتلك التي أُنجِزَت مع آباء إسرائيل عندما أخرجهم الله مِن مصر، بمعاملتهم كعبيد، إنّما بطبع فكرة الأبوّة السماويّة، في نفوس البشر مع النعمة المتدفّقة حديثاً فيهم باستحقاقات الفادي الذي به يَعرف الربّ الأخيار، وهيكل الله لن يُهدَم ولن يُدَمَّر.»

سياماي: «ولكن لا تُجدِّف أيّها الصبيّ! تذكّر دانيال. إنّه يقول إنّ بعد موت المسيح سيُدمّر على يد شعب وقائد يأتي لهذا الغرض، وأنتَ تجزم أنّ هيكل الله لن يُهدَم! احترِم الأنبياء!»

يسوع: «الحقّ أقول لكَ إنّه يوجد مَن هو أعظم مِن الأنبياء وأنتَ لم تعرفه ولن تعرفه لأنّ الرغبة في معرفته تنقصكَ. وأؤكّد لكَ أنّ كلّ ما قُلتُه حقّ. ***لن يعرف الهيكل الحقيقيّ الموت***. ولكنّه مِثل الذي يُقدّسه يقوم مِن الموت إلى الحياة الأبديّة، وفي نهاية العالم يَحيَى في السماء.»

هيليل: «اسمع أيّها الصبيّ. يقول حجاي: "... ويأتي الذي تتمنّاه الأمم جميعاً. وسيكون مجد ذاك البيت الأخير أعظم مِن الأوّل". هل يُحتَمَل أن يكون الهيكل الذي أراد الحديث عنه هو نفسه الذي تتكلّم عنه أنتَ؟»

يسوع: «نعم، يا معلّم، هو هذا ما كان يريد قوله. إنّ استقامتكَ تُسَيِّركَ في طريق النور، وأنا أقول لكَ: عندما تتمّ تضحية المسيح يأتيكَ السلام لأنّكَ إسرائيليّ لا غشّ فيكَ.»

جملائيل: «قُل لي يا يسوع. السلام الذي يتكلّم عنه الأنبياء، كيف يمكن الرجاء به إذا كانت الحرب ستقوم لتُدَمِّر هذا الشعب؟ تكلّم وأَنِرني أيضاً.»

يسوع: «ألا تَذكُر أيّها المعلّم ما قاله أولئك الذين حَضَروا ليلة ولادة المسيح؟ ما رَتَّلَته جموع الملائكة: "السلام للناس ذوي الإرادة الحسنة". ولكنّ إرادة هذا الشعب ليست حَسَنة ولن يكون له سلام. سوف يتنكّر لـمَلِكه العادِل المخلِّص، لأنّه يَنتَظِر مَلِكاً يرتدي القُدرة البشريّة بينما هو مَلِك الروح. هذا الشعب لن يحبّه لأنّ المسيح سيكرز بما لا يروق له. لن يُحارِب المسيح أعداء مجهّزين بعربات وخيل، إنّما أعداء النَّفْس الذين يَنحَدِرون بقلب الإنسان المخلوق للربّ، إلى المتعة الدنيا. وليس هذا هو النصر الذي ينتظره منه شعب إسرائيل. سيأتي مَلِكك، يا أورشليم، راكباً "أتاناً وجحشاً"، يعني أبرار إسرائيل والوثنيّين. ولكنّ الجحش، أقول لكم، يكون أكثر وفاء له ويتبعه سابقاً الأتان، وينمو على طريق الحقّ والحياة. سوف تَفقد إسرائيل السلام بسبب سوء إرادتها وتتألّم في ذاتها على مدى قرون بالذي جَعَل مَلِكها يتألّم جاعلاً إيّاه بسببهم رجل الآلام الذي يتكلّم عنه اشعيا.»

سياماي: «فمكَ أيّها الناصريّ يتفوّه بأقوال صبيانيّة وتجديفات، أجِبني: أين هو السابق؟ متى حصلنا عليه؟»

يسوع: «*إنه موجود*. ألم يقل ملاخي: "ها أنا ذا مُرسِل ملاكي، فيهيّئ الطريق أمامي، وفي الحال يأتي إلى هيكله السيد الذي تلتمسونه وملاك العهد الذي تَرغَبون به بحرارة"؟ إذاً فالسابق يأتي مباشرة قبل المسيح. ولقد أصبَحَ هنا كالمسيح. فلو كان الفارق سنوات بين الذي يُهيّئ الطريق للربّ والمسيح لتعرقَلَت كلّ الطرق وانحَرَفَت. الله يعرف ذلك وقد قرّرَ أن يَسبق السابق المعلّم بساعة واحدة فقط. عندما تَرَون هذا السابق ستستطيعون القول: "إنّ رسالة المسيح قد ابتدأت". ولكَ أقول: سيفتَح المسيح أعيناً كثيرة وآذاناً كثيرة عندما يأتي في طُرُقه. ولكنّها لن تكون تلك التي لكَ ولأمثالكَ. ذلك أنّكم ستَهِبونه الموت مقابل الحياة التي يحملها إليكم ولكن، حينئذ،

سيكون الفادي على عرشه وعلى هيكله أعظم مِن هذا الهيكل وأسمى مِن تابوت العهد المحتجَز في قدس الأقداس، وأَرفَع مِن المجد الذي يحميه الشيروبيم. سيكون الفادي على عرشه وعلى هيكله، واللعنة لقَتَلة الله، والحياة سوف تتدفّق للأمم مِن جراحاته الألف والألف. ذلك أنَّه، يا أيّها المعلّم الذي يجهله، أكرّر ذلك، ليس مَلِك مملكة بشريّة، بل إنّما هو مَلِك روحيّ، وأَتباعه سيكونون فقط الذين يعرفون بحبّهم أن يُولَدوا مِن جديد بالروح، ومثل يونان، بعد الولادة الأولى، يُولَدون مِن جديد على شواطئ أخرى، أَتباع الله عبر الولادة الجديدة بالروح التي ستأتي بواسطة المسيح الذي يَهِب الحياة الحقيقيّة للبشريّة.»

سياماي ومَن حوله: «هذا الناصريّ شيطان!»

هيليل وأتباعه: «لا. بل إنّ هذا الصبيّ هو نبيّ الله. ابق معنا أيّها الصغير. ستَنقل شيخوختي كلّ معارفها إلى علمكَ وستكون معلّم شعب الله.»

يسوع: «الحقّ أقول لكَ: لو كان أمثالك كُثُر لأتى المجد لإسرائيل. ولكنّ ساعتي لم تأتِ. وأصوات السماء تُكلّمني، ويجب أن أتلقّاها في الوحدة والعزلة حتّى تأتي ساعتي. حينئذ سوف أتوجّه إلى أورشليم بشفتيَّ ودمي، وسيكون مصيري مصير الأنبياء الذين رَجَمَتْهم وقَتَلَتْهم. ولكن أعلى مني يوجد الربّ الإله الذي أَخضَع له أنا ليجعل منّي مرقاة مجده بانتظار أن يجعل هو مِن العالم مرقاة لقدم المسيح. انتظروني في ساعتي. ***سوف تَسمَع هذه الحجارة صوتي مِن جديد وترتعد عند كلمتي الأخيرة***. طوبى للذين يَسمَعون الله مِن خلال هذا الصوت وبواسطته يؤمنون به. لهؤلاء يَمنَح المسيح مُلكه الذي تحلم به أنانيّتكم بشريّاً بكلّيته، بينما هو سماويّ. بخصوص قدوم هذا المَلِك، أنا أقول: "ها هو خادمكَ يا ربّ الآتي ليتمّم مشيئتكَ. حَقِّقها كاملة، فأنا أتحرّق لإتمامها.»

هنا تنتهي رؤيا يسوع بوجهه المتأجّج بحرارة روحيّة، متّجهاً صوب السماء فاتحاً يديه واقفاً وسط الأحبار المذهولين.

29 / 01 / 1944

عليَّ هنا أن أُحدِّثكم عن أمرين يهمّانكم بكلّ تأكيد، وكنتُ قد قرّرتُ كتابتهما عند استيقاظي. ولكن بما أنّ هناك ما هو أهم فسأكتبهما فيما بعد.

هذا ما كنتُ أودُّ قوله منذ البداية:

كنتم اليوم تسألونني كيف استطعتُ معرفة أسماء هيليل وجملائيل وسياماي. إنّه الصوت الذي أسمّيه "الصوت الثاني" وهو الذي يقول لي هذه الأمور. إنّه صوت أقلّ إدراكاً بالحسّ مِن صوت يسوع والآخرين الذين يُملون عليَّ. هذه الأصوات، قُلتُها وأُكرِّرها، تَسمَعها مَسامِعي الروحية كما لو كانت أصواتاً بشريّة. أَسمَعها عذبة أو مغتاظة، ضاحكة أو حزينة، تماماً كأنَّ أحداً يُكلّمني عن قرب. بينما هذا "الصوت الثاني" على العكس، فهو مثل نور، مثل حسّ داخليّ يتكلّم في روحي. قلتُ: "في" روحي، ولم أقل "إلى" روحي. هذا هو بالتحديد.

وهكذا حينما كنتُ أدنو مِن مجموعة الرجال الذين يتجادلون دون معرفة مَن يكون هذا الشخص العظيم الذي، إلى جانب أنّه عجوز، كان يتكلّم بكثير مِن الحرارة. هذا "الصوت الداخليّ" قال لي: «جملائيل، هيليل». نعم، أوّلاً جملائيل ثمّ هيليل. لا أَشُكّ بهذا أبداً. وعندما تساءَلتُ مَن يكون هؤلاء، حَدَّدَ لي جهاز المراقبة الداخليّ الشخص الثالث، ثقيل الظَلّ، تماماً حين ناداه جملائيل باسمه. وهكذا استطعتُ معرفة ذاك الذي كان له مَظهَر الفرّيسيّ. واليوم، جهاز المراقبة الداخليّ هذا يُفهِمني كيف كنتُ أرى الكون بعد موته. هو هكذا وغالباً في الرؤى، هو الذي يُفهِمني كثيراً مِن التفاصيل التي لا يمكن أن أفهمها مِن ذاتي، ومِن الضروريّ أن أُدرِكها. لستُ أدري ما إذا كنتُ قد استطعتُ التعبير جيّداً. ولكنّي سأدع هذا جانباً لأنّ يسوع بدأ يُكَلِّمني.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

69- (ألم مريم لدى اختفاء يسوع)

22 / 02 / 1944

يقول يسوع:

«محبوبتي الصغيرة، اصبري. فالأمر يتعلّق بشيء آخر. ولنعالج هذا الشيء الآخر لإرضاء مرشدكِ وإتمام العمل. أريد أن يكون العمل منتهياً غداً، أربعاء الرماد. أريدكِ أن تُنهي هذا العمل مُنهَكَة، لأنّني... أريد أن أجعلكِ تتألّمين معي.

لنعد إلى الوراء، إلى الوراء كثيراً. لنعد إلى الهيكل حيث كنتُ في عمر اثنتي عشرة سنة في مناقشة فيه. لنعد حتّى إلى الدروب المؤدّية إلى أورشليم، ومنها إلى الهيكل.

تَرَين ألم مريم حينما اجتَمَعَت جماعات الرجال والنساء ورَأَت أنّني لم أكن مع يوسف. لم تحتدّ وتتّهم عروسها اتّهامات قاسية. كلّ النساء كنّ فعلن ذلك. كنّ فعلنها لأقلّ مِن ذلك أيضاً، ناسيات أنّ الرجل هو ربّ العائلة.

لكنّ الألم الذي ارتسم على وجه مريم قد اخترق قلب يوسف أكثر مِن أيّ اتّهام. فمريم لا تستسلم لمشاهد دراماتيكيّة. نساء أخريات كنّ ستفعلن ذلك مِن أجل أمور أقلّ كثيراً، وذلك للفت الانتباه واستدرار العطف. ولكنّ الألم الذي تحتويه جليّ جدّاً، وكذلك الرعشة التي استولَت عليها، وشحوب وجهها، وعينيها المُحملِقَتَين المؤثّرتين أكثر مِن مشهد البكاء والصراخ.

لم تَعُد تشعر بالتعب والجوع، مع أنّ الشّوط كان طويلاً، وكان قد مضى وقت لم تكن قد تناوَلَت خلاله شيئاً! لكنّها تترك كلّ شيء، المنامة التي تهيَّأَت والغذاء الذي سيوزَّع. تعود على أعقابها. إنّه المساء، والليل بدأ يهبط. لا يهمّ، فكلّ خطوة تُدنيها مِن أورشليم. تُوقِف القوافل

والحجاج وتسألهم. وكان يوسف يتبعها ويساعدها. بعد يوم كامل مِن المسير المعاكس، يبدأ البحث القَلِق عَبر المدينة.

أين، أين يمكن أن يكون يسوعها؟ والله يَسمَح بأن لا تعرف أين تبحث عنّي على مدى ساعات طويلة. البحث عن طفل في الهيكل لم يكن له معنى. ماذا يمكن لطفل أن يفعل في الهيكل؟ على الأكثر، لو تاه في المدينة، فستعيده خطواته الصغيرة إلى هنا، إلى الداخل، أمّا صوته المشتكي فكان سينادي أُمّه ويَلفت انتباه الكبار والكَهَنة، الذين كانوا سيُفكّرون في البحث عن الأهل وفي وضع إعلانات على الأبواب. ولكن لا إعلانات. ولا أحد في المدينة يعرف شيئاً عن هذا الصبيّ. جميل؟ أشقر؟ قويّ؟ ولكن هناك الكثير ممّا يمكن قوله عنه! وهذا قليل جدّاً لإمكانيّة التأكيد: "رأيتُه، كان هنا أو هناك"!

بعد ثلاثة أيّام، وهي تَرمز إلى قلقها المستقبليّ لمدة ثلاثة أيّام، ها هي مريم على وشك أن تَخور قِواها، فتَدخُل الهيكل، وتَقطَع الساحات والردهات. لا شيء. تَركُض الأُمّ المسكينة وتَركُض إلى حيث تَسمَع صوتاً طفوليّاً، ذلك أنّ حتّى الحِملان حين تثغو كانت تبدو لها صوت مَن تبحث عنه. لكنّ يسوع لا يبكي. إنّه يُعَلِّم. ها هي مريم تَسمَع خلف جَمع مِن الرجال الصوت المحبوب يقول: "هذه الحجارة ترتعد..." فتُحاول شقّ طريق لها عبر الجَمع، وتنجح أخيراً. ها هو الابن، الذراعان مفتوحتان وهو مُنتَصِب وسط العلماء.

مريم العذراء حَذِرَة ويَقِظَة في العادة، إلّا أن الغَمّ قد أخرَجَها هذه المرة عن تَحَفُّظها. تركض باتّجاه ابنها، تُعانِقهُ وهي تَرفَعهُ عن كرسيّه وتَضَعهُ على الأرض. تَصرُخ: "آه! لماذا فَعَلتَ بنا هذا؟ إنّنا منذ ثلاثة أيّام نَغذّ السير في البحث عنكَ. أُمّكَ ماتت مِن الغَمّ وأبوكَ أُنهِكَ مِن التعب. لماذا يا يسوع؟"

مَن يَعرف لا يُسأل "لماذا". الـ "لماذا" لأسلوبه في التصرّف. المَدعوّون لا يُسألون "لماذا" لأنّهم يَتركون كلّ شيء ويَتبعون صوت الله. لقد كنتُ الحكمة وكنتُ أعرف. كنتُ "مدعوّاً" لرسالة

وكنتُ أُتمّمها. فَفوق الأب والأُمّ الأرضيَّين هناك الله الأب الإلهيّ. مصالحه تتعدّى مصالحنا، عواطفه تمرّ قبل كلّ ما عداها. ذاك هو ما قُلتُه لوالدتي. أنهيتُ تعليمي للأحبار بعبرة لمريم مَلِكة العُلماء. لم تعد تنساها أبداً. شعاع شمس عاد إلى قلبها، وعلى الرغم مِن إمساكها بيدي مُتواضِعاً وطَائِعاً، إلّا أنّ كلماتي قد حُفِظَت في قلبها.

أيّام كثيرة مشمسة أو غائمة ستمرّ تحت السماء خلال السنوات الإحدى والعشرين التي سأقضيها على الأرض. كثير مِن المَسرّات وكثير مِن الأحزان والبكاء ستمرّ الواحد تلو الآخر في قلبها خلال الإحدى والعشرين سنة التالية، ولكنّها لم تعد تَسأَل: "لماذا يا بنيّ فعلتَ بنا هذا؟"

تَعلَّموا هذه الأمثولة، أنتم أيضاً أيّها الناس المُتَعَجرِفون.

لقد أردتُ أن أُعَلِّم أنا عن الرؤيا وأُنيرها، لأنّكِ لستِ في وَضع يَسمَح بأن تعملي أكثر.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

70- (وفاة القدّيس يوسف)

1944 / 02 / 05

بينما أنا أُصحّح الكُرّاسة، وبالتحديد هذه الإملاءات حول الديانات الخاطئة في الزمن الحاضر، تَلِج الرؤيا بإلحاح في أعماقي، فأكتُبها أثناء رؤيتها.

أرى داخل مَشغَل نجّار. يبدو لي أن جِدارين منه هما حافّتي صخرة، كما لو أن مغارة طبيعية قد استُغِلّت في بناء غرف المنزل.

إنّهما بالضبط الجانبان الشماليّ والغربيّ اللذان نراهما هكذا، بينما الجانبان الآخران، الجنوبيّ والشرقيّ، مَطليّان بالجصّ مثل جدراننا.

في الجدار الشماليّ تُوجَد حُفرة في الصخر استُخدِمَت كموقد بدائيّ، حيث يوجد قِدر فيه طلاء أو غراء. لستُ أدري جيّداً. أمّا الخشب الذي احترَق في هذا المكان على مدى سنوات، فقد سَوَّدَ الجانب الذي أصبَحَ يبدو مطليّاً بالقطران. إلى جانبها ثقب تمّ فوقه بناء نوع مِن الآجرّ المستدير في مُحاوَلة ليقوم مقام المدخنة فيَشفط دخان الخشب. ولكنّ الظاهر أنّه فشل في تحقيق وظيفته، ذلك أنّ الجوانب الأخرى قد اسوَدَّت مِن الدخان، وحتّى هذه اللحظة توجد غيمة مِن الدخان تنتشر في الغرفة.

يسوع يعمل على طاولة نجارة. إنّه يَسحَج ألواحاً خشبيّة، يَسندها خلفه على الجدار. ثمّ يأخذ كرسيّاً محصوراً بين فكّي ملزمة، يُحرّره، يَنظُر إلى العمل إن كان مُحكَماً، يختبره بالكوس المثلّث في كلّ الاتجاهات. ثمّ يَذهَب إلى الموقد يَغمس في القِدر عصاً صغيرة أو فرشاة لستُ أدري. فأنا لا أرى سوى القطعة الظاهرة مِن القِدر، وهي عبارة عن عصا صغيرة.

ثوب يسوع بنّي داكن. جلبابه قصير وأكمامه مرفوعة، بل مَثنيّة إلى أعلى مِن المرفق. ومِن الأمام يضع مِئزراً يفرك به أصابعه عندما تلمس القِدر ليمسحها. إنّه وحيد ويعمل بنشاط، إنّما بهدوء. فلا حركة بغير ترتيب، ولا خروج عن الصبر. إنّه دقيق ودؤوب في عمله. لا شيء يجعل أعصابه تتوتّر: لا عُقدَة في الخشب لم تُسحَج، ولا البرغي (يبدو لي) يقع مرتين مِن الطاولة، ولا الدخان الذي يضايق عينيه.

يَرفَع رأسه بين الحين والحين ليَنظُر صوب الجنوب حيث يوجد باب مغلق، كما ليُنصِت. وفي لحظة يتقدَّم ويَفتَح باباً في الجانب الشرقيّ يُفضي إلى الشارع. أرى زاوية زقاق ترابيّة. تَحسبه ينتظر أحداً. ثمّ يعود إلى العمل. هو ليس حزيناً ولكنّه جادّ. يُغلِق المدخل ويعود إلى العمل.

وبينما هو مُنهَمِك في صنع ما يبدو لي أنّه قِطَع دائرة عجلة (إطار)، تَدخُل والدته مِن باب في الجدار الجنوبي. تَدخُل مسرعة، راكضة صوب يسوع. إنّها ترتدي ثوباً لازورديّاً داكناً، ولا شيء يغطّي رأسها. جلبابها بسيط ومحصور عند الخصر بحبل مِن اللون ذاته. تنادي بلهفة ابنها، وتضع يديها على ذراعه بحركة تُوحي بالتوسُّل الممزوج بالألم. يُلاطِفها يسوع بوضع ذراعه على كتفها ويُشجّعها، ثمّ يمضي معها تاركاً العمل، نازعاً المِئزَر.

أظنّكم تريدون أيضاً معرفة ما دار بينهما مِن كلام. إنّه قليل جدّاً مِن جانب مريم: «آه! يسوع! تعال، تعال. إنّه على غير ما يرام!» تقول ذلك بينما شفتاها تَرتَعِشان ودموعها تَلمَع في عينيها الحمراوين المتعبَتَين. أمّا يسوع فلا يقول سوى: «ماما!» ولكن هذه الكلمة تتضمّن كلّ شيء.

يَدخُلان إلى غرفة مجاورة تضحك فيها الشمس الداخلة إليها مِن خلال باب مفتوح على الحديقة الصغيرة المليئة بالاخضرار المُنير، حيث تطير طيور الحمام وسط الغسيل المنشور ليجفّ. الغرفة فقيرة ولكنّها مرتّبة جيّداً. وعلى سرير فيها مُنخَفِض، وُضِعَت عليه فَرشَات صغيرة (أقول فَرشَات صغيرة ذلك أنّها أشياء سميكة وناعمة، إنّما هو فليس سريراً كأسرّتنا) يتمدّد يوسف مُسنِداً

رأسه على عدّة وسادات. إنّه يحتضر. نرى ذلك بوضوح على وجهه ذي الشحوب المزرورق وعينه التي تخبو، وكذلك على صدره اللّاهث وجسده الذي يتلاشى بكلّيته.

تقف مريم إلى يساره، وتُمسِك يده مُتَصَلِّبة الجلد المُزرَورقة حتّى الأظافر. وأخَذَت تفركها، تُلاطِفها، وتقبّلها، وتمسح بقطعة قماش العَرَق الذي يُشَكِّل خطوطاً تلمَع على الصدغين المتجعّدين، والدمعة التي تتلألأ في زاوية العين. تُرطّب شفتيه بقطعة مبلّلة بسائل يبدو لي أنّه نبيذ أبيض.

يقف يسوع إلى يمينه، وبرشاقة وانتباه يرفَع جسده الخائر على الوسادات بمساعدة مريم. يُلاطِف المحتضر على جبهته ويحاول إنعاشه.

تبكي مريم بهدوء وبدون صوت، ولكنّها تبكي. تسيل الدموع على خدّيها الشاحبين حتّى ثوبها اللازورديّ الداكن، فتبدو كأحجار سفير متلألئة.

يَنتَعِش يوسف ويتفرّس بيسوع. يعطيه يده كما ليقول له شيئاً، وليَجِد في هذا التّماس الإلهيّ القوّة للاختبار الأخير. ينحني يسوع على تلك اليد ويقبّلها. يبتسم يوسف. ثمّ يَستدير ليَنظُر ويبحث عن مريم ويبتسم لها أيضاً. تركع مريم بجانب السرير، تُحاوِل أن تبتسم، ولكنّها تُخفِق وتَخفض رأسها. يضع يوسف يده على رأسها بملاطفة عفيفة تبدو وكأنّها بركة.

لا يُسمَع سوى طيران الحَمام وهديله، وحفيف الأوراق، وخرير المياه، وفي الغرفة تَنَفُّس المحتضر.

يَدور يسوع حول السرير، يأخذ كرسيّاً ويُجلِس مريم قائلاً لها فقط: «ماما.» ثمّ يعود إلى مكانه، ويأخذ يوسف بين يديه. كان المشهد حقيقيّاً لدرجة أنّ حزن مريم قد انتَزَعَ دموعي. ثمّ ينحني يسوع على رأس المحتضر ويُتَمتِم له بمزمور. ولكنّني، في الوقت الحاضر، لا أستطيع القول أيّ مزمور هو.

إنه يبدأ هكذا:

«"ارحمني يا رب لأنّني وضعتُ فيكَ رجائي...

مِن أجل القدّيسين الذين على الأرض حَقِّق كلّ رغباتي...

سأُبارك الربّ الذي يمدّني بنصائحه...

الربّ معي جميع أيّام حياتي. إنّه على يميني لكي لا أتزعزع...

كذلك قلبي يبتهج ولساني يتهلّل؛ وجسدي كذلك يستريح في الرجاء.

لأنّكَ لن تُهمِل نفسي في مقام الأموات ولن تسمح بأن يرى صفيّكَ الفساد.

ستدلّني على طريق الحياة وتملأني حبوراً برؤية وجهكَ".»

يعود يوسف لينتَعِش كلّية. ويبتسم ليسوع بنظرة أكثر حيويّة ويشدّ على أصابعه. ويَردّ يسوع بابتسامة على ابتسامة يوسف، وبملاطَفة على ضغط أصابعه. ومنحنياً فوق أبيه المزعوم، يُكمِل بهدوء:

«"ما أَحَبّ مساكنكَ يا رب.

تشتاق وتذوب نفسي إلى ديار الربّ.

العصفور يَجِد له مأوى واليمامة عشّاً لفراخها. مَن لي بمذابحك يا ربّ.

طوبى لساكِني بيتكَ... طوبى للذين يجدون فيكَ قوّتهم.

فإنّ في قلوبهم مراقي إليكَ، يجتازون وادي الدموع إلى المكان الذي اخترتَه.

اسمع أيّها الربّ صلاتي...انظر يا الله والتَفِت إلى وجه مسيحكَ..."»

يَجهَش يوسف ويَنظُر إلى يسوع ويُحرّك شفتيه كما ليباركه، ولكنّه لا يستطيع. مِن المُلاحَظ أنّه يُدرِك ولكنّه لا يستطيع الكلام، ولكنّه مع ذلك سعيد مِن خلال نظرته المليئة بالحياة والثقة بيسوعه.

ويُتابِع يسوع:

«"آه! رضيتَ يا ربّ عن أرضكَ، ورددتَ سبي يعقوب...

أَرِنا يا ربّ رحمتكَ وَهَب لنا خلاصكَ.

أريد أن أسمَع ما يتكلّم به الربّ الإله في داخلي. بالتأكيد إنّه يتكلّم بالسلام لشعبه ولأصفيائه والذين يَميلون بقلوبهم إليه.

نعم. خلاصكَ قريب... ومجدكَ يَسكن الأرض... الرحمة والحقّ تَلاقَيا والعدل والسلام تَلاثَما. الحقّ مِن الأرض نَبَتَ والعدل تَطَلَّع مِن السماء.

نعم. الربّ يمنح الخير وأرضنا تعطي ثمارها. العدل يَسلك أمامه ويضع في الطريق خطواته."»

«لقد رأيتَ هذه الساعة أيّها الأب وقد تَعِبتَ مِن أجلها. لقد آزَرْتَ في قدوم هذه الساعة، والربّ سيكافئكَ. أقول لكَ ذلك.» يُضيف يسوع ذلك وهو يمسح دمعة فرح تنسكب ببطء على خدّ يوسف.

ثمّ يُتابِع:

«"أيّها الربّ اذكر داود وكلّ عنائه.

كيف أَقسَمَ للربّ، لن أَدخُل خَباء بيتي، لن أعلو إلى سرير مضجعي، لن أعطي لعيني وَسَناً ولا أجفاني نوماً ولا لروحي استرخاء إلّا أن أَجِد للربّ مَقامَاً، مَسكَناً لإله يعقوب.

قُم أيّها الربّ إلى راحتكَ، أنتَ وتابوت عهدكَ المقدّس.

(تُدرِك مريم وتذوب في الدموع)

لِيَلبس كَهَنَتكَ البرّ وليُرنِّم أصفياؤكَ.

مِن أجل داود عبدكَ لا تحجب عنّا وجه مسيحكَ.

أقسَمَ الربّ لداود ولن يخلف لأُجلسنّ مِن ثمرة بطنكَ على عرشكَ.

الربّ اختاره لإقامته.
هناك أُنبِت لداود قُدرة، أُهيّئ لمسيحي سراجاً مُشتَعِلاً."»

«شكراً لكَ يا أَبَتِ باسمي وباسم والدتي. لقد كنتَ لي أباً بارّاً وقد خَصَّكَ الربّ برعاية مسيحه وتابوت عهده المقدّس. لقد كنتَ المنارة المشتعلة له ولثمرة أحشاء مقدّسة، كان لكَ قلب محبّة. اذهب بسلام يا أبي، لن تكون أرملتكَ دون عون، لقد رَتَّبَ الربّ كلّ شيء لكي لا تبقى وحيدة. أقول لكَ اذهب بسلام إلى مقرّ راحتكَ.»

مريم تبكي مُنكَبَّة على الأغطية (كأنّها معاطف) الممدودة على جسد يوسف الذي عاد يبرد. ويسوع يُسارِع في أداء الخدمات الأخيرة، إذ إنّ تنفّسه بدأ يضعف، وغشاوة ظَهَرَت على عينيه.

«"طوبى للرجل الذي يخشى الربّ ويضع سروره كلّه في طاعته...
عدله يدوم إلى جيل فجيل. وسط المستقيمين يقف في الظلمات، وهو الرحيم والخَيِّر والعادل...
ذِكر الصدّيق إلى الأبد... عدله أزليّ. قُدرته ترتفع إلى المجد..."»

«ستَنال هذا المجد يا أبي. سآتي قريباً لأصحبكَ وذوي الوقار الذين سبقوكَ إلى المجد الذي ينتظركَ. فليبتهج روحكَ بكلامي.»

«"مَن يسترح بحضور الربّ تعالى يَعش تحت حماية إله السماء".»

«هذا هو مقرّكَ يا أبي.»

«"لقد حَرَّرَني مِن شِراك الصيادين ومِن كلّام السوء.
بريشه يظلّلكَ وتحت أجنحته تَعتَصِم.

يكون لكَ حقّه ملجأً، فلا تخشى مِن هَول الليل...

لا يصيبكَ سوء... لأنّه يوصي ملائكته بكَ ليحفظوكَ في جميع طرقكَ.

على أيديهم يحملونكَ لئلا تصطدم بحجر رجلكَ.

تطأ الصلّ والأفعى، وتدوس الشبل والتنّين.

لأنّ رجاءكَ في الربّ يخبركَ بأنّه سيحرّركَ ويحميكَ."»

«ولأنّكَ رفعتَ إليه صوتكَ سيستجيب لكَ ويكون معكَ في المحنة الأخيرة. سيمجّدكَ بعد هذه الحياة بأن يُريكَ منذ هذه الحياة مجده. وسيُدخلكَ في الحياة الأخرى بالمجد الذي منذ الآن يعزّيكَ. وأُكرّر لكَ بأنه هو الذي سيأتي سريعاً ليحتضنكَ في عِناق إلهيّ ويأخذكَ معه على رأس كلّ الأبرار إلى حيث هي مُعَدَّة إقامة صِدِّيقي الله الأب المبارك بالنسبة لي.

اسبقني لتقول للأبرار إنّ المجد قد حلّ في الأرض، وإنّ ملكوت السماوات سيُفتَح لهم قريباً. اذهب يا أبي ولترافقكَ بركتي.»

يَرفَع يسوع صوته ليَصِل إلى روح يوسف الذي غاص في ضباب الموت. النهاية وشيكة. لم يعد العجوز يتنفّس إلا بصعوبة. تُلاطِفه مريم. يَجلس يسوع على حافّة السرير ويحيط بذراعيه المحتضر الذي يَخور وينطفئ بهدوء، ويَجذبه إليه.

المشهد مليء بسلام وَقور. يُمَدِّد يسوع العجوز ويُعانِق مريم التي تدنو في تلك اللحظة الأخيرة مِن يسوع، والقلق يُمزّقها.

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

71- (بوفاة يوسف، اختبَرَت مريم ألماً حاداً)

1944 / 02 / 05

يقول يسوع:

«كلّ النساء اللواتي يُصبن بألم مبرح أُعَلِّمهن أن يَقتَدِين بمريم باتّحادها بيسوع في تَرَمُّلها.

يُخطئ كلّ مَن يُفكّر بأنّ مريم لم تتألّم بأحزان قلبها. ***والدتي قد تألَّمت***، اعلَموا ذلك، ***بقداسة***، لأنّ كلّ ما فيها كان مقدّساً، **إنّما بعمق**.

وكذلك يُخطِئ مَن يعتقد أنّ حبّ مريم لعروسها كان بالأحرى فاتراً، لأنّ وحدة الروح هي التي كانت تربطهما. فإنّ مريم كانت تحب يوسف بشدّة. لقد كَرَّسَت له ثلاثين عاماً مِن حياة الوفاء. فكان يوسف بالنسبة إليها: أباً وعروساً وأخاً وصديقاً ونصيراً.

الآن تَشعُر بأنّها وحيدة، كالغصن الغضّ المقطوع مِن جذع الكرمة الذي به ترتبط حياته. فكان بيتها كالذي ضَرَبَته الصاعقة. إنّه الآن يَتشتَّت. قبل ذلك كان الاتّحاد، حيث كلّ فرد مِن العائلة يَستَنِد على الآخرين. أمّا الآن فها هو الجدار الرئيسيّ يَهوي، أولى الضربات التي لَحِقَت بهذه العائلة، نبأ الانفصال القريب جدّاً عن المحبوب يسوع. فإرادة الأزليّ التي أرادتها عروسة وأُمّاً تَفرض عليها الآن الترمّل والابتعاد عن ابنها. ومريم، وسط دموعها، تَنطق إحدى مقولاتها الرائعة: "نعم". "نعم يا رب، ليكن لي بحسب قولكَ".

وفي تلك الساعة التَصَقَت بي لتنال القوّة. كانت دائماً تلتصق بالله في الساعات الأكثر خطورة في حياتها: في الهيكل عندما دُعِيَت للزواج، في الناصرة عندما دُعِيَت للأُمومة، وفي الناصرة

أيضاً وسط دموع تَرَمُّلها، وكذلك في الناصرة وسط عذاب الانفصال عن ابنها، وعلى الجلجلة في ألم مَشهَد موتي المبرّح.

تَعلَّموا هذه الأمثولة، أنتم يا مَن تبكون، أنتم يا مَن تموتون، أنتم يا مَن تعيشون لتموتوا. اجتَهِدوا في أن تَستَحِقّوا الكلمات التي قُلتُها ليوسف، فتكون لكم السلام ساعة احتضاركم. احفظوا هذه العِبرة، أنتم يا مَن تموتون لتَستَحِقّوا يسوع قريباً منكم يواسيكم. حتّى ولو لم تَستَحِقّوا ذلك فتجاسَروا على مناداتي إلى جوارکم. سوف آتي، ويداي ممتلئتان نِعَماً وتعزيات، وقلبي يفيض مغفرة وحُبّاً وعلى شفتيّ كلمات الصّفح والتشجيع.

يَفقد الموت كلّ قسوته عندما يكون بين يديّ. ثِقوا بذلك. لا يمكنني إلغاء الموت، ولكنّني أجعله لطيفاً بالنسبة لمن يموت وهو مُستَسلِم لي.

لقد قال المسيح ذلك، لكم جميعاً، وهو على الصليب: "ربّي، بين يديكَ أَستَودِع روحي". لقد قالها أثناء احتضاره وهو يُفَكِّر بنزاعاتكم وبأخطائكم وبهلعكم وبمخاوفكم وبرغباتكم في الغفران. لقد قالها وقلبه ممزَّق قبل أن تَختَرِقه الحربة تمزُّقاً روحيّاً أكثر منه جسديّاً، لكي تكون نزاعات الذين يموتون وهم يُفكّرون به مُلَطَّفة بالربّ، وأن ينتقل الروح مِن الموت إلى الحياة، مِن الألم إلى السعادة الأبديّة.

هي ذي عِبرة اليوم، كوني صالحة، لا تخافي، فسلامي لن يتوقّف عن التدفّق إليكِ مِن خلال أحاديثي والتأمُّل. تعالي. ضعي نفسكِ مكان يوسف الذي اتَّخَذَ صدر يسوع كوسادة ومريم كممرّضة. استريحي بيننا مِثل طفل في مهده.»

---------------- (عودة إلى الفهرس) ----------------

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

72- (خُلاصة الحياة الخفيّة)

10 / 06 / 1944

تقول مريم:

«قبل أن ترفعي هذه الدفاتر، سأضم بركتي إليها. والآن إذا أردتِ أن تضيفي قليلاً مِن الصبر، يمكنكِ أن تحصلي على المجموعة الكاملة لحياة يسوع الخاصة. مِن البِشارة حتّى لحظة خروجه مِن الناصرة ليُبشّر بالإنجيل. فليسَت لديكِ الأحاديث فقط، بل إنما كذلك أهم الأحداث التي رافَقَت حياة يسوع العائلية.

السنوات الأولى، الطفولة، المُراهَقة وشباب ابني، وكلّ شيء مُحَدَّد بحوادث مُختَصَرة، في إطار حياته التي تَصِفها الأناجيل. فهناك هو المعلم. وهنا هو الإنسان، إنَّه الله الذي تواضَعَ لمحبته للإنسان. ومع ذلك اجترَحَ خلالها معجزات مع تَلاشي حياة مشتركة. فَعَلَها بي أنا التي أُحِسُّ نفسي محمولة إلى الكمال بالاحتكاك بالابن الذي تكوَّنَ في أحشائي. فَعَلَها في بيت زكريا بتقديسه المعمدان، بتسهيله وضع أليصابات، وبإعادته النطق والإيمان لزكريا. فَعَلَها بيوسف حين فَتَحَ روحه على نور حقيقة سامية لدرجة لم يكن ليتمكن مِن إدراكها بوسائله وحدها حتّى ولو كان باراً. وبَعدي، كان يوسف هو الذي ابتَهَجَ بهذا الوابل مِن الخيرات. لاحِظي أية طريق يَسلك في المَسلَك الروحيّ منذ اللحظة التي أتى فيها إلى بيتي حتّى الهرب إلى مصر.

في البدء كان مجرد رجل بار في زمنه. ثمّ، وعلى مراحل متتالية أصبَحَ رجل المسيحية البار على الإطلاق. لقد حَصَلَ على الإيمان بالمسيح واستسلَمَ بسكون لهذا الإيمان. فكِّروا في هذه الجملة في بداية الرحلة مِن الناصرة إلى بيت لحم: "ماذا سنفعل؟" فالرجل يرى الأمور كلّها وفق مخاوفه البشرية وهمومه البشرية. ثمّ يتوصَّل إلى الرجاء. وفي المغارة قبل ميلاد يسوع يقول: "غداً

سيكون كلّ شيء أفضل". ويسوع الذي قَدِمَ مَنَحَهُ الشجاعة مع هذا الرجاء الذي هو أحد أجمل هِبات الله. وعندما تقدَّسَ باحتكاكه به، انتَقَلَ مِن الرَّجاء إلى الإقدام. لقد كان دائماً يستسلم لقيادتي للإجلال الذي كان يُغذّيه حيالي. وها هو الآن يُمسِك بزمام الأمور المادية وتلك التي في مرتبة أعلى. وهو الذي كان، كَرَبّ العائلة، يَتَّخذ القرار في حال وجود ظروف خاصة. وليس هذا فقط، إنما في ساعة محنة الهرب، بعد أن أُشبِعَت قداسته خلال تلك الأشهر مِن الاتحاد بالطفل الإلهي، فقد كان هو الذي يُعزّيني في محنتي ويقول لي: "حتّى ولو اضطررنا لأن نفقد كلّ شيء، فسنظل نمتلك دائماً كلّ شيء، لأننا نمتلكه هو".

يسوع يَجتَرِح معجزاته: يَهِب النّعمة للرُّعاة. فالملاك يذهب إلى حيث يوجد الرّاعي الذي هيَّأه لقاؤه العابر بي لهذه النّعمة، ثمّ يحمله إلى واهِب النِّعم لخلاصه الأبدي. فحيثمّا يَمرّ كان يَجتَرِح المعجزات، في المنفى أو حينما عاد إلى موطنه الصغير، الناصرة. إذ حيثمّا يَتواجَد تنتشر القداسة كبقعة زيت على قطعة قماش، ويكون الهواء مُعَطّراً بالزهور. مَن يدنو منه أو يلمسه، ما لم يكن شيطاناً، كان يتركه وكلّه رغبة في أن يصبح قدّيساً.

حَيثمّا تُوجَد هذه اللّهفة تكون أساس الحياة الأزلية، لأن الذي يريد أن يكون صالحاً يمكنه ذلك، والصلاح يُفضِي عادة إلى ملكوت الله.

ها قد أصبَحَت لديكِ تفاصيل تُوضِّح مختلف المراحل، مراحل الدعوة لإنسانيّة ابني المقدّسة منذ فجر حياته وحتّى غَسَقها. يمكنكِ جمعها لتُشكّل لوحة كاملة (إذا ارتأى مُرشِدكِ ذلك). لقد كان بإمكاننا أن نعطيكِ إيّاها كلّها دفعة واحدة، ولكن العناية الإلهية رأت تَصَرُّفنا بهذا الشكل أفضل، لمصلحتكِ يا نفسي العزيزة، فكلّ البيانات التي أُعطِيَت لكِ كانت تمنحكِ الدواء للجراحات التي عليكِ تَلَقّيها. فلقد أعطيناكِ إيّاها مُسبقاً لكي لا تُؤخَذي على حين غرّة.

يُقال إنّ لا شيء يحمينا أثناء البَرَد، ولكنّ الأمر ليس كذلك. فالعاصفة تُبرِز الإنسانيّة النائمة تحت المياه الروحيّة، ولكنّها تُعيد أيضاً إلى السطح بذور العقيدة فائقة الطبيعة الواقعة في قلوبكم، والتي

تنتظر تماماً ساعة العاصفة هذه لتَبرُز مِن جديد وتقول لكم: "نحن أيضاً هنا. فكِّروا بنا". وأكثر من ذلك يا روحي العزيزة، (بشأن ترتيب تَتابُع الرؤى) فقد كانت هناك حكمة عَطوفة، وفي الوقت ذاته احتراس مِن العناية الإلهيّة. إذ كيف كنتِ ستستطيعين وأنتِ مُنهَكَة، مثل الساعة، أن تحَصَلي على بعض الرؤى وتَسمَعي بعض البيانات؟ كنتِ ستُجرَحين منها لدرجة تجعلكِ غير قادرة على إنجاز رسالتكِ "لسان حال". فلقد مَنَحناكِ هذه الاتّصالات في البداية لنتحاشى سحق قلبكِ، وقد عملنا ذلك بطيبة. وقد تحاشينا إعطاءكِ الرؤى والمحادثات التي لا تنسجم مع آلامكِ، والتي كان مِن الممكن أن تزيدها حدّة. لسنا قُساة يا ماريا. إنّنا نتصرّف دائماً بأسلوب يؤدّي إلى تعزيتكِ وليس إلى إرعابكِ وزيادة آلامكِ. يكفي أن تَثِقي بنا. يكفي أن تقولي مع يوسف: "لو بقي لي يسوع يبقى لي كلّ شيء". إنّنا نأتي حتّى مع النِّعم السماويّة لنثبّت روحكِ. أنا لا أعدكِ بِنِعم وتعزية بشريّة. بل أعدكِ بالعزاء نفسه الذي ناله يوسف. عزاء فائق الطبيعة. لأنّ الجميع يعرفون ذلك.

هدايا المجوس تتبخَّر بسرعة البرق بوجود المُرابِين الذين يَخنقون اللّاجئ المسكين أثناء البحث عن سقف وعن الحدّ الأدنى مِن المفروشات اللازمة للحياة، وعن الغذاء الذي لا بدّ منه. ولم يكن لنا سوى هذا المَورِد في انتظار إيجاد عمل.

الطائفة العبريّة جاهزة دائماً لمساعدة الذين يخصّونها، ولكنّ الطائفة التي التقيناها في مصر كانت في مجملها تتألّف مِن لاجِئين مُضطَهَدين، إذاً فَهُم فقراء مثلنا، نحن الذين أتينا لننضمّ إليهم. لقد أردنا الاحتفاظ بجزء مِن هذا المَورِد ليسوع، ليسوعنا البالِغ، وقد استطعنا توفيرها مِن مصاريف السَّكَن في مصر، وَفَّرناها لحين العودة إلى الوطن، وقد كانت بالكاد تكفي لإصلاح البيت والمَشغَل في الناصرة لدى عودتنا. إنّ الأزمنة تختلف، ولكنّ جَشَع البشر هو ذاته على الدوام، يَغتَنِم شِدَّة الآخرين ليستغلّهم بشكل مُخجِل.

لا. إنّ وجود يسوع معنا لم يُوفّر لنا خيرات ماديّة. كثيرون منكم يُطالِبون بهذه الخيرات عندما يكونون بالكاد متّحدين قليلاً بيسوع. إنّهم ينسون أنّه قال: "ابحَثوا عن الخيرات الروحيّة". وكلّ ما عداها يأتيكم في أوانه. إنّ الله يَحسب حساب الغذاء للناس كما للطيور، ذلك أنّه يَعلَم

أنّكم في حاجة إلى الغذاء، لأنّ نفوسكم في حاجة إلى دعم الجسد الذي يحيط بها. ولكن اطلُبوا منه أوّلاً نِعمته. اطلبوا أوّلاً احتياجات الروح. وكلّ ما سِواها يُعطَى لكم زيادة. لقد حَصَلَ يوسف بشريّاً مِن اتّحاده بيسوع على مضايقات ومَتاعِب واضطهاد وجوع، ولا شيء سِوى ذلك. ولكن، بما أنّه كان مُتَعلِّقاً بيسوع وحده فقد كان كلّ ذلك يتحوّل إلى سلام روحيّ، إلى فرح فائق الطبيعة. أردتُ أن أُوصِلكم إلى النقطة التي وَصَلَ إليها عروسي عندما قال: "حتّى ولو اضطررنا لأن لا يبقى لدينا شيء، فإنّنا سوف نبقى نمتلك كلّ شيء لأنّنا نمتلك يسوع".

أعرِف أنّ القلب يتحطّم والروح يتكدّر والحياة تضمحلّ. ولكن يا ماريا!... هل انتماؤكِ هو ليسوع؟ هل تريدين أن تكوني له؟ لدرجة أن تموتي كما مات يسوع؟ يا صغيرتي، العزيزة على قلبي كثيراً، ابكي ولكن ظلّي شُجاعة وثابِري. الشهادة ليست في شكل العذاب، إنّما في الجَلَد الذي به يتحمّل الشهيد هذا العذاب. يمكن للشهادة أن تكون بالسلاح، إنّما بالإمكان كذلك أن تكون بألم وجدانيّ إذا كان الهدف الذي نصبو إليه واحداً. إنّكِ تتحمّلين لأنّ ابني يهبكِ نعمة التَّحمُّل. وكلّ ما تفعلينه فلإخوتكِ تفعلينه مِن أجل حُبّ المسيح الذي يريد مجدهم. هنا تَكمُن شهادتكِ. ظَلّي وفيّة لها. وافِقي على ألّا تريدي فعل كلّ شيء مِن ذاتكِ. فيكفي –إذ إنّ الضغط قويّ جدّاً لتستطيعي أيضاً إيجاد القوّة لتقودي نفسكِ وتسيطري على طبيعتكِ بإيقاف الدموع– يكفي أن تقولي ليسوع: "ساعِدني". فما لا تستطيعين فِعله، يفعله هو فيكِ. استمرّي فيه. دائماً فيه. لا تُفكّري في الخروج منه حتّى ولو كان الألم، ومهما كان عظيماً، يمنعكِ مِن أن تَري نفسكِ أين أنتِ. فستكونين دوماً في يسوع.

أباركِكِ. قولي معي: "المجد للآب والابن والروح القدس". وليكن هذا نداءكِ على الدوام حتّى اللحظة التي تقولين ذلك في السماء. لتكن نعمة الربّ معكِ دائماً.»

––– نهاية الجزء الأول –––

––––––––––––––– (عودة إلى الفهرس) –––––––––––––––

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com